اعتمدت وزارة التربية الوطنية المغربية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

الأدب العربي والنصوص

الجزء الخامس

للسنة الخامسة الثانوية

أدبي وعلمي

تأليف

محمد الفاسي — مدير الجامعة المغربية

عمر الدسوقي — أستاذ بجامعة القاهرة

محمد صادق عفيفي — عضو البعثة التعليمية بالمغرب

مكتبة الرشاد

اعتمدت وزارة التربية الوطنية المغربية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

الأدب العربي والنصوص

الجزء الخامس

للسنة الخامسة الثانوية

أدبي وعلمي

تأليف

محمد الفاسي
مدير الجامعة المغربية

عمر الدسوقي
أستاذ بجامعة القاهرة

محمد الصادق عفيفي
عضو البعثة التعليمية بالمغرب

الناشر
مكتبة الرشاد
الدار البيضاء

بَيروت 1971

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

يعالج هذا الكتاب (الأدب العربي وتاريخه) في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر العصر العباسي ، ولما كان هذا المنهج هو ومنهج البكالوريا الرسمي يشكل صعوبة قصوى في مضمار التأليف ، فقد حاولنا أن نحافظ على الوحدة التأليفية بين الجزءين لارتباطهما الوثيق ، ولأن أحدهما مكمل للآخر .

وقد كان عمادنا في معالجة أبوابهما وفصولهما التقيد بالمنهج الرسمي لوزارة التربية الوطنية المغربية الذي صيغ ليؤدي رسالة جديدة في برامج التعليم العربي بالمغرب حسب التصميم الخماسي . كما حاولنا أن نسدّ بعض ما في هذا المنهج من ثغر بذكر بعض الأدباء والنصوص الذين لم يعرض لهم المنهج ، ولو ذكراً سريعاً ، وقصدنا من ذلك أن يحمل الكتاب فائدتين : فهم أدباء المنهج ، والربط ما بين العصور الأدبية ربطا منطقيا متدرجا .

كذلك عمدنا إلى الفن الأدبي والنقد وقضايا الأدب نعرف بها بحسب ما كان مفهوماً في الأدب العربي قديماً ، و بحسب ما أصبح مفهوماً لدنيا اليوم . ونلمّ بتطورها ، وأقسامها ، والجديد الطارىء عليها بعد تأثرنا بالأدب الغربي ، ولما كان النص واسطة العقد في منهج هاتين السنتين يدرس و يحلل وتستخرج منه خصائص الكاتب أو الفن الأدبي الذي يمثله ، فقد عمدنا إلى شرح النصوص

شرحا مركزا يبين المعنى ويوضح مدى ارتباطه بالفنى الأدبى ، كما يوضح الأحكام العامة التى لا غنى عنها فى تذوق الأدب كلما وجدنا لذلك ضرورة — كما تركنا تحليل بعض النصوص لعمل القسم ، إذ به يتم التجاوب بين الأستاذ وطلابه وبه تنفتح شخصية الطالب على الجمال الكامن فى الأثر الأدبى .

وإتماما للفائدة أردفنا كل فصل بطائفة من الموضوعات الأدبية التى من شأنها أن تعين الطالب على التحصيل ، وتثير ذهنه إلى نوع الامتحانات التى يمكن أن تطرح عليه فى آخر العام . كما أوردنا بعض المراجع فى آخر كل فصل أيضاً أخذاً بيد الطلاب الذين يريدون توسيع آفاق مداركهم . وتعويدهم طريقة البحث العلمى السديد .

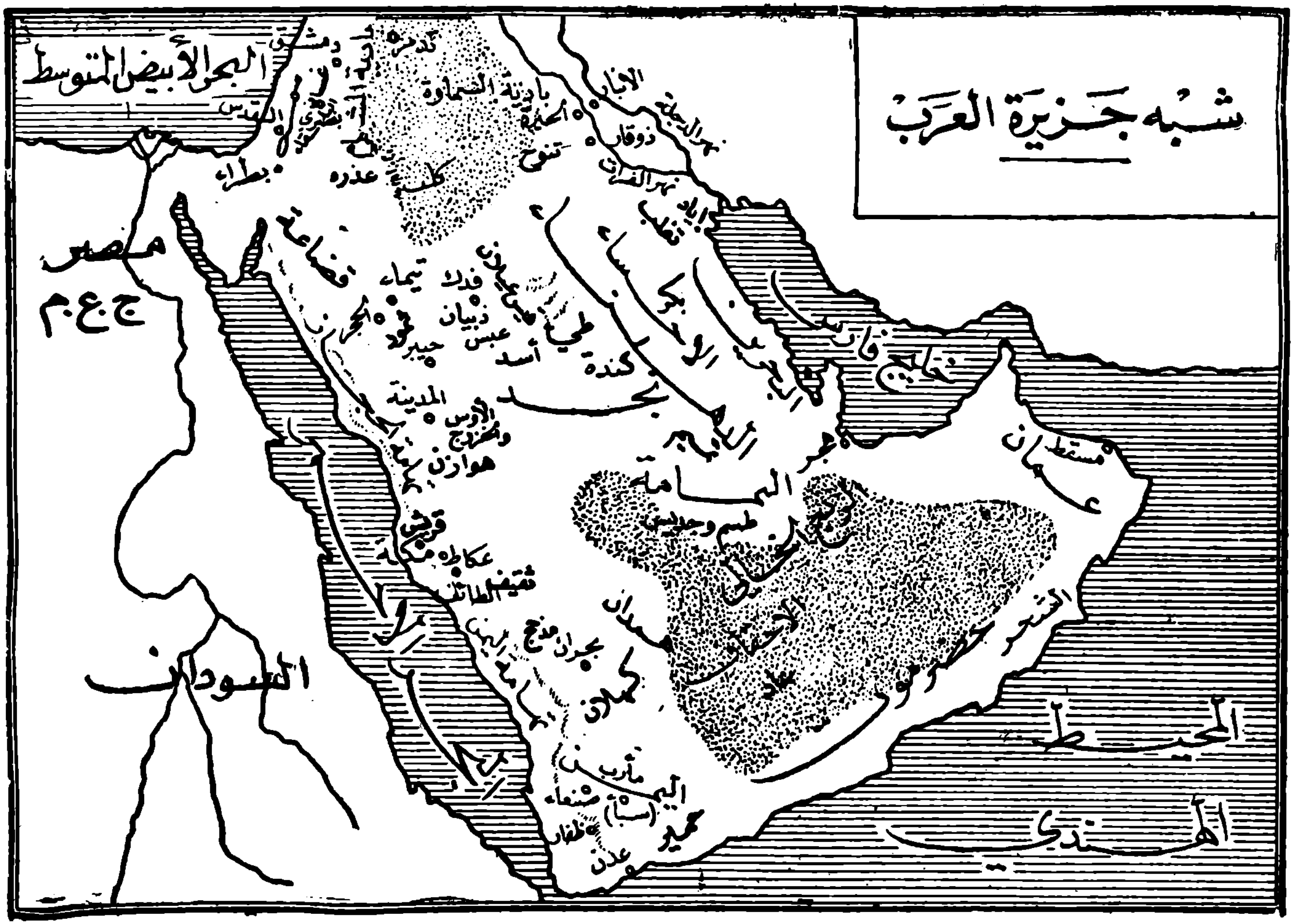
وإنا لندفع بهذا الجزء الذى أريد للطلاب أولا ، ولجمهور القراء ثانيا مرحبين بكل اقتراح وتوجيه من شأنه أن يعين على تحسين هذه السلسلة التى قمنا بإخراجها وهى أول سلسلة مدرسية من نوعها توضع للأدب العربى بعد الاستقلال فى المغرب والله الموفق للصواب .

القاهرة
أغسطس ١٩٦٢

المؤلفون

العصر الجاهلي

تمهيد


شبه جزيرة العرب
البحر الأبيض المتوسط
مصر
ج.ع.م
السودان
قضاعة
تيماء
فدك
ذبيان
عبس
أسد
طي
كندة
بكر
تغلب
نجد
المدينة
الأوس والخزرج
هوازن
قريش
مكة
عكاظ
ثقيف
الطائف
نجران
مذحج
همدان
اليمامة
طسم وجديس
مأرب
صنعاء
ظفار
عدن
حمير
مسقط
عمان
الشحر
حضرموت
المحيط الهندي
خليج فارس
الأنبار
الحيرة
ذوقار
نهر الفرات
نهر الدجلة
بادية السماوة
دمشق
القدس
بصرى
عذره
كلب
تبوك
تدمر

الفصل الأول

الجزيرة العربية مهد الأدب العربي

موقعها وسطحها :

أطلق العرب على بلادهم اسم (الجزيرة العربية)[1] ، وهى فى الواقع شبه جزيرة ، تقع فى الجنوب الغربى من آسيا تحدها شمالا بلاد الشام ، ومن الشرق نهر الفرات والخليج العربى ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر .

ويقع معظمها على خط الصحراء الدائم ، ويقسمها جبل السراة الذى يمتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام بحذاء الشاطىء الغربى إلى قسمين : غربى وشرقى ويعد هذه الجبل بمثابة العمود الفقرى للجزيرة كلها . وينحدر انحداراً فجائياً إلى الغرب فيسمى الغور لانخفاضه أوتهامة لحره ، بينما ينحدر انحداراً تدريجياً إلى الشرق ، ويمتد إلى أطراف العراق وبادية السماوة . ويسمى نجداً ، وفيه بعض الجبال المرتفعة مثل (أجا وسلمى) ، وما يفصل بين الغور ونجد يسمونه الحجاز لحجزه بينهما . أما ما ينتهى به نجد فى الشرق حتى يصل إلى الخليج العربى من

---

(١) سميت به (جزيرة العرب) تجوزا لأن البحار تحيط بها من ثلاث جهات ، بينما تحدها الصحراء من جهتها الرابعة ، فكأنما هى مفصولة عن القارة من جهاتها الأربع .

بلاد اليمامة والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد ، والبلاد التى تقع وراء الحجاز إلى الجنوب تسمى اليمن .

ومعظم الجزيرة صحارى ودرات ، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ، ومنها بادية الشام و برارى العراق . أما الأرض الصحراوية فقد تميز منها ثلاثة أنواع : النفود وتغطى جزءاً كبيراً من شمالى الجزيرة ، وهى قفار متسعة ذات رمال بيضاء أو حمراء تسفيها الرياح فتحيلها كثباناً أو تلالا ، وقد اخترق النفود بعض الرحالة مثل شارل هوبر الفرنسى سنة ١٨٧٨ ، وولفر بلنت الانجليزى سنة ١٨٧٩ .

والنوع الثانى الدهناء ، وهى أرض رملية حمراء تمتد من النفود شمالا إلى الربع الخالى جنوباً بشكل قوس ، وقد تهطل الأمطار فى الشتاء على بعض نواحى الدهناء فتخضر الأرض و تستحيل إلى مراعى ، و يعرف الجانب الغربى من صحراء الدهناء باسم الأحقاف وأول من اخترق هـذه الصحراء برترام توماس سنة ١٩٣١ ؛ والنوع الثالث من هذه الأرض الصحراوية يعرف بالحِرار جمع حَرَّة وهى أرض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حُمم بركانية ، وفى الجزيرة ما يقرب من ثلاثين حَرَّة .

وجزيرة العرب أكبر من شبه جزيرة الهند . ومساحتها تعادل ربع أوروبا أو ثلث الولايات المتحدة ، وتعد من أشد البلاد جفافا وحراً ، وتساعد الرياح التى تهب من المحيط الهندى على وقوع بعض المطر فى أطراف الجزيرة ، ولكن يهب عليها كذلك الرياح الموسمية المعروفة بالسَّموم وهى تسلب الرطوبة من الهواء قبل أن يبلغ داخلية البلاد . وتهب عليها كذلك ريح شرقية منعشة تسمى ريح الصَّبا . وقد تغنى بها الشعراء كثيراً .

أثر طبيعة الجزيرة فى اللغة والأدب :

فى هذه الصحراء الشاسعة عاش العرب آماداً طويلة قبل أن يظهروا على سطح التاريخ ، وكان أغلبهم بدواً ، يعيش الواحد منهم هو وأهله فى خباء من النسيج أو الشعر تهزه الريح كلما هبت ، وتقتحمه العين إذا بدا ، وتطويه اليد عند الرحلة ، ويضعه فوق راحلته فى سفره ، ويجلس فوقه ، وفيه كل ذكرياته الحبيبة من طعام وشراب وسمر ، وهو يهتز فوق قَلُوصه ، وما للأفق أمامه من نهاية ، وضوء الشمس يغمر الوجود من حوله فيغمر نفسه حتى لا يدع فيها زاوية ولم تسطع فيها الشمس .

ماذا عسى البدوى أن يشاهد فى الصحراء ؟ : ضوء غامر قوى ، وحرارة شديدة محرقة ، وسماء صافية ، ونجوم متلئلئة ، وريح مندفعة ، وجبال شامخة ، وسيل متدفق ، وماء عذب وظل كريم ، وسمت مستقيم ، وأفق واضح كل شىء أمام ناظريه واضح جلى ، وليس بينه وبين الطبيعة حجاب ، فهو يراها قوية باهرة : حرارة وضوء ورمال وسماء . يقتله الظمأ وهو فى سفره ، فيسعى حثيثاً إلى نبع صاف فى منعطف الوادى كى يروى غُلتَّه وينقع ظمأه ، فإذا هو بعد أن يرتوى أسعد الناس طراً . ويشوى جلده وهج الظهيرة ، فإذا لاح له ظل نخلة دلف إليها واستراح تحته ، فإذا هو أهدأ الناس قلباً وأرخاهم بالاً وأشدهم مسرة وأعرفهم بقيم الحياة .

ألفت نفس هذا البدوى الفضاء الفسيح ، وامتلأ قلبه بهذا الإحساس القوى الطبيعى بأنه حر طليق ، لا تقيده أرض ، ولا تعرقل تفكيره تلك القيود والعوائق التى تحد من حريته الشخصية . ونلحظ فى البدوى لأول وهلة : الصرامة والوضوح فى العقيدة ، لا يقبل الوسط من الأمور ، فالشىء إن لم يكن أبيض فهو أسود ، وقد أورثتهم مواجهة الطبيعة فى كل آونة ، حضور البديهة ، والذكاء

الفماح ، والسرعة فى العمل ، والوصول إلى الهدف من غير تردد . كما أورثتهم الإحساس الدقيق والشعور المرهف ، والعاطفة الجياشة ، وجعلت لهم أمثلة عليا اقتضتها حياة البادية ، وصاروا يتغنون بها و يسعون حثيثاً لتحقيقها من مثل الكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، و إغاثة الملهوف . والوفاء بالوعد والذكر الحسن .

أورثت الصحراء العرب يقظة عقلية دائمة ، ولذلك صار الواحد منهم ينظر إلى الوجود ومشكلاته نظرة واعية بعيدة عن الأوهام والخرافات . فلم يكن لهم أساطير وخرافات دينية معقدة كما كان عند اليونان . بل وصلوا فى قرارة نفوسهم إلى معرفة خالق الوجود فآمنوا به ، و إن حاولوا أن يصلوا إليه أحيانا عن طريق الأوثان والأصنام فذلك لأن العربى لم يبلغ من النضج العقلى درجة الكمال ، ولم يكن حظه من المعرفة والعلم إلا حظاً قليلا ، نتيجة تجربة شخصية ، وحياة ساذجة فطرية ، و إذا سئل عن هذه الأصنام فى أى لحظة من لحظات حياته . أهى آلهة ؟ أنكر فى جزم وجودها واعترف بالله ، وأقر بأنها توصله إلى الله ، وقال . « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »

أجل ! كان العرب يعتقدون فى الجن ، وأن ثمة أودية تَغَصُّ بها ، وأن الجن يوحون إلى شعرائهم رائع الخيال وجميل الشعر وكانوا يتشاءمون و يتفاءلون و يزجرون الطير وغير ذلك من الخرافات التى لم يكن لها أثر كبير فى حياتهم .

كان لهذه الصحراء أثر كبير فى نقاء اللغة العربية وفى فصاحة ألسنة المتكلمين بها ، لأنها عزت على الغزاة ، فلم تشب ألسنتهم لكنات أجنبية . أو تكثر فيها الكلمات الدخيلة ، و بخاصة الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية . لأن اليمن قد تعرضت للغزو من الأحباش تارة ، ومن الفرس تارة أخرى ، وجاء الإسلام وهى محتلة بالفرس وهم الذين يعرفون بالأبناء .

وإذا كان عرب الشمال والوسط قد عزوا على الغزاة ، وارتدت على شطئان رمالهم هجمات الطامعين ، فسلمت لغتهم من شوائب الاختلاط . فليس معنى هذا أن العرب فى جاهليتهم لم يعرفوا شيئاً من المدنية وأساليب الحضارة وإلا فكيف تفسر هذه الكلمات الكثيرة التى تغص بها اللغة العربية الجاهلية .

اتصل العرب بكثير من الأمم ذات الحضارة عن طريق التجارة : لأن موارد الصحراء محدودة واعتمدوا فى كثير من أمور معيشتهم على ما يجلبونه من الخارج ، ثم اتسعت تجارتهم وصاروا الواسطة فى نقل سلع الهند والحبشة ومصر والشام بعضها إلى بعض ، وقد أفادوا من رحلاتهم هذه تجارب ولغة وآدابا وقصصاً . كما اتصلوا بالفرس عن طريق الحيرة واليمن . واتصلوا بالروم عن طريق التجارة ودولة الغساسنة ، وقد أفادت لغتهم الكثير عن طريق هذا الاتصال كما يشهد بذلك معجمها الجاهلى .

وقد كان لترامى أجزاء الصحراء الفضل فى كثرة الأسواق التى أقامها العرب على مدار السنة فى أماكن مختلفة ساعدت على اختلاطهم بعضهم ببعض ووجود لغة مشتركة فيما بينهم ، بها يتعاملون ويخطبون ويقولون الشعر .

هذا ولما كان أثمن شىء لدى العربى فى الصحراء هو الماء ، وإذا شامه فى أى مكان سعى إليه من أقرب طريق فقد أورثتهم هذه العادة القصد إلى الهدف دون التواء أو غموض فى أوجز لفظ ومن أقصر طريق فنحن ما زلنا نقول : الغيث ، ونعنى المطر ، ولولا طبيعة الجزيرة وتوقف الحياة فيها على الماء والمطر لما سمى المطر غيثا . كما أن الصحراء ألقت على أدبهم ظلاً من الواقعية ، يصورونها كما هى دون اختلاق أو تزيد . وقد سبقت الإشارة إلى ما دعت إليه الصحراء من أمثلة خلقية عالية كالكرم والشجاعة والوفاء بالوعد ، والنجدة وغيرها ، وقد تغنى الشعراء فى جاهليتهم بكل هذه الخلال الكريمة التى أكسبتهم بقاء الذكر الجميل .

وكان للصحراء كذلك أثر كبير فى الشعر العربى ، فهى التى أوحت للشاعر بأسلوب القصيدة وعناصرها : يمر على ديار الأحبة — وقد ظعنوا — فتهيج آثار الديار والدمن الباقية مشاعره ، ويتذكر فى حسرة أويقات أنسه ، ويتذكر الحبيبة ، وما كان يتمتع به فى هذه الدور من لهو برىء ، فيقف بهذه الديار يذرف دمعة على ذلك الماضى الجميل . ثم سرعان ما تثوب نفسه إلى رشدها ، فينقطع حبل الذكريات ، وينصرف إلى رحلته لا يلوى على شىء .

وهو فى هذه الرحلة يعتمد على ناقته فهى التى تجوب به الآفاق ، وهى رفيقة الحى ، فلا عجب أن أكثر من وصفها وشبهها بما يقابله من حيوان الصحراء وبخاصة الثور الوحشى القوى الذى يعز اصطياده ويثبت للمحن ، ويخرج منها ظافراً كما تخرج ناقته من رحلتها ظافرة . ويكون الشاعر قد وصل إلى نهاية رحلته ، كما وصل إلى الغاية من القصيدة مدحاً أو فخراً أو اعتذاراً إلى غير ذلك من أغراض الشعر الجاهلى .

هذا وقد أمدت الصحراء الشعراء فى الجاهلية بفيض من الأمثال والتشبيهات والكنايات والاستعارات ولا عجب فهى البيئة التى منها يستوحون خيالهم . ولم يدع شعراء الجاهلية شيئاً لم يصفوه فى الصحراء جَلَّ أو حقر لفرط حساسيتهم .

وقد كان للحياة التى فرضتها عليهم الصحراء ، حياة القبيلة أثر كبير فى الشعر ، لأن القبيلة صارت بمثابة الوطن للفرد لها ولاؤه وعليها حمايته ، ولما كانت موارد الصحراء قليلة اشتد التنافس بينهم على الكلأ والمرعى ، وكثر القتال ونشبت الحروب . وكان الشاعر فى الجاهلية شاعر قبيلة يدافع عنها ويهجو أعداءها ، ويصف انتصاراتها ، ويرثى موتاها ويخلد أبطالها ، ويتشفع لأسراها .

العرب وأقسامهم :

درج المؤرخون على أن يقسموا العرب إلى ثلاث طبقات :

بائدة : وهم الذين بادوا ودرست آثارهم ، وصاروا خبراً مشوهاً فى الغابرين ، فلم نعرف عنهم إلاّ أخباراً هى إلى الأساطير أقرب منها إلى التاريخ لولا ما ذكره القرآن الكريم عن بعضهم من أجل العظة والاعتبار مثل عاد وثمود « فأمّا ثمود فأُهلكوا بالطّاغية ، وأما عاد فأُهلِكوا بريح صَرصَرٍ عاتية» . ومن هذه القبائل البائدة فيما يقال : طَسْمٌ وجديس ، ويزعمون أنهم تفانوا فى حادثة نسائية خرافية .

وعاربة : وهم عرب اليمن وينتسبون إلى يَعْرب بن قحطان المذكور فى التوراة باسم رياح بن يقطان ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت فى قوله :

تعلّمُ من منطق الشيخ يَعْرُبِ أبينا فصرتُمْ مُعْربين ذوى نَفْر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم فى القفر

ولكن الحقيقة التاريخية تنفى هذا الزعم ، فاللغة العربية التى ورثناها عن الأدب الجاهلى والقرآن الكريم ليست لغة يعرب كما سنذكر ذلك فيما بعد .

وينقسم القحطانيون إلى بطنين كبيرين : حمير وكهلان ، ومن حمير : زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك ، ومن بطون كهلان : همَدان ، وطيء ، ومَذْحج وكندة ولخم ، ومن لخم بنو المنذر فى الحيرة والأزْد . ومن الأزد الأوس والخزرج بالمدينة والغساسنة بالشام . وقد تأسست باليمن قديماً دويلات كان لها شأن فى التاريخ آخرها دولة حمير التى أسست سنة ١١٥ ق م .

ثم مستعربة : وهم سكان شمال الجزيرة العربية ووسطها ، وينسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وكان قد نزل بالحجاز حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد هو وأمه هاجر المصرية ، ثم أصهر إلى جرهم من قبائل اليمن ،

ومن نسله نشأ جيل يتكلم لغة خايطاً من المصرية لغة هاجر واليمنية لغة جرهم والعبرية لغة إسماعيل ، ولم يعرف التاريخ أحداً من نسل إسماعيل قبل عدنان ، وإليه ينتهى عمود النسب العربى الصريح . وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، وسنذكر فروعها فيما بعد إن شاء الله .

وإلى العرب العدنانية يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة ، وما نفاخر به من بيان ، وما ندرسه من أدب .

والعرب من الأمم السامية ، وهو لفظ أطلق على مجموعة من الشعوب ترجع لغاتها إلى أصل واحد ، وبين هذه اللغات من الوشائج القوية فى تركيب جملها ، وتكوين كلماتها وطرق اشتقاقها ما يجزم بأنها من أم واحدة . وقد أطلقت لفظة (العرب) فى التوراة على البدو أو سكان البادية ، ولفظة (عرب) من ناحية الاشتقاق سامية معناها البادية أو ساكن البادية ، وهذا هو المعنى الذى أدته العبرية فى سفر (أشعيا ٢١ : آية ١٣ ، أرميا ٣ : ٢٠) ، وفى القرآن الكريم استعملت كلمة (الأعراب) بمعنى البدو .

على أن هناك أقوالا أخرى ، فى تفسير لفظ عرب ومعناه ، ولكن أقربها إلى الحقيقة هو ما ذكرناه .

أثر الجاهلية الأولى فى الآداب العربية :

لا شك أن الأمة العربية قد مرت بأطوار كثيرة قبل أن تظهر على سطح التاريخ ، وتعرف هذه الحقبة السابقة بالجاهلية الأولى ؛ وما نعرفه عنها لا يرقى إلى مرتبة التاريخ اللهم إلاّ ما عرف عن الدول اليمنية الثلاث : المعينية والسبأية والحميرية من النقوش التى كشف عنها أخيراً .

وفى هذه الحقبة المجهولة نضجت الأمة العربية فى صحرائها عقلياً وعاطفياً

وخلقياً ، وتأصلت عاداتها وأخلاقها وطرق معيشتها ، وتطورت لغتها حتى صار هناك لغة مشتركة بين القبائل بها تخطب الخطب و يقال الشعر وتضرب الأمثال ، و إن بقى لـكل قبيلة لهجتها الخاصة فى التخاطب ونحن لا نتصور أن الشعر الجاهلى الذى ورثناه قد ظهر فجأة ، ولم تسبقه محاولات طبيعية حتى بلغ هذه الدرجة من النمو فى عروضه وقوافيه و إحكام لغته ، ودقة وصفه ، وترتيب عناصر قصيده ، ولقد أشار امرؤ القيس فى بعض شعره إلى شاعر لا نعرف عنه شيئاً اسمه ابن خُزام « نبكى الديار كما بكى ابن خزام »، وقال عنترة «هل غادر الشعراء من متردم» مع أنه لم يسبقه كثير من الشعراء فى الجاهلية الأخيرة . ولعل ما ظهر فى شـــعر النابغة وغيره من (إقواء) وهو اختلاف حركة الرَّوِىّ كان أثراً من آثار الجاهلية الأولى والشعر يحاول أن يصل إلى طريق الـكمال العروضى والموسيقى .

ولقد ذكرنا آنفاً أن الصحراء أوحت إلى الشاعر بنظام القصيدة ، و إذا كان ابن خزام قد بكى الديار كما قال امرؤ القيس ، فقد سنّ هذه السنة لشعراء الجاهلية ، وهؤلاء أورثوها الشعر العربى ، وظل طابع القصيدة العربية ، وابتداؤها بالنسيب و بكاء الديار مسيطراً على كل شعراء العربية القدامى — على الرغم من المحاولات التى بذلت لتغيير ذلك فى العصر العباسى — إلى أن جاء العصر الحديث واتصلنا بالثقافات الغربية فأقلع شعراؤنا عن هذا النهج .

ولقد حددت هذه الحقبة المجهولة من تاريخ الأمة العربية أغراض الشعر الجاهلى ؛ إذ كان العرب يعيشون فى صحرائهم قبائل متبدية متفرقة ، يكثر بينها التنافس على المرعى والماء ، وتقوم الحروب العديدة لأوهى الأسباب ، ومن ثم اشتدت بينهم العصبية القبلية ؛ وكان الشاعر لسان حال قبيلته يهجو أعداءها ، ويعدد مفاخرها ، ويدافع عن أحسابها ، و يرثى صرعاها ، و يحمسها حين القتال

ويصف آلاته وصفاً دقيقاً ، ويحثها على الوفاء بالوعد والدفاع عن الحريم إلى غير ذلك من الأغراض التى ظهرت فيما بعد فى الشعر الجاهلى ، وإن لم يصلنا شىء من شعر هذه الجاهلية الأولى ، ولكن طبيعة الحياة والصحراء ، والمثل التى فرضتها تجعلنا نتصور الطريق الذى سار فيه الشعر العربى حتى ظهر إلى ضوء التاريخ . ولقد ظلت معظم هذه الأغراض تتحكم فى الشعر العربى فى عصوره المختلفة بعد أن ثبت أركانها وأضفى عليها هالة من الروعة الشعرُ الجاهلى إلى أن جاء الشعر الحديث فغير فيها بعض التغيير .

من وحى الجاهلية الأولى :

لقد لحق بالأدب العربى الذى ندرسه اليوم الكثير من الأمثال والقصص من وحى الجاهلية الأولى ، فنحن ما زلنا نقول : أقدم من عاد وتفرق القوم أيدى سبا . كما أننا نضرب المثل بإرم ذات العماد ، وهذا الأعشى الأكبر ينشد قصيدة عن انهيار سدّ مأرب فيقول :

وفى ذاكِ للمُؤتسى أسوةٌ ومأربُ عفّى عليها العَرِم
رُخامٌ بنتــــه لهم حمير إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الذروع وأعنابها على سعة ، ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرو ن منه على شرب طفل فطم

هذا ما عسى أن يقال فى أثر الجاهلية الأولى فى الأدب العربى عن طريق الظن والاستنتاج لا عن طريق اليقين .

الفصل الثانى

العرب وعصر الجاهلية الأخير

تسمى الحقبة التى عرفناها من تاريخ العرب قبل الإسلام بالعصر الجاهلى ، وهى مدة لا تزيد على أكثر تقدير عن مائتى سنة قبل البعثة المحمدية ، وليس معنى الجاهلية الجهل والهمجية ، ولكن الجاهلية فى المعنى الصحيح هى ذلك العصر الذى لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع ، ولا نبى ملهم ، ولا كتاب منزل .

وكان عرب الجزيرة فى الجاهلية صنفين : أهل الشمال وهم فى غالب أمرهم أهل بداوة إلاّ من عاش منهم فى القرى القليلة المتفرقة فى الحجاز مثل مكة والمدينة ؛ ثم أهل الجنوب وقد كانت لهم فيما سلف حضارة ودول ذات نظام وهى المعينية والسبئية والحيرية ، وقد ألقت النقوش التى كشفت أخيراً ، والآثار التى تركها هؤلاء ضوءاً قوياً على مدى ماوصلوا إليه من حضارة ، وبخاصة فى بناء السدود لسد مأرب ، وفى بناء القصور والهياكل مثل قصر غُمْدان .

وقد اشتغل أهل اليمن منذ القديم بالتجارة ، وقد أكسبتهم هذه المهنة رقياً وحضارة ، وكان يرد إلى بلادهم اللؤلؤ من الخليج العربى والأنسجة والسيوف من الهند والحرير من الصين والرقيق والقرود وريش النعام والذهب من الحبشة ، واشتهرت بلادهم بالطيوب والبخور واللبان ، وكان كل هذا يجد طريقه إلى ربوع أوربا عن طريق البحر الأحمر فبلاد الشام ومصر ، أو براً عن طريق مكة والبتراء ، ومنهما تتشعب إلى مصر والشام وما بين النهرين ، وظلت التجارة فى أيديهم مايقرب من اثنى عشر قرناً إلى أن ورثهم تجار مكة من قريش ، حيث كانت لهم رحلتان إحداهما إلى اليمن شتاء ، والأخرى إلى الشام صيفا .

أورثت التجارة أهل اليمن غنًى وحضارة ، وقد دلت الآثار التى بقيت من دويلاتهم على أنهم بلغوا درجة عالية فى الفن الهندسى وبخاصة إنشاء السدود التى تحجز المياه المتدفقة وقت اشتداد المطر للانتفاع بها أيام الجفاف واشتهر من هذه السدود سد مأرب ، وكانت مأرب عاصمة الدولة السبئية .

وقد أدى انهياره فى القرن الخامس الميلادى إلى تفرق القبائل اليمنية فى شمال الجزيرة كما ذكرنا آنفاً .

كما اشتهر أهل اليمن ببناء القصور ومن أشهرها قصر غُمدان ، وكان أشبه بقلعة عظيمة من عشرين طبقة بين كل طبقة وما يليها عشرة أذرع ، وقد بنى بالجرانيت والرخام ، وأطبق سقفه برخامة واحدة شفافة ، وكان يصعب على المرء أن يرى الفواصل بين حجارة مبانيهم ، وكانت هذه المبانى تحلى بزخارف ونقوش غائرة فى الحجر تمثل الحيوان وأوراق الأشجار ، وتنبىء عن دقة وفن وذوق .

واشتهرت اليمن قديماً كذلك بالزراعة ، ولم يكونوا يزرعون السهول فحسب ، ولكن كانوا يزرعون كذلك سفوح الجبال ، واشتهر من صناعات اليمن الحِبَر اليمنية المفوّفة والعصب والبرود وشتى أنواع النسيج الرقيق ، كما برعوا فى صناعة السيوف والحلى ودبغ الجلود .

أما أهل الشمال الذين أقاموا فى نجد والحجاز وفى أرجاء الجزيرة الصحراوية فكانوا فى معظمهم أهل بداوة يعيشون على المرعى ، ويكثرون من الرحلة سعياً وراء الماء والكلأ ، وقد اشتد بينهم التنافس على موارد الصحراء القليلة من الماء والعشب ، فكثرت بينهم الحروب ، واشتدت العصبية للقبيلة التى كانت تعتبر بمثابة الوطن للفرد ، وهذا أمر اقتضته طبيعة البيئة التى عاش فيها هؤلاء

البدو لأن كل فرد من أفراد القبيلة عرضة للمحن فى كل آونة ، فهو إما ساع فى سبيل العيش وموارد الحياة قليلة يتنازعها الناس بل يتخطفونها ــ وذلك مافيه من الاحتكاك بغيره والتحرش بسواه ، وإما مدافع عن نفسه ، وفى كلا الأمرين نراه فى أمسّ الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه حين يحزّ به الضُّر ويتراءى له شبح الخطر ؛ ولذلك كان كل فرد يعتز بقبيلته ، فهى وطنه وأهله وحماه ، وهى التى تمكنه من الاحتفاظ بالحياة .

ولقد ذكرنا آنفاً أثر هذه البيئة فى أخلاقهم وتشكيل مثلهم العليا من كرم وشجاعة ونجدة ووفاء بالوعد ، وتفان فى خدمة القبيلة ، وأن ذلك كله قد انعكس فى آدابهم وبخاصة فى شعرهم الذى يكاد يعتبر الوثيقة الوحيدة لتاريخ هذه الحقبة . وما تاريخها إلاّ تاريخ الأيام وهى المعارك التى دارت بين قبائلهم ، وسجل فيها الشعراء كل شىء دار فى هذه المعارك من انتصار واندحار وحلف ، وما قام به الأبطال ، وكيف نكلوا بالأعداء . . . إلى غير ذلك . ومن أشهر الحروب التى خلدها الشعر حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان .

أما العرب الذين أقاموا بالمدن مثل مكة ويثرب والطائف . فلم يكونوا يختلفون كثيراً عن البدو ، إلاّ فى إيثارهم الإقامة الدائمة ، واشتهرت قريش بمكة بالاشتغال بالتجارة كما سنذكر فيما بعد .

لم يكن لعرب الشمال حكومة منظمة تجمع شملهم وتخضعهم لقوانين معروفة وإنما كانوا يعيشون فى ظل النظام القبلى ، وسنأتى على خصائص هذا النظام بعد قليل .

ومع ذلك فقد ظهرت دويلات عربية فى الشمال أشهرها اثنتان : دولة المناذرة ، ودولة الغساسنة .

المنـاذرة :

يرجع تأسيس الحيرة إلى سنة ٢٢٨ م ، حين رأى ملوك الدولة الساسانية ، بعد أن وجدوا تحت إمرتهم دويلات الفرس أن الصحراء تقلق راحتهم ، وأن البدو يغيرون على أطراف مملكتهم ، ولا يحمى هذا الجانب من أرضهم ، ويتصدى لهؤلاء البدو المغيرين ــ الذين كثيراً مايلوذون بالصحراء يعتصمون بها إلا عرب مثلهم .

ويصحب تأسيس الحيرة شيء من الغموض ، وقد حيكت الأساطير حول جذيمة الأبرش وعمرو بن عدى ابن أخته وله قصة مع الزباء ملكة تدمر مشهورة فى كتب الأدب ، ولكنها لا تصل إلى مرتبة التاريخ المحقق .

ويعد عمرو بن عدى هذا أول الملوك اللخميين ، وكان تابعاً لملوك فارس .

وقد عثر أخيراً على قبر امرىء القيس بن عمرو بن عدى ملك الحيرة وعليه نقش بالخط النبطى ، وفيه كثير من الكلمات العربية المختلطة بالآرامية ويرجع تاريخه إلى ٣٢٨ م ويعرف هذا النقش بنقش (نمارة) وقد جاء فيه ماترجمته :

« هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج ، وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحجاً إلى اليوم ، وقاد الظفر إلى أسوار نجران ومدينة شمر ، وأخضع معدا ، واستعمل بنيه على القبائل ، وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم .

وكان من ذرية امرىء القيس هـذا النعمان الأول الملقب بالأعور نحو (٤٠٠ ــ ٤١٨ م) وقد ذكرته أشعار العرب بكثير من المديح وقيل إنه هو الذى بنى قصر الخورنق المشهور شيده له مهندس اسمه سنمار .

وقد ازدهرت الحيرة فى أيام المنذر الأول (٤١٨ ــ ٤٦٢ م) ، وهو

ابن النعمان ، وجلس على عرش الحيرة فى النصف الأول من القرن السادس المنذر الثالث وهو المعروف بابن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٥٤) وماء السماء أمه ، وقد شن عليه الحارث بن عمرو الكندى الحرب واضطره إلى الجلاء عن عاصمته مدة عامين، ثم شن الغارة على الروم فى سورية فقهرهم واستمر فى غزوه حتى وصل أنطاكية فتعرض له الغساسنة . والمنذر هذا هو الذى أمر ابن الحارث بن جبلة الغسانى وقدمه ذبيحة للعُزى ، ولكنه قتل يوم حايمة المشهور سنة ٥٥٤ م ، وهو صاحب الغَرِيبين المشهورين . وهما قبران بناهما لظاهر الحيرة لصديقيه اللذين قتلهما فى ساعة سكره . وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس إلى الغريبين أحدهما لنعيمه والآخر لبؤسه فى قصة مشهورة فى كتب الأدب .

وخلفه عمرو بن هند ٥٥٤ ـ ٥٦٩ م فكان فخوراً عاتياً ، وجعل الحيرة مثابة الأدباء والشعراء فأمّه منهم طرفة بن العبد والحارث بن حلِّزة والمتلمس ، وعمرو بن كلثوم ، ولقد نسج على منواله خلفاؤه من بعده فاحتفوا بالشعر والأدب وأجزلوا العطاء لمن قصد ساحتهم من شعراء الجزيرة إذ أدركوا أن الشعراء هم قادة الرأى بين قومهم . إلا أن عمر بن هند مات مقتولا بسيف الشاعر عمرو ابن كلثوم فى قصة مشهورة بالأدب ، وكانت أمه هند بنت الحارث بن عمرو ابن حجر آكل المرار ملك كندة ، ويقال إنها تنصرت وبنت ديراً فى الحرة يعرف بدير هند .

وكان آخر ملوك المناذرة هو النعمان الثالث الملقب بأبى قابوس وهو صاحب النابغة الذبيانى (٥٨٠ م ـ ٦٠٢م) وقد اشتهر النعمان بن المنذر بمحبته للأدب وللشعراء، وكان فى مدة حكمه الطويل الذى دام اثنتين وعشرين سنة خير راع للشعر ، وفد عليه ومدحه النابغة وحسان بن ثابت ، والأعشى ولبيد بن ربيعة وهو

صغير السن . ويقال إنه خذل خسرو ملك الفرس فى موقعة (النهروان) فأسرها فى نفسه ، ودس له زيد بن عدى العبادى لدى خسرو ؛ لأن النعمان لم يحفظ يد عدى عنده وسمع فيه كلام الوشاة وسجنه ، ثم قتله فى السجن ، ومازال ابنه زيد بعد ذلك ـ وكان قد حل فى مكان أبيه لدى الأكاسرة ـ يوغر صدر خسرو عليه حتى استدعاه إلى بلاد فارس ، ثم سجنه ، وقتـله بخانقين فى فى قصة معروفة .

وكان النعمان قد أوجس خيفة من خسرو فأودع دروعه ونساءه وأولاده وأمواله عند هانىء بن مسعود الشيبانى ، فلما مات بسجن كسرى ، أراد أن يستولى ملك الفرس على ما تركه ، ولـكن هانئاً حال بينه وبين ما اؤتمن عليه ودارت بين العرب والفرس بسبب ذلك معركة (ذى قار) .

وقد انتصر فيها العرب انتصاراً باهراً على الفرس . وكان ذلك أول انتصار لهم على هذه الدولة العظيمة فى سنة ٦١١ م .

وبموت النعمان بن المنذر تقوض عرش اللخميين ، وتولى ملك الحيرة إياس بن قبيصة الطائى برهة يسيرة فلما ارتد الفرس فى موقعة ذى قار ضاع عرشه وحكم الحيرة عامل فارسى حتى وطئتها أقدام الجيوش الإسلامية فى سنة ٦٢٨ م ودخلت فى حوزة المسلمين .

كانت الحيرة مقصد أهل البادية حين تبخل عليهم السماء ، فيرجعون إلى ديارهم يحملون من خيرات المناذرة وعطاياهم ما يفرج كربتهم ويلهج ألسنتهم بالثناء ، وكانت الحيرة ـ ولا ريب ـ على قسط كبير من الحضارة إذا قيست بالبادية ، وقد غصّت بكنوز آسيا الصغرى مما غنمه المناذرة فى غزواتهم المتتابعة لبلاد الروم ، حتى صار ملوكها لا يقلون رفاهية ونعمة عن ملوك غسان . ولا شك

أن اختلاطهم بالفرس قد أفادهم كثيراً فى معرفة طرق الحكم ونظام وترتيب الجيوش ، بل كانت هناك كتيبة فارسية تحت إمرة المناذرة تدعى الشهباء ، تعاونهم فى حفظ النظام ، والضرب على يد الخارجين عليهم وفى حروبهم الطويلة مع الروم والغساسنة .

وكانت المسيحية منتشرة بين أهل الحيرة ، وهم الذين علموا عرب الحجاز الخط فى الجاهلية ، وعنهم نقل عرب البادية عشرات الألفاظ الفارسية التى تمت إلى الحضارة بصلة .

الغساسنة :

كان الغساسنة يقيمون فيما يسمى الآن (شرق الأردن) ويمتد ملكهم إلى أطراف العراق وإلى خليج العقبة ومن مدنهم الشهيرة (جِلّق) وهى دمشق أو قرية قريبة منها و (الجولان) وكانت على حدود البادية من الجنوب . وقد نزح هؤلاء من اليمن عقب انهيار سد مأرب ، وهم من الأزد ، وقد نزلوا على ماء يسمى غسان بتهامة العسير فنسبوا إليه ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

إذا سألت فإنا معشرٌ نجب الأزد نسبتنا والماء غسان
شم الأنوف لهم مجد ومكرمة كانت لهم كجبال الطود أركان

ثم نزحوا إلى بلاد الشام ، وزاحموا (الضجاعمة) من عرب اليمن الذين سبقوهم إليها ، واصطنعهم الروم ليردوا غارات البدو ، وليعاونوهم فى حروبهم مع فارس ، كما اصطنع الفرس المناذرة . وأمدوهم بأربعين ألف جندى من الروم ميناوهم فى المحافظة على حدود الدولة .

ومؤسس دولتهم هو جفنة بن عمرو ، وقد بلغت عصر ازدهارها فى خلال القرن السادس الميلادى وأول شخصية تاريخية فى هـذه الأسرة هى شخصية الحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) ، واشتهر فى تاريخ العرب بلقب الأعرج. وكان يعاصر الإمبراطور الرومانى جوستنيان ، وكسرى أنو شروان والمنـذر الثالث ملك الحيرة . ودارت بين الحارث بن جبلة والمنذر الثالث ملك الحيرة حروب عديدة لحساب دولتى الروم والفرس . وكانت الحرب بينهما سجالا ، وقد هزم الحارث فى سنة ٥٢١ ، ولـكنه قضى على خصمه فى موقعة (يوم حليمة) سنة ٥٥٤ . وكان ذلك بالقرب من قنسرين وفيه قتل المنذر الثالث وظل طريحاً فى ساح الوغى .

وذهب الحارث إلى القسطنطينية ومنح لقب (بطريق) ، وغزا تيماء حيث كان يقيم السموءل بن عاديا مطالبا بدروع امرىء القيس الشاعر وأسلحته التى تركها وديعة لدى السموءل حين ذهب إلى ملك الروم مستنجداً . وتوفى الحارث سنة ٥٧٠ م .

وخلفه ابنه المنذر ، وقد دارت بينه و بين قابوس ملك الحيرة معارك عديدة أشهرها معركة (عين أباغ) المعروفة فى كتب الأدب والتاريخ وذلك حين هب قابوس للأخذ بثأر أبيه فدارت عليه الدائرة . ثم ذهب إلى عاصمة الروم ووضع على رأسه الأكليل ، وغزا الحيرة فى غيبة ملـكها وأحرقها كما يقول عدى ابن زيد العبادى .

سما صقر فأشـــمل جانبيها وألهـــاك المروّح والعزيب[1]

---

(١) المروح : الابل الذاهبة إلى أعطانها ، والعزيب : ما ترك فى مراعيه .

ولكن الجفوة قد اشتدت بينه و بين الروم فأسروه ونفوه إلى صقلية . ومن ثم تمرد أولاده الأربعة وعاثوا فى بلاد الروم فساداً يرأسهم النعمان ابنه الأكبر ، ولكن ما لبث الروم أن قبضوا عليه وساقوه إلى القسطنطينية وقتلوه .

وقد دبت الفوضى على أثر ذلك فى هذا الجزء من المملكة الرومانية ، وانتفضت القبائل ، ولكن التاريخ يحدثنا أن الغساسنة ملك منهم بعد ذلك الحارث السادس المعروف بالأصفر ، ثم عمرو بن الحارث وهو الذى مدحه النابغة بقصيدته البائية المشهورة ، والتى يقول فيها :

علىّ لعمرو نعمة بعـــد نعمة لوالده ليست بذات عقـــارب

وقد تولى الملك من سنة ٥٨٧ إلى سنة ٥٩٧ م على وجه التقريب ، وخلفه أخوه النعمان حتى سنة ٦٠٠ م وقد مات مقتولا ، ورثاه النابغة بقصيدة مشهورة . ولما غزا خسرو بردتر ملك الفرس بلاد الشام (٦١٣ — ٦١٤ م) واستولى على دمشق و بيت المقدس كان فى ذلك القضاء على الدولة الغسانية .

بيد أن هرقل ما لبث أن استرد بلاد الشام فى سنة ٦٢٩ . ولكنا نسمع عن جبلة بن الأيهم الغسانى الذى حارب فى صفوف الروم فى موقعة اليرموك ، ثم قدم المدينة فى عهد عمر بن الخطاب مسلماً ثم تنصر وفر إلى بلاد الروم .

وفد على الغساسنة من الشعراء النابغة وحسان بن ثابت ، ولكنهم لم يكونوا فى شهرة المناذرة لبعد بلادهم عن نجد موطن الشعراء ، ولأنهم كانوا مسيحيين ومعظم أهل الجزيرة وثنيين ولكنهم كانوا ولا شك على درجة كبيرة من الثقافة ربما كانت أعلى من ثقافة المناذرة لاتصالهم بالثقافة اليونانية . وقد روى صاحب الأغانى قصة زيارة حسان بن ثابت لهم وحضور مجالس غنائهم ، وما هم عليه من ترف .

كندة :

ولما كان الغساسنة عمالاً للبيزنطيين والمناذرة عمالاً للفرس كذلك كان ملوك كندة فى أواسط الجزيرة عمالاً لتقابعة اليمن المتأخرين. ولم تعرف الجزيرة حكاماً سواهم نودى أحدهم بلقب ملك .

ومع أن كندة هى من عرب الجنوب ، وكانت تقيم قبل الإسلام فى الأرض الواقعة إلى غرب حضرموت فإنا لا نجد لها ذكراً فى النقوش العربية الجنوبية الأولى ، وأول ذكر لها فى التاريخ إنما جاء فى القرن الرابع للميلاد ، ومؤسس هذه الدولة هو حجر الكندى ويلقب بآكل المرار ، وقد عينه حسان بن تبع الحميرى حاكماً على بعض القبائل التى قهرها سنة ٤٨٠ م فى أواسط الجزيرة ، وخلفه ابن عمرو ، وأشهر ملوكها هو الحارث بن عمرو الذى اشتهر بالبسالة والشجاعة ، واستطاع أن يغزو الحيرة وينتحى عنها ملكها مدة عامين إلى أن جاء المنذر الثالث ففتك بالحارث سنة ٥٢٩ وعبث بأفراد الأسرة الملكية فى كندة فقتل منهم خمسين نفساً ، وكانت ضربة قاضية على كندة .

ثم قام الخلاف بين أبناء الحارث ، وكان كل منهم يتزعم قبيلة ، فأدى هذا الخلاف إلى انحلال وحدة كندة ، وفناء هذه الدولة وهى فى شبابها . ثم رحل باقى أفراد كندة إلى ديارهم بحضرموت وبذلك انقرضت معالم دولة نشطت وقتاً إلى مناظرة الحيرة فكانت هى وغسان الدولتين اللتين نازعتا الحيرة البقاء .

وكان امرؤ القيس الشاعر ابن حجر بن الحارث الكندى ، وكان والداه أميراً على بنى أسد فاستبد بهم فقتلوه ، وقال امرؤ القيس :

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شىء سواه جلل

وقد حاول استرجاع ملك أبيه فى قصة معروفة مات فى نهايتها مسموماً بالقرب من أنقره .

وتمثل كندة أول محاولة قام بها عرب الجزيرة الوسطى لجمع شمل القبائل تحت زعامة واحدة مركزية يتولاها سيد واحد ، فكانت محاولتها هذه سابقة لم تتكرر حتى قيام الدولة الإسلامية .

مدن الحجاز — مكة :

ومعنى مكة باللغة السبئية مقدس أو حرم ، ويستفاد من هذا أنها كانت فى أول عهدها مقاماً دينياً ، وذلك لوجود البيت الحرام بها ذلك الذى بناه سيدنا ابراهيم وابنه اسماعيل .

وهى واقعة فى تهامة الحجاز الجنوبى على بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الإحمر ، فى واد قفر صخرى وصفه القرآن الكريم بأنه (واد غير ذى زرع) .

وقد وقفت مكة فى طريق القوافل بين مأرب عاصمة سبأ قديماً وغزة ، فكانت منزلا للآتين من الجنوب والمنحدرين من الشمال . ويقال إن قبيلة جرهم اليمنية مرت بمكة فأصهر إليها إسماعيل وكان بذلك منشأ العرب العدنانية أو المستعربة وقد أكسب موقع مكة فى طريق القوافل أهلها اهتماماً بالتجارة ؛ حتى ورثوا أهل اليمن فى تجارتهم وسنوا رحلتى الشتاء والصيف كما ذكرنا ، وكانوا يربحون فى تجارتهم للدينار . ديناراً ، فصارت مكة جمهورية صغيرة تجارية يرأسها الموسرون من أكابر قريش .

وكان بها البيت الحرام (الكعبة) وكان العرب يعظمونه ويحجون إليه فى الجاهلية منذ عهد سيدنا ابراهيم ولكن شابت عقيدتهم على مر الزمن شوائب ، ووضعوا فوق الكعبة الأصنام يتقربون بها إلى الله .

وكانت قريش تتولى شئون الكعبة ، وسماية الحاج فعظم شأنها كما عظم شأن مكة .

وبقرب مكة كانت تقام أشهر أسواق العرب وهى (عكاظ) يفد إليها

أبناء الجزيرة من كل مكان للتجارة والمناظرة ، والمناصرة والخطابة و إلقاء الشعر و بذلك صارت مكة العاصمة المعترف بها وسمت منزلتها فى عيون العرب ، وكان لها ولقريش أثر كبير فى توحيد اللغة قبل الإسلام .

وقد أسس قصى بن حكيم من أجداد النبى بمكة دار الندوة ليجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى شئونهم وخصوماتهم وتجارتهم ومصالح بلدهم ، وظهر كبيراً آخر فى مكة هو عبد المطلب جد النبى عليه السلام ، وكان حامى حوض مكة ، وهو الذى كان فى عهد أبرهة الحبشى حينما جاء بجيشه لهدم الكعبة وامتهان مكة والقضاء على قريش فى عام الفيل .

وكان تجار مكة فى الجاهلية يذهبون إلى بلاد الشام ومصر واليمن والحبشة وغيرها ، وقد أفادوا من ذلك ثقافة ولغة وتجارب كثيرة أهلتهم فيما بعد لأن يكونوا سادة حينما أسست الدولة الإسلامية .

يثرب : ومن مدن الحجاز فى الجاهلية يثرب التى عرفت بعد الإسلام باسم المدينة ، وهى تقع على بعد ٣٠٠ ميل من مكة. وقد حبتها الطبيعة بمزايا لم تعرفها مكة من طيب الهواء وجودة التربة ، ولم تكن يثرب على طريق القوافل بين اليمن والشام فحسب ، بل كانت واحة حقيقيه ، ذات تربة صالحة لزراعة النخيل وقد كان بها كثير من أنواع النخيل .

وسكنها من اليهود بنو النضير و بنو قريظة ، ومن العرب الأوس والخزرج وهما من القبائل اليمنية التى نزحت إلى الشمال عقب انهيار سد مأرب . وقد استعمل اليهود كثيرا من الألفاظ الآرامية فى الزراعة مالبثت أن دخلت اللغة العربية ، كما دخلها عن طريقهم بعض الكلمات الدينية ، وعن طريقهم سمع العرب شيئاً عن البعث والحشر والحساب والميزان والجنة والنار وخلق الدنيا وما شاكل ذلك .

الطائف : تقع على ارتفاع ستة آلاف قدم عن سطح البحر ، وقيل فى وصفها

وإنها قطعة من أرض الشام ، وكانت ولا تزال مصيفا لأثرياء مكة وفيها يقول عمرو بن أبى ربيعة واصفاً ترف حبيبته .

تشتو بمـكة حقبـة ومصيفهـا بالطـائف

وتقع الطائف فى أكناف الجنائن الفناء ، وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب وغيرها من الفواكه ، واشتهرت ورودها بالعطر الذى كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب .

واشتهرت كذلك بعنبها ونبيذها . وكان أهلها من قبيلة ثقيف وقد نبغ منهم فى الإسلام عدد كبير من أشهرها الحجاج ومحمد بن القاسم القائد المشهور .

حالتهم الاجتماعية :

معظم الجزيرة العربية - كما ذكرنا - صحراوى ، والكثرة الغالبة من سكانها كانوا يعيشون فى حال البداوة يعتمدون على الرعى عقب الأمطار القليلة التى تسقط على وسطها وأطرافها .

ومن أنعامهم يتخذون غذاءهم وكساءهم ، ومأواهم ، ويكثرون من الانتقال تتبعاً لمساقط الأمطار ، وارتياداً للمرعى والماء .

فإذا بخلت السماء وأجدبت الأرض اشتد بهم الضيق ، وأكثروا من الغارة والحروب بعضهم على بعض ؛ وكان هؤلاء البدو يعيشون جماعات فى منازل يختارونها من الصحراء ، وتربط كل جماعة أواصر الدم والنسب ، وتعرف هذه الجماعة بالقبيلة .

والقبيلة أسرة كبيرة يعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد وأم واحدة ، وهى فى الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج وقريش ، فهذه كلها أسماء رجال نسل كل واحد منهم أولاداً وأحفاداً فانتسبوا إليه ، وقليلا

ما تنسب القبيلة إلى الأم كما قالوا فى خِنْدف ، و بجيلة ، وقد تسمى القبيلة بحادث حدث لَغسان ، وهو اسم لماء نزلت به بطون مختلفة من الأزد فى تهامة العسير فسميت به : ولـكن الـكثير الشائع نسبة القبيلة إلى الأب .

وقد يلد أبو القبيلة أولاداً فينشأ عن بعضهم قبيلة أخرى تتسمى باسم جديد وتنتسب لهذا الولد النابه الذى اشتهر بشجاعة أو رياسة أو كثرة ولد .

وكان لـكل قبيلة شيخ أو رئيس ، هو صاحب القول الفصل فيما ينشأ بين أفرادها من خصومات ، ولم يكن يحكم ببدع من الرأى ، أو مندفعا وراء هوى ، بل كان يستهدى بالعرف المتبع فى القبيلة و بالعادات المتوارثة ، و إذا أشكل عليه الرأى استشار سادتها وكبراءها .

وكان رئيس القبيلة ذا مكانة ممتازة فى نفوس أفرادها ، لما وقر فى نفوسهم له من التجلة والاحترام لأنه تميز بصفات دفعته إلى الصدارة فى مجتمعهم هذا ، فهو أشجعهم قلباً وأسخاهم يداً وأوسعهم صدراً ، وينتمى إلى آباء توارثوا المجد كابراً عن كابر ، يحمل الـكلّ و يفك العانى ، ويغيث الملهوف ، و يطعم الجائع، و ينصر الضعيف ، و يحمل الديات ، و يواسى المحزون .

فلم تـكن سيادة الرئيس متوارثة ، أو مبينة على الغلبة والقهر ، و إنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ؛ و إذا وجد بينهم من ساد لفضائله ، ثم ركب رأسه وغرّه سلطانه ، واستبد بقومه مثل كليب وائل سيد بكر وتغلب ، فإن نفس العربى التى عودتها الصحراء وكثرة الانتقال الحرية والعزة تأبى عليه أن يستـكين طويلاً لهذا الاستبداد من رئيس القبيلة . ومصرع كليب على يد جساس ابن مرة وهو زوج أخته جليلة كانت نتيجة هذا البغى الذى لم يطقه العرب . وكذلك لم يتأخر بنو أسد عن قتل حُجْر أبى امرىء القيس الشاعر حين داخله الزهو

واستبد بهم ولم يرع لهم حرمة ، ولهذا السبب قتل عمرو بن كلثوم التغلبى عمرو بن هند ملك الحيرة حين أرادت أمه أن تذل أم عمرو بن كلثوم .

ولذلك كانت مصانعة الرؤساء للأفراد لا تقل عن مصانعة الأفراد للرؤساء فالفرد فى القبيلة كان يتمتع بقسط وفير من الحرية ، وليس الرئيس فى نظره سوى أفرد امتاز بخلال وسجايا أهلته لأن يتبوأ هذه المكانة فى قومه ، فإن انحرف عن الجادة زالت عنه هذه الصفة التى أحلته تلك المنزلة . وقد اشتهر كثير من هؤلاء الرؤساء بالحكم ورجاحة العقل و بُعد النظر ، وقد يفزع إليهم فى الخصومات الأدبية والمنافرات والمفاخرات فى النسب وغيرها .

والقبيلة وحدة اجتماعية متماسكة تحمى كل أفرادها وتدافع عنهم ، وتطالب بدم أى منهم إن قتل . والفرد يستصرخ بها فى الملمات ، ويفزع إليها فى الشدائد فتلبى دعوته وتهب لنصرته ، ولقد عبر عن ذلك قُريط بن أنيف أحدبنى العنبر بقوله :

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زَرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

وكما قال وَدّاكٌ المازنىّ :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمُ   لأية حرب أم بأى مكان

وهذه العصبية القبلية أمر فرضته طبيعة الصحراء وكثرة التجوال فيها طلبا لمواردها القليلة وخيراتها الضئيلة ، وكثرة الاحتكاك والتزاحم عليها ، ولولا هذه العصبية لذات القبيلة أو فنيت ، وكانت القبيلة للفرد فى هذا المجتمع البدوى بمثابة الوطن والحى ، ولذا صار ولاؤه الأول لها . ولا ينظر لنفسه إلا على أنه جزء من مجموع ؛ فإذا قوى فللذود عنها وإعلاء شأنها ، وبسط سلطانها ، وإذا أثرى فلمساعدة

بتثقيلها ، وتكريم ضيوفها ، ولفك أسراها ، ولدفع المغارم حين يدعى إليها وإذا كان شاعراً فللتغنى بمحامدها ، ورفع صيتها ، وتخليد مفاخرها ، ولذم أعدائها .

وقلما يعمل الفرد لنفسه كما نرى فى مجتمعاتنا الحضرية ، وتلك فضيلة من فضائل القبيلة ، قويت ما بين أفرادها من أواصر ، فالقبيلة حين تناضل فى سبيل الحياة تناضل مجتمعة ، ونضال الجماعة يؤدى دائماً إلى تنمية الفضائل النفسية والجسدية ، بينما يؤدى نزاع الأفراد المتفرقين إلى الانحلال الخلقى وشيوع التخاذل بينهم .

ولسنا نبرىء التعصب القبلى من المبادىء ، فقد كان شعاره : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .

وقد أدى إلى مآسٍ دامية حتى بعد أن تكونت الدولة الإسلامية ، ووضع لها النظام المحكم ؛ لأن العرب فى مهاجرهم بعد الإسلام حملوا معهم إحن الماضى وأحقاده ، فإذا فرغوا من العدو انقلبوا حرباً بعضهم على بعض حتى تضعضعوا وذهبت ريحهم . وهذا التعصب يولد الأحقاد ، وينمى العداوات بين مختلف القبائل ؛ وبذلك كثرت بينهم الحروب ، ومن أشهرها حرب البسوس التى دامت أربعين سنة ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار ، وكان من جراء هذه الحروب شيوع الفوضى وذهاب الأمن .

وإذا كانت القبيلة تحمى الفرد ، وتهبه العزة والمنعة فليس معنى ذلك أن يستمرىء السفه والطيش ويجلب لها كل يوم شراً وإذا وجد من بين أفرادها من كثر شره وعظم ضُرُّه وأساء إلى سمعة قومه تبرأت منه القبيلة ، وأعلنت انفصاله عنها ، ويسمى عند ذلك (خليعاً) ، وهذه عقوبة صارمة ؛ إذ بها يفقد الفرد كل ماله ، ويلجأ إلى مختلف القبائل ضارعاً علّ فيهم من يحميه ، ويدرأ عنه عادية الأيام ، فإذا وافقت إحدى القبائل على أن تمنحه حمايتها سمى حليفاً

لها أو مولىً أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية مادام فى جوارها متمتعاً بحمايتها .

ونواة القبيلة الأسرة المكونة من أب وأم وأولاد ، وكانت السيادة فى الأسرة للأب له الكلمة النافذة والولاء التام . فربما وأد ابنته خوف الفقر ، وانتفى من ابن أمته خوف العار . وكان للزوجة المكانة السامية الثانية فى الأسرة ، وهى لم تتزوج حتى استشيرت ، ولذا كان يجلها الزوج فى نفسه ، ويشركها فى أمره ، ويتغنى باسمها فى شعره ، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه . وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق مالم يشترط عند العقد خلاف ذلك . وكان لمن الجاهلية أنواع أخرى من الزواج هى أشبه شيء بالمسافحة لا يقدم عليها إلا أولو الدعارة من الشباب . وكانوا يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف ويحلون التزوج من امرأة الأب ، ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة .

ولم يكن فى هذا المجتمع البدوى ثراء فاحش ، فالمال وهو النَّعَم من إبل وضأن وماشية عرضة للزوال حين يشتد القحط ، ولم تكن هناك دور وقصور ، وإنما هو بيت من الشعر أو الوبر يطوى ومتاع وكيل ، وبذلك امحت من بينهم تلك الفوارق الاجتماعية التى نجدها فى المجتمعات الحضرية ، وكانوا فى ميزان الحياة سواء ، ولذلك هان عليهم المال يبذلونه لتخليد الذكر وحسن الأحدوثة ؛ إذ يعلمون أنه زائل وفى ذلك يقول حاتم طيء .

أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

كان أكبر ظاهرة فى هذا المجتمع البدوى فى الجاهلية هى العصبية القبلية كما مرّ بنا ؛ حتى لا يذلوا ويتخطفهم الناس من حولهم وتستباح حرماتهم ، وكثيراً

ما تضطرم الحرب بين قبيلتين ويستعر أوارها ويصلى بها الجميع ؛ لأن شخصين اختلفا فيما بينهما فانتصرت كل قبيلة لصاحبها ، وقد صدقوا حين قالوا :

وإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

وقد عبّر عمرو بن برّاقة عن هذه الحياة ، ودواعي الحروب في الجاهلية أحسن تعبير بقوله :

ومن يطلب المال الممنع بالقنا ... يعش ذا غنًى أو تخترمه المخارم

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا لَهَمْدَان ظالم

متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

وكانت كل معركة تستتبع ثأراً ، وكل ثأر يولد معركة ، وكانوا يعتقدون أن الثأر حق الأبناء للآباء أو حق الآباء للأبناء ، أو المرء لعشيرته وذويه ، أو القبيلة لأفرادها المدافعين عنها حتى لا تهان وتستذل وتستأصل .

كان هذا شأن المجتمع البدوي ، يعيش عيشة فطرية خشنة على موارد الصحراء القليلة ، لايعرف إلا انظام القبيلة والولاء لها ، ليس لهم حكومة منظمة تسن لهم القوانين وتجمع شملهم ، وإنما يحكمون بالعرف والعادة والرأي .

وبجانب هذا المجتمع البدوي كانت هناك مجتمعات على شيء من الحضارة تختلف قوة وضعفاً ، فأهل مكة مثلا كانوا تجاراً ، وقد أكثروا من رحلاتهم التجارية إلى البلاد القريبة منهم ، وأورثتهم التجارة دماثة الخلق وحسن المعاملة ، وثراء وولّد الثراء شيئاً من الترف اقتبسوه من جيرانهم في البلاد التي نزحوا إليها .

وكان أهل المدينة يقمون على طريق القوافل الآتية من الشام والذاهبة إليها فعرفوا شيئا من الحضارة واشتغلوا بالزراعة وبخاصة اليهود منهم ؛ لأن تربة بلادهم كانت خصبة ، والمجتمعات الزراعية تميل إلى الاستقرار ، ومع ذلك كثرت الحروب

بين الأوس والخزرج من سكان المدينة وغلب عليهم الطابع البدوى أحياناً .

وكان هناك مجتمعات زراعية أخرى فى شمالى المدينة بوادى القرى مثل تيماء وخيبر وغيرها وكان تقيم بها جاليات يهودية لعلها قدمت إلى الجزيرة بعد الغزو الرومانى لفلسطين . وقد اشتغل بعضهم فى هذه القرى بالصياغة والحدادة ودباغة الجلود وغيرها من المهن التى كان العرب بطبيعتهم يحتقرونها .

أما عرب الجنوب فقد كانت لهم قديما حضارة سجلتها النقوش التى تركوها والآثار التى خلفوها ، وكانت لهم مملكة وحكومة منظمة ، وقد اشتهروا — كما ذكرنا آنفاً — بالفن الهندسى ، وتجلى ذلك فى بناء القصور ، والقنوات والسدود التى اشتهر من بينها (سد مأرب) . وكانوا يزرعون الوديان وسفوح الجبال وكانت للعسل مناطق خاصة به يستثمر فيها ، وللذهب مناجم فى عسير . أما مورد البلاد الرئيسى ففى اجتناء (اللبان) ولهم من ذلك صناعة واسعة كانت من قبيل الفرائض الدينية .

كما أن اشتغالهم بالتجارة وجلب السلع من الهند وسواحل إفريقية أورثهم الغنى وجعلهم فى بحبوحة من العيش . وقد ذكرنا شيئا عن ذلك من قبل . وعن طريقهم عرف عرب الشمال شيئاً من هذه الحضارة وإن لم تساعدهم وسائل المعيشة على ممارستها .

وقد ذكرنا آنفاً صلة أهل الحيرة بالفرس وتأثرهم بحضارتهم ، وكان أهل الجزيرة يقصدون ملوكها فعرفوا شيئاً من ألوان الحضارة التى يتمتعون بها . وقد غصّت اللغة بكثير من الكلمات الحضارية التى أخذوها من الفرس مثل : الكوز والجرة ، والإبريق ، والخوان ، والقصعة ، والخز ، والديباج ، والسندس ، والياقوت والبللور ، والفلفل ، والنرجس ، والشريق ، والسوسن ، والياسمين ، والعنبر وغيرها .

حالتهم الأخلاقية :

على الرغم من حال البداوة التى كان يعيش فيها معظم أهل الجزيرة ، وأنه لم يكن لديهم قانون أو شريعة تنظم العلاقات بينهم ، فقد كان ثمة عرف وتقاليد وأخلاق بها يهتدون ، فرضتها طبيعة الصحراء ونظام القبيلة ، وحياة التجوال التى كانوا يحيونها .

وأبرز صفة فى الخلق العربى بعامة كانت البأس والشجاعة ، وكان هذا الخلق طبيعياً لأن عرب البادية لم يكونوا يسكنون القصور المحصنة أو البيوت المسوّرة ، ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون فى بيوت من الشعر والوبر ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمى إلا ظهور خيلهم .

فأورثتهم هذه الحياة الخشنة ، وهذه البادية الواسعة القفر : البأس والشجاعة والصرامة ، يرجعون إليها متى دعا داع ، أو استنفرهم صارخ ، وتأصلت فى طباعهم النجدة وحب الغزو والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر ، ومن ثمّ كانت العصبية فيهم أظهر وحظهم من صحة النسب أوفر ، لأن بالعصبية الحماية والمدافعة والمطالبة ، وغايتها التغلب . والنسب الصحيح هو الذى يؤدى إلى الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام والشفقة والنعرة عليهم ، أن يصيبهم ضيم أو يلحقهم أذى . .

كانوا يتتبعون الماء ، ويرتادون منابت العشب ، ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حولهم ، وشبعهم وريهم ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا عن النجعة ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف التى كثيراً ماتنتهى بالاحتكام للسيف ، فانتشرت بينهم العداوة ، وفشت فيهم الحروب ، وتخطف بعضهم بعضا .

والقتال على المال والماء والغنيمة قانون الفطرة فى بقاء الأصلح ، وكان هؤلاء

البدو حقاً على الفطرة فى طباعهم وعاداتهم ، ولذلك كثرت دواعى القتال بينهم ، وزادت حرارة الصحراء فى سرعة انفعالهم وحدة طباعهم .

ومع كل هذا فقد كانت لهم أمثلة عليا فى الأخلاق يسعون كل السعى لإحرازها لأنها طريق السيادة والرئاسة ، وأهم هذه الصفات الكرم ، والكرم كان فى أول الأمر ضرورة اقتضتها طبيعة الحياة فى الصحراء ، فكل امرىء فيها معرض لأن ينفد زاده وهو فى تلك الفيافى الشاسعة ، فإذا لم يجد طعاماً لدى أول بيت يقابله ، ويرحب به أهله هلك مسغبة وظمأ ، وكان من أقبح الصفات التى يعير بها المرء أن يوصف بالبخل ، وبذلك صار الكرم عادة لدى الجميع ، ومن ثمّ أخذ هؤلاء الذين يبغون السيادة والمجد يتزيدون فى الكرم ، وعرفوا بالأجواد ، ولا يزال حتى يومنا هذا يضرب المثل بكرم حاتم الطائى وبجود كعب ابن مامة الإيادى .

كما فرضت عليهم الصحراء الوفاء بالوعد ، فكانت تكفى الكلمة يقولها أحدهم لصاحبه ، ولو لم يسمعها سواه ، إذ كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، ولولا هذه الخلة الكريمة التى اشتهروا بها لفسدت حياتهم فى الصحراء واضطرب حبل الأمن فيما بينهم ، وضاعت حقوقهم ويجرفها سيل الطمع والجشع والحقد .

كما اشتهر رؤساؤهم بالحلم وسعة الصدر ، وهى خلة كانوا يطمعون إليها فى هذه البيئة التى تكثر فيها الحزازات والعصبية ويشتد الانفعال . وكانت من الصفات التى تشترط فيمن يؤهل نفسه للسيادة .

لقد كان عصر الجاهلية عصر الفتوة والمروءة والفروسية العربية بخلالها السمحة على الرغم مما تخلله من صفات اقتضتها طبيعة البداوة وهذّبها الإسلام ، ولقد قامت أخلاقهم الكريمة بينهم مقام القانون وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

قال : « أية أخلاق كانت للعرب فى الجاهلية ، بها يتحاجزون فيما بينهم » وقال عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » حيث حول الإسلام هذا الخلق الفردى والعمل على عزة الفرد إلى خلق جماعى وحوّل المجد القبلى إلى خدمة الأمة ونصرة دين الله .

حالتهم فى الفنون :

لم يكن لدى عرب نجد والحجاز فنون كما كان لدى الإغريق والرومان ؛ نظراً لبداوتهم وأميتهم وعدم استقرارهم فى مكان ؛ إذ كان أغلبهم فى رحلة دائمة ، ولكن القول بأنه لم يكن لديهم فنون البتة فيه إسراف ، وإذا كان الفن قاصراً على النحت والتصوير مثلاً فربما كانت هذه التهمة صحيحة ، ولكن ذلك تحديد ظالم للفن لا مسوغ له ، فالفن هو كل مايعبر عن الشعور ، ومن المشكوك فيه أن يوجد شعب سلب نعمة التعبير عن مشاعره فى أية صورة من الصور سواء كان ذلك رقصاً أو موسيقى أو صناعة الخزف أو الزخرفة .

والطريقة التى عبّر بها العرب عن أحاسيسهم هى فن القول ، وهو أقوى الطرق إغراء وإقناعًا وأشدها خطراً ؛ فقد كان عندهم فى الجاهلية الشعر ، وهو أعلى صور البيان وأشدها سطوة وأوسعها انتشاراً . وسنأتى على ذكر خصائص هذا الشعر فيما بعد .

ولا نريد أن نتعرض لما كان عند أهل اليمن القدماء من فنون فإن ذلك كان سابقاً للعصر الجاهلى المتأخر الذى هو موضوع بحثنا .

حالتهم العقلية :

كان العرب فى جاهليتهم أمة أمية ليس لديهم علوم منظمة أو فلسفات معقدة ، وكل ما كان لديهم من علم كان من وحى التجربة ، وقوة الملاحظة ،

واضطرار الحاجة ، فعرفوا شيئاً من الطب البشرى يتناسب مع حالتهم . كما عرفوا البيطرة لمداواة الخيل لاتصالها بالحرب ، ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، و برعوا فى الأنساب والأخبار ورواية الشعر ، محافظة على تاريخهم وعصبيتهم وتحدثاً بمفاخرهم وتخليداً لمآثرهم . ولا توجد أمة من الأمم عنيت بأنسابها فيما نعلم كما عنى العرب لشدة عصبيتهم القبلية وحاجتهم إلى هذه العصبية فى حياتهم الصحراوية .

كما مهروا فى الفراسة وهى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، فيستدلون باتساع الجبين على الذكاء ، و بعرض القفا على الغباء ، وضيق العين على الشح ، وغلظ الشفتين على الإسراف فى الحب والبغض .

كما مهروا فى القيافة وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه ، والاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه .

وآمنوا بالكهانة والعرافة ، فلجئوا إلى العرافين فى أغراضهم و إلى الكهان فى أمراضهم يستطلعون الغيب ، و يخبرون بالحوادث الماضية والآتية ، وكانوا يزعمون أن لهم أتباعًا من الجن يسترقون السمع و يأتونهم بالأخبار ، فاشتد اعتقاد العرب فيهم وكثر التجاؤهم إليهم يستشيرونهم فى المعضلات ، و يستقضونهم فى الخصومات ، و يستعبرونهم فى الرؤى ، ومن أشهرهم الكاهنان : شِقٌّ وسطيح ، والعرافان : الأبلق الأسدى عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة .

وكانوا يعتقدون فى الزجر ، وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد إلى الطائر مثلاً فيرميه بحصاة ، أو يصيح به ، فإن ولاّه فى طيرانه فيا منه تفاءل به ، و إن ولاّه فياسره تشاءم منه .

ومع هذا فقد كان العرب فى حالة عقلية ناضجة ، نضجت بذلك حكمتهم وأمثالهم وأخلاقهم ، وصاروا ينظرون إلى الوجود ومشكلاته نظرة واعية بعيدة عن الأوهام والخرافات ، ولذلك لم تكن لديهم أساطير دينية (ميثولوجيا) كالتى عند اليونان القدماء . وخرافاتهم وأوهامهم وليدة بيئتهم الساذجة ، فكانوا يعتقدون فى الجن . وأن ثمة أودية تغص بهم ، وأن الجن يوحون إلى شعرائهم رائع الخيال ، وما هذه الجن إلا أشباح توهمها ابن الصحراء مشخصاً فيها أهوال البادية وآفاتها حين يضل فى متاهاتها ، ولذلك لا توجد الجن فى زعمه إلا فى الأودية المضلة كوادى عبقر ، ووادى البقار ، كما صورت لهم أوهامهم تخيل الغول التى تقتلهم وهم فى القيافى المقفرة قد ضلوا سواء السبيل ، ودب فى قلوبهم الخوف من الوحدة والهلاك من الجوع والظمأ .

ولكن هذه الأوهام ليست بشىء ذى بال إذا قيست بخرافات الإغريق وأساطيرهم ، وقد سجل الشعر العربى الجاهلى وما فيه من حكمة بالغة وأمثال ناضجة ، وعواطف سامية حال العرب العقلية فى الجاهلية .

حالتهم الدينيـة :

كان معظم أهل الجزيرة العربية وثنيين ، وإن كانوا يؤمنون فى أعماق نفوسهم بإله واحد جاءهم هذا الإيمان من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوها لتطاول العهد وتحكم الجهالة ، فاستحال فى نفوسهم إلى عبادة الأصنام ، وتعظيم الأوثان ، ونصبها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم .

ولم يكن لدى عرب البادية شعور عميق بالتدين ، أو عاطفة روحية شديدة ، ولم يكن لهذه الأصنام فى نفوسهم مكانة متينة ، فلم يشيدوا لها الهياكل ، ويقيموا الطقوس ، وأغلب الظن أنها دخيلة عليهم جلبت من بعض البلاد التى تقع شمالى جزيرتهم ، ولا أدل على ضعف هذه المكانة فى نفوسهم من حادثة امرىء القيس

مع الصنم ذى الخُلَصة عندما خرج بعد قتل أبيه يريد الانتقام له ، فمرّ بهذا الصنم فاستقسم لديه بقداحه ، وهى ثلاثة الآمر والناهى والمتربص فأجالها فخرج الناهى ثم أجالها فخرج الناهى ، ثم أجالها فخرج الناهى فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم ؛ وقال : كذا وكذا لأمك « لو أبوك قتل ما عقتنى » .

وكان هناك بجانب هذه الكثرة الوثنية بعض المتحنفين على دين إبراهيم ، لم يؤمنوا بهذه الأوثان والأصنام مثل ورقة بن نوفل ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبى عليه السلام .

وكانت هناك جماعات تعبد الشمس وأخرى تعبد الملائكة إلى غير ذلك من أنواع العبادات ولكن الكثرة الغالبة كانت وثنية .

ولقد وجدت بجانب هذه العبادات جاليات يهودية ونصرانية تقيم فى جزيرة العرب . فقد كان لليهود مستعمرات فى يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى ، كما أن أهل اليمن قديماً كانوا قد اعتنقوا اليهودية رَدَحاً من الزمن فى عهد ذى نواس الحميرى ؛ إذ كانت النصرانية فى نظره رمز العبودية لأنها دين الأحباش الذين احتلوا بلادهم ودين الرومان الذين عاضدوا الأحباش فى غزواتهم .

وانتشرت النصرانية بين بعض القبائل العربية ، مثل تغلب ، والعباد بالحيرة ، والغساسنة ، وأهل نجران باليمن . وكانت بنجران كنيسة عظيمة أراد الأحباش أن يصرفوا إليها العرب دون الكعبة فكانت غزوة الفيل التى باءت بإخفاق حملتهم على مكة لهدم الكعبة .

الفصل الثالث

الأدب الجاهلى

أشهر القبـائل العربية :

ذكرنا أن العرب كانوا نوعين : عاربة ومستعربة ، أما العاربة فهم أهل اليمن وينسبون إلى يعرب بن قحطان ، وقد جاء العصر الجاهلى الأخير ، وكثير من القبائل اليمنية كانت قد هجرت ديارها عقب انهيار سد مأرب واتجهت إلى الشمال ، واستوطنت أماكن مختلفة من أواسط الجزيرة وشمالها فمن هؤلاء : بنو ثعلبة بن عمرو الذين نزلوا المدينة وغلبوا عليها اليهود ، ومن بنى ثعلبة هؤلاء الأوس والخزرج ، ومن هذه القبائل خزاعة التى نزلت مكة وغلبت جرهم عليها وظلوا بها إلى أن جاء الأسلام ، ومنهم قبائل طيىء التى نزلت بنجد فى جبلى (أجأ وسلمى) ويقعان فى الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ، ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة وقد أقامت ببادية السماوة وهى فى الطرف الشمالى من نجد وتتصل بالعراق ، ويخترقها وادى الدهناء .

ومنهم لخم وحزام ، وقد سكنوا أطراف بادية الشام من الجنوب . ومنهم قضاعة وقد أقامت فى شمال الحجاز وفى جزء من سينا . ومن القبائل اليمنية المشهورة التى ظل الجزء الأكبر منها باليمن قبيلة كندة ومذحج ، وذكرنا آنفاً أن المناذرة والغساسنة ينتمون إلى قبائل يمنية من التى هاجرت عقب انهيار السد .

وأما العرب المستعربة وهم بنو إسماعيل والذى كان من نسله عدنان وإليه

نسبوا فقيل لهم العدنانيون فأشهر قبائلهم : ربيعة ومضر وأنمار و إياد . ومن ربيعة عبد القيس ومنها بكر وتغلب ابنا وائل ومن مضر انشعبت قيس عيلان و بطون إلياس بن مضر ، فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان ، ومن غطفان عبس وذبيان ابنا بغيض . وأما أولاد الياس فافترقوا فمنهم بطون تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، و بنو أسد بن خزيمة ، و بطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة قريش ، ثم انقسمت قريش إلى بطون شتى ، فمنها جمح وسهم ومخزوم وعبدالدار وعبد مناف ، ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ، ومن هاشم عبد المطلب و بنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد على رضى الله عنه ، والعباس . فالعلويون ينتسبون إلى على ، والعباسيون إلى العباس . وأما الأمويون فليسوا من بنى هاشم ، وإنما هم من بنى عبد شمس أخيه .

و إلى العرب المستعمربة يرجع الفضل فى تكوين اللغة العربية التى نتكلم بها والتى نزل بها القرآن الكريم ، وجاء بها الأدب العربى ، كما سنبينه فيما بعد .

نشأة اللغة العربية وتطورها :

فصائل اللغات : تنسب اللغات المشهورة فى العالم إلى أربع فصائل : اللغات الهندية الأوربية ، واللغات السامية ، واللغات الحامية . واللغات المغولية ويرجع هذا التقسيم إلى اشتراك مجموعة من اللغات فى خصائص معينة من حيث تركيب الجملة ، والمفردات ، واشتقاق الكلمات . فاللغات الأوربية مثلا بينها و بين السنسكريتية الهندية القديمة صلات قوية ، فعدوها أصلا للغات الأوربية الحديثة التى تشعبت فيما بعد إلى مجموعات . كلتية ، ولاتينية ، وسكونية ... ألخ .

أما لغتنا العربية فهى إحدى اللغات السامية وهى العربية والعبرية ، والسريانية

والكنعانية والفينيقية والآشورية والبابلية والآرامية ، والحميرية والحبشية والمصرية القديمة على الأرجح . وسميت سامية نسبة إلى سام بن نوح . وهذه القسمية تبع فيها علماء اللغات تقسيم التوراة ، وإن كانوا يرون أنها لا تنطبق على التحقيق العلمي من حيث أصول الأجناس ، ولكن وجدوا بينها تلك الخصائص التي ذكرناها ، ورأوا كلمة سامية سهلة التداول فصارت اصطلاحاً . وعلى الرغم من أن اللغة العربية أحدث هذه اللغات ظهوراً في التاريخ فإنها أرقى هذه اللغات السامية جميعها ، وأكملها نمواً . وهي السبيل القويم لدراسة أي لغة من هذه اللغات ؛ لأن فيها كثيراً من خصائص الأم السامية الأولى ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت علماء اللغة يقولون : إن الجزيرة العربية كانت مهد الجيش السامي ، وأن هذه الشعوب السامية نزحت منها تباعاً إلى البقاع المجاورة ، لأن اللغة العربية لم تتعرض لما تعرضت له اللغات السامية الأخرى من الغزو الأجنبي .

أطوار تهذيب اللغة :

تعتبر اللغة القحطانية أصلاً من أصول اللغة العربية ، وإن كانت تختلف عنها اختلافا بيناً حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ليست لغة حمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا » ، ولكن مما لا شك فيه أن عرب الجنوب أيام المعينيين والسبئيين والحميريين ، وهم يقومون بنقل التجارة من الجنوب إلى الشمال عن طريق الحجاز ومكة ويثرب قد خطفوا بعض الكلمات في هذه البقاع نتيجة اختلاطهم بعرب الشمال ، بل إن قبيلة جرهم التي صاهرها اسماعيل كانت يمنية ونشأ جيل من أولاد اسماعيل أخذ من لغة أبيهم العربية ، ومن لغة أمهم القحطانية .

ثم حدث عقب انهيار سد مأرب أن نزحت قبائل يمنية كثيرة إلى الشمال

كما ذكرنا فى الفقرة السابقة وقد أقامت فى وسط الجزيرة وشمالها قروناً ، وانقسمت بطونا وعشائر وأسراً ، وتغلغلوا فى القبائل العدنانية ، ولا شك أنهم حملوا معهم السبيئة والحميرية وما فيها من كلمات جديدة على العرب العدنانيين ، إذ كان أكثرهم بدواً ، لم يألفوا معيشة الاستقرار ، وسكنى الدور والقصور ، ونظم الحكم وطرق الزراعة والصناعة كما كان أهل اليمن .

وكان لزاماً على هذه القبائل أن يتفاهم بعضها مع بعض ، وقد اختلطوا بالعدنانيين اختلاطاً شديداً ، بالجوار والمصاهرة والحروب والتجارة والحج ، فأدى ذلك إلى تقارب اللغتين ، وتكوين لغة واحدة يفهمها الجميع ، وإن بقيت فى لسان كل قبيلة عدنانية أو يمنية بعض االلغات التى عسر عليهم أن يتخلصوا منها وظل هذا التفاعل بين اليمنية والعدنانية يشتد ويقوى وتتطور اللغة وترقى عدة قرون حتى دخلت اللغة فى طور تهذيبها الأخير .

رأينا فى العصر الجاهلى الأخير بجانب اللهجات القبلية التى تلهج بها كل قبيلة ، والتى لا يضر فهمها على سائر القبائل لغة أخرى مثالية خالية من العيوب الشائعة فى ألسنتها ، تلك هى لغة الشعر والخطابة والمهاترات والأمثال والحكم وهى التى نزل بها القرآن الكريم .

إن أقدم نص جاهلى فى الشعر لا يزيد عن قرنين من الزمن قبل الإسلام ، وكان من الطبيعى أن يكون للعرب لغة أدبية تعبر عن العواطف السامية ، وترتفع عن مستوى الكلام المألوف حين يريدون الإفصاح عن شعور غير عادى تختلج له أحاسيسهم ، أو عن فكرة رفيعة فى أذهانهم ، وقد اتخذت القبائل المتباينة هذه اللغة المثالية أداة للتعبير عن شعورها وحكمتها على الرغم من وجود فوارق يسيرة فى لهجاتها الخاصة . وهذا أمر شائع فى كثير من الأمم حتى يومنا هذا .

وقد أنكر بعض الباحثين المعاصرين وجود مثل هذه اللغة المشتركة أو اللهجة الموحدة بين عرب الجاهلية، وشك تبعاً لذلك فى الشعر الجاهلى ، ولا سيا ذلك الذى روى عن شعراء ينتسبون إلى قبائل يمنية مثل امرىء القيس ، وكيف ننكر مثل هذه اللهجة الموحدة بين القبائل التى كانت تقيم فى وسط الجزيرة وشمالها وقد ثبت أن النبى عليه السلام كان يعرض نفسه على القبائل المختلفة فى الأسواق والمواسم ويدعوها لدين الله . وقد استجابت له الأوس والخزرج . وهما من اليمن وبهرتهم فصاحة القرآن فآمنوا به ، ونراه يرسل دعاته إلى القبائل المختلفة ينصرهم بدينه الجديد من غير أن يجدوا مشقة فى تأدية رسالتهم ولقد أرسل عليه السلام علياً ومعاذ بن جبل إلى اليمن فما شكا رسولاه ولا شكا أهل اليمن عدم التفاهم ؛ وذلك لأن هذه اللهجة الموحدة انتشرت بين القبائل فى جميع أنحاء الجزيرة قبل الإسلام ، وصار يفهمها حتى أهل اليمن أنفسهم ، وذلك لتمام نضجها وكمالها وقدرتها الفائقة على التعبير وخلوها من النقائص القبلية ، ثم لغة المتكلمين بها من أهل الشمال وسيطرتهم التامة على شئون الجزيرة بعد أن تضعضع نفوذ أهل اليمن ، وخضعوا للاستعمار الأجنبى من حبشى تارة وفارسى تارة أخرى ، ولكن ليس معنى ذلك أنها كانت لغة أهل اليمن ، وإنما كانت مفهومة لديهم . وهناك حجج كثيرة يمكن الادلاء بها فى هذا الصدد لا يتسع لها المقام .

والذى يعنينا هو كيف تكونت هذه اللهجة الموحدة ، والعوامل التى تضافرت على تكوينها فمن ذلك :

الأسواق :

كانت هناك أسواق كثيرة تقام فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية طوال شهور السنة ؛ لتبادل المنافع حتى كاد لا يخلو منها شهر ، فكانوا يجتمعون

(بدومة الجندل) فى أوائل ربيع الأول ، ثم ينتقلون إلى (هجر) بالبحرين فى ربيع الثانى ، وفيها قيل المثل المشهور « كمبضع التمر إلى هجر » ، وفى شهر جمادى يذهبون إلى (عمان) ويظلون ثمة حتى آخر الشهر ، وبعد ذلك يرحلون إلى (المُشَقَّر) وهو حصن بالبحرين فتقوم به سوقهم أول يوم من جمادى الآخرة ومن ثم ينتقلون إلى (صُحار) فيقيمون بها بضعة أيام من رجب ، ومن أسواقهم (الشّحر) بين عمان وعدن ، وتقوم فى النصف من شعبان ، ثم يذهبون إلى (عدن) ، ومن ثم إلى صنعاء فى النصف من رمضان حتى آخره .

وفى شهر شوال كانت تقام سوق عكاظ ، وهى أكبر أسواق العرب ، وتستمر إلى آخر ذى القعدة ، فإذا أهل ذو الحجة أتوا (ذا المجنة وذا المجاز) وهما قريبان من مكة . وكانتا تقامان أيام موسم الحج .

كانت هذه الأسواق كلها أشبه بمعارض عامة يفد إليها الناس من شتى أنحاء الجزيرة ، وتجرى فيها مسابقات الخيول ، وتقام الألعاب ، ويتناشد الشعراء وتعقد المؤتمرات للنظر فى مهام الأمور من مسائل السلم والحرب والحلف والتعاهد والثأر والتقاضى ، وكانت سوق عكاظ أشهر هذه الأسواق يشهدها جم غفير من الناس من مختلف القبائل فى طريقهم إلى مكة للحج ، وفى عكاظ كانت تقوم المنافرات والمفاخرات وتنشد الأشعار وفى ذلك يقول حسان بن ثابت .

سأنشر إن حييت لهم كلاما ينشر فى المجامع من عكاظ

وفى عكاظ يقول طريف بن تميم العنبرى .

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلىَّ عريفهم يتوسَّمُ

وفى عكاظ ألقى قس بن ساعدة الإيادى أسقف نجران خطبته المشهورة على جمل أردن وسمعها النبى عليه السلام ورواها أبو بكر الصديق .

ولم يكن من المعقول أن يجتمع فى هذه السوق وغيرها هذا الجمع الحاشد من شتى أنحاء الجزيرة ، ومن مختلف القبائل من غير أن تكون ثمة لغة واحدة بها يتخاطبون وينشدون أشعارهم ، فيفهمها الجميع ؛ ويتنافرون ويتخاصمون ويتحاكمون ويخطبون فيفهم الناس طراً ، لقد كان ذلك ولا ريب بلغة مشتركة إرتضاها الناس للتعبير عن عواطفهم السامية ، تلك هى لغة الشعر الجاهلى ولغة الحكم والأمثال والخطب .

مكة :

وكانت لهجة قريش وأهل مكة أقرب هذه اللهجات إلى لغة الأدب والشعر المشتركة . وكانت ذات أثر كبير فى إحكام هذه اللغة ، وذلك لأن قريشاً كانت تسكن مكة ، وبها الكعبة البيت الحرام ، والكعبة كانت مقصد العرب قاطبة إليها يحجون كل عام يتقربون إلى أصنامهم التى كانت تحتل مكانها فوق الكعبة وكان لكل قبيلة صنم تعظمه وتتقرب إليه وتهدر الدماء .

وكان العرب ينظرون إلى قريش نظرة تجلة وتعظيم ، لأنهم كانوا ذوى شرف وثراء ؛ أما الشرف فلأن فى قريش كانت حجابة البيت الحرام ، فبيدهم مفاتيح الكعبة وهم الذين يقومون بخدمتها ، وفيهم السقاية ، وهى القيام على حياض كبيرة بالماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة ، وفيهم الرِّفادة وهى طعام كان يوضع للحاج على طريق الضيافة .

أما الثراء فلان قريشاً كانت مسيطرة على تجارة الجزيرة العربية فى ذلك الوقت بعد أن اضمحل شأن اليمن وكانت لقريش رحلتان كل عام أولاهما فى الشمال إلى بلاد الشام صيفاً ، وثانيتهما إلى اليمن شتاء . وقد أفادت قريش من هذه التجارة مالاً ومدنية ولغة وتهذيباً فى الطباع ورقة فى المعاملة ، لأن شأن التاجر الناجح

الدماثة والظرف وحسن المعاملة ، ثم إنهم كانوا من سكان المدن ، والحضر عادة سريعو التحول ، يهفون إلى الجديد . ويقبلون على كل ما يكسبهم منزلة أمام غيرهم : وقدر رأتيا أن أشهر أسواق العرب كانت تعقد قريباً من ديارهم ، وكانت قريش تختلط بهذه القبائل جميعاً فى الأسواق وفى الحج وهى موضع احترامهم وإعجابهم ، فلا عجب إذا قلدوها فى لهجتها .

كانت قريش تأخذ من القبائل المختلفة خير ما فى لهجاتها ، وكان العرب يقلدون قريشاً ويحاكونها فى كلامها لذلك كانت لهجة قريش أقرب اللهجات للغة العامة المشتركه ، وكان لهم الأثر البالغ فى صقلها وتهذيبها وتزويدها بكثير من الكلمات والنهوض بها حتى بلغت منزلة سامية من الإتقان والكمال .

اللغة الشمالية وخصائصها .

تتميز اللغة الشمالية العدنانية التى روى بها الشعر الجاهلى بثروة واسعة فى الصور النحوية (الإعراب) ، وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من هذه الناحية ومن حيث طرق الاشتقاق والنمو وتركيب الجمل والتعبير ، أما المفردات فكانت فيها غنيَّة غنى يسترعى الإنتباه ، ولا بِدْع فهى نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل .

وفى الحق إن المرء ليحار فى تلك اللغة التى خلفها لنا الشعراء الجاهليون ، ويعجب كيف برزت إلى ضوء التاريخ كاملة الاستواء ، تامة النضج ، لها جرس ورنين فى مفرداتها ، غنية فى هذه المفردات مما يدل على اتصال العرب العدنانيين بكثير من الحضارات : الآرامية والفارسية واليونانية وتأثرهم فى مفرداتهم باليهودية والنصرانية ، قديرة على التعبير عن أدق خلجات النفوس فى صور عديدة من البيان من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية . فضلاً عن الغنى الزاخر فى البحور والأوزان .

وهذه اللغة الشمالية المشتركة قد خلت من الهفوات التى اشتهرت بها القبائل المختلفة وليس فيها عجعجة قضاعة وهى تحويل الياء جيما بعد العين مثل : الراعج خرج معج . فى قولهم : الراعى خرج معى وليس فيها شنشنة اليمن وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً ، مثل لبيش فى لبيك ، وليس فيها طمطمانية حمير وهى جعل أم بدل أل ، ولا عنعنة تميم وقيس وهى إبدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون فى أن عن ، ولا غير ذلك من الهفوات التى شاعت على ألسنة القبائل المختلفة فى لهجات الخطاب ، وإنما جاءت لغة مبرأة من كل هذه العيوب ، صالحة لأن ينزل بها القرآن الكريم أسمى صور البيان العربى وقد تحدتهم معجزته البالغة من جنس ما مهروا فيه ، إذ كانوا قد بلغوا فى فن القول مرتبة عالية .

تقسيم عصور الأدب : اصطلح مؤرخو الأدب منذ نهضة هذا العلم فى العصر الحديث إلى تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور طبقاً للحوادث السياسية والاجتماعية الكبرى التى أثرت فى تاريخ الأمة ، ولا شك أن الأدب انعكاس للحالة الاجتماعية والعقلية لأمة من الأمم ، ولا غنى لدارس الأدب عن دراسة تاريخ الأمة التى أنتجته هذه الأمة من جميع نواحيه . والأدب فى كثير من الأحيان يمهد للثورات السياسية أو النهضات الاجتماعية بما تدبجه يراعات الكتاب وتجيش به عواطف الشعراء .

وقد قسم مؤرخو الأدب عصور الأدب العربى إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والأمم الإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهى :

(١) العصر الجاهلى[١] : (الجاهلية الأخيرة) ومدته لا تزيد عن مائتى سنة قبيل قبل الإسلام ، وينتهى بظهور الدعوة المحمدية .

---

(١) هناك فرق بين جاهلية الفطرة والبداوة ، ومعنى ذلك أن تلك الأمة لم تتصل بحضارة سابقة ولا تاريخ من قبل ، ولا إثارة من علم ، وبين جاهلية =

(٢) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، ويبتدئ مع الإسلام ، وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

والأدب العربى ينقسم إلى قسمين من بعد ذلك إلى قسمين :

(ا) الأدب فى المشرق : مصر ، الشام ، العراق ، فارس . . .) .

(ب) الأدب فى المغرب : (الأندلس ، مراكش ، الجزائر ، تونس ، صقلية)
ومن أشهر عصوره فى المغرب (الأعصر الأندلسية) (٧٥٥ – ١٤٩٢م : – ١٣٨ – ٨٩٧ هـ) وتبتدىء حين استطاع عبد الرحمن الملقب بالداخل – و بصقر قريش أن يفر بعد إنهيار دولة بنى أمية فى الشرق ويؤسس فى الأندلس دولة أموية جديدة جعل عاصمتها (قرطبة) .

كما حكم (المغرب الأقصى) الأدارسة ، وتأسست آنذاك (جامعة القرويين) بفاس ، وجاء المرابطون ، فالموحدون ، وحكموا الأندلس ، والمغرب الأقصى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأدنى ، وصقلية ، وفى عهدهم أخذت تشع العلوم والمعارف من جامعتى القرويين ، وقرطبة .

(٣) العصر العباسى ، ومبدؤه قيام دولتهم ، وينتهى بسقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) العصر التركى والمملوكى ، ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهى عند النهضة

=الفترة ، فهى فترة من الجهل والانحطاط حلت بالأمة بعد أن كان لها شىء من التمدن ، ومن هذا النوع جاهلية العرب قبل محمد عليه السلام ، ومما يؤيد ذلك قوله سبحانه: « .. على فترة من الرسل » وفى أشد أزمان الجهالة تتخلف رواسب من العلم والدين والحياة فى الحكم والأمثال ، وفى معاملات الأشخاص ، وحالة العرب فى جاهليتهم تدل بوضوح على اتصالهم بمدنيات سابقة لاتزال واضحة فى تراثهم .

الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى أو سنة ١٢٢٠ هـ .

(٥) العصر الحديث ، ويبتدىء من مستهل القرن التاسع عشر عقب غزوة نابليون لمصر واستيلاء محمد على عليها إلى الوقت الحاضر .

ب — الأدب :

للأدب معنيان : معنى خاص ومعنى عام ، فالأدب بمعناه الخاص هو كل ما أثر عن شعراء الأمة وكتابها من القول البديع الرائق المحلى بالأخيلة الرائقة والصور الجميلة ، المشتمل على المعانى الفريدة ، المصوغ صياغة موسيقية خاصة تتناسب مع معانيه . والغرض منه نقل تجربة الكاتب أو الشاعر وأحاسيسه التى فاضت بها مشاعره إلى السامع أو القارئ . وكلما كان الأديب متمكناً من صنعته مالكاً أزمّة لغته ، صادقاً فى عاطفته ، قديراً على التعبير عما يجيش فى نفسه كان لنفثات يراعه التأثير الذى يرجّيه فى نفوس سامعيه وقارئيه .

أما الأدب بالمعنى العام فيطلق على جميع ما صنف فى أى لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية ، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء . ولكن الذى يعنينا فى بحثنا ، والذى يهتم به مؤرخو الأدب ، هو الأدب بمعناه الخاص .

وأدبنا العربى الذى نؤرخ له يعد من أغنى الآداب فى العالم ، لأن اللغة العربية التى عبرت عن هذا الأدب صارت لغة شعوب كثيرة ذات حضارات عريقة اتخذتها لساناً لها بعد الإسلام ، وأودعتها كل ما ورثته من معان وصور ، وأفضت إليها بأسرار لغاتها ؛ وجابت هذه اللغة العدنانية أقطار الأرض مشرقة ومغربة تحمل الدين والحضارة والعلم فى وقت كان العالم فيه يغط فى سبات عميق ، فصرعت كل لغة نازلتها ، ووسعت علوم الأولين وآداب الأقدمين من يونان

وفرس وأحباش ويهود وهنود ، وصارت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار ، تتألف ثم تتشعب ، ثم تتجمع ، ثم تصب فى محيط واحد هو اللغة العربية .

والغاية من الأدب دفع الإنسانية دفعاً حميداً فى طريق الرقى والسمو ، والارتفاع بالنفس الإنسانية وتصوير المثل العليا أمامها تصويراً بارعاً مقنعاً حتى تتعلق بها ، وتنهج على منوالها ، وتحل على ضوئها مشكلاتها وتبشيع الرذائل والآفات الاجتماعية لتبتعد عنها وتزدريها ، وبذلك ينهض المجتمع فضلا عما فيه من لذة فنية بنقل الإنسان إلى تجارب أفذاذ الكتاب والشعراء فيفيد من تجاربهم ويضيف إلى ثروته العقلية والعاطفية ما أفاضوه عليه فى أدبهم . والأدب كذلك ينهض بالملكة البيانية لدى القراء والسامعين حين يحفظون روائعه ، ويعون نوادره فيجرى على أسالة ألسنتهم ويرتفع بقدراتهم التعبيرية ، وكلما كان الإنسان قادراً على الإيضاح عن نفسه بعبارة خلابة كان أمعن فى معنى الإنسانية ؛ لأن الإنسان يتميز عن بقية المخلوقات بالبيان واللسان .

تاريخ الأدب :

وتاريخ الأدب هو ذلك العلم الذى يبحث عن أحوال الأدب فى مختلف عصوره ، وما أصابه من قوة أو ضعف ، وأسباب ذلك وعلله ونتائجه ، وتطور الأنواع الأدبية ، ويعنى بتاريخ النابهين من الكتاب والخطباء والشعراء ، ويلقى أضواء على نتاجهم تبين ما فيه من أصالة وقوة أو تقليد وضعف ومدى تأثير بعضهم فى بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب ، ومدى تأثرهم بالحياة فى عصرهم وتأثر عصرهم بهم .

وتاريخ الأدب بهذا المعنى علم حديث النشأة فى اللغة العربية نقله إلينا

من الغرب لأول مرة الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه فى دار العلوم .

أمّا العرب فقد عنوا قديماً بتأليف كتب التراجم للأدباء والشعراء والعلماء ، وتوسعوا فى هذا الضرب من أمثال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغانى للأصفهانى ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، وخريدة العصر للعماد الأصفهانى ، ولكنها كانت تراجم مفردة لا تربط الكاتب أو الشاعر بعصره ، ولا تلقى ضوءاً على المؤثرات العامة فى أدبه ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة فى الصناعة والغرض والأسلوب ، ولا تذكر ماعرا النظم والنثر من تحول وتقلب وتطور : ولا الأسباب السياسية والاجتماعية والثقافية التى أثرت فى حال الأدب .

ودراسة تاريخ الأدب بهذه الصورة تقفنا على تراثنا الجليل ، وأسلافنا الأمجاد ، وعبقرياتنا الفذة وتصل ما ضينا بحاضرنا ، فتزداد عزة وقوة وتمسكاً بقوميتنا ولغتنا . وتقفنا كذلك على عوامل القوة فى الأدب فنزداد منها ، وعوامل الضعف فنتجنبها ؛ وتلقى أضواء ساطعة على النصوص الممتازة فتصقل ذوقنا الأدبى ، وتعودنا الأحكام الأدبية السليمة .

عوامل نهضة الأدب الجاهلى :

لعلّ أهم هذه العوامل أن العرب كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، وكان لا بدلهم من التعبير عما يجيش فى نفوسهم من حب وكراهية ، وأمل ويأس ، وعتاب واعتذار وغير ذلك من العواطف الإنسانية ، وما أكثر ما كانت تتهيأ الأسباب لإثارته وجيشان عاطفته ، وكان الشعر لسهولة روايته وحفظه هو الفن الذى اصطنعوه للتعبير عن عواطفهم .

ومن العوامل التى أدت إلى نهضة الأدب شعره ونثره فى الجاهلية شدة العصبية القبلية وكثرة أيامهم وحروبهم ، بما فيها من رثاء القتلى والحض على الدفاع عن الحرامات والذود عن الأعراض ، والمطالبة بالثأر والانتقام ، والتذكير بالمفاخر والأمجاد ، ومدح الأبطال والإشادة ببلائهم ، وذم الأعداء وتعييرهم بالهزيمة ، أو توعدهم بالانتقام .

وكان أقدم شعر رواه الرواة فى العصر الجاهلى ثمرة حرب ضروس اندلع أوارها بين ابنى وائل بكر وتغلب وهى حرب البسوس ، وكاد كل أبطالها يكونون شعراء من جساس بنى مرة وأخته جليلة والمهلهل بن ربيعة أخى كليب وائل الذى قتله جساس وكان سبب هذه الحرب الشعواء ، والحارث بن عباد وغيرهم ، وقد سجل الشعر أيامهم وما فيها من انتصار واندحار . وكان المهلهل على ما روى مؤرخو الأدب أول من قصد القصيد ، ووضع تقليد الشعر العربى الجاهلى .

ولقد أثمرت حرب أخرى شاعرين عظيمين فى الأدب الجاهلى هما عنترة العبسى ، وزهير بن أبى سلمى وتلك هى حرب داحس والغبراء ، وقد أبلى فيها عنترة بلسانه كما أبلى بحسامه ، وقال فى وقائعها وما قام به من هجمات وانتصارات ما يعد من روائع شعر الفروسية . أما زهير فبعد أن رأى أن هذه الحرب قد كادت تفنى الفريقين المتخاصمين عبس وذبيان ، وأن الحارث بن عوف المرى وهرم بن سنان قد سعيا فى الصلح بينهما ، وتحمل ديات القتلى أشاد بفعلهما وذم الحرب وأورد كثيراً من الحكم التى تمثل طبيعة العصر الجاهلى وما سار فيه من مثل .

ولقد كان وجود ملوك الحيرة والغساسنة ، وإغداقهم على الشعراء المادحين لهم العطاء سبباً آخر من أسباب نهضة الشعر الجاهلى ؛ إذ انتجعهم وبخاصة

ملوك الحيرة جمهرة الشعراء ، واشتهر من بينهم النابغة الذبيانى الذى استن سنة المديح فى الأدب العربى والتكسب به ، وحسان بن ثابت .

كما أن طبيعة البادية والحياة فيها أوحت إلى الشاعر بكثير من فنون القول فى الوقوف على الأطلال والدمن وتذكر أويقات السرور والمتعة التى قضاها فى هذه الربوع ، ووصف المناظر الخلابة المختلفة التى يقابلها فى رحلته ، والنسيب بامرأته التى خلفها وراءه إلى غير ذلك من الأغراض التى سنذكرها فيما بعد.

كما أن كثرة الخصومات والمنازعات والمنافرات دعت إلى نمو الخطابة وازدهارها وتوسط الحكماء فى فض المشاحنات ، يوردن الحكمة البارعة لتهدئة النفوس ورد السيوف إلى أغمادها وحقن الدماء ، ويؤيدون أقوالهم بالأمثال المشهورة كأنها الحجة الدامغة .

هذه أشهر العوامل التى أدت إلى نهضة الأدب الجاهلى ، وقد وجدوا فى الأسواق الكثيرة التى كانت تقام على مدار السنة وبخاصة سوق عكاظ مجالا للإنشاء والخطابة والمنافرة ، وكان هناك حكام يفصلون فى الخصومات ويحكمون بين الشعراء ، وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة من آدم فى سوق عكاظ ليفصل بين الشعراء حين ينشدونه .

ولقد علم العرب ، ووقر فى يقينهم أن الكلمة لها تأثيرها القوى فى نفوس الناس ، فاستعظموا كلمة السوء تشيع على أحدهم ، وجهدوا أن يخلدوا ذكراهم بالأفعال الحسنة ، فأشادوا بفضائلهم ومثلهم العليا ، وكم من بيت رفع الخامل وكم من آخر أخزى قبيلة .

هذا فضلا عن أن العرب قوم ذوو نفوس شاعرة وطباع ثائرة يستفزهم الرغب والرهب . ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئا يجول فى النفس

أو يقع تحت الحس إلا قالوا فيه ، وجاء شعرهم ديوان علومهم وحكمهم ، وسجّل وقائعهم وسيرهم .

فنون الأدب فى العصر الجاهلى :

١ — الشعر : تعريفه وأوليته :

هو الكلام الموزون المقفى الذى يعبر عن خلجات النفوس بأروع الصور وأجمل الأخيلة وكان العرب يتوسعون فى معناه فى الجاهلية ، فيطلقونه على النثر المسجوع المشتمل على الخيال المؤثر ، ومن هنا اشتبه عليهم الأمر بادىء ذى بدء فتوهموا أن القرآن شعر ، ثم يتبين لهم ما هم فيه من خطأ لأن الشعر الجاهلى كان قد تميز عن النثر المسجوع ببحوره المعروفة ، ونظام قصيده .

والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لصلته بالشعور ، وعدم احتياجه لرقى العقل، لأنه لغة العاطفة والعاطفة تكون على أشدها لدى الشعوب البدائية .

ولكن أوليته عند العرب غير معروفة ، فقد ظهر إلى ضوء التاريخ ناضجاً محكم القصيد ، متعدد الأوزان والبحور ، ولا شك أنه قد مرّ بمراحل طويلة قبل أن يصل إلينا . ويقال فى نشأته : إنه مرّ من النثر المسجوع الذى كان ينطق به الكهان تعمية للجواب ، وفتنة للسامع ، وإغرابا فى المعنى إلى الغناء حين ارتقى ذوقهم الغنائى فجاءوا بجمل متشابهة فى أوزانها وقوافيها ، فكان الرجز (مستفعلن ست مرات) ، وبذلك اجتمع الوزن والقافية فكان الشعر ، ولا يزال يقال للشاعر اليوم حين يلقى قصيدته بأنه أنشدها لعلاقة الشعر منذ القدم بالغناء .

ثم تعددت الأوزان بتعدد الأغراض فكان للحماسة وزنها ، وللغزل وزنه وللهزج وزن وهكذا إلى سائر الأوزان التى حصرها الخليل بن أحمد فى خمسة عشر

وزنا سماها بحوراً ، وأضاف إليها الأخفش النحوى بحراً آخر سماه المتدارك فصارت ستة عشر بحراً .

ويرجع بعضهم أولية الشعر إلى الحداء ، حين أراد العربى أن يستحث ناقته على السير . فأخذ يغنى لها على وقع خطواتها .

ثم تصادف أن جاء كلامه موزوناً مقفى فطربت له وأسرعت فى سيرها ، ويزعم العرب أن أول من قاله مضر بن نزار حين سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه ! ، وكان من أحسن خلق الله صوتا ، فأصغت الإبل إليه وجدّت فى سيرها ، فقطعوا على هذا الوزن لحن الحداء وسموه الرجز ، والواقع أن لفظة حاد تؤدى معنى سائق . ولقد قالوا فى هذا : الرجز بِكْرُ الشعر السجع أمه والحداء أبوه ، ومن أمثلة الرجز الذى تحدى به الإبل قولهم :

دع المطايا تنسم الجنوبا إن لها لنبأ عجيبا حنينها وما اشتكت لغوبا
يشهد أن قد فارقت حبيبا ماحملت إلاّ فتى كئيبا يُسِرُّ مما أعلنت نصيباً
لو ترك الشوق لنا قلوبا إذاً لآثرنا بهن النيبا إن الغريب يسعد الغريبا

مميزات الشعر الجاهلى :

كان الشعر الجاهلى انعكاساً لنفسية العربى ربيب الصحراء ، ممثلاً لطباعه وبيئته أتم التمثيل ، وأهم ظاهرة تسترعى الانتباه فى هذا الشعر هو صدقه فى تصوير عواطف قائليه ، وكان مثلهم الأعلى قول أحدهم :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

يتحدثون عن أنفسهم وعن معاركهم وعن الطبيعة بدون تزيد أو اختلاق أو إغراق فى الخيال ، فلا تجد كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً فى الأداء ، وكان هذا

الشعر فى الأعم الأغلب يأتى عفو البديهة ، ونتيجة الارتجال فقلّ فيه المنطق ، واتساق الفكر ، وجاءت أبياته مستقلة بعضها عن بعض إلاّ ما كان أقصوصة أو حكاية وهو قليل ، ولذلك كان البيت هو الوحدة التى ينظر إليها فى القصيدة ، بل عد من عيوب الشعر أن يرتبط إعرابياً بما قبله أو بعده كقول النابغة فى بنى أسد حلفاء قومه :

وهم وردوا الجفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عكاظ إنى
شهدت لهم مواطن صادقات ... أتيتهم بودّ الصّدْر منى

حتى صار من الممكن التقديم والتأخير فى أبيات القصيدة من غير أن يخل ذلك بالمعنى العام لها .

ومن مميزات هذا الشعر أن معناه فى ظاهر لفظه من غير تعقيد فكرى ، وكان هذا نتيجة معيشته فى الصحراء ذات الجو الرائق والشمس الساطعة والهواء المنطلق ، فأورثته هذه البيئة صفاء الفكرة والإحساس بأنه طليق لا تقيده قيود ولا تقف أمام ناظريه عوائق . ولم يكن صاحب فلسفة ، وإنما استمد معانيه من بيئته ذات المناظر المحدودة ، ومن تجاربه فى الحياة ، فجاءت فطرية ساذجة : لاعمق فيها ولا تكلف لها .

وقد عودهم البحث عن الماء وهو أغلى شىء فى الصحراء الوصول إليه من أقصر طريق ، وبذلك كانوا يقصدون إلى التعبير عما فى نفوسهم بدون التواء أو غموض ، فى أوجز لفظ ، بل صار المثل الأعلى فى البلاغة لديهم الإيجاز .

ومن مميزات هذا الشعر الدقة فى الوصف ، وقد وصفوا كل ماتناولته حواسهم بمهارة غريبة ، ولم يدعوا شيئًا فى الصحراء إلا وصفوه من نبات وحيوان وإنسان وجماد . وقد أكثروا من وصف الناقة بخاصة ولا بدع فهى رفيقهم فى

سفرهم ، وعليها حمولتهم و بلاغهم . وكانوا يكثرون من الغريب والألفاظ الخشنة فى وصفهم الدقيق ولا سيما فى وصف الناقة كما فعل طرفة بن العبد فى وصف ناقته بمعلقته المشهورة . وتكاد لا تخلو قصيدة كبيرة من الوصف : وصف الناقة والاستطراد إلى وصف مناظر الصحراء و بخاصة مناظر الصيد ولهم فى ذلك آيات تعد من الإعجاز فى تصوير الحركات التى يدق على المصور إبرازها خذ مثلا قول النابغة الذبيانى يصف ثوراً وحشيًا وقد ضرب بقرنه كلباً من كلاب الصيد ، فأنفذ قرنه من كتفه وصار رُوقه (قرنه) وقد تعلق به الكلاب كأنه سفود الندامى وقد شبوه بعد أن لعبت بلبهم الراح أمام النار التى أوقدوها للشعراء :

شَكَّ الفريصة بالمِدْرَى فأنفذه   طعنَ المبيطر إذ يَشْفى من العَضَدِ(١)

كأنه خارجًا من جنب صفحته   سَفُّودُ شَرْبٍ نَسَوْهُ عند مُفْتَأَدِ(٢)

أو قول امرىء القيس فى وصف حصانه :

مِكَرٍّ مفر مقبل مدبر معًا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

والشعر الجاهلى كله شعر غنائى يتحدث عن المشاعر الفردية أكثر مما يتحدث عن المشاعر الجماعية ، وليس فيه شعر ملاحم ولا شعر تمثيلى ، على كثرة ماجرى بين عرب الجاهلية من حروب ، ولكن العرب لم يكن لديهم أساطير وخرافات دينية كما كان عند اليونان حتى ينشئوا الملاحم على منوالهم ،

---

(١) الفريصة : بضعة فى مرجع الكتف ، والمبيطر : البيطار ، والعضد : داء يأخذ فى العضد .

(٢) الصفحة : الجانب ، والسفود : الحديدة التى يعلق فيها اللحم للشواء ، والشرب : جماعة الشاربين ، والمفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه . وخارجاً : تعرب حالا .

كما أن أبطالهم كانوا هم الشعراء ولو جمع ماقاله كل منهم فى موقف من مواقف الحرب وربط بينه و بين غيره لتولدت الملحمة و إن خلت من الخرافات والآلهة .

وقد غصّ هذا الشعر العربى الغنائى بألوان الحكمة الفطرية المنتقاة من وحى البيئة والتجربة . مما تدل على حصافة عقل ورجاحة ذكر ، وتمثل هذه الحكمة مثلهم العليا وعاداتهم ولون الحياة التى يحيونها .

هذا وقد ذكرنا كيف حددت الصحراء وكثرة الارتحال نظام القصيدة العربية : من وقوف على الأطلال والدمن وتذكر الأوقات العديدة ، والنسيب بالحبيبة وغالباً ماتكون زوج الشاعر ، ثم وصف الناقة والاستطراد إلى وصف مناظر الصحراء ثم التحدث عن الغرض من الرحلة فخراً أو هجاء أو حماسة أو مدحا . ولم يكن الجاهليون يتكسبون بالمديح إلا فى أخريات العصر وكان ذلك على يد النابغة الذبيانى ، وكان مدحهم فى الغالب لأعمال باهرة قام بها الممدوح ، ولم يكونوا يبالغون فيه وإنما كانوا يقولون إذا استثنينا النابغة ، كما قال زهير ابن أبى سلمى فى هرم بن سنان :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

فهو هنا تحرز بلو ولا يبالغ كما بالغ النابغة بقوله :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكان أكثر أغراض الشعر الجاهلى تداولاً الحماسة والفخر والهجاء والرثاء والوصف والغزل والنسيب ثم الحكم وقد أثر الأدب الجاهلى تأثيراً كبيراً فى الشعر العربى ، وكان العرب ينظرون إلى الشعر الجاهلى على أنه المثل الأعلى لهم ، وظلوا ينسجون على طريقة القصيدة العربية حتى جاء العصر الحديث ، فتحولوا عنها ، وجددوا فى أسلوبها .

مكانة الشاعر : كان الشاعر فى الجاهلية لسان قومه والمدافع عنهم ، والمشهر

لمفاخرهم والمشيد بأبطالهم ، كان شاعر القبيلة فى الأعم الأغلب ، أشبه بالصحيفة الحزبية فى أيامنا هذه ، وكان لكل شاعر راوية يذيع شعره وينشره بين القبائل :

ولذلك كانت القبيلة تهنأ إذا نبغ فيها شاعر . وكانوا ينظرون إليه على أنه رجل وهب من المعرفة ماستر عن العامة ، وذلك بوساطة شعور خفى يزعمون أنه أوحى إليه من شيطان خاص به ، فالشاعر فى نظرهم حليف قوىً غير مرئية تؤثر فى هناءة الإنسان وفى شقائه .

كان الشاعر فى الجاهلية حكيم قومه ومرشدهم وخطيبهم ونائبهم المتكلم باسمهم ومؤرخهم والعالم بأنسابهم ومفاخرهم وهزائم أعدائهم ، مدركاً لمواطن الضعف النفسى فى القبائل التى تنازع قبيلته ، ولنقائصهم التاريخية مما يجعله قادراً على التشهير بهم وجعلهم موضع الهزء والسخرية .

وقد أحلت الحياة فى البادية ، وما عليه المجتمع البدوى القبلى ، وما يخوضه هذا المجتمع من معارك فى سبيل البقاء هذا الشاعر تلك المنزلة السامية . ولما كان العرب أميين تمسكوا بالشعر ووعته ذاكرتهم فكان القول يسرى فى الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها سريان الريح ، وكم من بيت رفع قبيلة وأعلى ذكرها بعد أن كانت ذليلة كقول الحطيئة فى بنى أنف الناقة وكانوا يعيرون باسمهم .

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعده يتباهون باسمهم .

وكم من بيت خفض قبيلة بعد عزة كقول حسان بن ثابت فى بنى عبدالمدان وكانوا يفتخرون بطول أجسامهم وضخامتها .

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فصاروا يستحون من هذه الأجسام .

ولا عجب إذا احتل الشعر واحتل الشاعر هذه المكانة فى هذه البيئة الأمية ، فكان الشعر هو كل فنهم وعلمهم وحكمتهم ومصدر فخارهم ، وكان كما ذكرنا آنفاً صادقاً فى تعبيره ، دقيقاً فى تصويره ، فنظموه ورهبوه وأحلوا صاحبه أعلى منزلة .

ولم يكن العرب أمة مستقرة ذات حضارة تبنى الدور والقصور ، والهيا كل الضخمة التى تخلد عظماءها أو تدون تاريخها فى كتب كما فعلت الأمم من قبلهم . والشهرة والخلود مطمع الإنسان منذ بداية الخليقة ، ووجد العرب أن الشعر هو السبيل الوحيد لديهم كى يخلد ذكراهم ويشيد بمناقبهم وكريم أفعالهم وهو من أقوى الفنون تأثيراً فى النفوس وتعلقاً بالألسنة ؛ فلا عجب إذا اهتموا به غاية الاهتمام . واحتل الشاعر من نفوسهم منزلة لا تدانى .

ولقد بلغ من إعزازهم للشعر أن اختاروا عيونه وعلقوها فى أستار الكعبة موضع تقديسهم ومكان آلهتهم وأصنامهم فسميت هذه القصائد بالمعلقات .

تلك كانت منزلة الشاعر فى الجاهلية ، ولعلّ أمة من الأمم لم تمجد شعراءها مثلما مجدَ العرب شعراءهم فى ذيّالك العصر .

٢ — النثر :

وهو أسبق أنواع الكلام فى الوجود لعدم تقيده وضرورة استعماله ، والمقصود بالنثر هنا ليس لغة التخاطب بين الناس ، وإنما هو النثر الفنى . وقد عرفنا أن العرب كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون فلم يكن لديهم ذلك النثر الذى يأتى نتيجة التأنى وإمعان الفكرة والتأنق فى العبارة عند تدوينه بالكتابة شأن الأمم ذات الحضارات ، وإنما عنى العرب بفن القول يرتجلونه ارتجالاً عند الحوادث الجلى وفى المناسبات الهامة ، ولقد أثر عن العرب نوعان من النثر : مسجوع

ومرسل . فالمسجوع ما التزم فى كل فقرتين منه أو أكثر قافية واحدة ، والمرسل هو الذى لا يتقيد بالقافية . ولعلهم سموا المسجوع بهذا الاسم أخذاً من سجع الحمامة وهديلها وترقيعها . وقد اشتهر بالمسجوع جماعة الكهان والعرافين للتعمية والإيهام والإبهام ، وقد يسجع بعض الخطباء عفواً كما سنذكر فيما بعد .

وكان العرب ينطقون بالنثر معرباً غير ملحون لقوة سليقتهم ، وفعل الوراثة فيهم ، وقلة الاختلاط بالأعاجم وإن اختلف العرب فيما بينهم فى هيئات المنطق من ترقيق وتفخيم وإبدال وإمالة . ولم يعن العرب برواية منثورهم على كثرته إلاّ بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه ، وقد أثر عنهم أنواع من النثر : الخطب والأمثال والحكم والوصايا .

الخطابة :

وقد اهتم العرب فى الجاهلية بالخطابة اهتمامهم بالشعر ، وإن كان ماروى من خطبهم قليل نظراً لصعوبة حفظ النثر ، وقد دعاهم إلى الاهتمام بها شدة حاجتهم إليها من الفخر بحسبهم ونسبهم ، والذود عن شرفهم وأعراضهم ، وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين ، والسفارة بين رءوس القبائل واقيالهم أو بين الملوك وعمالهم ، وفى كل مناسبة هامة كخطبة الإملاك (الزواج) ، والمنافرات وغيرها .

وكانت الخطابة عندهم تعتمد على الخيال والبلاغة والقول الموجز والمعنى الواضح ، والجمل القصيرة وكثيراً ما كانت تغص بالأمثال التى تأتى كالبراهين المؤيدة لأقوالهم ، والحكم التى تشع لوناً فكرياً خاصاً على خطبهم فتكسبها روعة وتأثيراً . وكانوا يميلون إلى الخطب القصيرة حتى تكون أعلق بالقلوب ، وأذيع فى الآفاق .

وكان من عادتهم فيها الوقوف على نَشَزٍ من الأرض ، أو القيام على ظهر دابة — كما فعل قس فى عكاظ إذ كان يخطب على جمل أورق (أحمر) — ورفع اليد

ووضعها ، والاستعانة على العبارة بالإشارة ، واتخاذ المخاصر بأيديهم ، والاعتماد على رمح أو سيف أو عصاً .

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة نظيف البزّة ، جهير الصوت ، سليم المنطق ثبت الجنان . وكثيراً ما كان الشعراء هم الخطباء . ومن أشهر خطبائهم فى الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادى ، وأكثم بن صيفى ، وعمرو ابن معد يكرب الزبيدى وعمرو بن كلثوم التغلبى ، وإياس بن قبيصة الأسدى ، وقيس بن زهير العبسى .

الأمثال :

جمع مثل ، وهو قول سائر موجز يشبه فيه حال الذى قيل فيه بحال الذى أنشىء من أجله ، وهو فى الغالب نتيجة قصة أو حادثة معينة قيل فيها ، ثم شاع على الألسنة ، وصار يضرب فى كل حال مشابهة .

وهذا النوع يكاد يكون خاصاً بالعرب من دون الأمم لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية ، وقدرتهم الفائقة على تركيز الفكرة ، وإيرادها بأوجز لفظ . كقولهم : وافق شَنٌّ طبقة ، وعند جهينة الخبر اليقين ، ولا يطاع لقصير أمر ، ولأمرٍ ما جدع قصير أنفه ، وبلغ السيل الزُّبى ، وإنك لا تجنى من الشوك العنب ، رمتنى بدائها وانسلت ، أحَشَفاً وسوءَ كِيلَةَ ، قبل الرِّمْيِ يراش السهم ، يداك أوكت وفوك نفخ .

وقد عنى العرب فى عصر التدوين بجمع هذه الأمثال وشرحها وذكر أسبابها وما وراءها من قصص ومن أشهرهم الميدانى المتوفى سنة ٥١٨ هـ فى كتابه مجمع الأمثال ، ورتبه على حروف المعجم .

الحكمة :

هى قول رائع موجز مشهور موافق للحق ينتظم قانونا من قوانين الحياة ،

وهى ثمرة الحنكة ، ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة ، وقد استفاضت هذه الحكمة فى شعرهم ونثرهم ، واشتهروا بها أكثر من أى من الأمم ، وهى تدل على قدرة فائقة فى استخلاص القواعد العامة من مفردات التجارب وأحداث الحياة ، وصوغها تلك الصياغة البارعة . كقولهم : من سَلَكَ الجدد أمن العثار . عِيٌّ صامت خير من عى ناطق . رب عجلة تهب ريثا . العتاب قبل العقاب . التوبة تغسل الحَوْبة . أول الحزم المشورة . رب قول أنفذ من صول ، أنجز حرٌّ ما وعد ، أترك الشر يتركك ، مِنْ مأمنه يؤتى الحذر .

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقد اشتهر من حكمائهم أكثم بن صيفى وقس بن ساعدة الإيادى ، وزهير ابن أبى سلمى ، ويكاد لا تخلو خطبة ، ولا قصيدة من حكمة .

الوصايا :

والوصية نصيحة يسديها الأب إلى ابنه أو بنته أو الأم إلى ولدها أو بنتها أو حكيم القوم إلى قومه . وهى كالخطبة فى أسلوبها وقوة أدائها . وميلها إلى الإيجاز إلا أن الخطبة تلقى فى محفل عام وعلى مشهد من الناس بيد أن الوصية فى الغالب عمل فردى يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وكثيراً ما كانت تقال من الكبير إلى الصغير عند الوفاة .

وممن اشتهروا بالوصايا فى الجاهلية ذو الإصبع العدوانى وزهير بن جناب الكلبى ، وانتشر هذا اللون بين الأعراب يعطون فيه خلاصة تجاربهم وحكمتهم لأحبائهم فى المناسبات الخاصة فمن ذلك قول أعرابية توصى ابنها :

« أى بنى ! إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ،

وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يَهِيَ ما اشتد من قوته ، و إياك والجود بدينك والبخل بمالك ، و إذا هززت فاهزز كريما يلين لهزتك ، ولا تهزز لئيما فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها . . الخ . .

موضوعات للبحث

١ ـ كان الشعراء اذا مدحوا شخصاً قالوا : هو ربيع الناس ، يعنون أنه منعم عليهم ، ومحسن إليهم ، ولم يكن ليستقيم هذا التعبير لولا أن الربيع فى الجزيرة العربية فصل خير يرزق فيه الناس ـ ناقش موضحاً كيف تؤثر طبيعة البيئة فى اللغة والأدب .

٢ ـ الشعر : هو الكلام الموزون المقفى : ما هو الوزن ؟ وما هى القافية ؟ وما هو الدور الذى يمثلانه فى الشعر ؟ وهل يكفى وجودهما وحدهما دون سائر العناصر لجعل الشعر شعراً ؟ أيد رأيك بالشواهد .

٣ ـ اللغة كائن حى ، وضح هذا مبيناً كيف تطورت اللغة العربية والمؤثرات التى أثرت فيها .

٤ ـ شبه قدماء اليونان الشعر بمركبة فخمة يجرها جوادان هما العاطفة والخيال ، ويوجههما حُوذى حكيم ، هو العقل .

اشرح هذه الصورة ، وحلل عناصرها ، ووضح ما إذا كانت هذه العناصر وحدها كافية لتقييم الشعر .

المراجع

١ ـ النابغة الذبيانى : عمر الدسوقى ، مصر ١٩٥٤

٢ ـ تاريخ العرب : فليب حتى ، بيروت ١٩٤٩

٣ ـ علم اللغة : عبد الواحد وافى ، مصر ١٩٤٨

٤ ـ اللغة والأسرة : عبد الوحد وافى ، مصر ١٩٤٨

٥ ـ الأدب العربى وتاريخه : هاشم عطية ، مصر ١٩٣٦

٦ ـ تاريخ التمدن الإسلامى : جرجى زيدان ، مصر ١٩٣٧

٧ ـ قصة الأدب فى العالم : أحمد أمين وزكى نجيب مصر ١٩٤٨

٨ ـ مذكرات فى اللغات السامية : حسنين مراد

٩ ـ تاريخ الآداب العربية : كارلو نالينو ، مصر ١٩٤٨

١٠ ـ فى الأدب الجاهلى : طه حسين ، مصر ١٩٤٧

١١ ـ فن الشعر : احسان عباس ، بيروت ١٩٥٥

١٢ ـ الأدب وفنونه : عز الدين اسماعيل ، مصر ١٩٥٨

الباب الأول

الشِّعرُ الجاهِلى

الفصل الأول

شاعران قديمان

الصعاليك

الصعلوك فى اللغة : الفقير الذى لا يملك من المال قوت يومه ، ولا يتوفر له ما يعينه على مستلزمات الحياة ، ولم تقف كلمة الصعلوك فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدلّ على اللصوص الذين يتجردون للغارات والنّهْب والسّلب وقطع الطرق . ويمكن أن نسلكهم فى ثلاث طوائف :

طائفة الشّذّاذ الذين تبرأت منهم قبائلهم ، وجردتهم من نسبتهم إليها ، خوفاً من جريرة أعمالهم وجرائمهم أن تجرّ عليهم مشاكل لا قبل لهم بها ، وتؤلّب عليهم أصحاب الحقوق . مثل حاجز الأزدى ، وأبى الطّمحان القينى .

وطائفة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ، ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل : السُّلَيك بن السُّلَكة ، وتأبطَ شرّاً ، والشّنفرى .

وطائفة ثالثة : لم تكن من الخُلعاء ، ولا من أبناء الإماء الحبشيات ، بيد أنها احترفت الصّعلكة ، واتخذت منها مِهْنة مثل : عُرْوة بن الورد العبسى ، وأبى خِراش الهُذَلِىّ .

وكانت هذه الفئات الطريدة تعيش فى الفلاة . وتعتصم بالكهوف والمغارات،

وتتخذ من السّلب والإغارة على الأحياء الآهِلة ، وقطع الطرق على القوافل والسابلة عملاً ترتزق منه ، ويتّصفون بالشجاعة والصبر وسرعة العدو ، حتى لتضرب بهم الأمثال فى شدة العدو ، فيقال: أعدى من الشنفرى ، وتروى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب .

وهم فى أشعارهم يتغنّون بمغامراتهم ، ويجأرون بصيحات الجوع ، كما تؤجّ أنفسهم ، بالثورة على الأغنياء الأشحاء ، ونرى عندهم غير قليل من الترّفع والكرم والبرّ بالأهل ، والشعور بالكرامة .

الشنفرى

(القرن الخامس وأوائل السادس م)

حياته :

هو ثابت بن أوس الأزديّ اليمنى ، فهو قحطانىّ النسب ، والشّنفرى : لقب له لعظم شفتيه ، ولد فى قومه الأزد ، وتجرى فى عروقه دماء حبشيّة انسربت إليه من جهة أمه ، فهى حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ، ولذلك عدّ من أغربة العرب ، وَسَباه بنو سلامان صغيراً ، وشبّ بينهم حتى عَرَف حقيقة أمره ، فهرب مُضمراً لهم الشر ، وأقسم أن يقتل منهم مائة رجل ، فـكمن لهم فى كلّ مرصد ، وقطع عليهم كل طريق ، وأخذ يتخطفهم الواحد بعد الآخر حتى قتل تسعة وتسعين ، فاحتالوا عليه حتى أمسكه عدّاء منهم يُدْعى أسيد بن جابر ، وقتله سنة ٥١٠ م ، فمرّ برفاته رجل منهم فركل جمجمته شامتاً فدخلت شظية منها فى رجله فمات ، فتمت به القتلى مائة ، وبذلك قَرّت عين الشّنفرى بعد موته وبرّ بقسمه ، على ما تحكيه القصة الجاهلية . وهو معدود من أهل البادية العدائين الذين لا تلحقهم الخيل ، وله قرناء فى هذا ، كما أنه معدود من الشعراء الصعاليك ، ويقال إن الذى روّضه على الصعلـكة وقطع الطرق تأبط شرّاً .

آثاره :

له أشعار فى الفخر والحماسة مبعثرة فى كتب الأدب كالأغانى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للبغدادى ، والمفضليات للضّبى ، والأمالى لأبى علىّ القالى ، وطبع أخيراً ديوانه فى القاهرة ، وأشهر شعره (لاميته) المعروفة بلامية العرب ، وقد قاربت السبعين بيتاً ، وعُنِى بها غير واحد مابين علماء عرب كالمبرد والزمخشرى والقالى وهو أقدم راو لها ، وزعم أنها لخلف الأحمر ،

وأن الشنفرى قد نحلها لنفسه ، وما بين مستشرقين كردهوس ، وريس ، ونالينو وبروكلمان .

لاميته :

يمثل الشّنفرى فى شعره الخشن حياة البدوى الـكزّ الطباع ، الفظّ الغليظ السجايا ، الذى جانبه قومه ، . وأفرد إفراد البعير الأجرب ، فأبت نفسه الحرّة أن تحمل الضيم ، فتركهم ساخطا لا يلوى على شىء ــ لأنهم خذلوه فى جناية اقترفها . مخالفين قانون القبيلة الذى يُعين أفرادها ظالمين أو مظلومين ــ وراح يضرب فى الفيافى والقفار ، ولا أنيس له إلا الوحوش ، ولا عضد له إلا السهام ثم نظم لاميته التى كانت عبارة حاله ، واضطرام نفسه ، وهى تصوّر تصويراً حياً حياة الصعلوك الجاهلى . وروحه البدويةالخشنة .

ولم يبدأ الشنفرى لاميته بالغزل جرياً على عادة الشعراء فى ذلك ، وإنما استهلها بذكر رحيله عن قومه ، لأنه أبِىّ النفس لا يقبل الحجر عليه ، ولايصبر على الإيذاء ، وأنه يُؤثر أن يعيش مع وحوش المفاوز ، لأنها لاتخذله ولا تعاقبه على جريمة ارتـكبها ، ولا تذيع له سرّا .

ثم ينصرف إلى التفاخر بالفضائل التى يتحلىّ بها من القناعة وعدم الجشع ، والتّفضل على الآخرين ، وسرعة العدْو ، أما أصحابه فهم ثلاثة : قلب قوى ، وسيف بتّار ، وقوس هتوف ، تعول عندما يزل عنها السّهم ، كما يفاخر بفتكه وتشرذه وجوعه وفقره وقذارة جسمه ، وهو مع ذلك عزيز النفس لا يدع نفسه تنقاد لغرائزها وميولها ، بل يجالدها ، ويثقفها ، ويحدّ من شهواتها مُفضّلا الفاقة والحرمان على الذّل . ومن ثمّ تنقلب بطولته بطولة نفسيّة ، بطولة تغلّب نفسه على شخصه . ومن خلال هذه البطولة نرى صدق التعبير عن الفطرة الساذجة ،

ونرى البعد عن التكلف والتمويه ، فهـــــو صريح لا يرى غضاضة فى ذكر جناياته وأقذاره ·

تـائيته :

وتائيته تجرى على هذا المنوال ، ولو لم يكن له إلا هِىَ لـكانت كافية فى تصوير حياته ومغامراته ، وهو يستهلها بوصف زوجه أميمة وصفاً مثالياً تظهر فيه صفات المرأة الجاهلية المحمودة خلقاً وأخلاقاً ، ثم يتطرق إلى ذكر صديقه تأبط شرّا فى غارة أغارها على بنى سلامان ، وأخذه بثأر أبيه ، وهو فى مستهل غارته يحدثنا أنه كان يقود رفاقه ، معرفا بالطريق التى سلـكوها ، وأنهم كانوا راجلين يقتحمون الصعاب غير هيّا بين ، وهو يعترف فى خلال القصيدة بأنهم قد يرجعون صفر اليدين من غاراتهم ، ولـكن هذا لا يردهم على أعقابهم خاسرين ، ولا يقنطهم ، بل يدفعهم إلى الثبات دفعاً ، فهم لا يخشون الموت ، ولا وعثاء الطريق . ويقص كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ، ويُقتر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغزاة ، وينفد زادهم فيموتون جوعاً ، وهو فى ذلك القص يُنزل تأبط شرا منزلة الأم التى تحنو على عيالها ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأُتنه ، ولـكنها الأم الشرسة التى تنتضى سلاحها إذا ماحلت بهم كارثة ، أو طاردهم مطارد ، ويمضى الشنفرى فى حديثه عن غارته ، وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ليشفى ذات نفسه بالثأر لأبيه ، ويأسى أن يكونوا قومه ، ولا ينتفعوا به وبيأسه .

المنتخبات

أولا ـ اللامية

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّي إِلى قومٍ سِوَاكُم لَأَمْيَلُ (١)
فَقَدْ حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقمِر وشُدَّت لِطِيَّاتٍ مطايا وأَرْحُل (٢)
وَفِي الأَرْضِ مَنْأىً للكريمِ عَنِ الأَذَى
وفيها ، لمن خاف القِلَى ، مُتعزَّل (٣)
لَعَمْرُكَ ما في الأَرْضِ ضِيقٌ على امرىءٍ
سَرَى راغِباً أو راهباً ، وهو يَعْقِل (٤)
وَلِي دُونكم أَهْلُون سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلولٌ وعَرْفَاءُ جَيْأَل (٥)
هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَع السِّر ذائعٌ لَدَيْهم ، ولا الجانى بما جَرَّ يُخْذَل

---

(١) أقيموا : أعدوا . مطيكم : جمع مطية ، وهى الدابة .

(٢) حم الأمر : قضى . الطيات : جمع طية وهى النية . الأرحل : جمع رحل وهو سرج للبعير .

(٣) القلى : البغض وشدة الكراهية . المتعزل : المتنحى .

(٤) سرى : مشى ليلا ، أى أن الأرض لاتضيق بالعاقل الذى يستعمل عقله فى درك المرغوب وترك المرهوب .

(٥) السيد : الأسد أو الذئب . العملس : السريع . الأرقط : النمر . الزهلول : الأملس : العرفاء : أنثى الضبع ، وسميت بذلك لكثرة شعر رقبتها الذى هو بمنزلة عرف الفرس . الجيأل : علم للضبع .

وكلٌّ أَبِيٌّ باسلٌ ، غيرَ أنّنى
إِذَا عَرَضت أُولى الطّرائد أَبْسَل (١)

وإِنْ مُدّتِ الأَيدِى إلى الزّاد لمْ أكُنْ
بأَعْجَلِهم ، إِذْ أَجْشَعُ القوم أَعْجَل

وما ذاك إلاّ بَسطةٌ عن تفضّلٍ عليهم وكان الأفضل المتفضّلُ (٢)

وإنى كفانى فَقْدُ مَنْ لَيْس جازياً بحُسْنَى ولا فى قُربِه مُتعلَّلُ (٣)

ثلاثةُ أصحابٍ : فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبيضُ إِصْلِيتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ (٤)

هَتُوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يزينُها رَصائعُ قد نيطَتْ إليها وَمِحْمَل (٥)

إذا زلَّ عَنْها السّهم حَنّتْ كأنها مُرَزَّأَةٌ ثَكلَى تُرِنُّ وتُعْوِلُ .. (٦)

---

(١) الأبى : الشريف الذى يكره الدنايا ولا يحتمل الضيم . الطرائد : جمع طريدة وهى ماتصطاد .

(٢) بسطة الكف : أى الكرم

(٣) المتعلل : التسلية .

(٤) المشيع : الشجاع . الإصليت : السيف الثقيل الماضى . العيطل : القوس الطويلة العنق .

(٥) هتوف : صفة للقوس أى ذات صوت . الرصائع : جمع رصيعة ، وهى الحلقة المستديرة . نيطت إليها : علقت بها .

(٦) زل عنها السهم : خرج . المرزأة : المرأة المصابة بالرزايا . أعول : رفع صوته بالبكاء والعويل .

أُدِيمُ مِطالَ الجـــــوعِ حتى أُميتَه
وأضربُ عنه الذكْرَ ، صفحاً ، فأذْهَل
وأسْتَفُّ تُرْبَ الأرض كى لا يُرى له
علىَّ مِنَ الطَّول ، امرؤٌ متطوِّل[١]
وأطوى على الْخُمْص الحوَايا كما انطَوَتْ
خُيُوطَة ماريٍّ تُغَـــارُ وتُفْتَل[٢]

ثانياً — التائية

ألاَ أُمُّ عمروٍ أجمعتْ فاسْتقلَّتِ ... وما ودَّعتْ جيرانها إذ تولَّت[٣]
فبِتنا كأن البيت حُجِّرَ فوقنا ... بريحانة ريحتْ عشاء وطُلَّتْ[٤]
بريحانة من بطن حَلْيَةَ نوَّرتْ ... لها أرجٌ، ماحولها غير مُسْنِتِ[٥]

---

(١) سف الدواء واستفه : أخذه ، أى أجول فى الأرض وأستف ترابها دون أن استعطى من الناس لئلا يتطاولوا عليه ويتكبروا ويخزوه .

(٢) الخمص : الجوع . الحوايا : جمع حوية ، أى ما يحوى البطن من الأمعاء وغيرها ، الخيوطة : جمع خيط ، والتاء تدل على الكثرة . مارى : اسم فاتل الخيوط. أغار الحبل : أحكم فتله . أى أشد أمعائى على الجوع فأطويها ، كما يطوى الفاتل خيوطا يفتلها ويحكم برمها .

(٣) اجمعت : عزمت أمرها . استقلت : ارتحلت .

(٤) طل : طلت السماء الأرض . قطرت عليها ، وهو المطر الضعيف .

(٥) غير مسنت : غير مجدب ، وغير قليل الخير .

وَبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بعثْتُها ومَنْ يغزُ يَغْنَم مرةً ويُشَمَّتِ (١)

خَرَجْنَا مِنَ الوَادِي الّذى بين مِشْعَلٍ

وبين الجَبَا ، هيهات ، أنشأتُ سُرْبتى (٢)

أمشِّى على الأرض التى لن تضرَّنى

لأنكِىَ قوماً ، أو أُصادِفَ حُمَّتِى (٣)

أمشِّى على أيْنِ الغزاة وبُعْدها يُقرِّبنى منها رَوَاحى وَغُدْوَتى (٤)

وأمُّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتهم إذا أطْعَمَتْهُم، أَوْتَحَتْ وأقلّتِ (٥)

تخاف علينا العَيْلَ إنْ هِي أكثرت

ونحن جياعٌ ، أىَّ آلٍ تَأَلَّت (٦)

مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُرُ السِّتْرُ دُونها ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إنْ لم تُبَيَّتِ (٧)

---

(١) باضعة : قاطعة ، يقصد رفاقه الصعاليك . بعثتها : غزوت بها . حمر القسى : تحمر لطول تعرضها للشمس . يشمت . يفشل .

(٢) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

(٣) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شيء . أنكى العدو: أصيب منه . الحمة : المنية.

(٤) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . الأين : التعب .

(٥) أم عيال : يعنى تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : قللت وقترت .

(٦) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله .

(٧) مصعلكة : صاحبه صعاليك . لا يقصر الستردونها : لا تغطى أمرها .

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً
إذا آنَسَتْ أولى العَدِيِّ اقْشَعَرَّت[١]

وتأتى العَدِيَّ بارزاً نصفُ ساقها تجُول كعَيْرِ العَانةِ المتلفِّت[٢]

إذا فزعوا طارتْ بأبيضَ صَارمٍ
ورامتْ بما فى جَفْرِها ثم سَلَّت[٣]

حُسَامٍ كلَوْن المِلْحِ صَافٍ حَديدُهُ جُرَازٍ كأقْطاعِ الغَدِيرِ المنَعَّت[٤]

تراها كأذْنابِ الحَسِيل صَوادِراً وقد نَهِلَتْ من الدِّماء وعَلَّت[٥]

جَزَيْنَا سلامان بن مُفْرِجَ قَرْضَها بما قَدَّمت أَيْدِيهِمُ وأزَلَّت[٦]

---

(١) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالون . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٢) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنة الوحشية .

(٣) الجفر : الجعبة . رامت بما فيه : أى بسهامه .

(٤) جراز : قاطع .

(٥) الحسيل : جمع حسيلة ، وهى أولاد البقر .

(٦) أزلت : قدمت .

موضوعات للبحث

١ — بم تعلل انتشار الصعلكة فى العصر الجاهلى ؟ ومن أشهر شعرائها ؟ وما هى سمات أدبهم مع الاستشهاد ؟

٢ — يمثل الشنفرى فى شعره الخشن حياة البدوى الكزّ الطباع ، العزيز النفس ـ استخرج ملامح شخصيته ، وأظهر جوانبها من لاميته .

٣ — للامية العرب ، قيمة أدبية ، فهى صورة لما كان عليه الشعر فى عهد البداوة البعيدة عن الحضارة ، وعن ليونة العيش ، وقد ظهرت فى معانيها وألفاظها واقعية الجاهلية التى تكثر من اعتماد الصور الحسية ، كما كان لها أثر كبير فى الشعراء اللاحقين فعارضها غير واحد ـ وضح .

المراجع

١ — ذيل الآمالى : لأبى على القالى . المطبعة الأميرية

٢ — شرح المفضليات : لابن الأنبارى . المطبعة الأميرية

٤ — الشعراء الفرسان : البستانى . دار المكشوف ، بيروت

٥ — ديوان الشنفرى : الشنفرى ط مصر لجنة التأليف

٦ — الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ط مصر دار المعارف

٧ — الشعراء الصعاليك : شوقى ضيف ط مصر دار المعارف

٨ — الصعلكة والفتوة فى الإسلام : أحمد أمين ط مصر داز المعارف

٩ — الفتوة عند العرب : عمر الدسوقى ط مصر نهضة مصر

١٠ — شرح لامية العرب :

المهلهل

(؟ — ٥٣١ م)

حياته :

هو عديّ بن ربيعة التغلبي ، أخو كليب وائل قيل سُمى مهلهلاً ، لأنه أول من هلهل الشعر أى أرقّه وأطاله ، كان أصبح أهل زمانه وجهاً ، وأشدّهم بأساً ، وأشجعهم جناناً ، وأفصحهم لساناً ، عاش عيشة الفُرّاغ صدر حياته . فعكف على الشراب ، وَلَهَا ولعب مع صديقه همام بن مرّة . أخى جسّاس . وجالس النساء واستمع إلى حديثهنّ ، وتحدث إليهن ، حتى صار أخوه كليب «زير نساء» أى كثير الزيارة لهن .

لم يكن ينظم من الشعر إلا بعض أبيات فى النسيب واللهو ، حتى صُرع أخوه ، فاتّقدت نفسه بانفعال الحزن ، وألهبت شاعريته فنظم القصائد الطّوال فى رثاء أخيه ، وحين نشبت (حرب البسوس) بعد مقتل كليب بين بكر وتغلب أبلى فيها بلاء مشكوراً حتى مات وقيل إنه مات فى الأسر سنة ٥٣١ م ، وقيل قتله عبدان من عبيده كانا فى خدمته — وكان قد أسنّ وأصابه خرف الشيخوخة — ولما أحسّ بغدر العبدين أوصاهما أن ينشدا ابنته سليمى بيتاً من الشعر وهو :

مَنْ مُبلغُ الأقوام أن مهلهلاً   لله دَرّ كما ودرّ أبيكما :

فلما أنشدها البيت أوثقت العبيدين . وقالت : ما أراد أبى إلاّ أن يقول :

مَن مُبلغ الأقوام أنّ مهلهلا   أضحى قتيلاً فى الفلاة مُجدّلا
لله درّ كما ودرّ أبيكما   لا يبرح العبدانِ حتى يُقتلا

حرب البسوس :

كان كليب بن ربيعة قد ساد ربيعة ، فبغى بغياً شديداً ، وكان هو الذى يُـنزِلهم منازلهم و يرحلهم ، فلا ينزلون ولا يرحلون إلاّ بأمره ، فبلغ من عزّه و بغيه أنه اتخذ جرو[١] كلب ، فـكان إذا نزل منزلا فيه كلأ قذف ذلك الجرو فيه ، فيعْوِى ، فلا يرعى أحد ذلك الـكلأ إلا بأمره ، وكان يفعل ذلك بحياض الماء ، فلا يَرِدها أحد إلا بإذنه .

وكان لمرّة بن ذهل بن شيبان عشرة بنين : جسّاس أصغرهم ، وكانت أختهم جليلة زوجة كليب .

وكانت البسوس خالة جساس بن مرة ، وهى التى تضرب العرب المثـل بشؤمها ، فتقول : أشأم من البسوس ، فنزلت على ابن أختها جسّاس ، ومعها ابنٌ لها ، ولهم ناقة خوّارة[٢] ولها فصيل[٣] معها .

فبينا زوجة كليب وهى أخت جساس بن مرة يوماً تغسـل رأس كليب ابن ربيعة وتُسرحه ، إذ قال لها : من أعزّ وائل ؟ فَصَمتت ، فأعادها ، فلما أكثر قالت : أخواى : جسّاس وهمّام ، فنزع رأسه من يديها ، وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس ، خالة جسّاس فقتله ، فأغمضوا على مافيها ، وسكتوا على ذلك .

ثم إن كليباً أعاد على امرأته ، فقال : من أعز وائل ؟ قالت : أخَوَاى .

---

(١) جرو كلب : ولد كلب .
(٢) خوارة : غزيرة اللبن .
(٣) فصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

فأضمرها وأسرها وسكت ، حتى مرت به إبل جساس ، فرأى الناقة فأنكرها ، فقال : ماهذه الناقة ؟ فقالوا : لخالة جسّاس ، فقال : أو قد بلغ أمر ابن السعدية أن يجير علىّ بغير إذنى ! فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة ، فاختلط دمها بلبنها ، فولت الناقة تعجّ حتى بركت بفناء صاحبها فلما رآها صرخ : يالِلذُلّ ! .. فسمعت البسوس فخرجت وصاحت : « واذلاّه ! واجوار جساس ! واجوار مرّة ! »

فثار جساس ، فطلب كليبا فى الحى فطعنه من ورائه طعنة أراده بها ، فلما وصل الخبر إلى المهلهل ، وكان يشرب وهمّاما أخا جساس ، قال : « يد جساس أقصر من ذلك » . وظل يشرب ويقول : « اليوم خمر ، وغداً أمر » ، حتى سكر ، ثم رجع إلى قومه ، فرآهم يعقرون خيلهم ، ويكسرون رماحهم ، ويثلمون سيوفهم من شدة ما أصابهم من الهول ، بسبب قتل كليب ، فقال لهم ما الذى دهاكم ؟ لقد ذهبتم شرّ مذهب ، أتعقرون الخيل ، وتكسرون الرماح ، وتثلمون السيوف مع شدّة حاجتكم إليها ؟ فانتهوا عن ذلك ، وسمع عويل النساء ونحيبهم فسارع إليهن ، ونهاهن عما كنّ فيه ، وعجب قومه لمسلكه هذا . ونسبوه إلى سكره ، ولما أقبل الصباح غدا إلى أخيه كليب ، فدفنه واستمرّ يندبه ويبكيه ، ويرثيه بشعر أذاب قلبه فيه ، وأخذ يهدّد بنى مرة ، قوم جساس ويتوعدهم بالأخذ بثأر أخيه ، ولا يفعل شيئاً ، حتى يئس منه قومه ، ثم هبّ للقتال فدارت رحى الحرب بين بكر وتغلب وأيامها المشهورة خمسة :

١ — يوم النِّهى : وكان لتغلب على بكر .

٢ — يوم الذنائب: وكان لتغلب على بكر ، وفيه قتل شراحيل أخو جساس .

٣ — يوم عُنَيزة : تكافؤا فيه .

٤ — يوم واردات : وكان لتغلب على بكر ، وفيه قتل همام أخو جساس .

٥ — يوم تحلاق اللِّمَم : وكان لبكر على تغلب . وأسر فيه الحارثُ بن عباد المهلهل ، ثم أطلقه بعد ماجز ناصيته .

وقيل إن حرب البسوس دامت أربعين سنة ، وإن آخر من قتل فيها جساس قتله ابن أخته الهِجرس بن كليب . وقيل إن الملك المُنذر ملك الحيرة هو الذى أصلح بين الفريقين بعد موت المهلهل .

آثاره .

جمعت أشعاره فى ديوان ، وهو أقدم شاعر جمع له ديوان ، ولم يصل إلينا هذا الديوان . ومعظم أشعاره مبعثرة فى الأغانى ، وخزانة الأدب ، والشعر والشعراء ، وتاريخ ابن الأثير ، ومعجم ياقوت ، ومعجم البكرى ، وشعراء النصرانية ، وديوان الحماسة .

العهد الأكيد :

فى هذه القطعة يرثى الشاعر أخاه كليباً ، فقد كان خبر موته شديد الوقع على نفسه ، هاج كوامن حزنه ، وأثار دوافع غضبه . وألهب نيران دموعه فهو يبكيه ليل نهار . حتى غدا فى حيرة وذهول تدور به الدنيا ، كما تدور الخمر برأس شاربها ، ثم يشير إلى عادة من عادات العرب ، وهى أنهم فى حالات الاستعداد للأخذ بالثأر يحرم الواحد منهم على نفسه جميع الملاذ ، ولا يحلق شعره ، ولا يخلع ملابس الحرب حتى يأخذ بالثأر . فالحروب تشتعل ، والغارات تشن لأوهى الأسباب ، ونلمس فى الأبيات رقة العاطفة التى أكسبت شعر المهلهل سهولة ولهناً ، ومرجع ذلك أنه نشأ فى بيت له السيادة على قبائل معدّ كلها ، فانصرف إلى اللهو والطرب ، ومحادثة النساء ، ومعاقرة الخمر ، ثم قُتل أخوه ، فاستولى عليه الحزن ، ففاضت عاطفته برقيق الشعر ، على أن أكثر شعراء ربيعة

لا يخلو شعرهم من لين وسهولة ، ولعل قربهم من أمصار العراق والسواحل البحرية أكسبهم هذه الرقة .

شفاء الغليل :

لما رأى الحارث بن عباد البكرى ـ وكان قد اعتزل الحرب فلم يشترك مع قومه ـ أن الحرب قد حصدت خير فرسان القبيلتين ـ بكر وتغلب ـ أرسل إلى المهلهل وفداً فى طلب الصلح حقناً للدماء ، وكان على رأس الوفد ابنه بُجَير الذى حمله رسالة إلى المهلهل ، ولكن المهلهل نكل بالوفد وقتل بجيرا بن الحارث وفى ذلك يقول :

ذهب الصلح أو تردّوا كليباً   أو أذيق الغداةَ شيبانَ ثُكلا

وآب الوفد ، وعلمت بكر بما وقع له ، و يسأل الحارث عن ابنه بجير ، فيعلم أن المهلهل طعنه برمح فقتله ، وقال له : « بؤ بشسع نعل كليب » و يحزن الحارث لقتل ولده مع اعتزاله نصرة قومه فى هذه الحرب التى لا ناقة له فيها ولا جمل ، و يعِزّ عليه أن يقتل ابنه فى رباط نعل كليب ، فيثور و يدعو قومه لحرب المهلهل ، وفى ذلك يقول :

يابجيرّ الخيراتِ لا صلح حتى   نملأ البيدَ من رءوس الرجال

و يبلغ المهلهل ماقاله الحارث بن عبّاد فيرد عليه بقصيدته (قد شفيت الغليل)

وهنا يبين الشاعر بأنه قد شفى غليله من بكر ، وأنه سيستمرّ فى الأخذ بالثأر لأخيه ، ولن يرضى إلا أن يقتل من يكافىء قتيلهم من العظماء والسادة والأقيال ولا يفعل هذا الفعل من القبائل إلا من يشعرون بالعزة والقوة وشدة البطش ،

كما أنه يجاهر بالأخذ بالثأر وجهاً لوجه شأن السادة الأبطال ، أما الضعفاء فإنهم ينتقمون بوسائل الاغتيال أو الترصد فى الخفاء بعيداً عن العيون والرقباء ثم يدعو بفرسه المشهّر ليغير به على بكر ، وأنه سوف يأسرهم و يجعل منهم عبيداً و إنه يذبح أبناءهم ، و يستحيي نساءهم ، ويقهر كاتهم حتى يستسلموا صاغرين .

وللمهلهل أسلوب خاص ، فهو إذا ألح عليه الحزن صعّد الزفرات مكررة ، فتكررت معها الأبيات والقوافى ، ووضح فيها الغلوّ فى التهديد ، وضرب به على أعدائه معجزات الشروط ليرضى بمصالحتهم ، فهو شاعر العاطفة فى رثائه ، شاعر الغلو فى تهديده ، حتى إنه ليطلب المستحيل فى غير منطق ، مضفياً على ذلك أجواء من أجواء الملاحم والشعر الحربى الذى تتقاذف ألفاظه ، وتتعالى فى سماء معاركه صليل السيوف ، وصهيل الخيول ، وصرخات الأبطال .

المنتخبات

أولا — العهد الأكيد

أهاجَ قَذاء عَيْنِى الادِّكارُ   هُدُوءاً ، فالدُّموعُ لها انْهِمارُ ؟ (١)
وصارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلاً علينا   كأنَّ الليلَ ليْسَ له نَهار ..
كأنِّي إذْ نَعَى النَّاعِي كُلَيبًا   تطَايرَ بين جَنْبيَّ الشَّرَار
فَدُرْتُ وقد عَشِى بَصَرِى عليه   كَما دَارت بِشَارِبِها الْعُقَار (٢)
سأَلتُ القومَ أينَ دَفَنْتُمُوه   فقَالُوا لِى : بِسَفْحِ الحيِّ دَار (٣)
فسرتُ إليه مِنْ بَلَدى حثيثاً   وَطَارَ النَّومُ وامْتَنع القَرارُ
وَحَادتْ نَاقتِى عن ظلِّ قبرٍ   ثَوَى فيه المَكارِمُ والفَخَار (٤)
لَدَى أَوْطَانِ أرْوعَ لم يَشِنْه   ولم يحدثْ لَه فى النَّاس عَار (٥)
أتَغْدُو يا كليبُ معى إذا ما   جبانُ القوم أنْجاه الفِرار

---

(١) فى كتب اللغة هاج : ثار وتحرك ، ولم يرد أهاج إلا بمعنى أيبس ، فتكون الهمزة هنا للاستفهام ، وقد وقع الوصل بين البيت الأول والثانى لا تفاقهما فى الانشاء لأن البيت الثانى وإن تكن جملة الشطر الأول منه خبرية لكن لم يرد بها الإخبار ، بل إظهار التحسر والحزن . الهدوء : الهزيع من الليل يهدأ فيه الناس أى ينامون .

(٢) عشى بصرى : ضعف . العقار : الخمر .

(٣) سفح الحى : أصله وأسفله .

(٤) ثوى : أقام .

(٥) أروع : الذى يعجبك بحسن منظره وشجاعته ـ أى الشهم .

أتغدُو يا كليبُ معى إذا ما حلوقُ القوم تَشْحَذُها الشِّفَار (١)
أقولُ لتغلب : والعـــزُّ فيها أثيرُوها لِذُلِّكُم انتِصَار (٢)
خُذُوا العهدَ الأكيدَ علىَّ عُمْرِى بتَرْكِى كلَّ مَا حَوَتِ الدِّيار
وَهَجْرِى الغَانِياتِ وشربَ كأس ولُبْسِى جبةً لا تُستَعار (٣)
وَلَسْتُ بخالِعٍ دِرْعِى وَسَيْفِى إلى أنْ يَخْلَعَ اللَّيلَ النَّهارُ
وإلا أن تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ فلا يَبْقَى لها أبداً أثار (٤)

---

(١) الحلوق : جمع حلق ، والمراد رقابهم . شحذ : الح وبالغ . الشفار : جمع شفرة ، أى حد السيف .

(٢) أثيروا : هيجوا .

(٣) الغانيات : جمع غانية ، وهى التى استغنت بحسنها عن الزينة . الجبة : الدرع . لاتستعار : لا تفارقنى .

(٤) الأثار : جمع أثر بقية الشىء أو الخبر .

ثانياً – شفاء الغليل

قد شفيتُ الغَليلَ من آلِ بكرٍ   آلِ شيبان بين عَمٍّ وخالِ[١]
كيفَ صبْرِى وقد قتلتم كُلَيبا   وشقيتم بقتله فى الخَوالى ؟
فلَعمرى ! لأقتلنْ بكُلَيْبٍ   كُلَّ قَيْلٍ يُسمَّى من الأقْيالِ[٢]
ولعمرى ، لقد وطئتُ بنى بكرٍ   بما قد جَنَوْه وطء النِّعال
لمْ أدع غيرَ أكلبٍ ونساء   وإماءٍ حَواطبٍ وعيالِ[٣]
فاشْرَبُوا ما وردتم الآن منّا   واصدُرُوا خاسرين عن شرِّ حال
زعم القومُ أنّنا جار سُوء   كَذَب القومُ عندَنا فى المَقَال
لم يرَ النَّاس مِثْلنا يوم سِرْنا   نَسْلُب الملكَ بالرِّماح الطِّوال
يوم سرنا إلى قبائل عوفٍ   بجموعٍ زُهَاؤُها كالجِبَال[٤]
يا خليلىّ قرِّبا اليومَ مِنِّى   كلَّ وَرْدٍ وَأَدْهَم صَهَّال[٥]
قربا مربطَ المشهَّرِ منى   لِكُلَيْبٍ فقدْ أشابَ قَذَالى[٦]

---

(١) الغليل : المراد به هنا شدة الحقد .
(٢) القيل : العظيم فى قومه ، دون الملك .
(٣) الحواطب : أى اللائى يحتطبن ويجمعن الحطب .
(٤) زهاؤها : عددها ومقدارها .
(٥) الأدهم : الأسود .
(٦) المشهر : اسم فرسه . القذال : مؤخر الرأس .

قربا مربطَ المشهَّر مــــــنى   واسْألانى ولا تُطيلا سُؤَالِى
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   سوف تبدو لنا ذواتُ الحِجَال[١]
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   إنَّ قولى مُطَابِق لِفِعالى
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   لِـكَلَيب فداه عمِّى وخالى
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   لاعتناقِ الـكُمَـاة والأَبطال[٢]
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   سوف أصلَى نيرانَ آلِ بلال
قَرِّبا مربطَ المُشهَّر مــــــنِّى   إنْ تَلاَقَتْ رِجَالُهم وَرِجالى
قربا مربط المشهر مــــــنى   طالَ ليلى ، وأقصرت عُذَّالى[٣]
قربا مربط المشهر مــــــنى   يا لَبَـكْرٍ وأيْنَ مِنْـكم وِصَالى !
قربا مربط المشهر مــــــنى   لِنضالٍ إذا أرَدْتُمْ نِضَالِى
قربا مربط المشهَّر مــــــنى   لِقَتيلٍ سفَتْه رِيحُ الشَّمالِ[٤]
قربا مربط المشهر مــــــنى   مَع رمح مُثقَّفٍ عسالِ[٥]
قربا مربط المشهر مــــــنى   قرِّباه وقــــرِّبا سِرْبالى[٦]

---

(١) ذوات الحجال : أى النساء ذوات الخلاجيل .
(٢) الكماة : جمع والمفرد كمى ، وهو لابس عدة الحرب يختفى فيهامن الطعان .
(٣) العذال : الذين يلومون الإنسان على أعماله غير المحمودة .
(٤) سفته الريح : درته وذهبت به .
(٥) المثقف : الرمح المقوم المسوى . غسال : لين مرن مهتز .
(٦) السربال : القميص ، والمقصود به هنا درع الحرب .

ثم قولا لكلٍّ كَهْلٍ وناشٍ من بنى بكر جرِّدُوا للقتال

قد ملكنا كم فكونُوا عبيداً مَالكم عن ملاكنا من مَجال

وخُذُوا حِذرَكم وشدُّوا وجدُّوا واصبرُوا للنِّزالِ بعد النِّزال

قد ذبحنا الأطفَال من آل بكرٍ وقهرنا كُماتَهم بالنِّضال

وكَرزْنا عليهم وانثنَيْنَا بسيوفٍ تَقُدُّ فى الأَوْصَال(١)

أسلموا كل ذات بعل، وأخرى ذات خدر غراء مثل الهلال

يا لبكر !! فأوعدوا ما أردتم واستطعتم فما لنا من زَوال

(١) تقد : تقطع .

موضوعات للبحث

١ — فى قصيدة (العهد الأكيد) تتضح بعض النواحى الاجتماعية فى الجزيرة العربية ، استخرج هذه النواحى ، و بين أثرها فى حياة العرب .

٢ — رثاء المهلهل هو رثاء الحماسة والفخر ، ومع ذلك نلمس فى أبياته رقة العاطفة التى أكسبت شعره سهولة ـ ناقش موضحاً مصادر هذه الرقة .

٣ — كيف تطور فن الرثاء من المهلهل إلى ابن الرومى ، ناقش موضحاً أبرز الملامح الطارئة فى كل عصر ، وما مبعثها ؟

المراجع

ـ فى الأدب الجاهلى : لطه حسين مصر ، ١٩٤٧

ـ شعراء النصرانية : لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٠

ـ ديوان الحماسة : أبو تمام

ـ ديوان المهلهل : المهلهل

ـ أيام العرب : محمد أحمد جاد المولى وآخرون مصر ١٩٤٦

ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان ، مصر ١٩٣٦ .

ـ الرثاء (فنون الأدب العربى) : شوقى ضيف ، مصر ١٩٥٥

الفصل الثاني

أصحاب المعلقات

المعلقات

هي قصائد طوال من الشعر الجاهلي ، تعد من خير أشعار العرب ، وأدلّها على لغتهم و بلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية ، اختُلِف في تسميتها ، فقيل سميت بالمعلقات لأن العرب اختارتها من الشعر القديم ، وكتبتها بماء الذهب على القَباطي ، ثم علقتها بالكعبة إعجابا بها ، و إشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة ، وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام ، ومنهم من يُنكر تعليقها بالكعبة ، و يقول : إنها سميت بذلك لأنها علقت بقلوب العرب لجودتها ، وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته ، وقد دعيت المُذهبات لأنها تستحق أن تُكتب بماء الذهب لنفاستها ، وتسمى المنتخبات ، وقد سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها : السُّمُوط أي العقود ، وشايعه على هذا الرأي المستشرق كليمان الفرنسي ، ونولدكه الألماني ، وسميت بالمطولات لطولها . ولكن الاسم الذائع هو المعلقات . وأصحابها على المشهور سبعة . هم :

١ ـ امرؤ القيس : ومعلقته (قِفَا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..)

٢ ـ زهير بن أبي سُلمى : ومعلقته (أمن أم أوفى دِمْنَةٌ لم تكلم ..)

٣ ـ طرفة بن العبد : ومعلقته (لخولة أطلال ببرقة ثهمد ..)
٤ ـ لبيد بن ربيعة : ومعلقته (عفت الديار محلها فمقامها ..)
٥ ـ عنترة العبسى : ومعلقته (هل غادرَ الشعراء من متردّم ..)
٦ ـ عمرو بن كلثوم : ومعلقته (ألا هبى بصَحنك : فاصبحينا..)
٧ ـ الحارث بن حلِّزة : ومعلقته (آذنتنا ببينها أسماء ..)

و بعضهم زاد الأعشى فجعلهم ثمانية ، و بعضهم زاد النابغة الذبيانى ، وعبيد الأبرص فجعلهم عشرة .

امرؤ القيس

(؟ — ٥٤٠ م)

حياته :

هو الملك الضلِّيل[1] ذو القروح[2] حُنْدجُ بن حُجر الكندى ، ولد أثيل المنبت ، كريم الأبوة والأمومة ، ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه ولد فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس لدينا أىّ شىء واضح عن نشأته ، وكيف أمضى أيامه الأولى ، إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، فأبوه سليل الملوك من كندة وملك بنى أسد ، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين ، فشب فى حجر النعيم ، ودرج فى مهد العزّ ، إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الخمر ، ويعشق اللهو ، ويقول الشعر ، ويُغازل النساء ، وجرت له معهن مغامرات سجّل بعضها فى شعره ، ثم أطلق لنفسه العنان فى المجون ، وتقاعس عما تسمو إليه النفوس الكبيرة ، فزجره أبوه فلم يرتدع ، فما كان منه إلا أن طرده ، وكان أصغر أولاده ، فخرج فى زُمرة من شبان العرب وذؤبانهم يضربون فى الأرض ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج فى طلب القنص والطرد ، فتصيّد ثم قفل راجعاً ، فأكل وبشم وشرب الخمر هو وأصحابه ثم تغنيهم القيان ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، واستمر يضرب فى أنحاء الجزيرة ، حتى ألقى عصا التسيار فى قرية من قرى حضرموت يقال لها : (دَمُّون) فيجلس مع نديم له ، يشربان الخمر ، ويلعبان النّرْد ، ويأتيه الناعى فينعى إليه أباه ، وقد قتله بنو أسد غيلةً وغدراً

---

(١) لتطوافه على القبائل مستنجدا .

(٢) قيل إنه لقب بذلك لقوله : وبدلت قرحا داميا بعد صحة .

لاستبداده بهم ، وسوء سيرته فيهم . وتفصيل الحادث أنه أرسل يوماً جابياً يجمع الضرائب منهم فضربوه ، فما كان من حجر إلا أن جهّز عليهم حملة واقتصّ منهم فوجدوا عليه ، وتربصوا به ، حتى قتلوه — فلم يحرك امرؤ القيس ساكناً حين سمع الخبر ، بل استمر فى اللعب ، حتى لا يفسد على صاحبه الدَّسْت[1] وحين ينتهى من اللعب يلتفت إلى الناعى ، ويقول : « ضيّعنى أبى صغيراً ، وحملنى دمه كبيراً ، لا صحوَ اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر ، وغداً أمر » ثم يشرب سبع أقداح ، ثم يصحو ، ويدرك مغبّة الأمر ، فيأخذ على نفسه المواثيق ، ألا يأكل لحماً . ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن رأسه بطيب ، ولا يلهو ، حتى يدرك ثأر أبيه من بنى أسد ، فيقتل منهم مائة ويجز نواصى مائة ، فلما جنّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أرِقْتُ لِبَرْقٍ بليلٍ أهَلْ ... يُضىء سَنَاه بأعْلى الجبلْ
أتَانى حديثٌ فـكذّبْتهُ ... بأمرٍ تَزَعزعُ منه القُلَل
بقتْلِ بنىِ أسدٍ ربّهـم ... ألاَ كلُّ شىء سواه جَلَلْ

ويبلغ ذلك بنى أسد ، فيوفدون إليه رجالا منهم ، فيكرمهم ويحتجب عنهم ثلاثا ، ثم يخرج إليهم فى قباء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لاتعتم بالسواد إلاّ فى الغارات . فلما رأوه تقدم إليه من الوفد قبيصة بن نعيم ، وكان رجلا حكيما ، بصيراً بمواقع الأمور فقال :

« إنك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدّهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك ، مَحْتِد يحتمل ما حمل

---

(١) اللعبة .

عليه من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصّفح ، فى الذى كان من الخطب الجليل ، الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تختص به كندة دوننا للشرف البارع .

كان لحجر التاج والنّعمة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال : إمّا أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً ، فقدناه إليك بِنِسْعه ، يذهب مع شفرات حسامك ، أو فداء بما يروح من بنى أسد من نعمها ، فهى ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها ، لم يردد تسليط الإحن على البرآء ، وإمّا أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، فتسدل الأزُر ونعقد الخُمُرُ فوق الرايات » .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه وقال :

« لقد علمت العرب ألا كفء لحجْر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد ، وفتّ العَضُد ، وأما النَّظِرة (الإمهال) فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً . وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنَقاً ، وفوق الأسنة عَلَقا (دما) ورويداً ينكشف لكم دُجاها عن فرسان كندة ، وكتائب حمير ، فنهضوا عنه » وقد عرفوا أنه طالبهم .

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكرا وتغلب ، وسار إلى بني أسد فأوقع بهم ، وكان له يوم عليهم ، ولمّا أراد متابعة القتال فى اليوم التالى تفرّق حلفاؤه عنه محتجيّن بأنه أصاب الثأر الذى كان يطلبه ، فلا داعي للقتال بعد .

وراح امرؤ القيس يجول فى القبائل طالبا النجدة ، فيوفّق أحيانًا ، ويخفق أحيانا ، وطلبه المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت فى نفسه على قومه ، وأمدّه كسرى أنوشروان بجيش لجب ، فتفرقت جموع امرىء القيس خوفًا من المنذر ، ولكن ذلك لم يفلّ من عزمه فأخذ يجدّ فى إثارة القبائل يطلب النصر حتى سدّت عليه المسالك ، فلجأ إلى السموءل بن عاديا اليهودى ، فاستودعه وطلب منه كتابا إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ليوصله إلى قيصر الروم ، فلما بلغه ، وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته ، وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له فى العرب ، يريض له الأمور ، ويضعف نفوذ الأكاسرة فجهّزه بجيش وسيّره ، ثم بدا له فأعاده ، ونزلت بامرىء القيس علة جلدية فتقرّح جسمه ، وتهرّأ لحمه .

والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطّماح الأسدى على قيصر فوشى به . وأوغر صدره عليه ، انتقاما منه لقتله أباه ، وقيل لأنه علق بأخت قيصر ، فبعث إليه قيصر بحلة مسمومة فلبسها واشتد سروره بها فأصابه ما أصابه ، ويستدلون على ذلك بقول امرىء القيس :

لقد طمح الطّماحُ من بُعد أرضه ليُلبسنى مما يلبّس أبؤسا
فلو أنها نفسٌ تموت سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما بلغ أنقرة من بلاد الروم احتُضر بها ، فقال :

ربّ خُطْبة مُسْحَنْفِرهْ وطَعْنَةٍ مُثْعَنْجِره (١)

(١) مسحنفرة . مسهبة . مثعنجرة . سائلة :

وجَفْنَـــةٍ مُتَحَـــيِّرَهْ حلّتْ بأرض أنقره[٢]

ولما مات دفن بأنقرة ، وكانت سنة وفاته ٥٤٠ م على الأرجح .

آثاره :

لامرىء القيس ديوان شعر ، كان أول من طبعه المستشرق دى سلان الفرنسى سنة ١٨٣٧ ، وقد نشره باسم (نزهة ذوى الكيس ، وتحفة الأدباء فى قصائد امرىء القيس » وخرجه من شرح الشنتمرى ، وطبع الديوان بعد ذلك فى مصر والهند وإيران ، وأخرجه حسن السندوبى فى طبعة مرتبة على حروف المعجم ، ثم أخرجه من بعده مصطفى السقا ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وأشهر شعره المعلقة ، وهى أولى المعلقات .

شعره :

رتّب ابن سلاّم امرأ القيس فى رأس الطبقة الأولى من فحول الجاهلية ، سائقا الحجج التى بها تسلّح أنصاره فى تقديمه على غيره ، ومنها « ما قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب ، واتّبعته فيها الشعراء منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد التشبيه ... وكان أحسن طبقته تشبيها » ، وبهذا وغيره عُدّ أمير الشعراء فى عصره ، ومن أهم ما امتاز به شعره : البلاغة والإيجاز ، ففيه حشد من المعانى فى البيت أو الشطر أحيانا ، كما فى قوله يصف سرعة فرسه : « مكر ، مفر ، مقبل ، مدبر معا » فقد رسم لحركات الفرس فى عدوه صورة رائعة لم يحتج

(٢) جفنة : ممتلئة طعاما ودسما .

فيها إلا إلى شطر ، ثم يطالعنا من بعد بهذا الصدق والاعتراف والواقعية فى أحاديث لهوه عن «آنسة كأنها خط تمثال» وغير ذلك من القوة مما دعا باللغويين وغيرهم إلى أن يفزعوا إلى شعره كلما احتاجوا يدعمون به آراءهم ، ويستشهدون به على الشعر البليغ العالى .

المعلقة :

معلقة امرىء القيس أفضل شعره ، وهى أشهر المعلقات الجاهلية عدة أبياتها واحد وثمانون بيتا ، ولقد بنيت المعلقة أساساً — فى رأى أكثر الرواة — على حبِّ امرىء القيس لابنة عمه عنيزة ، يقال : إنه خرج يوما إلى موضع يعرف (بدارة جلجل) ، فإذا به يلتقى فيه بعنيزة وصويحباتها ، فيعقر لهم مطيته ، ويقضى يوما جميلا بينهن يأكل ويمرح ، وفى ذلك يقول :

ألا رب يوم ، لك منهن ، صالحٍ ولا سيما يومٌ بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتى فياعجبا من رحلها المتحمل

والثابت أن المعلقة لم تنظم كلها فى وقت واحد ، ولم تدر على حادثة واحدة — شأن الشعر الجاهلى . وإنما طرقت عدة موضوعات ، فباتت المعلقة مقسمة إلى ما يلى : بكاء الأطلال ، وصف ما كان بينه وبين العذارى فى دارة جلجل ، وصف الليل ، وصف الوادى القفر وعواء الذئب فيه ، وصف الفرس والصيد ، وصف البرق والسيل ، فيكون الوصف عماد المعلقة وبه يقوم فضلها .

وأقسام المعلقة المختلفة لا تدلّ على تفكك فى الشعور ، وإن دلت على تفكك فى وحدة التأليف ، فالتسلسل النفسى بارز ، وهو الذى لاحم بين الأجزاء بوحدة شعورية هى وحدة الذكريات ، وهى ما تسمى فى علم النفس : بالتداعى الذهنى ، وهو يستهلها بقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» وقد عدّ القدماء هذا المطلع

من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف ، و بكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل ، وانتقل انتقالا سريعاً يقصّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة ، وأن يزرع الغيرة فى قلبها بذكر مثل : أم الُحوَيْرث ، وأم الرباب ،ثم يُفيض فى وصف يوم عنيزة مصوراً تصويراً مكشوفا إباحيا كيف كان ينال منها ، وكيف كانت تدل عليه أحيانا ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، ثم يعود فيبث فاطمة حبّه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها ، فى قوله :

« أفاطم مهلا بعض هذا التدلل » ثم لا يلبث أن يكرّ راجعاً إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع من كنى عنها « ببيضة خِدْر لا يُرام خباؤها » ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرىء القيس تفد إلى ذهنه مغامرات ابن أبى ربيعة فى غزله[1] ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب، بل أيضا من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور رائيته : « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر » . وقد مرت بك فى الجزء الرابع ـ فكلاهما حقا يتحدث عن غزله المكشوف ، وكيف كان يتجشم المشاق فى إشباع رغباته . وكيف كان يقتحم إلى صاحبته الليل المخوف . و يسترسل فى وصفه فيقول : « وليل كموج البحر أرخى سدوله » .

أجمع الباحثون على أن امرأ القيس تناهى بوصفه إلى قمة الشعر الجاهلى ، فهو لم يمرّ به مروراً عابراً ولكنه كان يشعر به شعوراً قوياً ، و يعانيه معاناة حيَّة، حتى كاد يختصّ بهذا الفن اختصاص عمر بن أبى ربيعة بالغزل ، فيصف مايعرض له فى حياته على اختلاف أوجهها ، حتى باتت الصور الشعرية . والمجازية التى

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر من كتابنا الجزء الرابع .

أخرجها شواهد ناطقة على حبه ، ومجونه ولهوه . وما شاهده واندمج فيه من مظاهر الطبيعة الحية والجامدة . ومنها وصف الليل :

وتبدأ الأبيات بتشبيه يوحى بامتداد الظلام ، وتراكمه ورهبته ، وذلك فى قوله « وليل كموج البحر » ولعلك تدرك مدى هذه الرهبة من شاعر نشأ فى البادية بعيدا عن البحر ثم تأتى بعده استعارة تصور الليل ، وهو يرخى على الشاعر أستاراً ثقيلة من ظلامه الدامس ، مصحوبة بأنواع شتى من الهموم ، ثم تتلاحق الصور المجازية فيتخيل الليل جملا يتمطي ، حتى بعد ما بين أوله وآخره ، فهو لا يكاد يتحرك إلا فى بطء شديد ، ويصور نفسه القلقة الحائرة التى ترتقب انبثاق الفجر ثم تتكور على بعضها وتعود إلى ذاتها فترى أنها أمنية مخدوع ، وأن الصبح لن يأتيها بأفضل مما جاء به الليل ، ويتوهم النجوم وقد شدّت بأمراس كتان إلى جبل يذبل ، فهى مسمّرة فى مكانها لا تتحرك .

ثم يخرج من وصف الليل إلى فرسه وصيده ولذاته ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش فتراه فى قوله : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها » يكنى عن البكور بصورة ترسم لك جو الصبح وهدوءه ، كما تراه يشبه جواده بقيد للوحوش ، وذلك لأنه يسبقها و يقطع عليها الرحيل ، فتقف أمامه جامدة كأنها مقيدة . ولا ننسى أن امرأ القيس ممن يجيدون وصف الخيل لأن حياته ارتبطت بها ، وهناك شعراء آخرون فى العصر الجاهلى لهم مثل هذه البراعة ، وذلك لأن الخيل لها فى حياة العرب شأن كبير .

واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سربا من بقر الوحش عنّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله تاركا وراءه

ما تخلف منه ، فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ ، ففى قوله : « فعنّ لنا سرب » ترى تشبيها جميلا ، شبه فيه بقر الوحش بظهورها البيض ، وقوائمها السود ، وهى تتهـادى ، وتطوف حول رائدها ، كما تتهادى الفتيات الحسان فى ملاءاتهن البيض المطرزة باللون الأسود وهن يطفن بالصنم « دوار » .

ووصف امرؤ القيس البرق فى غير مكان من شعره ، فشبهه — كما معنا — فى المعلقة بيدين تتحركان وسط الغيوم ، أو بمصباح راهب . يُميل الزيت على فتيله ، ووصف المطر بعد وصفه البرق إجمالا ، فأسهب فى الحديث عن قوته وجهاته ، وتأثيره فى الطبيعة بجامدها وحيوانها ، فهو تارة مطر خفيف تتهللّ له الطبيعة ، وتارة سيل جارف يجتاح الجبال على مسافات بعيدة ، فيجرف الدوح « ويكبه على الأذقان» ويقتلع البيوت إلا ما كان منها مبنياً بالحجارة ، ويغرق الحيوان ، فإذا رءوس الجبال عارية كرأس المغزل ، وإذا السباع غرقى فى أرجاء السهل ، وكأنها رءوس البصل البرىّ .

وامرؤ القيس فى هذه المشاهد جميعاً ، شاهد عيـان ، يراقب ويحبه انفعالات الطبيعة عن كثب ، فتحيا الصورة ، بوجودهم وإشاراتهم ، ويبلغ امرؤ القيس حداً بعيداً من الروعة فى إحياء المناظر التى تجمعت فيها مقومات النجاح ، فدلت على أصالة أدبية ، وحساسية مرهفة ، وشاعرية قوية .

فإذا تأملت هذا الوصف للبرق وما تبعه من مطر وسيل ، وجدته ينحو منحى الطريقة الحسية ، فليس من مشبه به فيها ، على ما فيها من تشابيه إلا وهو حسى ، وإذا كان امرؤ القيس فى المقطع الغنائى الذى وصف به الليل ، قد مزج الوصف بشىء من عاطفته الخاصة التى تفيض بالقلق والحيرة فهو هنا يقتصر على التصوير المحض فعل الشاعر الملحمى . وهذا يدلنا على أن المعلقة تجمع

ذكريات للشاعر ـ كما أشرنا من قبل ـ فى أوقات متفاوتة ، وتصور جوانب مختلفة من الشعور النّفسى .

يصف امرؤ القيس فلا يبالغ ، ولا يغرب ، بل يأتى بأوصاف معقولة ، وتشابيه مستمدة من الواقع ، وخيال قد استقاه من صميم البادية ، وتشخيص ألبس فيه الجماد ثوب البشر . ولـكن مع هذا غلبت عليه الصور المادية ، وامرؤ القيس فى خصائص وصفه تلك يطبعه بالبساطة والصدق . والدقة التى تقوم على إتمام الوصف ، وعدم جموح الخيال ، بل يبقى ضمن حدود المألوف يستمد منه ويزينه ، لا يخرج على عمود الشعر الجاهلى خاصة والبدوى عامة .

والقصص والحوار : يعتبر امرؤ القيس فيهما رائد ، كما فى وصف مغامراته الغرامية ، والقنص والصيد . وكلاهما يعتمد على صناعة التشبيه ، والتشبيه ركن عظيم فى شعره ، لا يتخلى عنه فى إظهار صوره وألوانه وجمال التشبيه عنده يقوم على غرابته وبعد متناوله . وما فيه من التصوير والتمثيل والحركة ، كقوله : « أصاح ترى برقا أريك وميضه » .

المنتخبات

المعلقة

١ — وصف الليل :

وليلٍ كموْجِ البحر أَرْخَى سُدُولَه عَلَيَّ بِأنواعِ الهُموم لِيَبْتَلِي[(١)]

فقلتُ له لمّا تَمَطَّى بِصُلْبِه
وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً ، ونَاءَ بِكَلْكَلِ[(٢)]

أَلاَ أَيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ، أَلاَ انْجَلِ
بِصُبْحٍ ، وَما الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ[(٣)]

فيالكَ مِنْ ليْلٍ كأَنَّ نُجُومَهُ
بكلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[(٤)]

كأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَت فى مَصَامِهاَ
بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ[(٥)]

* * *

---

(١) السدول : الستور . يبتلى : يختبر .

(٢) تمطى بصلبه : تمدد بظهره . الاعجاز : جمع عجز وهو المؤخر ناء بكلكل : بعد صدره .

(٣) انجل بصبح : انكشف عن الصبح . أمثل : أفضل .

(٤) مغار الفتل : محكم الفتل . يذبل : اسم جبل فى بلاد نجد .

(٥) مصامها : موضعها . الجندل الأصم : الصخر الصلب .

٢ — وصف الفرس :

وقد أَغْتَدِى ، والطَّيْرُ فى وُكُنَاتِها
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ، الأَوَابِدِ ، هَيْكَلِ (١)

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبِلٍ ، مُدْبِرٍ مَعًا
كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ (٢)

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عنْ حَالِ مَتْنِهِ
كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزَّلِ (٣)

على الذَّبْلِ جَيَّاشٍ ، كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ
إذا جاشَ فيه حَمْيُه غَلْيُ مِرْجَلِ (٤)

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحَاتُ على الونى
أَثَرْنَ الغُبَارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (٥)

---

(١) أغتدى : أبكر للصيد . وكنات : جمع وكنة ، وهى العش . منجرد : قصير الشعر . الأوابد : جمع آبد ، أى الوحش النافر . هيكل : ضخم .

(٢) مكر مفر : سريع الإقبال والإدبار . جلمود صخر ، الصخر الصلب .

(٣) الكميت : الذى خالط حمرته سواد . يزل : يسقط . عن حال متنه : وسط ظهره . الصفواء ، الصخرة الملساء .

(٤) الذبل : الصخور . اهتزامه : صهيله . المرجل : القدر .

(٥) المسح : العداء . السابحات : الخيول . الونى : الضعف . الكديد : الأرض تحفرها الدواب . المركل : المكدود .

يَزِلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهَواته ... ويُلوِي بأثوابِ العَنيفِ المُثقَّلِ[١]

دَرِيرٍ كخُذرُوفِ الوليد أمَرَّه ... تتابُعُ كَفَّيْه بخَيْطٍ مُوَصَّلِ[٢]

له أيْطَلا ظَبْيٍ ، وسَاقَا نَعامةٍ

وإرْخاءُ سِرْحَانٍ ، وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[٣]

ضَلِيعٍ إذا استَدْبَرتَه سَدَّ فَرْجَهُ

بِضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليسَ بأعْزَلِ[٤]

كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انْتَحى

مَدَاكَ عَرُوسٍ أو صَلايةَ حَنْظَلِ[٥]

كأنَّ دماءَ الهادِياتِ بنَحْرِه ... عُصارةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ[٦]

---

(١) الخف : الخفيف . الصهوة : موضع السرج . يلوى : يرمى .

(٢) درير : الكثير الجرى . الخذروف : حصاة مثقوبة يضع الوليد فيها خيطا يديرها بأصابعه ، فيسمع لها دوى .

(٣) الأيطل : الخاصرة . الإرخاء : جرى غير شديد . السرحان : الذئب . التتفل : ولد الثعلب . التقريب : رفع اليدين معا ، ثم وضع الرجلين موضع اليدين عند العدو .

(٤) الضليع : قوى الجنبين . ضاف . سابغ طويل: الأعزل : الفرس المعوج العسيب ، أى عظم الذنب .

(٥) متنا الفرس : جانبا ظهره . مداك عروس : ما تدق فيه العروس طيبها . صلاية حنظل : وعاء من حجر .

(٦) الهاديات : جمع هادية ، أى طليعة الصيد . عصارة حناء : نقيع الحناء . المرجل : الممشوط .

٣ — وصف الصيد :

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعَاجَه عَذَارَى دَوَارٍ فى مُلاءٍ مُذَيَّلِ (١)
فَأَدْبَرْنَ كالجِزْعِ المُفَصَّلِ بَيْنَه بجيدِ مُعِمٍّ فى العَشِيرةِ مُخْوِلِ (٢)
فأَلْحَقَنَا بالهـاديات وَدُونَه جَوَاحِرُها فى صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ (٣)
فعادى عِدَاءً بين ثورٍ وَنَعْجَةٍ
دِرَاكاً ، ولم يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ (٤)
فَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ ما بَيْنَ مُنْضِجٍ
صَفِيفَ شِوَاءٍ أوْ قَدِيرٍ مُعجَّلِ (٥)
وَرُحْنا يكادُ الطَّرْفُ يقصرُ دونه
متى ما تَرقَّ العَيْنُ فيه تَسفَّلِ (٦)

* * *

---

(١) سرب : قطيع . دوار : حجر كان الناس يطوفون به فى الجاهلية . المذيل : الذى أطال ذيله .

(٢) الجزع : الخرز اليمانى فيه بياض وسواد .

(٣) جواحرها : مفردها جاحرة ، وهى المتخلفة . فى صرة : جماعة . لم تزيل لم تتفرق .

(٤) عادى : تابع الجرى .

(٥) القدير : ماوضع فى القدر حتى ينضج .

(٦) الطرف : العين . ترق : تترقى .

٤ — وصف البرق والسيل :

أصاحِ ، تَرَى برقاً أُرِيكَ وَمِيضَه كلَمْعِ اليَدَيْنِ فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (١)
يُضِيءُ سَنَاهُ أو مَصابيحُ رَاهبٍ أمالَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ (٢)
قَعَدْتُ له ، وصُحْبتى بين ضَارِجٍ وَبيْنَ العُذَيبِ ، بُعْدَ مَا مُتأَمَّلِى (٣)
على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيمنُ صَوْبِهِ وأيْسَرُه على السِّتار فيذْبُلِ (٤)
فَأضحَى يَسُحُّ الماءَ حولَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (٥)
ومرَّ على القَنَّانِ من نَفَيَانِه فأنزل منه العُصْمَ من كلِّ مَنْزِلِ (٦)
وتَيْماءَ لم يتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلا مَشيداً بجَنْدَلِ (٧)
كأنَّ ثبيراً فى عَرانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ (٨)

---

(١) وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل .
(٢) السنا : الضوء . السليط : الزيت . الذبال : الفتائل . أمال : رعى .
(٣) بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .
(٤) قطن والستار ويذبل : أسماء جبال .
(٥) الكنهبل : ما عظم من شجر العضاه .
(٦) النفيان : ما يتطاير من قطرات المطر . العصم : جمع أعصم ، وهو الذى فى إحدى يديه بياض من الأوعال .
(٧) الأطم : البيت الكبير الثابت البناء .
(٨) مزمل : متدثر .

كأنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً
من السَّيل والغُثَاء فَلْـكَةُ مِغْزَل[١]

وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الغَبِيط بعاعه نُزُولَ اليمانى ذِى العِيابِ المُحَمَّل[٢]

كأنَّ مَـكاكىّ الجِـــــواء غُدَيَّةً
صُبِحْنَ سُلافاً مِنْ رَحيقٍ مُفَلْفَلِ[٣]

كأنَّ السِّبَاعَ فيـه غَرْقى عشيَّةً
بأَرْجَائه القُصْوى أَنابِيشُ عُنْصُل[٤]

---

(١) الذرا : جمع ذروة ، وهى الرأس من كل شىء . المجيمر : أسم جبل . الفلكة : كل ما أرتفع أو نتأ واستدار .

(٢) البعاع : ثقل ما فى السحاب من المطر . العياب : الحقائب .

(٣) السلاف : الخمر . يقول طلع الصباح فإذا طيور المكاكى مرحة كأنها شربت خمرا .

(٤) أنابيش عنصل : جذور البصل البرى .

موضوعات للبحث

١ ـ كانت عاطفة الشاعر فى وصفه الليل تفيض بالقلق والحيرة ، على حين أنك تحسّ بانطلاقة نفسية فى تصويره لرحلة الصيد ، ووصفه للحصان ، فالمعلقة بهذا تعكس لنا جوانب مختلفة من شعور امرىء القيس النفسى ـ ناقش .

٢ ـ امرؤ القيس شاعر مرهف الحس يجيد التشبيه ، ويحسن التشخيص ، توسع فى هذا القول ، مؤيداً رأيك بالشواهد .

٣ ـ اتفق الرواة والنقاد على أن امرأ القيس أول من بكى واستبكى ، وقيد الأوابد ، ووصف القفار ، فضلا عن مجالس اللهو والصيد وسيول المطر ، ومن ثمّ عدّوه زعيم شعراء الجاهلية ، فعلامَ قامت زعامة ذلك الشاعر فى رأيك ؟

٤ ـ من خصائص الوصف فى الشعر الجاهلى التعبير عن الأفكار والعواطف بالصور المادية ، والإسراف فى التشبيه والعناية بالجزئيات ـ ناقش هذا مبيناً علاقة هذا الوصف بمدرسة الفن للفن أو البرناسية .

المراجع

١ ـ ديوان امرىء القيس : امرؤ القيس ط دار المعارف ، تحقيق السندوبى

٢ ـ شرح المعلقات السبع : الزوزنى ط صبيح بمصر ١٩٦١

٣ ـ الوصف : الدكتور سامى الدهان ، مصر ؟

٤ ـ امرؤ القيس : سليم الجندى ، دمشق ، ١٩٣٦

٥ ـ امرؤ القيس : رئيف خورى ، بيروت ، ١٩٣٤

٦ ـ الوصف فى الشعر العربى : عبد العظيم على قناوى ، القاهرة ، ١٩٤٩

٧ ـ أمير الشعر فى العصر القديم : محمد صالح سمك ، القاهرة ، ١٩٣٢

٨ ـ فى الأدب الجاهلى : الدكتور طه حسين . دار المعارف ١٩٤٧

٩ ـ فن الوصف : ايليا حاوى ، بيروت ١٩٥٩

طرفة بن العبد

(٥٤٢ — ٥٦٩ م)

حياته :

هو عمرو بن العبد البكرى ، وطَرفة [1] لقب غلب عليه ، ولد فى البحرين فى حدود سنة ٥٤٢ م وقد عُرف أعمامه وأخواله بالشاعرية ، وتوفى أبوه وهو بعد حدث ، فنشأ يتيم الأب ، فى بيت كريم المحتد ، عريض الثراء ، فانصرف إلى اللهو والخمر والنساء ، ينفق دون حساب ، فضيّق عليه أعمامه ، وأبوا أن يُورّثوه فى ماله ، وافتاتوا على حقّ أمه « وردة » أخت المتلمس الشاعر فهدّدهم طرفة بهذه الأبيات ، وهى من أوائل قريضه :

ماتنظُرون بحقِّ وردة فيكمُ صَغُر البنونَ ، ورهط وردةَ غُيَّبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيم صغيرُهُ حتى تظلّ له الدماء تصَبَّب

على أن جور أعمامه لم يحل بينه و بين استمراء العبث والإسراف ، فظل ينفق من ماله على أترابه ولداته ، حتى لم يبق له شىء ، فسخطت عليه عشيرته ونأت بجانبها عنه ، فأصبح معزولاً كالبعير الأجرب ، و إلى ذلك يشير فى معلقته:

وما زال تَشْرابى الخمور ، ولذّتى و بيعى ، و إنفاقى ، طريفى ومُتلَدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأُفردت إفرَاد البعير المعبَّد

وساء طرفة أن يعرض أهله عنه . فتركهم مدة يضرب فى الأرض ، ثم عاد إليهم نادما ، صفر اليدين ، فحمله أخوه مَعبد على رعاية إبله ، فأهملها ، فسرقت ،

(١) والطرفة : واحدة الطرفاء وهو شجر معروف .

فلجأ إلى ابن عمه مالك علّه يساعده على استرجاعها لجفاه ، ولـكن شاءت الظروف أن تعوّض الخسارة على يد أحد سيّدين ذكرهما فى معلقته حين قال :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مَرثد

فلقد دعاه عمرو بن مرثد ، وأمر أولاده السبعة بأن يدفع كل منهم إلى طرفة عشر نياق ، وأمر ثلاثة من أحفاده بمثل ذلك . وهكذا ردَّ طرفة لأخيه إبله . واحتفظ بما بقى لديه من مال ينفقه فى لهوه .

توجه طرفة من بعد ذلك إلى بلاط الحيرة ، وكان فيه بعض أقربائه . كصهره عبد عمرو بن بشر وخاله المتلمِّس ، فقرّبه الملك ، وهو يومئذ عمرو بن هند ، واتخذه نديماً ، وذات يوم مرت أخت الملك ، فرأها طرفة ، وقد أخذ منه السُّكر مأخذه ـ فقال فيها بيتين ، فغضب عمرو ، وأبعده عن حاشيته ، وجعله فى حاشية أخيه قابوس ، فلم يجد منه ما تعوده من الإكرام ، فهجاه وهجا أخاه الملك هجاء مراً ، من ذلك قوله :

فليت لنا ، مكانَ الملْكِ عمروٍ رَغوثاً حول قُبَّتنا تخور (١)
لعمرُك ، إن قابوسَ بن هندٍ ليخلطُ ملـكه نوكٌ كثير (٢)

و بلغ ذلك ابن هند ، لحقد عليه ، ولـكنه كره أن يعجل عليه إشفاقاً من هجاء المتلمس ، فلبث يتحين الفرص ليتخلص من الإثنين معاً ، وهو يؤانسهما حتى اطمأنا إليه ، فـكتب إلى عامله فى البحرين ، وقال لهما : انطلقا إليه وخذا جوائزكما .

---

(١) الرغوث : كل مرضعة .ويراد بها الناقة هنا .
(٢) النوك : الحمق .

فحملا الكتابين وسارا حتى بلغ النجف ، فقال المتلمس لطرفة : ياطرفة إنك غلام حديث السن ، والملك من قد عرفت حقده وغدره ، وكلانا قد هجاه فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلمّ ننظر فى كتبنا هذه ، فإن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن يكن قد أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا ، فأبى طرفة أن يفكّ خاتم الملك . فعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة ، فأعطاه الصحيفة، فقرأها . فلم يصل إلى أمر به فى المتلمّس ، حتى جاء غلام بعده فأشرق فى الصحيفة ، لا يدرى ممن هى ، فقرأها ، فقال : ثكلتْ المتلمّسَ أمُّه ! ثم انتزع الصحيفة من يد الغلام ، واكتفى بذلك من قوله . وحاول اللحاق بطرفة ، فلم يدركه ، وألقى الصحيفة فى نهر الحيرة ، ثم خرج هارباً . وقال عند ذلك :

ألقيتها بالثنى من جنب كافر   كذلك أقنو كل قط مضلل
رضيت لها بالمـاء لما رأيتها   يجول بها التيار فى كل جدول

ومضى طرفة .. وقد كان المتلمس — فيما يقال — قال لطرفة حين قرأ كتابه : تعلمنّ أن فى صحيفتك مثل الذى فى صحيفتى ، فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك فما كان ليجترىء علىّ . ولا ليغرنى ، ولا ليقدم علىّ فلما غلبه سار المتلمس إلى الشام — ثم سار طرفة ، حتى قدم على عامل البحرين ، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقال له : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم . أمرتَ أن تجيزنى ، وتحسن إلى فقال لطرفة : إن بينى وبينك لخئولة أنا لها راع . فاهرب من ليلتك هذه ، فإنى قد أمرت بقتلك ، فقال له طرفة : اشتدت عليك جائزتى ، وأحببت أن أهرب . وأجعل لعمرو بن هند علىّ سبيلا كأنى أذنبت ذنبا ، والله لا أفعل ذلك أبداً، فلما أصبح أمر بحبسه. وجاءت بكر وائل . فقالت: قدم طرفة ، فدعا به صاحب

البحرين ، فقرأ عليهم كتاب الملك ، ثم أمر بطرفة فحبس ، وكتب إلى عمرو ابن هند أن أبعث إلى عملك ، فإنى غير قاتل الرجل ، فبعث إليه عمرو بن هند رجلاً من بنى تغلب يقال له : عبد هند بن جُرَد ، واستعمله على البحرين ، وكان رجلا شجاعا ، وأمره بقتل طرفة . وقتل ربيعة بن الحارث العبدى ، فقدمها عبد هند ، فقرأ عهده على أهل البحرين ، ولبث أياما ، واجتمعت بكر وائل فهمّت به ، وكان طرفة يحضّضهم ، وانتدب له رجل من عبد القيس ، ثم من الحواثر يقال له : أبو ريشة . فقتلاه ، وقبره اليوم معروف بهجر ، فعرف بالغلام القتيل . غير أن هناك اختلافا فى تحديد سنة قتـله ـ كهذا الاختلاف الحادث فى سنة مولده ـ فرأى يقول : إنه كان فى سن العشرين ، وثان يقول : فى سن الخامسة والعشرين ، وثالث يقول فى سن السادسة والعشرين : ولعل الأخير هو الأقرب إلى الصواب بدليل قول أخته الخرنق عنه :

عَدَدنا له ستاً وعشرين حِجَّةً فلما توفّاها استوى سيِّدا ضخما
فجعنا به لمـاَ رَجَوْنا إيابه على خير حالٍ لا وليداً ولا قَحْماَ

آثــاره :

لطرفة ديوان جُمعت فيه أشعار أشهرها المعلقة ، ثم « رائية » مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هِرْ ومن الحبّ جنون مستعر

معلقته :

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، فنبغ فى الشعر وعدّ من فحوله . وهو دون العشرين . ولـكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته ، ويمتاز طرفة بجودة الوصف ، ومجانبة الغلو ، إلا أن له بعض

التراكيب المعقدة ، ونحن يهمنا من شعر طرفة معلقته ففيها تظهر ميزته ، وعليها المعوّل فى درس حياته وأخلاقه ، ولا سيما آراءه فى الحياة والموت ، وهى الثانية فى المعلقات ، ونسجها وطريقتها كسائر الشعر الجاهلى متعددة الأغراض .

ابتدأها بذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم فى ظاهر اليد :

لخولة أطلال ، ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً

ثم يفرغ لنفسه ، وما تجد من حزن وأسى لفراق من تحب :

وقوفاً بها صحبى علىّ مطيّهم   يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

وهنا يعرّج الشاعر على تناول حدوج المالكية ، فيشبهها بالسفن ، ثم يستطرد إلى وصف تلك السفن ، حتى إذا انتهى عاد إلى وصف من يهوى ، وتلك خاصة عُرف بها الشاعر الجاهلى ، فهو فى كثير من شعره لا يترك الموصوف حتى يصوِّره من جميع جهاته .

ولهذه الأبيات قيمة تاريخية . فهى تفيدنا بالحياة البحرية وملامح السفن والصناعات فى البحرين آنذاك ، ثم يقفل راجعاً إلى محبوبته ، فيصف عنقها وثغرها ووجهها ، وبخاصة وقد ثار الهم بين جوانحه ، ولم يجد مفراً من تذكاره واحتضاره غير اللجوء إلى الناقة يصف هيئتها ساكنة ، وسائرة فى بطء أو إسراع وهو فى هذا الوصف يؤثر الألفاظ الغريبة ، والمعانى الغامضة أكثر من لبيد ، حتى إنك لتسأل نفسك ، وأنت تقرأ هذا الوصف : أليس من الممكن أن يكون صاحبه قد تعمد الإغراب ؟ ويفرغ الشاعر لنفسه : فنى الصورة الأولى : يصفها فى السلم والحرب ، كما وصفها لبيد ، ولكن بين الشاعرين فارق واضح . فلبيد يلهو

وينعم فى السلم ، ويُبْلى ويخاطر فى الحرب ، لأن فى هذا مثله الأعلى الذى تصبو نفسه إليه ، أما طرفة فيلهو ويخاطر فى الحرب ، لأنه لا يدرى ماذا يستطيع أن يصنع غير هذا ، ولأنه قد يئس من الحياة ، وأنكر قيمتها ، وعرف أنه غير مخلد ،فهان عليه كل شىء . وآثر أن يبادر الموت بما ملكت يده .

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟
فإن كنت لا تسطيعُ دفع منيتى فدعنى ، أبادرها بما ملكت يدى

وفى الصورة الثانية : يعمّق البحث ، وينتهى إلى تحديد المبادىء الثلاثة التى عليها ترتكز حياته ، وهى : النجدة ، والحب . والشراب ، ويجول فى القصيدة متشعّبا الطرق ، كما جال فى حياته شريداً : يتحدث عن : تشرابه ولذته وإنفاقه، وعن إفراد العشيرة له ، ويعاتب ابن عمه ويلّح بالمدح إلى السيدّين : قيس بن خالد، وعمرو بن مرثد ، ثم يوصى ابنة أخيه معبد بأن تند به بما هو أهل له ، كل هذا مستمد من صميم حياته .

وأخيراً يختم المعلقة ببعض الحكم المألوفة : « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً » .

فلسفته فى الموت والحياة :

لم يقدّم لنا طرفة فلسفة مقعّدة ، تقوم على أصول منظمة ، بل ألفت آراؤه وفلسفته فى مجموعها صورة لنمط آمن به فى حياته ، واتخذه منوالا يسير عليه فى معيشته ، وينتهجه فى دنياه .

أما الحيا : فقد رآها الشاعر قصيرة إلى زوال ، وفى هذا القسم يطلعنا على اضطهاد عشيرته له . ويسوق جانبا من نظراته فى المجتمع ، مدالاً على ذلك بما صوره له تفكيره ، فهو لا يستسيغ أن يوجّه إليه لومٌ إذا غامر فى الحروب

معرضا نفسه للهلاك ، أو إذا أخذ بحظه من نعيم الدنيا ، ولهو الحياة ، فإن لائمه لن يضمن له الخلود فى الدنيا ، ومن ثم يلقى إليه باستفهام يقصد به تعجيزه و إفحامه ، و بذلك لا سبيل له عليه إذا ماعاجل الحياة بإنفاق مايملك .

كان طرفة حريصاً على أن يظفر فى حياته بأكبر نصيب من المتعة ، ولذلك حاول أن يبرر هذا السلوك بما يقدمه من فلسفة خاصة تتضح فى أن الموت غاية كل حى ، وأنه لا يفرق بين كزٍ شحيح أنفق حياته فى جمع المال ، و بين مسرف متلاف ، لا يقيم للمال وزناً ، فقبراهما متشابهان ، كلاهما كومة من تراب عليها حجارة منضدة ، ثم يحاول أن يؤيد ذلك بدليل حسى يبين فيه كيف تنقضى الحياة ، وهو تشبيه الحياة بكنز يتناقص ويفنى ، ثم يزيد فى الحجة والبرهنة و يشبه صورة الحياة ـ تطول ماتطول ، ثم ينتزعها الموت ـ بصورة الحبل يُرخيه صاحب الدابة لها ، وطرفاه فى يده ، يجذبها متى شاء .

أجل ! إن التزود من الحياة واجب فى رأيه مادامت النهاية قريبة ، وماعسى أن يتزوّد منها الإنسان ؟ إن فى الحياة لجانبين : جانب اللهو والعبث ، وجانب الجد والسمو ، و إذاً فليكن الزاد من الاثنين .

وهكذا خلط عملاً سيئاً وآخر صالحاً . فدعا فى الجانب الأول إلى الاغتراف من لذات الحياة من شرب وحب و إنفاق ومجون ، و بخاصة وأن الحياة إلى نفاد .

ودعا فى الجانب الثانى من الحياة ، الجانب الجاد السامى إلى مجالسة القوم والانتفاع بخبرتهم ومعارفهم ، والسعى إلى المكارم : يساعد المستغيث ، و يسرع إلى الجلّى ، و يزورّ عن الخنى ، و يدفع الأعداء ، وهو يقبل على كل ذلك بصدق فتتشبع روحه بالسعادة كما تتغذى حواسه .

أما الموت : فإن فكرته تلحّ عليه إلحاحاً شديداً ، مستمراً ، كيف لا ،

والقبور ماثلة بعبرها ، كيف لا ، والعظماء يوُلوّن ، وكأنهم ما كانوا .

أجل إن الموت يعمُّ الأجواد والبخلاء ، فيفجع الكريم فى روحه ، كما يفجع البخيل فى ماله ، وما أشبه عمر الإنسان بكنز تستنفده الأيام والليالى ، وكل ما كان فى نقص ، فإن مآله لا محالة إلى نفاد ، ويستمر الشاعر فى تأكيد فكرته، فيذكر الموت ، وأنه منهل حتم على كل حىّ أن يرده ، وماأقربه ! وإن بدا بعيداً، ومما يجعل الموت سيفاً مسلطاً فوق رأس الشاعر ، يستحثّه دائماً على الإسراع فى ملذّاته والإكثار منها ، أنه ليس مشفوعاً بالأمل المنعش ، بل ينتهى — فى زعمه — إلى القبر : فالموت ليس بداية حياة ، إنما هو نهاية حياة ، ولذلك كان حديثه عن الموت حديثا عن القبر وترابه وحجارته ، لا حديثا عن البعث ، والحياة الثانية .

وهذا الجزء من المعلقة ، هو أهم أقسامها ، ففيه تظهر خصائص الشاعر تمام الظهور ، فلا خولة طرفة ولا ناقته تجذبه إلينا ، إذ ليس فى نسيبه ما يغرى ، وليس فى وصفه ما يجمع دنيانا بدنياه — وإن كان أدق واصف لها بشهادة المتقدمين — وإنما طرفة بنفسه ولهوه ومرحه وفخره واعتداده ، يحملنا إليه ، أو يحمل ذاته إلينا ، فنحس بإحساسه ، نأسى لألمه ، ونضحك لسروره .

المنتخبات

المعلقـــة

لخَوْلةَ أطْـــلالٌ بِبُرقةِ ثَهْمَدِ
تلوُح كباقى الوَشْمِ فى ظاهرِ اليدِ (١)
وُقُوفاً بها صَحْبِى علىَّ مطيَّهمْ يقولونَ لا تَهْلِكْ أسًى وتجلَّدِ (٢)
وَإنِّى لأُمْضِى الهمَّ عند احْتضارهِ بعوجاء مرقالٍ تروحُ وتغْتدى (٣)
على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ألاَ ليتنى أفديك منها وأفْتَدى
وَجَاشت إليه النّفسُ خوفاً وخَاله
مُصاباً ولوْ أَمْسَى على غيرِ مَرْصَدِ (٤)
إذَا القَومُ قالوا مَنْ فَتًى ؟ خِلْتُ أَنَّنى
عُنيتُ فلم أَكْسَـــل ولم أتبلَّدِ (٥)

---

(١) خولة : اسم إمرأة من كلاب . الطلل : ماشخص من آثارالديار . برقة : مكان اختلط ترابه بحجارة . الوشم . غرز بظاهر اليد وغيره بالإبرة .

(٢) التجلد : الصبر .

(٣) الاحتضار : الحضور . العوجاء : الناقة التى لا تستقيم فى سيرها لفرط نشاطها . المرقال : من الإرقال وهو بين السير والعدو .

(٤) خاله : ظنه . المرصد : الطريق .

(٥) من فتى : أى يكفى مهما ، ويدفع شرا .

ولستُ بحلاَّلِ التِّلاعِ مَخَافَةً
ولكنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ[١]

فإن تَبْغِنى فى حَلْقَة القوم تَلْقَنِى
وإنْ تَلْتَمِسْنى فى الحَوَانِيتِ تَصْطَدِ[٢]

وإنْ يَلْتَقِى الحىُّ الجميعُ تُلاَقِنى
إلى ذِرْوَةِ البيتِ الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ[٣]

نَدَامَاىَ بِيضٌ كالنُّجُوم وَقَيْنَة
تَرُوحُ إلينا بين بُرْدٍ وَمُجْسَدِ[٤]

إذَا نحْنُ قلنا : اسْمِعِينا انْبَرَتْ لنا
على رِسْلِهاَ مَطْرُوفةً لم تَشَدَّدِ[٥]

وَمَا زَالَ تَشْرَابِى الخُمورَ ولذَّتِى
وبَيْعِى وإنْفَاقِى طريفى وَمُتْلَدِى[٦]

إلى أنْ تَحَامَتْنِى العَشِيرَةُ كُلُّها
وأُفْرِدْتُ إفْرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ[٧]

---

(١) التلاع : الأمكنة المرتفعة اوالمنخفضة . يسترفد القوم : يطلبون الإعانة .

(٢) تبغنى : تطلبنى . الحانوت الخمار .

(٣) المصمد : الذى يقصده الناس عند الحاجة .

(٤) الندامى : جمع الندمان ، وهو النديم . مجسد : الثوب المصبوغ ، وقيل الذى يلى الجسد .

(٥) أسمعينا : غنينا . على رسلها : على وقارها . المطروفة : التى بها ضعف .

(٦) التشراب : الشرب . الطريف : المال الحديث . التليد . المال القديم .

(٧) المعبد : المذلل المطلى بالقار اى القطران .

رأيْتُ بنى غَـبْراء لا يُنْـكرُونَنى
ولا أَهْلُ هذاكَ الطِّرافَ المُمَدّد(١)

أَلاَ أَيُّهــاَ الزّاجِرى أَحْضُرَ الوَغَى
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنتَ مُخْلِدى(٢)

فإن كنتَ لا تَسْطِيـعُ دَفْعَ مَنِيّتِى
فَدَعْنى أُبَادِرْهَا بِمـا مَلَـكَتْ يَدِى(٣)

ولولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشةِ الفَتَى
وجدِّكَ لم أَحْفَــل متى قام عُوّدى(٤)

فَمنْهُنَّ سبْقِى العَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى ما تُمْلَ بالماء تُزْبِد(٥)

وَكَرِّى إذا نَادَى المُضَافُ مُجنَّباً كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدُ(٦)

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ ـ والدَّجْنُ معجب
بِبَهْـكَنَةٍ تحت الخِبـاَءِ المُعَمَّد(٧)

---

(١) الغبراء : صفة الارض جعلت كالإسم لها . الطراف : البيت من الأدم.

(٢) الوغى : اصله صوت الأبطال فى الحروب ثم جعل اسما للحرب .

(٣) إسطاع يسطيع لغة فى استطاع .

(٤) الجد : الحظ والبخت .

(٥) كميت : أى تضرب للسواد .

(٦) الكر : الهجوم على الاعداء . السيد : الذئب . الغضا : شجر .

(٧) الدجن : الغيم الذى يكسو طبقات السماء . البهكنة : المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة . المعمد : المرفوع بالعمد .

أرى قَبْرَ نَحَّامٍ بخيلٍ بمالهِ ... كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطَالَةِ مُفْسِدِ (١)

تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرابٍ عليهما ... صَفَائِحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ (٢)

أَرَى الموتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عقيلَةَ مالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ (٣)

أرى العَيْشَ كنزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ

وما تَنْقُص الأيامُ ، والدَّهر يَنْفَدِ (٤)

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفتى

لَكالطوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ باليدِ (٥)

مَتَى مَا يَشَأْ يومًا يَقُدْهُ لحتفه ... وَمَنْ يَكُ في حَبْلِ المنيَّةِ ينقد (٦)

فإنْ مُتُّ فانْعِيني بما أنَا أَهْلُه ... وَشُقِّي عليَّ الجيبَ يا ابْنَةَ مَعْبَدِ (٧)

---

(١) النحام : الحريص على جمع المال . الغوى : الذى ضل طريقه .

(٢) الجثوة : قدر من التراب . صفائح صم : حجارة صلاب عراض . منضد : مرتب .

(٣) يعتام : يختار . الفاحش : البخيل . العقائل : كرائم المال والنساء .

(٤) العيش : الحياة . الكنز : الثروة والمال . ينفد : ينتهى ويفنى ، أى أن حياة الانسان فى هذه الدنيا كالكنز الذى ينقص كل يوم .

(٥) لعمرك : اللام لام القسم . العمر : الحياة . الطول : الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه ، والمعنى أن الانسان ولو طال أجله فسيأتيه الموت .

(٦) المعنى مادام الإنسان مربوطا فى حبل الموت فإنه ينقاد إليه حتما .

(٧) انعيني : أشيعي خبر موتى . الجيب : القميص . ابنة معبد : ابنة أخيه .

وَلاَ تَجْعليني كامرىء ليس همُّهُ
كهمِّي ولا يُغْنِي غنـاَئِي وَمَشْهَـدي[1]
بطىء عن الجُلَّى سريع إلى الخنا ذَلولٍ بإجْمَـاع الرِّجال مُلَهَّد[2]
أرى الموتَ أَعْدَادَ النُّفوس وَلاَ أرى
بعيداً غداً ما أقْرَبَ اليومَ مِنْ غد[3]
سَتُبْدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
وَيأتيك بالأخْبـارِ مَنْ لم تُزَوِّد[4]
ويأتيك بالأخْبـار مَنْ لم تَبِـعْ له
بتاتاً ولمْ تَضْرِب له وقت مَوْعِد[5]

(١) لايقوم مقامى : لايسد مسدى . مشهدى : حضور المجالس .
(٢) الجلى : الأمر العظيم . الخنى : الفحش والفساد . ملهد : مدفع مضروب . إجماع : جمع جمع وهو قبض الشخص أصابعه للكز بها .
(٣) أعداد النفوس : بعددها ، يقول : إن كل نفس لابد أن تموت ، وإن لم تمت فى يومها فستموت فى غدها
(٤) ستبدى : ستظهر . أى ان الأيام ستظهر للشخص مالم يكن يعلمه
(٥) باع : قدتكون بمعنى اشترى . البتات : الزاد وكساء السفر .

موضوعات للبحث

١ — كان طرفة حريصاً على أن يظفر فى حياته بأكبر نصيب من المتعة ، ولذلك حاول أن يبرر هذا السلوك بما يقدمه من فلسفة خاصة ، تتضح فى أن الموت غاية كل حى — ناقش .

٢ — قيل إن معلقة طرفة هى أصدق صورة للمثل العليا فى الحياة الجاهلية . هل ترى هذا الرأى ؟ لماذا ؟ .

٣ — مع ما يحاول الشاعر من إظهار رضاه عن حياته ودفاعه عنها ، تحس من خلال الأبيات نغمة حزينة لاعتزال عشيرته له ، ونفورهم منه ، وقد استعان الشاعر فى عرضه لفكرته بصور خيالية شتى — وضح مع الاستشهاد .

المراجع

ديوان طرفة	:	طرفة	القاهرة ١٩٥٩
مقدمة ديوان طرفة	:	الدكتور على الجندى	القاهرة ١٩٥٩
شرح المعلقات السبع	:	الزوزنى	القاهرة ١٩٦١
فى الأدب الجاهلى	:	الدكتور طه حسين	القاهرة ١٩٤٧
رجال المعلقات العشر	:	مصطفى الغلايينى	بيروت ١٣٣٢ هـ
طرفة ولبيد (الروائع)	:	فؤاد أفرام البستانى	بيروت ١٩٢٩
أعلام الشعر الجاهلى	:	محمد عبد المنعم خفاجى	مصر ١٩٤٩

زهير بن أبي سُلمى

(٥٣٠ — ٦٢٧ م)

حيــاته :

هو زهير بن أبى سُلمى ربيعة بن رباح المزنى ، ولد بنجد سنة ٥٣٠ م ونشأ وترعرع فى غطفان ، وتربَّى على يد خاله بَشَّامة بن الغدير ، وكان سيداً غنياً ، وشاعراً معروفا ، عُرف فى قومه بالحكمة ، وأصالة الرأى ، ولم يكن لبشامة ولد فأحب زهيراً ، وعُنِيَ به ، ووجد فيه بديلا من الابن الذى حرمه .

وظل زهير فى رعاية بشامة يتأدب على يده ، ويفيد من خبرته ، وتجربته وشعره ، ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله فى أهل بيته ، وأعطى زهيراً نصيبا منه ، ويُرْوى أنه قال له : إنى أعطيتك ما هو أفضل من المال ، فقال زهير: ما هو ؟ فقال له : شعرى ، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط ، بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم ، وفى أخبار زهير أنه تزوّج من امرأتين : أم أوفى وهى التى يذكرها كثيراً فى شعره ، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما ، فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً . والثانية التى تزوّجها من بعدها هى كبشة بنت عمّار الغطفانية ، وهى أم أولاده : كعب وبُجَــيْر وسالم .

ولم يجتمع لشاعر فى الجاهلية حظ من الشعر كما اجتمع لزهير ، فقد كان أبوه ربيعة شاعراً وخاله بشامة شاعرا ، وأختاه سُلمى والخنساء[1] شاعرتين ، وابناه كعب و بُجيرشاعرين ، وحفيده عقبة بن كعب الملقب بالمضرّب شاعراً ، وكان زوج أمه أوْس بن حَجَر شاعرا مشهورا ، فقد روى له زهير شعرا .

---

(١) وهى غير تماضر بنت عمرو بن الشريد أخت صخر الشاعرة المشهورة .

وعاش زهير عمرًا طويلا ربما بلغ به التسعين أو نيّف عليها ، وتدلّنا المعلّقة على أنه كان فى الثمانين وقت أن نظمها لقوله :

سئمت تكاليفَ الحياة ، ومن يعش   ثمانين حولاً — لا أبالك — يسأم

وهذه المعلقة أنشئت بعد أن وضعت حرب داحس والغبراء أوزارها ، فى أوائل القرن السابع الميلادى ، فتكون ولادة الشاعر فى العقد الثالث من القرن السادس.

وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء فى العصر الجاهلى وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبيانى ، وقد استجاد عمر بن الخطاب شعره ، ولما سئل عن السبب قال : لأنه لا يعاظل[1] فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .

وقد قال النقاد : من قدّم زهيراً احتجّ بأنه كان أحسنهم شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وأشدّهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالاً فى شعره .

فمنزلة شعره تستند عندهم إلى رجاحة عقله ، وحبه للخير والسلام ، لا إلى جوهر الشعر نفسه .

وقد كان زهير ـ كما عرفوه ـ قاضياً يصلح بين المتخاصمين ، وحكيما ينصح الناس ويرشدهم ، ويدعوهم إلى العمل الصالح ، وفى شعره أمثلة كثيرة تدل على عنايته بمجتمعه وإسهامه فى رسم طريق الخير له ، وهذا عمل جميل لا شيّة فيه ، وإن كان الفن يستوحى الحياة على إطلاقها ، ويجد كل زاوية من زواياها صالحة لأن تكون مادة للرسم والتصوير ، فالشاعر الصحيح عضو من مجتمعه ، وعضو من الجماعة الإنسانية له رسالة سامية يبلغها بجمال فنه . وخير الأحكام هى

---

(١) المعاظلة : التعقيد وتداخل الكلام بعضه فى بعض .

التى تبنى على جمال الفن وجمال الغاية ، ومن ثم يستطيع أى شاعر أن يضيف إلى رسالته الأدبية الجمالية ، رسالة الإصلاح والخير .

وقد اشتهر زهير بالحكمة البالغة ، والتديّن الكثير ، والقول الصادق دون مبالغة أو تهويل ، والإحكام والرّزانة ، وقد تأثر أدبه بذلك ، إذ كان يُعنى بتنقيح قصائده ينظمها فى أربعة أشهر ، وينقّحها فى أربعة أشهر ، ويعرضها على أخصّائه فى أربعة أشهر ، فلا يظهرها إلا بعد سنة . ولهذا سمّيت قصائده المطوّلة (الحوليات) .

فنحن إذاً أمام شاعر ممتاز ، عاش للخير يحض عليه ، ويأمر به ، وعاش للشعر يرويه ويعلّمه ، أو بعبارة أدق نحن إزاء مدرسة تتضح فيها سمات زهير وتلميذاه كعب والحطيئة ، تلك المدرسة التى تضرب فى أعماقها إلى أوس بن حجر رائد طريقة الشعر التصويرى الحسىّ ، فإن زهيراً قد نسج على منواله فى جميع جوانب فنه ، فى موضوعاته ، وفى طريقته وفى صياغته وفى معانيه وصوره ، ولكن زهيراً فاقه ، وأخمل ذكره . وقد توفى زهير حوالى سنة ٦٢٧ م .

آثاره :

له ديوان شعر يحوى المعلقة وكثيراً من شعر المدح مع شىء من الهجاء والفخر ، وطبع هذا الديوان لأول مرة فى لندن بعناية المستشرق (وليم ألورد) ، ونشر الديوان لندبرج السويدى سنة ١٨٨٩ فى سلسلة أسماها « طرفا عربية » ثم طبع بعد ذلك فى مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج ، وإن كانت تختلف فى الشروح .

معلقتــه :

كانت أرض غطفان التى تربى الشاعر فيها ميدانا لقتال دام سنين بين قبيلتى عبس وذبيان إلى أن هيأ الله القبيلتين سيدين من سادات العرب ، هما هرم بن سنان، والحارث بن عوف أصلحا بينهما ، ودفعا ديات القتلى من مالهما ، فعاد السلام إلى القبيلتين ، وتُسَمّى هــذه الحرب حرب داحس والغبراء ، و (داحس) اسم فرس لقيس بن زهير العبسى ، و (الغبراء) اسم فرس لحذيفة بن بدر الذّبيانى، وكان قيس وحذيفة تراهنا على أيّهما يسبق ، فـكان داحس السابق ، لولا أن بنى فزارة وضعوا له كميناً فى الطريق رده قبل أن يدرك الغاية ، وادّعى كل منهما أن فرسه السابق ؛ ومن أجل ذلك قامت حرب بين الفريقين امتدت أربعين سنة .

ولقد كره زهير الحرب وفظائعها ، وأحبّ السلام والدّاعين إليه ، وأعجبه فعل هذين السيدين فمدحهما بهذه (المعلقة) وتغنّى بفعلهما ، وهذه الحرب وإن كانت شراً ، فقد كانت من الناحية الأدبية حافزاً للشعراء على القول فى بعض فنون الشعر كالفخر والحماسة والمدح والنصح .

وموضوعات هذه المعلقة هى :

(ا) الغزل ووصف الأطلال والرحيل ، ذلك المطلع التقليدى الذى درج الشعراء على أن يجعلوه المنهج الافتتاحى فى قصائدهم ، وترى فيه صورة صحيحة لما فى بيئتهم من بقر وغزلان ، منها الجاثم ومنها القائم ، ومنها المتناطح ، ومنها السائم ، وهذا منظر طبيعى فيه من مظاهر الفطرة الممتعة قدر كبير ، وترى كذلك صورة لمنازلهم وما يحفرون حولها من حفر تتجمع فيهـا مياه الأمطار إذا هطلت ، حتى لايتسرب الماء إلى البيت ، وتجد صورة أخرى لمواقدهم البدائية

وهى أحجار توضع فوقها القدر ، والتعبير عن كل هـذا يسير على أساس الصدق والوضوح .

(ب) مدح السيدين على ماقاما به من الصلح : إذا كان لزهير فى مختلف أغراضه أشياء حسان ، فخير شعره ماقاله فى مدح سادات بنى ذبيان ، والدفاع عن القبيلة وإرشادها ، وإسداء الحـكم الاجتماعية فى حسن السياسة ، ومكارم الأخلاق ، فمدائحه خير مثال لأسلوب المدح الجاهلى ، وذروة مدح سادة بنى ذبيان تجلّى فى مدحه لهرم بن سنان ، لأنه كان شديد الحب له ، وكان هرم يبرّه ، ويجزل له العطاء

فقد حباه خير قصائده ، وحباه هرم بخير عطائه ، حتى رُوى أنه كان لا يمدحه إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه ، واستحيا زهير من كثرة عطائه ، فـكان إذا رآه فى ملأٍ قال : « عِمُوا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت » .

وقد شارك الحارث بن عوف هرما فى المدح فهو الذى سعى فى الصلح بين المتحاربين ، حتى أدركه ، وحمل عن القوم ديات القتلى ، وأسهم معه هرم فى هذا العمل الجليل ، فخصهما زهير بمعلقته ، ثم بقصيدته « اللامية » التى يقول فيها :

تداركتما الأحلاف قد ثُلّ عرشها   وذبيان قد زلت بأقدامها النّعل

وترى أن الشاعر فى وصف الممدوحين بالسـيادة ، تخيّر صورة عربية مما يعمله العرب من جدل الحبال على طاقة أو طاقتين ، فقال : على كل حال من سحيل ومبرم .

ومن حسنات زهير أنه كان لا يجنح فى مدحه إلى الغلو الممقوت ، ولا يأتى بسفساف القول ، ولذلك قال الأقدمون فيه : « زهير لا يمدح أحداً إلا بما هو فيه » وإذا وقع له شيء من الغلو جعل الشرط مانعا مثل قوله فى هرم :

لو نال حىٌّ ، من الدنيا بمنزلة وَسْطَ السماء ، لنالت كفُّه الأفقا

(حـ) إسداء النصح للقبيلتين : فى إسدائه النصح للأحلاف يمثل الصدق فى مطالبته إياهم بالصراحة ، وصفاء القلب ، لأن الله يعلم ما تخفى الصدور ، وهنا تتجلى التجارب الحيوية للشاعر ، ويبدو اعتقاده بيوم الحساب وما فيه من عقاب .

(ء) وصف الحرب وأهوالها : فهو يصور الحرب فى صورة مخيفة قبيحة ، فهى تارة أسد ضار ، وتارة نار مشتعلة ، وتارة ثالثة رحًى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ،ولكنها لا تلد إلا ذرارى شؤم وفى كل مرة تلد توائم ، ثم يشير إلى موضوع تاريخى وهو قصة عاقر الناقة التى أرسلها الله على يد سيدنا صالح ، ثم يتهكم بهم تهكماً مزرياً ، فقال : إنهم يربحون منها مالا يربحه أهل العراق من الغلال ، وهو بذلك يدعو إلى حياد السلم الوادعة التى تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة .

(هـ) موقف حصين بن ضمضم : ما كان يعقد الصلح ، ويتوارى شبح الحرب ، حتى عاد خطر الحرب يهدد القبيلتين ، بعد مقتل رجل عبسى ، فنشط إلى تلافى الأمر قبل استفحاله ، فأخذ يحض على تحسين السلام ، ونادى فى ذبيان أن الخير كل الخير فى ألا تعود إلى القتال ، بعدما خسرت نخبة فرسانها ، وهاله أن تتكاثف سحب الظلام وأن يرى من خلالها وميض نار يوشك أن يكون له ضرام ، فذكر القوم بما لقوا من المصائب فى صراعهم مقبحاً رأى من يبغى الحرب أمثال حصين ابن ضمضم ، ولم يحجم عن تحميله أوزار الحرب وإلقاء التبعة عليه وحده فى مقتل العبسى ، متخذاً طريق المنطق والقصص والوعظ فبلغ غايته الإنسانية فى الدعوة إلى السلم .

(و) الختام ببعض الحكم : خص زهير القسم الأخير من معلقته بطائفة من تجاربه وخبراته وآرائه التى أحلته منزلا مرموقا عند الأقدمين ، ففضلوه من أجلها ، وقالوا : أشعر الناس من يقول : من ومن ومن — وله حكم متفرقة فى شتى أشعاره ، ولكنها لم تتوال إثر بعضها كهذه — وهذه الآراء تتناول الحياة ونظرته إليها ، فإذا هو قد سئمها لطولها بعد ما عاش ثمانين حولاً ، وسئمها لأنه يجهل ما يستر عنه الغد ، إذ أن الغيب لله ، وأن الموت يجرى على الصغير والكبير ، ويرشد إلى المداراة فى بعض الأمور اتقاء الهلكة ، وحفظ العرض بالإحسان ، وعدم البخل على الأهل والعشيرة ، ووضع المعروف فى موضعه ، والوفاء والبر ، والظهور بمظهر الثقة بالنفس والقوة ، وعدم إخفاء الحقائق ، وقيمة المرء فى منطقه وعقله ، وهو بذلك يسنّ دستوراً للحياة وضع فيه عصارة معارفه ، وخلاصة خبرته ، وأقام البرهان على ما ذكر ، وحكمته صافية ، تمثل نفسه ، وتصور أخلاق قومه ، وترسم مثله العليا ، ومبادئه الخلقية ، التى يجب أن تسود المجتمع ، وأن تكون أساساً فى معاملة الناس .

وله غير قصيدة فى مدح هرم نجتزئ بضعة أبيات من ثلاث منها :

المنتخبات

أولا – المعلقة

١ – وصف الأطلال :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمنةٌ لم تَـكَلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ (١)

ودَارٌ لَهَـا بالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَـــا ... مَراجِيعُ وَشْمٍ فِى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (٢)

بِهاَ الْعِـــينُ وَالآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاؤُهاَ يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (٣)

وَقَفْتُ بِهاَ مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلأْياً عَرفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (٤)

---

(١) أم أوفى امرأة الشاعر الأولى ، وكان قد طلقها وتزوج غيرها ، ثم ندم على ذلك . الدمنة : ما اسود من آثار الديار .

(٢) حومانة الدراج . والمتثلم ، والرقمتان : أسماء مواضع . الوشم : الخضرة التى تحدث فى الجلد من غرز الإبرة .

نواشر : عروق ظاهر الذراع . المعصم : موضع السوار فى اليد . مراجيع. يعنى ما كرر ورجع حتى ثبت .

(٣) العين : بقر الوحش ، جمع عيناء . الآرام : جمع رئم وهو الظبى : الأطلاء : أولاد الظباء ، الواحد : طلا .

(٤) فلأيا عرفت الدار : أى عرفتها بعد جهد وبطء . الحجة : السنة .

أَثَافِيَّ سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَـــلٍ
وَنُؤْياً كَجِذْمِ الْحَـوْضِ لم يَتَثَلَّمِ(١)

فَلَمَّـا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهاَ :
أَلاَ انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ(٢)

٢ — مدح السيدين :

سَعَى سَاعِياَ غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعْدَمَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالدَّمِ(٣)
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِى طَافَ حَـوْلَهُ
رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ(٤)
يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِـــــدْتُما
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ(٥)

---

(١) الأثافى : الحجارة التى تجعل عليها القدر. الواحدة أثفية . سفعا : سودا . المعرس : الموضع الذى يكون فيه المرجل أى القدر التى يطبخ فيها . النؤى : حاجز يجعل حول البيت يمنع من السيل . جذم الحوض : بقيته . لم يتثلم : أى قد ذهب أعلاه ولم يتثلم باقيه . أثافى : منصوب بكلمة توهم ، أو على البدل من كلمة الدار .

(٢) الربع : المنزل .

(٣) الساعيان : هما هرم وحارث اللذان اشتركا فى التوفيق بين القبيلتين وتحمل ديات القتلى . وغيظ بن مرة : من ولد غطفان . تبزل : تشقق .

(٤) البيت : يريد الكعبة . جرهم : كانوا ولاة البيت والكعبة قبل قريش .

(٥) سحيل ومبرم : السحيل : الخيط المفرد ، والمبرم : المفتول خيطين حتى يصير خيطا واحدا .

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا
تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ (١)
وَقَدْ قُلْتُمَا : إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً
بِمَالٍ ومَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ (٢)
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ (٣)
عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيتُمَا
ومن يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمِ (٤)
تُعَفَّى الكُلُومُ بِالْمِئِينَ ، فَأَصْبَحَتْ
يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمِ (٥)

---

(١) تفانوا : أفنى بعضهم بعضا . عطر منشم : منشم امرأة تبيع العطر ، وقد تحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا للحرب فقتلوا جميعا ، فتشاءمت العرب منها .

(٢) واسعا : كاملا مكينا . نسلم : أى نسلم من الحرب .

(٣) العقوق : القطيعة للأقارب . منها : أى الحرب .

(٤) يستبح : أى يجده مباحا . عليا معد : رؤساؤها وأشرافها .

(٥) تعفى : تمحى . الكلوم : الجروح . ينجمها : يؤديها نجوما ، أى بعض القطع من المال تؤدى فى الوقت المضروب .

يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً ... وَلَمْ يُهَرِيقُوا بَيْنَهُم مِلْءَ مِحْجَمِ (١)

فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمُ مِنْ تِلَادِكُمْ
مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ (٢)

٣ – نصيحته للمتخاصمين :

أَلَا أَبْلِغِ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً
وَذُبْيَانَ : هَلْ أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ (٣)
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ (٤)
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ (٥)

---

(١) الغرامة : ما يلزم الإنسان أداؤه . يهريقوا : يسفكوا . المحجم : قارورة الحجام ، أى كأس الحجامة .

(٢) التلاد : المال القديم . الإفال جمع أفيل ، وهو الفصيل أى ولد الناقة . المزنم من الإبل : ما قطع من أذنه شيء .

(٣) الأحلاف : القبائل التى حالفت ذبيان وهى أسد وغطفان وطيء .

(٤) أى لا تظهروا الصلح وفى أنفسكم أن تغدروا .

(٥) المعنى : إما أن يؤجل عقابكم على سوء نياتكم إلى يوم الحساب ، وإما أن يعجل بالانتقام منكم .

وصف الحرب :

وَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ (١)
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ (٢)
فَتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا
وَتَلْقَحْ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتِجْ فَتُتْئِمِ (٣)
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ (٤)

---

(١) المرجم : المظنون .

(٢) تبعثوها : تثيروها . تضرى . تهيج . تضرم : تشتعل .

(٣) تعرككم : تطحنكم وتهلككم . الثفال : جلدة تكون تحت الرحى يقع عليها الطحين . الباء فى (بثفالها) بمعنى مع . الكشاف : أن تحمل الناقة أو النعجة مرتين فى العام . تتئم : أى تلد توأمين .

(٤) أشأم : أى شؤم . فتفطم : أى يتم أمر الحرب ، كما أن فطام الطفل هو تمام رضاعه . أحمر عاد : يريد عاقد ناقة صالح ، وكان شؤما على أهله ، وقد كان هذا العاقر واسمه (قدار) من ثمود لا من عاد ، لأن قصة الناقة كانت فى قوم ثمود الذين أرسل الله إليهم سيدنا صالحا . ويرى بعضهم أن الشاعر قد أخطأ حيث جعله من عاد ، والصواب أنه لم يخطىء ، لأن قوم هود يقال لهم عاد الأولى ، وقوم صالح وهم ثمود يقال لهم عاد الأخيرة .

فَتُغْلِلْ لَـكُمْ مَالاَ تُغِلُّ لِأَهْلِهَـــــا
قُرًى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ (١)

٤ — ما عمله حصين :

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْحَىُّ جَرَّ عَلَيْهِمُ
بِمَا لاَ يُوَاتِيهِمْ حُصَيْنُ بْنُ ضَمْضَمِ (٢)
وَكَانَ طَوَى كَشْحًا عَلَى مُسْتَكِنَّةٍ
فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ (٣)
وَقَالَ سَـــأَقْضِى حَاجَتِى ثُمَّ أَتَّقِى
عَدُوِّى بِأَلْفٍ مِنْ وَرَائِى مُلْجَمِ (٤)
فَشَـــدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتًا كَثِيرَةً
لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ (٥)

---

(١) الضمير فى تغلل : للحرب . قرى العراق مشهورة بالخصب . القفيز : مكيال يسع نحو كيلتين .

(٢) بما لا يواتيهم : بما لا يوافقهم .

(٣) الكشح : الجنب وطوى كشحه : أى أضمر فى نفسه خلاف مايظهر . مستكنة : خطة الغدر التى أكنها فى نفسه ، ولم يتقدم : أى لم يظهرها قبل إمكان الفرصة .

(٤) سأقضى حاجتى : سأدرك ثأرى .

(٥) لم يفزع بيوتا كثيرة :أى لم يخبر أكثر قومه . ومراده بالبيوت الأحياء والقبائل . أم قشعم : الموت أو الحرب .

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ
لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ (١)

جَرِيءٍ مَتَى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ
سَرِيعًا وَإِلَّا يُبْدَ بِالظُّلْمِ يَظْلِمِ (٢)

٥ — الحكم :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ (٣)

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَافِي غَدٍ عَمِ (٤)

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ
تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ (٥)

---

(١) شاكى السلاح : أى شائك السلاح . مقذف : كثير اللحم . لبد : هى الشعر المتراكم بين كتفى الأسد . الأظفار : أرادبها السلاح .

(٢) يبد : أى يبدأ .

(٣) تكاليف الحياة : ماتجىء به من مشقة وصعاب . لا أبالك : عبارة تستعملها العرب عند الجفاء ، ويريدبها التنبيه .

(٤) عم : أى جاهل .

(٥) العشواء : التى لاتبصر بالليل ، فتضرب بالليل على غير هدى .

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ (١)
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ (٢)
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ (٣)
وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُهُ
إِلَى مُطْمَئِنِّ الْبِرِّ لاَ يَتَجَمْجَمِ (٤)
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ
وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّماء بِسُلَّمِ (٥)
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِى غَيْرِ أَهْلِهِ
يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ (٦)

---

(١) يصانع : يجامل . يضرس : يعض بالضرب . منسم : هو طرف خف البعير
(٢) يفره : من الوفرة وهى الكثرة ، أى يحفظه ويسلم له .
(٣) الفضل : المال والاحسان .
(٤) يوف : اى يفى بعهده . يتجمجم : يتردد .
(٥) أسباب المنايا : أى ما يسبب الموت كالحروب وغيرها .
أسباب السماء : أبوابها
(٦) أى من أحسن إلى من لا يستحق الإحسان نال الذم بدلا من الحمد ، فندم على عمله .

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِجَاجِ فَإِنَّهُ
يُطِيعُ الْعَوَالِى رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ (١)
وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ
يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ (٢)
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
وَمَنْ لاَ يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لاَ يُكَرَّمِ (٣)
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ (٤)
وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِى التَّكَلُّمِ (٥)
لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ (٦)

---

(١) الزجاج : جمع زج ، وهو الحديد فى أسفل الرمح . العوالى : جمع عاليه ، وهى طرف الرمح الأعلى . اللهذم : السنان الطويل الحاد .

(٢) يذد : يدافع .

(٣) أى أن من يغترب ويبعد عن قومه يختلط عليه الأمر فلا يعرف العدو من الصديق لأنه لم يجربه .

(٤) الخليفة : الطبيعة .

(٥) كائن : بمعنى كم .

(٦) أى أن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .

وَإِنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لاَ حِلْمَ بَعْدَهُ ‍ ‍ ‍ ‍ وَإِنَّ الفَتَي بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ[١]

سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمُ

وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْآلَ يَوْماً سَيُحْرَمِ[٢]

ثانيا — الخير فى هرم

قد جعل المُبتغُونَ الخيرَ فى هَرِمٍ ‍ ‍ ‍ ‍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

إن تلقَ يوماً على عِلاَّته هرماً

تلقَ السّماحةَ منه والنَّدَى خُلُقا

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرِّجالَ إذا

ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صَدَقا[٣]

يطعنهم ما ارْتَموا حتى إذا اطّعَنُوا

ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقا[٤]

هذا ، وليس كمن يَعْيا بخُطّتِه ‍ ‍ ‍ ‍ وَسْطَ النَّدِيِّ إذاماناطقٌ نَطَقا[٥]

---

(١) السفاه : الجهل والنزق والطيش .

(٢) التسآل : السؤال .

(٣) عثر : موضع . كذب الليث : نكل عن لقاء أقرانه .

(٤) ارتموا : تراموا بالنبل . اطعنوا : تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه فى الحرب : أخذ بعنقه ، كناية عن قتله .

(٥) يعيا : يعجز .

ثالثاً — ضَرَّاب الكماة

سَوَاء عليه أيَّ حين أتيته ... أَساعَةَ نحسٍ تُتَّقى أم بأسْعد(١)

أليْسَ بضَرّابِ الكُمَاةِ بسيْفِه ... وَفَكّاكِ أَغْلال الأسيرِ المُقَيَّد(٢)

كليْثٍ أَبِي شِبْلَيْنِ يَحْمى عرينَه ... إِذَا هو لاقى نَجْدَةً لم يُعَرَّد(٣)

وَمِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقى به ... شديدُ الرِّجام باللسان وباليد(٤)

وَثِقلُ على الأعداءِ لا يضْعُونَه ... وحمَّالُ أثقالٍ ، وَمَأوى المُطَرَّد(٥)

أَليْسَ بفيَّاضٍ يَدَاهُ غَمامةٌ ... ثِمَالُ اليتامى فى السنين مُحمّد(٦)

---

(١) الضمير فى عليه يعود إلى هرم . المعنى ليس يتشاءم بشيء ، فسواء عليه مجيئك إليه فى وقت نحس أو سعد.

(٢) الكماة : جمع كمى ، وهو الفارس الذى يكمى جسمه بالدروع .

(٣) الشبل : ولد الأسد . العرين : الأجمة . النجدة : الشدة والجرأة . لم يعرد : لم يفر .

(٤) المدره : الذى يدافع عن قومه . الرجام : المراماة بالخصومة والقتال . وأشار بذكر اللسان إلى الخصومة ، وبذكر اليد إلى القتال .

(٥) ثقل : أى ثقيل الوطأة على الاعداء . حمال أثقال : أى يتحمل متاعب العشيرة . المطرد : المطرود .

(٦) يداه غمامة : أى كالغمامة فى كثرة العطاء . ثمال اليتامى : أى يطعمهم ويرعاهم . فى السنين : أى سنى القحط . محمد : الذى يحمد كثيرا .

إذا ابتـدرتْ قيسُ بن عَيْلانَ غايةً
مِنَ المجـد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ(١)

سَبَقْتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبرِّزٍ سَبُوقٍ إلى الغاياتِ غيرَ مُجَلَّدِ(٢)

كَفضْلِ جَوَادِ الخيلِ يَسْبِقُ عَفْوُهُ الـ
سِّرَاعَ ، وإنْ يَجْهَدْنَ يُجهِدْ ويَبْعُدِ(٣)

تقيٍّ نقيٍّ لم يُـكَثِّرْ غَنيمـــةً
بنَهْـكَةِ ذى قُرْبى ، ولا بِحَقَلَّدِ(٤)

فلو كان حَمْدٌ يُخْـلِدُ الناسَ لم تمتْ
ولـكنَّ حَمْدَ الناس ليس بِمُخْلِدِ(٥)

رابعاً — خير البُدَاة

دَعْ ذا وعدِّ القول فى هَرِمٍ خيرِ البُدَاةِ ، وسَيِّد الحَضْر

---

(١) ابتدرت : تسابقت. قيس بن عيلان : قبيلة الممدوح .

(٢) الطلق : الظاهر الفضل . المبرز : السابق إلى الكرم والخير . غير مجلد : أى يسبق للغاية من غير أن يجلد ، وأصل التعبير للخيل .

(٣) أى فضلك على أهل الخير كفضل الفرس الجواد الذى يسبق سراع الخيل ، وهو سائر عفوا أى دون أن يجهد نفسه . أما إذا جهدت الخيل نفسها ، فإنه يجهد نفسه ويبعد عنها .

(٤) النهكة : النقص والاضرار . الحقلد : البخيل السيء الخلق .

(٥) حمد : أراد به الفعل الصالح الذى يحمد الناس عليه .

ولنِعمَ حشْــوُ الدِّرْعِ أنت إذا
دُعِيَتْ نزالِ ولُجَّ فى الذُّعْــر(١)
حَدِبٌ على المــوْلى الضَّرِيك إذا
نابتْ عليــــــه نوائبُ الدَّهْرِ(٢)
وَيقِيــك ما وقَّى الأكارمَ من
حُوبٍ تُسَبُّ به ، ومن غَـدْر(٣)

(١) أى حين تشتد الحرب ، يتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع بالسيوف . لج فى الذعر : اشتد الخوف .

(٢) الضريك : الفقير المجهد .

(٣) الحوب : الإثم .

موضوعات للبحث

١ ـ حكمة زهير تصور مذهبه فى الخلق والاجتماع ، كما أن مدحه مدح مبادىء يمثلها الأشخاص قبل أن يكون مدحاً للأشخاص أنفسهم ـ ناقش .

٢ ـ قيل : « مدح زهير فاكتسب عطف العرب واحترامهم ، ومدح النابغة فغض الشعر من شرفه » أوضح هذا القول ، وبين مقدار صحته ، مؤيداً كلامك بالبرهان .

٣ ـ هل تلمس فى حكم زهير أنه خبير بشئون الحياة ؟ أين يظهر لك هذا ؟ وهل تنطبق هذه الحكم على أيامنا هذه ؟ وبماذا تعلل قوله : « ومن لا يظلم الناس يظلم » ؟ .

المراجع

١ — فى الأدب الجاهلى : طه حسين ، دار المعارف ١٩٤٧

٢ — الأدب العربى وتاريخه : محمد هاشم عطية ، مصر ١٩٣٦

٣ — زهير بن أبى سلمى : فؤاد إفرام البستانى ، بيروت ١٩٤٢

٤ — شعراء النصرانية : لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٠

٥ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : شوقى ضيف ، دار المعارف ١٩٤٥

٦ — العصر الجاهلى : شوقى ضيف دار المعارف ١٩٦٢

٧ — فن المديح : أحمد أبو حاقه بيروت ١٩٦٢

٨ — من الأدب العربى وكتاب الشعر : عبد الحميد الدواخلى مصر ١٩٥٤

٩ — أدباء العرب : بطرس البستانى بيروت ١٩٤٠

لبيد بن ربيعة

(٥٦٠ — ٦٦١ م)

حيـــاته :

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى من قبيلة قيس ، وكان أبوه يُعرف « بربيعة المُقْوَ ين » لجوده وسخائه ، وعمه مُلاعب الأسنّة فارس مضر ، وسبب قوله الشعر : أن الربيع بن زياد أمير عبس — وهم أخواله — كان يُنادم النعمان أبا قابوس ملك الحيرة ، فطعن الربيع فى العامريين ، وذكر معايبهم ، لعداء بينهم و بين بنى عبس ، ولما دخل العامريون على الملك ، أعرض عنهم ، وغضّ من شأنهم ، وثنى عطفه عنهم إزدراءِ وكبرا ، فنال ذلك من بنى عامر ، وشق عليهم الأمر ، وكان لبيد يومئذ صغيراً ، فسألهم أن يشركوه فى أمرهم فاستخفوا به لصغر سنه ، ولما ألح فى المسألة أجابوه . فوعدهم أن يثأر لهم بهجاء الربيع ، حتى يحول بينه و بين منادمة الملك . فقالوا له : إنا نبلوك . فقال . وما ذاك ؟ قالوا : تسبّ هذه البقلة ، وأمامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة بالأرض تُدعى : التّربة . فقال : « هذه التّربة لا تُذكى ناراً ، ولا تؤهل داراً ولا تسرُ جاراً ، عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها كليل ، أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعاً ، وأشدها قلعا » فأذنوا له ، فلما أصبحوا دخلوا به على النعمان ، والربيع يؤاكله ، فقام لبيد يرْتجز و يقول :

أكلّ يومٍ هامتى مُقزّعهْ ... ياربّ هيجا هىَ خير من دَعَهْ[1]

---

(١) الهامة . الرأس . مقزعة . محلوقة . تشبيها بقزع السحاب . أى بقطعه .

يا واهبَ الخيرِ الكثير من سَعَه إليك جاوزنا بلاداً مُسْبِعه[١]
نحن بنو أمِّ البنين الأربعه سيوفُ حقٍ ، وجفانٌ مُترعه[٢]
نحن خيار عامر بن صَعْصَعه الضاربون الهام تحت الخَيْضَعه[٣]
والمُطْعِمون الجَفْنة المُدعدعه مهلا ـ أبيتَ اللعنَ ـ لا تأكل معه[٤]

فكره النعمان منادمة الربيع وطرده ، ثم قضى حوائج بنى عامر ، وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد ، ثم أخذ يقول الشعر قصيده ورجزه .

عاش دهراً فى العصر الجاهلى ، وكانت عيشته عيشة الشعراء الفُرسان الأغنياء ، وقال كل شعره أو أكثره فى هذا العصر ، ثم أدرك الإسلام ودخل فيه ، وشُغل بحفظ القرآن ، عن الشعر حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله إذْ لم يأتنى أجلى حتى لبست من الإسلام سربالا

ولذلك عُدَّ جاهليا ، وإن عَمَّر فى الإسلام طويلا ، وعاش بعد فتح العراق فى الكوفة عيشة رجل وادع كريم ، يبذل ما ملك ليمين الضعفاء ، ويطعم الجائعين ، حتى كان بعض أمراء الكوفة يطلبَ إلى المسلمين أن يعينوه على

---

(١) مسبعه : ذات سباع .

(٢) الجفان : القصاع . مترعة : مملوءة .

(٣) الخيضعة : البيضة التى تلبس على الرأس فى الحرب .

(٤) المدعدعة : المترعة . أبيت اللعن : دعاء فى الجاهلية وتحية للملوك . أى أبيت أن تفعل ما تطعن عليه .

مروءته ، ولقد توفى فى أول خلافة معاوية سنة ٤١ هـ ، وقد عاش ـ كما قيل ـ خمساً وأربعين سنة ومائة ، حتى قال :

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولِها　　وسؤالِ هذا الناسِ : كيف لبيدُ ؟

ويروون للبيد قوله مخاطباً ابنتيه لمَّا حضرته الوفاة :

تمنَّى ابنتاىَ أن يعيشَ أبوهُما　　وهل أنا إلاّ من ربيعة أو مُضَرْ ؟
إذا حان يوماً أن يموت أبوكُما　　فلا تخمُشَا وجهًا ، ولا تحلقا شعر
وقولا : هو المـــرء الذى ليس جاره　　مُضاعا ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

آثاره :

له أشعار كثيرة ، وصل إلينا منها قدر يسير فجمعت فى ديوان ، وطبعت فى « ڤينّا » ثم ترجمت إلى الألمـانية ، وفى جملة شعره مطولته ، وهى المعلقة الرابعة .

شعره :

لا ينبغى أن نلتمس ميزة لبيد فى المعلقة وحدها ، فهى لا تغنينا عن سائر شعره لنتبين خصائصه ، وندرك منزلته ، فالمعلقة تبدى لنا حياة رجل بدوى كريم ، كلف بالمجد والمعالى ولـكنها تحجب عنا ذلك الشيخ الحـكيم الذى يحسن وعظ نفسه عند نزول المصائب وإلمامها بساحته ، فلا بدّ لنا أن ندرس مع المعلقة شيئاً آخر من شعره ، لنعرف من هو لبيد ، وما هى مميزاته الشعرية .

معلقته :

متينة اللفظ والأسلوب ، فيها ضخامة ، حتى فى أبياتها السهلة ، بدأها لبيد بوصف الطلول ، وذكر الديار وخلوّها من أصحابها وتعرّضها للرياح والأمطار تسفعها وتمحو معالمها فلا تُبقى منها إلا الشىء القليل ، وانتقل من الديار إلى صاحبته ، فألمّ بذكرها إلمام اليائس من لقائها ، ولم يُطل الحديث عنها لأنه صاحب جد وحزم ، فهو يتركها إلى ناقته التى يعتمد عليها حين يريد أن يُذهب الهموم عن نفسه بالأسفار البعيدة ، وهذا المقطع أروع أقسام المعلقة ، ولكنه لا يصف أعضاءها كما فعل طرفة ، بل يركز همّه فى تصوير سرعتها فيتسع خياله لثلاثة تشبيهات رائعة ، يورد اثنين منها فى أسلوب قصصى فكه ، فيشبه ناقته بالسحابة الخفيفة تندفع بها الريح فى سرعة قوية ، ويشبه ناقته بالأتان الوحشية النشيطة الجادة فى العدو يطاردها قرينها ، ومن ثم ينتقل إلى التشبيه الثالث سائلاً نفسه :

أفتلك الأتان تشبه ناقتى فى سرعتها ؟ أم تشبهها بقرة وحشية افترس السبع ولدها فأسرعت فى السير تبحث عنه ، وظلت فى طلبه حتى أدركها الليل فأمطرتها السماء ديمةً مدراراً « فى ليلة كَفَرَ النجومَ ظلامُها » فلجأت إلى شجرة فى الرمل تتقى بأغصانها البرد والمطر فما تقيها ، ثم فاجأها الرماة بكلابهم فجدّت فى العدو ، فطاردها الكلاب فلم تر بداً من الصمود والوقوف لتدافع عن نفسها حتى إذا فرغ من هذه التشبيهات عاد إلى نفسه فوصفها بالإباء والشمم ، وأعطانا صوراً من حياته الهادئة والمضطربة ، فأما إذا هدأت حياته واطمأنت بها المسالك فهو صاحب لهو وعبث ، يشرب الخمر ويغالى فى ثمنها ، ويسمع للغناء ، ويلذّ لسماعه ، وهو كريم جواد يطعم الطعام ، ويؤوى البائسين ، ويعطف على أهل الفاقة والمسكنة الذين عضهم الدهر ، وكلمتهم الخطوب ، وهو مقامر مسرف

فى المقامرة ، ولكنه لا يبتغى بمقامرته إلا التنفيس عن الفقراء والمساكين فهو يقامر ليشبعوا من جوع ، ويأمنوا من خوف ، ويستقروا بعد اضطراب ، وهو بعد هذا ذو مِرّة عظيم البأس ، إن دهمته الحروب أسرع إليها ، باسلا مخاطرا ، حتى إذا قضى حاجته من الفخر بنفسه فى الحرب والسلم فخر بعشيرته .

حكمتـه :

لبيد شاعر حكيم له خواطر يتأمل بها الحياة البشرية والمصير الإنسانى وخواطره تلك أكثر ما توجد فى رثائه لأخيه « أوبد » وكان أخوه حين انتشر نبأ الإسلام قد قصد الرسول عليه السلام فى المدينة ليسلم ؛ ولكنه عاد دون أن يعتنق الإسلام وأصابته فى طريقه صاعقة فمات ، فحزن عليه لبيد ، ورثاه بشعر يقطر لوعة ، ويسيل أسى ، وتبدو من ظاهرة هذا الشعر حكمة ساذجة تتسم بطابع الزهد ، ولقد سيطر فيها عقله على عاطفته ، فحبسها عن الارنان والتفجع وسما بصاحبه إلى المثل الأعلى ، إلى الحكمة التى تجعل الانسان يقوى على ضعفه فإذا بنا نرى من لبيد واعظا ، يعزّى نفسه بأنواع الأمثال الحكمية ، ولماذا يجزع والموت مآل كل حىّ .

فلا جزع إن فرقّ الدهر بيننا فكلُّ امرىء يوماً له الدّهر فاجع

ففى هذا الرثاء وفى غيره من شعره حكم تسمو إلى ما بعد الطبيعة ، حتى تتصل بجلال الرحمن . لذلك لا نعتقد بأن لبيداً قالها فى جاهليته ، وهذا يجعلنا ننفى زعم الرواة أنه لم يقل غير بيت واحد فى الإسلام ، أضف إلى هذا أن حكمته قائمة على إيمان راسخ بالله ، وبالدار الآخرة ، وهذا الإيمان لم يستقر بين جوانحه

ولم يشع فى نفسه إلا بعد الإسلام ، والله عنده هو الخير الأسمى ، وموطن السعادة الحقة ، وهو الدّيان الذى يكشف أعمال عباده ، ويجازى كل عبد حسب ما أوتى من أعمال . أما الدنيا فزوال وفناء ، ومن ثم نرى أن حكمته أرفع من حكمة زهير ، وأن مصدرها الدين والخير ، بينما حكمة زهير قائمة على خير الحياة وحدها . ولعل لبيداً أحسن الجاهليين تصرفاً فى الرثاء ، وأقدرهم على تصوير عواطف المحزون الصابر بلفظ رائق ، وأسلوب مؤثر ، وعبارة فخمة .

المنتخبات

أولاً – معلقته

عَفَتِ الدِّيَارُ : مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا (١)

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّىَ رَسْمُهَا ... خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحِىَّ سِلَامُهَا (٢)

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِهَا

حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا (٣)

رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا

وَدْقُ الرَّوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا (٤)

---

(١) عفت : درست . تأبد : توحش وخلا من أهله . المحل : حيث يحل القوم من الدار . المقام : حيث يقيمون . منى وغول ورجام : مواضع وسط نجد .

(٢) المدافع : أماكن يندفع عنها الماء من الربا والأخياف ، والواحد مدفع . الريان : جبل معروف بجزيرة العرب . الوحى : الكتابة . السلام : الحجارة الوحدة سلمة .

(٣) التجرم : التكمل والانقطاع : العهد : اللقاء . الحجج : جمع حجة وهى السنة ، الحرام : الأشهر الحرم . الخلو : المضى .

(٤) مرابيع النجوم : المنازل التى تحل فيها الشمس فى فصل الربيع ، الواحد مرباع . الصوب : الإصابة . الودق : المطر الخفيف . الجود : المطر التام العام . الرهم : جمع رهمه ، وهى المطرة التى فيها لين .

مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا[١]
مُرِّيَة حلتْ بقيد وجاوَرَتْ أهلَ الحجازِ فأين منك مَرامُها[٢]

* * *

فَبِتلكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعِ بِالضُّحَى
وَاجْتِنَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا[٣]
أَقْضِي اللُّبَانَةَ لاَ أُفَرِّطُ رِيبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةٍ لَوَّامُهَا[٤]
أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بِأَنَّنِي
وَصَّالُ عقْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامُهَا[٥]
تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا
أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[٦]

---

(١) السارية : السحابة التي تمطر ليلا . المدجن : الملبس آفاق السماء بظلامه لفرط كثافته . الإرزام : التصويت .

(٢) يشير إلى صاحبته .

(٣) فبتلك الناقة أقضى حوائجى فى الهواجر وغيرها . السراب : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء . الآكام : جمع أكمة : التل

(٤) اللبانة : الحاجة . التفريط : التضييع . الريبة : التهمة .

(٥) الحبائل : المراد به هنا العهد والمودة . الجذم : القطع . وقد رجع هنا إلى التشبيب بمعشوقته .

(٦) أنى لا أترك الأماكن إذا بغضتها ، إلا أن أموت بها .

بَلْ أَنْتِ لا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ   طَلْقٍ لَذِيذٍ لَهْوُهَا وَنِدَامُهَا[١]
قَدْ بِتُّ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تَاجِرٍ   وَافَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامُهَا[٢]
أُغْلِي السِّبَاءَ بِكُلِّ أَدْكَنَ عَاتِقٍ
أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا[٣]
بِصَبُوحِ صَافِيَـــةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ
بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَـــــا[٤]
بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ   لِأُعَلَّ مِنْهَا حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا[٥]
وَغَـــــدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِرَّةٍ
قَدْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا[٦]

---

(١) ليلة طلق : ساكنة لا حر فيها ولا قر . الندام : جمع نديم وهو من يشاركك الشراب .

(٢) الغاية : الراية ينصبها التاجر فوق حانوته ليعرف مكانه .
وافيت : أتيت . المدام : الخمر ، سميت بذلك لأنها أديمت فى دنها .

(٣) سبأت الخمر : اشتريتها غالية الثمن . الأدكن : الزق الذى يميل لونه إلى السواد . الجونه : السوداء . القدح : الغرف . الفض : الكسر .

(٤) الكرنية : الجارية التى تضرب على العود ، الجمع الكرائن . الائتيال : المعالجة ، الموتر : العود .

(٥) أى تعاطيت شرب الخمرة قبل أن يصيح الديك . السحرة : قبيل الفجر . العلل : الشرب مرة بعد مرة .

(٦) القرة : البرد ، أى كففت غادية البرد عن الناس بنحر الجزرلهم .

إِنَّا إِذَا الْتَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ مِنَّا لِزَازُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُهَا(١)
وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُغَذْمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَّامُهَا(٢)
فَضْلاً وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى
سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا(٣)
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُم وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا(٤)
لاَ يَطْبَعُونَ ولا يَبُورُ فِعَالُهُم
إِذْ لا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلاَمُهَا(٥)
فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ ، فَإِنَّمَا
قَسَمَ الْخَلاَئِقَ بَيْنَنَا عَلاَّمُهَا(٦)
وَإِذَا الأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ
أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَّامُهَا(٧)

---

(١) لزاز كل شيء : الملازم له : الجشام : المتكلف القيام بالأمور الشاقة .

(٢) مغذمر : غاضب مستبد يتصرف كما يشاء ولا يسأل .

(٣) كسوب : كثيرة الكسب . غنامها : كثير المغنم .

(٤) سنة : طريقة . الإمام : المثال الذى يحاكى فى كل شىء .

(٥) الطبع : الدنس البوار : الهلاك . الفعال (كسحاب) : فعل الخير . الأحلام : العقول .

(٦) الخلائق : الطبائع . علامها : هو الله سبحانه .

(٧) بأوفر حظنا : بأعظم نصيب .

فَبَنَى لنَا بَيْتاً رَفِيعاً سَمْكُهُ ... فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغُلاَمُهَا(١)

وَهُمُ السُّعَاةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أُفْظِعَتْ

وَهُمُ فَوَارِسُهَا ، وَهُم حُكَّامُهَا(٢)

وَهُمُ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمُ ... وَالْمُرْمِلاَتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا(٣)

وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبَطِّيءَ حَاسِدٌ ... أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا(٤)

ثانياً — حكمته

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ

وَتَبْقَى الدِّيَارُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ(٥)

وقد كُنْتُ فِي أَكْنَافِ دَارِ مَضِنَّةٍ

فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ(٦)

---

(١) فبنى : يريد الله ، وفى رواية فبنوا : أى الآباء ، وفى كلتا الحالتين : المراد الشرف . السمك : الارتفاع . الكهل : من زاد على الرابعة والثلاثين إلى الخمسين .

(٢) أفظعت : أصيبت بأمر فظيع .

(٣) وهم ربيع : بمنزلة الربيع فى الخصب لمن جاورهم . المرملات : الأرامل ، أى التى توفى عنها زوجها .

(٤) أن يبطىء حاسد : خشية أن يبطىء حاسد .

(٥) المصانع : الأبنية أو الحصون ، أو القرى .

(٦) اكناف : جوانب . دار مضنة : دار تستحق الحرص عليها .

فلا جَــزَعَ إنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْننَا
فَــكُلُّ امْرِىءِ يوماً به الدَّهْرُ فَاجِــع
وما النَّــاسُ إلاَّ كالدِّيارِ وَأَهْلِهــا
بها يَوْمَ حَلُّوها ، وَغَدْواً بَلاَقِــع[١]
وَماَ المرْءُ إلاَّ كالشِّهاَب وَضَــوْئِهِ
يَحُورُ رَماَداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِع[٢]
وما البِرُّ إلاَّ مُضْمِرَاتٌ منَ التُّقَى
وَماَ المَــالُ إلاَّ مُعْمِــرَاتٌ وَدَائِع
وَماَ المــالَ والأَهْلُونَ إلاّ وَدَائِعٌ وَلا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِع[٣]
وما النَّــاس إلاَّ عَامِلان فَعامِلٌ يُتَبِّرُ ماَ يُبْنَى ، وَآخَرُ رَافِع[٤]
فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِذٌ بِنَصِيبِه وَمِنْهم شَقِيٌّ بِالمَعِيشَة قَانِع
أَلَيْسَ وَرَائى ، إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّــتِى ،
لُزُومُ العَصَا تُحْنَى عَلَيْها الأَصاَبِــع[٥]

(١) بلاقع : خراب خالية من أهلها .

(٢) يحور : يتحول .

(٣) هذا البيت شاع على ألسنة الناس ، فهو بمثابة المثل .

(٤) يتبر : يهدم . أى الحياة هدم وبناء .

(٥) تراخت منيتى : تأخرت ، ويصف بهذا البيت حالته ، إذ تطاول عمره .

أُخَبِّرُ أَخْبَارَ القُرونِ الَّتى مَضَتْ
أَدِبُّ كَأنِّى كُلَّما قُمْتُ رَاكِعٌ[١]

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَه
تَقَادُمُ عَهْدِ القَيْنِ ، والنَّصْلُ قَاطِعُ[٢]

فَلا تَبْعُدَنْ ، إنَّ المنيَّةَ مَوْعِدٌ عَلَينا ، فَدَانٍ لِلطُّلُوعِ وَطالِعُ[٣]

أَعَاذِلَ مَا يُدْرِيك ، إلاَّ تَظَنِّيًا
إذَا رَحَلَ السُّفَّارُ مَنْ هُو رَاجِعُ[٤]

أَأَجْزَعُ مِمَّا أَحْـدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ؟
وَأَىُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْه القَوارِعُ[٥]

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِى الطَّوارِقُ بالحَصَى
وَلاَ زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صانِعُ[٦]

---

(١) يقول : أمسيت شيخا يحدث بأخبار الماضين . ويدب متكئا على العصا .

(٢) جفن السيف : غمده . أخلق : أبلى . القين : الحداد ، يشبه نفسه بالسيف العتيق الذى بلى غمده وبقى نصله قاطعا .

(٣) المعنى ، من الناس من لبى نداء الموت ، ومنهم من سيلبيه .

(٤) أعاذل : ياعاذلتى يا لائمتى . التظنى : الاتكال على الظن والتخمين .

(٥) القوارع : المصائب .

(٦) يشير هنا إلى عادة زجر الطير فى الجاهلية لمعرفة الغيب .

موضوعات للبحث

١ — هل يخاف لبيد الموت ؟ وهل تلمح فى حكمه نزعة دينية ؟ وهل تقودك هذه النزعة إلى استنتاج ما ؟ ماهو ؟

٢ — قال قدامة فى كتابه نقد الشعر : « ليس بين المرثية والمدحة فصل ، إلا أن يذكر فى اللفظ مايدل على ميت » ناقش هذا القول مؤيداً رأيك بالشواهد.

٣ — لبيد شاعر حكيم له خواطر يتأمل بها الحياة البشرية ، والمصير الإنسانى وزهير حكيم مجتمع ، وازن بين الشاعرين فى هذا المضمار ، واضرب براهين. مما عرفت من شعر الشاعرين .

المراجع

ـ رجال المعلقات العشر	:	مصطفى الغلايينى ، بيروت ١٣٣٢
ـ المعلقات العشر وأخبارها	:	أحمد الشنقيطى ، القاهرة ١٣٥٣
ـ طرفة ولبيد (الروائع)	:	فؤاد إقدام البستانى ، بيروت ١٩٢٩
ـ الأدب العربى وتاريخه	:	محمد هاشم عطيه ـ مصر ، ١٩٣٦

عمرو بن كلثوم

(٥٤٥ م ـ أوائل القرن السابع الميلادى)

حياته :

وُلد عمرو بن كلثوم التّغلبيّ فى حدود سنة ٥٤٥ م ونشأ بالجزيرة الفراتيّة ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقد تأثر عمرو بكرم أصله ، فأمّه ليلى بنت المهلهل أخى كليب وائل وأبوه كلثوم من سادات تغلب ، فشبّ شديد الإعجاب بنفسه وقومه ، عزيز الجانب أنوفًا ؛ ولهذا كثُر الفخر فى شعره ، اعتزازاً بمكانته ، وافتخاراً بقومه .

عمرو بن هند :

هدأت حدّة الخلاف بين بكرٍ وتغلب فترة من الزمن ، بعد تلك المعارك التى دامت بينهما أربعين سنة فى « حرب البسوس » الشهيرة ، ويبدو أن الخلاف عاد فى أيام عمرو بن كلثوم ، فكان قطبًا لمرحى الحروب التى دارت بين القبيلتين ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، حتى تصالح الحيّان لآخر مرة على يد عمرو بن هند ـ أحد ملوك العرب فى الجاهلية ـ من آل المنذر ، على أن أمد ذلك الصّلح لم يطل ، فانشقت العصا بين وجوههم ، وَنَزَتْ فى رءوسهم الحفيظة .

وذلك أن الملك المنذر ، والد عمرو بن هند ، كان قد أصلح بين العشيرتين ، ولكنه خشى أن تعودا إلى القتال ، فأخذ من كل حيٍّ منهما مائة غلام رهينة حتى إذا اعتدت إحداهما على الأخرى أقاد من الرهائن .

ولما تولى الملك عمرو بن هند نهج نهج أبيه ، وسار على منواله فى الارتهان من العشيرتين ، وكان أن سيّر ذات يوم ركبا من تغلب و بكر إلى جبال طيئ فى أمر من أموره ، فنزلوا فى أرض لبنى شيبان أحلاف البكريين ، فقيل إنهم أجلوا التغلبيين عن الماء ، وذبوهم إلى مفازة مهلكة فماتوا عطشا ، وقيل هبّت عليهم سموم فى بعض مسيرهم ، فهلك التغلبيون وسلم البكريون ، فلما وصل ذلك إلى علم بنى تغلب ثاروا وطلبوا ديات أبنائهم من بنى بكر ، فأبت أداءها ، فاحتكموا إلى عمرو بن هند فقال لهم : « ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتونى بسبعين رجلا من أشراف بكر بن وائل فأجعلهم فى وثاق عندى ، فإن كان الحق لبنى تغلب دفعتهم إليهم ، و إن لم يكن لهم حقّ خليّت سبيلهم » فامتثلوا وتواعدوا ليوم موقوت يجتمعون فيه بين يديه .

وفى يوم التقاضى انتدَبتْ تغلب للدفاع عنها سيِّدها : عمرو بن كلثوم ، بينما انتدبت بكر أحد أشرافها النعمان بن هرم الذى لم يلبث أن طرده عمرو ابن هند من حضرته ، لجدال جرى بينهما ، فقام ابن كلثوم فأنشد قِسْماً من معلقته ، ثم وقف الحارث بن حِلّزة فردّ عليه ، واستمال الملك بدهائه ، و يبدو أن حنكة الحارث غلبت على كبرياء عمرو ، فقرّب الملك شاعر بكر ، وحكم لهم ، فغضب عمرو بن كلثوم ، وهجا عمرو بن هند فيما بعد .

وأضمر عمرو بن هند الحقد لشاعر تغلب وراح يترقّب الفرص لإذلاله ، وروى أنه جلس يوماً إلى ندمائه ، وقال لهم : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمّه من خدمة أمى ؟ قالوا : لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو بن كلثوم . قال : ولم ذلك ؟ قالوا : لأن أباها مهلهل ربيعة ، وعمّها كُليب وائل ، وزوجها كلثوم فارس العرب ، وابنها عمرو سيد قومه .

فأرسل ابن هند إلى ابن كلثوم يدعوه هو وأمه لزيارته ، وكان بَيَّتَ أمراً فيه ثأره ، وتواعد مع والدته على أن تُذِلّ والدة عمرو بن كلثوم ، فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت ليلى فى كوكبة من نساء تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل عمرو بن كلثوم إلى سرادقه ، ودخلت أمه ليلى قبة هند أم الملك ، فلما اطمأن بها المجلس طلبت من ليلى أن تناولها الطبق ـ وكانت قد نحّت الخدم ـ فأجابت ليلى « لِتَقُم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، وشعرت ليلى بما فى تصرفها من مكيدة ، فصاحت : « وادلّاه ! يا لتغلب » . فسمعها عمرو ابنها ، فعصفت به حمّية الجاهلية ، فهبّ إلى سيف معلّق بالرّواق ، فضرب به عنق ابن هند ، وفرّ إلى الجزيرة ، وفى ذلك نظم القسم الثانى من معلقته ، وفى ذلك يقول أفنون التغلبى مفتخراً بفعل ابن كلثوم :

لعَمْرُك ، ما عمرو بن هندٍ ، وقد دعا
لِتَخدم ليلى أمّه ، بموفّق
فقام ابن كلثومٍ إلى السيف مُصْلتا فأمسك من نَدْمانه بالمخنّق
وجلّله عمرو على الرأس ضربةً بذى شُطَبٍ ، صافى الحديدة ، رونق

وثارت بالتّغلبيين الأهوال ، إذ هبّ المناذرة وحلفاؤهم يحاربونهم ، فاضطروا إلى مغادرة الجزيرة إلى الشام ، وكان عمرو بن كلثوم خلال ذلك كله ، تحدوه الأنفة أنى حلّ ، وحيثما ارتحل ، وما لبثوا أن قفلوا راجعين إلى رباعهم ، ولكنّ ملك الحيرة سدّ عليهم فسحة الراحة ، فأرسل إليهم ابنه ليحاربهم ويطاردهم ، ولكنهم هزموه وقتلوه .

وقد عمَّر ابن كلثوم طويلاً ، وقيل إنه بلغ من العمر مائة وخمسين سنة ، حتى توفى فى أوائل القرن السابع الميلادى ، و يروى أنه جمع أولاده عشية وفاته ، وأوصاهم بتجنب النزاع ، و بإحسان الجوار ، والتّريث عند الغضب ، وكأنه أراد بتلك النصيحة أن يجنبهم مغبة ماعاناه من نزق الطبع ، وحمية الجاهلية . بعد أن خبر الحياة وعلمته التجارب .

آثاره :

خلّف عمرو ديوانا صغيراً نشره المستشرق « فريتس كرنـكو » مع ديوان الحارث بن حلّزة ، ولم يضمنّه المعلقة ــ التى اخترنا منها بعض المقاطع ــ وهى الخامسة بين المعلقات .

المعلقة :

هى عين شعره ، ولقد بوأته منزلة سامية بين شعراء الجاهلية ، فهى فى سهولتها وفى نغمتها الموسيقية المحمسة ، أصدق مثال للشعر الغنائى ، مع ما فيها من عناصر ملحمية فى الفخر ، وذكر الحروب ، وتمجيد قومه ، وتصوير الحياة البدوية ، وهى على غلوها تقع موقعاً مقبولاً من النقاد لبعدها عن التّـكلف ، فإذا أمعنت فى الغلو ، بذلها حينما يتكلم الشاعر لا بِعَقْلِهِ ، ومن هنا يحقّ لنا أن نسمى فخر ابن كلثوم بأنه عاطفى محض لا سلطة للعقل عليه ، وقد حلّت المعلقة من نفوس أبناء تغلب منزلة قومية إلى جانب منزلتها الأدبية حتى وصل بهم الأمر إلى درجة التقديس والإجلال ، فـكانوا يروّونها صغارهم و يلقنونهم إياها ، حتى هجاهم بذلك أعداؤهم من بنى بكر فقال شاعرهم :

ألهى بنى تغلب عن كلّ مكرمة　　قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يَروونهـا أبداً مُذ كان أوّلُهُمْ　　يا للرّجال لشعرٍ غير مسـؤوم

يستهل عمرو المعلقة بنحو ثلاثة عشر بيتاً فى ذكر الخمرة والساقية ، ثم يصف الحبيبة ، ويتحدث إليها ، وقد كان الجاهلى يرى أن هذه المقدمة ضرورية تأكيداً لتقليد يضرب فى القدم ، وقد رسخ فى نفوسهم ، حتى أخذ طابع الوجوب . ولعل ذلك يؤكد ما قلناه — من قبل — من أن الشعر الجاهلى الذى نعرفه اليوم ليس هو الشعر الأول الذى نظمه الجاهليون ، وبعد هذه المقدمة التفت الشاعر فجأة إلى معاتبة ابن هند . ودلف إلى باب الفخر — وهو ما يعنينا — ولـكن تحت ستار التورية والتلميح ، فالراية البيضاء ثم الحمراء التى رويت من من النجيع تلمح فى أثناء المعـارك ، وذلك أن التغلبيين يقصدون إلى القتال وراياتهم بيضاء ثم يعودون منه وقد خضبت بدماء القتلى ، وعمرو فى انفجاره بالحماسة الثائرة أمام عمرو بن هند ، والتعريض به تلميحاً وتصريحًا بقوله « متى كنا لأمك مقتوينا » يذكرنا — إلى حدّ — بأخيل بطل الإلياذة الذى نعت أخا ممنون بالـكلب ، ثم يُغزُّ عمرو بنا السير ، فيكشف القناع ، ويهتك الستر عن الفخر المباشر فى نفس ملحمى مبتسر غير موصول ، لا يعلو إلى درجة هذا النفس الجياش الذى نجده فى إلياذة هوميروس يقطر بالدم الأحمر القانى ، فيذكر ما كان من محاولة اذلال أمه ، ويشيد بقناة التّغلبيين التي أعيت على الأعداء ويلتفت إلى تاريخ أجداده فيعدّد أبطالهم ويحرص على ذكر فتـكهم بالملوك ، لأنه يهدد ملـكاً محاولاً أن يقذف فى قلبه الرعب ، فهو يصف وجه الملك المعفّر الذى لم تغن عنه صولته ، أمام بطش بنى تغلب به ، ثم جعل الخيول تمرّ مدبرة مقبلة

فى بيوت الأعداء ، بينما قامت الـكلاب بالهرير ، وفضيلة الهرير هنا ، فى أنه يدل على الصدق والواقعية ، ويشخص المشهد ، ثم يصف قوة بنى قومه فى الحرب بقوله :

متى ننقل إلى قوم رحانا   تـكونوا فى اللقاء لهـا طحينا

فهو لم يكتف بصرعهم ، أو التمثيل بهم فحسب ، بل إنه تخطىّ ذلك إلى سحقهم سحقًا ، ثم ارتفع بالقتل إلى جوّ الأسطورة الملحمية ، فجعل رحى الطحين امتدت ، فأصبحت تتسع شرقًا وغربًا وتشتمل على بلاد بأكملها ، أما اللهوة فلم تعد حبوبًا من القمح ، وإنما أجسامًا من البشر ، وقد يبدو لنا عمرو فى هذه الصورة مُغرِّراً ، ولـكن لابد لنا من الإلتفات إلى طبيعة الصورة ، فالشاعر قد مثل الحرب بالرحى وقد ألم زهير بهذا المعنى . فى قوله :

فتعركـكم عَرْكَ الرحى بثفالهـا   وتلقح كشافا ، ثم تنتج فتتئم

وهذه الصورة تطلعنا على أن الشاعر يستعير تشابيهه من واقع البيئة التى يعيشها ، وهذا ما نشير إليه عندما نقول : إن الأجواء الفخرية الملحمية تعبر عن بيئة الشعب البدائى ونفسيته . والقصيدة ليست مرتبطة بوحدة عضوية شأن الشعر الجاهلى بأجمعه ، فالشاعر يصنّف المعانى حول موضوع الفخر . لـكنها غير مترابطة يُسلم أولها إلى ثانيها ، حتى إنه إذا زال منها بيت أو إختلّ يزول المعى ، ولعلّ استقلال البيت خلال القصيدة الجاهلية شبيه بالبيئة القبلية من حيث تركيبها الداخلى ، فهى مجموعة من الأبيات التى لا لحمة لها .

ثم يتابع عمرو الفخر بأهله ، حتى يبلغ أبياتا تبدو فيها الصور الملحمية

الفخرية بأجلى مظاهرها ، بالإضافة إلى الألفاظ التى تبث الرعب والشعور بالوحشية ، حيث جعل رقاب أعدائه كالخلاء ، أى الحشيش الذى طاب حصيده ، وحيث قدّ رءوسهم إلى شقين ، وذلك فى قوله :

تشقّ بهـا رءوس القوم شقًا وتخليهـا الرقاب فيختلينا

أما سلاحهم ، فالبيض ، والتروس ، والدروع السابغات ، والسيوف التى تقوم وتنحنى وهذا الحديد كلّه يزحف على ظهور الخيل الجرد العتاق التى ما تعودت إلا اقتحام الغمرات .

وليست البطولة فى تغلب وقفًا على الرجال ، فللنساء منها نصيبهن الوافى ، والصور جميعا ، خلال هذه القصيدة مصبوغة بالنجيع ، إنها نموذج أو تشخيص مادى لواقع النفس عصرئذ ، بما فيه من غريزة الافتراس والنقمة .

ثم ما تلبث الأسطورة التى بلغت منتهاها فى شقّ الرءوس أن تضمحل ، فإذا بنا مع صبية ذوى مخاريق خشبية ، ويكاد الشـاعر لا يوفى إلى ذروة القصيدة ، حتى يوفى فى الوقت نفسه إلى ذروة التجربة التى يعانيها عوداً على بدء ، فأنفاسه الشعرية تسير وكأنها قمم الجبال ووهادها طوراً تعلو ، وطوراً تغور ، ويتجه إلى الخاتمة فيعمد إلى التفصيل هونا فيتحدث عن شباب قومه وشيبهم المجربين فى الحروب ، والذين يرون أن القتل مجد :

بشبان يَرَوْن القتل مجداً وشيبٍ فى الحروب مجربينا

ومن الناحية الفنية تظهر فى دلالة الحروف ، وما تشتمل عليه انفعالات حماسـية ، فى ذلك الجرس الذى وضح فى قوله : « ألا لا يعلم الأقوام » . « ألَا لا يجهلن » . فقد دلّ على كثير من الاعتداد والتجبر والادعاء . فهى

تشتمل على معنى المجاهرة بالتحدى ، ثم يعلو النفس الملحمي مطرداً فى الارتفاع نحو الخاتمة ، حتى يجعل لقومه سلطة مطلقة على مصير الناس ، فهم المطعمون ، وهم المهلكون ، وهم التاركون والآخذون ، وإنهم يفعلون ما يشاءون دون أن يؤدُّوا لأحد حسابا ، فيمنعون من يريدون ، وينزلون حيث يطيب لهم ويشربون الماء الصافى تاركين لغيرهم الكدر والطين وإنهم ليملئون البر جيوشاً ، والبحر سفنا ، وقد بلغ أوج التفاخر والمشهد الملحمى فى قوله :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ تخرّ له الجبابر ساجدينا

وهذه المعلقة : خطابية النبرة ، يتأثر السامع برنّة الألفاظ والضجيج ، قبل أن يفهم المعنى ، فكأن الحماسة هى فى الحروف والألفاظ ، وفى صياغة العبارة قبل أن تكون فى المعنى المجرّد . وتفترق هذه المعلقة عن الملحمة فى أن الخارقة فيها هى فى قوة بطش بنى تغلب ، وليست فى تدخل الآلهة والشياطين وعمرو هو بطل المعلقة ، أما الملاحمة الطبيعية فلا نلمح فيها أثراً للشاعر (١) .

---

(١) راجع الجزء السادس للمؤلفين .

المنتخبات

المعلقــة

أَلَا هُــبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... وَلَا تُبْقِى خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا[١]
مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الْحُصَّ فِيهَا ... إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا[٢]
تَجُورُ بِذِى اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ ... إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا[٣]
قِفِى قَبْــلَ التَّفَرُّقِ يَا ظَعِينَا ... نُخَبِّرْكِ الْيَقِينَ وَتُخْبِرِينَا[٤]
قِفِى نَسْــأَلْكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صَرْمًا
لِوَشْكِ الْبَيْنِ أَمْ خُنْتِ الْأَمِينَا[٥]
أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِرْنَا نُخَــبِّرْكَ الْيَقِينَا[٦]
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًــا ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا[٧]

---

(١) الصحن : القدح العريض. أصبحينا : أسقينا الصبوح ، وهو شرب الخمر فى الغداة . الأندرين : جمع الأندر ، وهى قرية فى الشام .

(٢) المشعشعة : الممزوجة بالماء . الحص : نبت له زهر أحمر أصفر . السخين : إما أن تكون صفة . أو فعلا بمعنى بذلنا .

(٣) اللبانة : الحاجة ، أى إذا شربها الانسان أنسى أحزانه .

(٤) الظعين : الظعينة ، أى المرأة المسافرة فى هودجها .

(٥) الصرم : القطيعه . الوشك : السرعة .

(٦) أباهند : يريد عمرو بن هند : انظرنا : أمهلنا .

(٧) نورد : نسوق . نصدر : نرجع .

وَأَيَّامٍ لَنَا غُـــرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا[١]
وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُـوهُ بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِى الْمُحْجَرِينَا[٢]
تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُـفُونَا[٣]
وَأَنْزَلْنَا الْبُيُوتَ بِذِى طُلُوحٍ إِلَى الشَّامَاتِ تَنْفِى الْمُوعِدِينَا[٤]
وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَيِّ مِنَّا وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا[٥]
مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُوا فِى اللِّقَاءِ لَهَا طَحِينَا[٦]
يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِىَّ نَجْدٍ وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِينَا[٧]
نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الْأَضْيَافِ مِنَّا فَأَعْجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتِمُونَا[٨]

---

(١) الغر : صفة للخيل البارزة ، استعيرت هنا للمعارك الشهيرة . ندين : نخضع .

(٢) المحجرون : اللاجئون إلى من يحميهم .

(٣) عاكفة: الضمير لسيد معشر أى قائمة عليه . صفون : جمع صافن ، وهى من الخيل ماقام على ثلاث قوائم وترك سنبك الرابعة فى الأرض .

(٤) ذو طلوح : موضع جنوبى نجد بين اليمامة ومكة . الشامات : اسم يطلق على الشام .

(٥) هرت : نبحت . شذبنا : قطعنا . القتادة ، : واحده القتاد وهو شوك مثلث الجوانب .

(٦) الرحى : الطاحون .

(٧) الثفال : جلدة أو خرقة توضع تحت الرحى يسقط عليها الطحين . اللهوة : القبضة من الحب تلقى فى الرحى .

(٨) القرى : مايقدم للضيف .

قَرَيْنَا كُمْ ، فَعَجَّلْنَا قِرَا كُمْ   قُبَيْـلَ الصُّبْحِ ، مِرْدَاةً طَحُونَا[١]
نَعُمُّ أُنَاسَــنَا وَنَعِفُّ عَنْهُمْ   وَنَحْمِلُ عَنْهُمُ مَا حَمَّـلُونَا[٢]
نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّــــــاسُ عَنَّا
وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا غُشِينَـــــــا[٣]
بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِّيِّ لُدْنٍ   ذَوَابِلَ ، أَوْ بِبِيضٍ يَعْتَلِينَا[٤]
كَأَنَّ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا   وُسُوقٌ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا[٥]
نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا   وَنُخْلِيهَا الرِّقَابَ فَيَخْتَلِينَا[٦]
وَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو
عَلَيْكَ ، وَيُخْـرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا[٧]

---

(١) المرداة : الضمر (٢) نعم : نشمل بالعطية .

(٣) نطاعن : نضرب بالرماح : تراخى : ابتعد . غشينا : أتينا .

(٤) السمر : صفه للرماح . القنا : الرماح . الخطى : نسبة إلى بلدة الحظ ، وهى على ساحل البجرين تجلب منها الرماح . اللدن : اللينة . ذوابل : يابسه . البيض : السيوف . يعتلين : أى تعتلى الرءوس .

(٥) وسوق : جمع وسق وهو الجمل . الأماعز : جمع أمعز ، الأرض الصلبة الكثيرة الحصى

(٦) نخليها الرقاب : نقطع بها الرقاب . يختلين : يقطعن .

(٧) الضغن : الحقد .

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ　تُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا[١]

وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ
عَنِ الْأَحْفَاضِ ، نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا[٢]

نَجُذُّ رُؤُوسَهُم فِي غَيْرِ بِرٍّ　فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا[٣]

كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِم　مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاعِبِينَا[٤]

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُم　خُضِبْنَ بِأُرْجُوَانٍ ، أَوْ طُلِينَا[٥]

إِذَا مَا عَيَّ بِالإِسْنَافِ حَيٌّ
مِنَ الْهَوْلِ الْمُشَبَّهِ أَنْ يَكُونَا[٦]

نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةَ ذَاتَ حَدٍّ　مُحَافَظَةً وَكُنَّا السَّابِقِينَا[٧]

---

(١) يبين : يظهر ويتضح .

(٢) خرت : سقطت . الأحفاض : جمع حفض ، وهو متاع البيت أو الإبل ، والمعنى إذا سقطت الخيام على الأمتعة (كناية عن الحرب) أو إذا سقطت الأمتعة عن الجمال (كناية عن السرعة فى الهرب) نحمى من يقرب منا من جيراننا

(٣) نجذ : نقطع . فى غير بر : شفقة أورحمة .

(٤) المخاريق : جمع مخراق وهى المنديل أو الخرقة والخشبة يضرب بها ، يشير إلى لعب الأطفال .

(٥) خضبن : تلطخن بالدماء .

(٦) الاسناف : الاقدام فى الحروب . عى : عجز . المشبه : المتوقع والمنتظر .

(٧) رهوة : اسم جبل ، شبه الخيل أو الجيش به . الحد : الشوكة والقوة .

بِشُبَّانٍ يَرَوْنَ الْقَتْلَ مَجْدًا   وَشِيبٍ فِي الْحُرُوبِ مُجَرَّبِينَا(١)
بِرَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ   نَدُقُّ بِهِ السُّهُولَةَ وَالْحُزُونَا(٢)
أَلاَ لاَ يَعْلَمِ الأَقْوَامُ أَنَّا   تَضَعْضَعْنَا وَأَنَّا قَدْ وَنِينَا(٣)
أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا(٤)
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ
نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا(٥)
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ   تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا(٦)
تَهَدَّدْنَا وَأَوْعِدْنَا ! رُوَيْدًا !   مَتَى كُنَّا لِأُمِّكَ مَقْتَوِينَا(٧)

---

(١) مجرب : لهم خبرة سابقه .

(٢) الرأس : الرئيس . السهولة : السهول . الحزون : الجبال . والسهول كناية عن الضعاف ، والحزون كناية عن الأقوياء .

(٣) الأقوام : بنو بكر . ونينا : فترنا .

(٤) الجهل : السفه .

(٥) القيل : الملك . القطين : الخدم .

(٦) المشيئة : الإرادة . الوشاة : جمع واش ، وهو الساعى بالشر . تزدرينا : تحتقرنا .

(٧) رويداً : مهلا . القتو : خدمة الملك ، والفعل قتا يقتو ، والمصدر قتو ومقتى ، والنسب إليه : مقتوى ، ثم يجمع مع طرح ياء النسب ، فنقول : مقتوون فى الرفع ، ومقتوين فى النصب والجر ، كما يجمع الأعجمى بطرح ياء النسب ، فنقول : أعجمون وأعجمين ، والمعنى : كف عن تهديدك ووعيدك ، فما ذللنا لك يوماً من الأيام ، وما كانت أمنا خادمة لأمك .

فَإن قنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ ... عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا(١)

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي بَكْرٍ ، إِلَيْكُم !

أَلَمَّا تَعْرِفُوا مِنَّا الْيَقِينَا(٢)

أَلَمَّا تَعْرِفُوا ، مِنَّا وَمِنْكُمْ ... كَتَائِبَ يَطَّعِنَّ وَيَرْتَمِينَا(٣)

عَلَيْنَا الْبِيضُ وَالْيَلَبُ الْيَمَانِي ... وَأَسْيَافٌ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينَا(٤)

عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلاصٍ ... تَرَى فَوْقَ النِّطَاقِ لَهَا غُضُونَا(٥)

إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الأَبْطَالِ يَوْماً ... رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ القَوْمِ جُونَا(٦)

كَأَنَّ غُضُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ ... تُصَفِّقُهَا الرِّيَاحُ إِذَا جَرِينَا(٧)

---

(١) العرب تستعير للغراسم القناة ، يقصد أن عزمهم منيع .

(٢) إليكم : اسم فعل بمعنى ابعدوا عنا .

(٣) يطعن : يطعن بعضها بعضا .

(٤) البيض : جمع بيضة يقصد بيضة الحديد . اليلب : قيل الدروع وقيل الترس تصنع فى اليمن من جلود الإبل .

(٥) السابغة : الطويلة . الدلاص : اللينة البراقة . الغضون : جمع غضن وهو التشنج فى الشىء .

(٦) الجون : السواد من صدأ الحديد .

(٧) الغدر : جمع غدير ، يشبه الطرائق التى ترى فى الدرع بالتى ترى فى الماء .

وَتَحمِلُنا، غَدَاةَ الرَّوْعِ، جُرْدٌ عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِذَ وافْتُلِينَا[(١)]
وَرَدْنَ دَوَارِعاً، وَخَرَجْنَ شُعْثاً كَأَمْثَالِ الرَّصَائِعِ قَدْ بَلِينَا[(٢)]
وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَنُورِثُهَا إِذَا مُتْنَا، بَنِينَا[(٣)]
عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهُونَا[(٤)]
أَخَذْنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْداً إِذَا لَاقَوْا كَتَائِبَ مُعْلَمِينَا[(٥)]
لَيَسْتَلِبَنَّ أَفْرَاساً، وَبِيضاً وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّنِينَا[(٦)]
تَرَانَا بَارِزِينَ وَكُلُّ حَيٍّ قَدِ اتَّخَذُوا مَخَافَتَنَا قَرِينَا[(٧)]
إِذَا مَا رُحْنَ يَمْشِينَ الْهُوَيْنَى
كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَا[(٨)]

---

(١) الروع : الفزع يريد الحرب . الجرد : التى رق شعر جسدها وقصر . نقائذ : مخلصات من أيدى الاعداء . الفلو : العظام .

(٢) درع : عليه درع ، ودروع الخيل : تجافيفها . الرصائع : جمع رصيعة ، وهى عقدة العنان .

(٣) يريد أنها عندهم من قديم وستبقى عندهم إلى الأبد .

(٤) أى كان نساؤهم خلفهم .

(٥) معلمين : أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها فى الحرب .

(٦) مقرنين : قرنوا فى الحديد .

(٧) بارزين : خارجين وظاهرين فى الأرض لانعتصم بشىء لقوتنا وشوكتنا .

(٨) الهوينى : تصغير الهونى ، مؤنث الأهون ، وهو المشى الخفيف فيه تبختر .

يَقُتْنَ جيادنَا ، ويقُلْنَ : لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إذَا لَمْ تَمْنَعُونَا(١)

ظَعَائِنَ مِنْ بَنِى جُشَمِ بن بَكْرٍ خَلَطْنَ بِمِيسَمٍ حَسَبًا وَدِينَا(٢)

وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْقُلِينَا(٣)

كَأَنَّا وَالسُّيُوفُ مُسَلَّلَاتٌ وَلَدْنَا النَّاسَ طُرًّا ، أَجْمَعِينَا(٤)

يُدَهْدُونَ الرُّؤُوسَ كَمَا تُدَهْدِى حَزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهَا الكُرِينَا(٥)

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا

بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا

وَأَنَّا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا وَأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

---

(١) القوت : الإطعام . تمنعونا : تحموننا من سبى الأعداء .

(٢) الميسم : الحسن ، وهو من الوسام والوسامة . والحسب : ما يحسب من مكارم الإنسان .

(٣) القلين : أى تطير سواعد المضروبين ، كما تطير القلة إذا ضربت بالمقلاة . والقلون : جمع قلة ، وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان .

(٤) مسللات : أى فى حال استلالها من أغمادها وقت الحرب . ولدنا الناس : أى نحميهم حماية الوالد لولده .

(٥) يدهدون : يدحرجون . حزاورة : جمع حزور ، وهو الغلام الغليظ الشديد . الأبطح : المكان المطمئن والأرض الكرين : الكرات ، جمع كرة .

وَأَنَّا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا   وَأَنَّا الْآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا

وَأَنَّا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا   وَأَنَّا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا[١]

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا   وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِينَا

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي الطَّمَّاحِ عَنَّا   وَدُعْمِيًّا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَا

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا   أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا[٢]

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا   وَنَحْنُ الْبَحْرَ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا[٣]

إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا   تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا[٤]

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا

وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

بُغَاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا

وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

---

(١) العاصمون : الحامون والمانعون : العازمون : أى نعزم بالعدوان .

(٢) الخسف : الظلم .السوم : أن تجشم إنسانا مشقة وشرا .

(٣) أى عممنا الدنيا برا وبحرا .

(٤) يقول : إذا بلغ صبياننا وقت الفطام سجدت لهم الجبابرة .

موضوعات للبحث

١ — دفعت سهولة أسلوب القصيدة بعض النقاد إلى الشك فى صحة المعلقة ، والقول : بأنها نحلت بعد الجاهلية ، ونسبت لعمرو ـ ناقش .

٢ — فخر عمرو بن كلثوم ، وفخر الحارث بن حلزة ، أى الفخرين ألصق بنفس صاحبه ، وأقرب إلى نفس القارىء ؟ بين ذلك وأيد كلامك بالبرهان .

٣ — يقول النقاد : إن القصيدة الجاهلية شبيهة بالقبيلة من حيث تركيبها الداخلى ـ وضح .

المراجع

ـ شرح المعلقات السبع	: الزوزنى
ـ عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة (الروائع)	: فؤاد إفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٢٩
ـ أدباء العرب	: بطرس البستانى ، بيروت ، ١٩٤٠
ـ الأدب العربى وتاريخه	: محمد هاشم عطية ، مصر ، ١٩٣٦
ـ رجال المعلقات العشر	: مصطفى الغلايينى ، بيروت ، ١٢٣٣
ـ شعر الحرب فى الجاهلى	: على الجندى ، مصر ، ١٩٥٩

الحـارث بن حلّزة

(٥٤٠ — أواخر القرن السادس)

حياته :

هو أبو الظليم الحارث بن حِلِّزَة[1] اليَشْكُرِي ، لا نعرف سنة ولادته على وجه التحديد ، ويقول بعض الدّارسين أنه ولد سنة ٥٤٠ م .

كان حكيما رزينا ، حسن المصانعة ، يجابه الخطوب بهدوء ورويّة ، كان فى بنى بكر مكان عمرو بن كلثوم فى بنى تغلب ، وقد اشتهر مثله بمعلقته ، التى يقال : إنه ارتجلها عَفْو الساعة فى حضره الملك عمرو بن هند يستدرّ بها عطفه ، ويدافع فيها عن قومه ، وكان من أمرها أن البـكريين انتدبوا النّعمان بن هرم ممثِّلاً عنهم ، وكان النعمان يومئذ خطيب البـكريين ، وهو رجل أصمّ أصلع من شيوخ بكر ، من بنى ثعلبة بن غنم بن يشكر ، فلما دخل على عمرو بن هند ، تحرّش به عمرو بن كلثوم ، قائلا : يا أصمّ ، جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك » قال : « وعلى من أظلّت السماء يفخرون ، ثم لا يُنـكر ذلك » . قال عمرو : « والله لو لطمتك لطمةً لما أخذوا لك بها » . فقال النعمان : « والله لو فعلت ما أفلتّ بها أنت ومن فضّلك » فغضب عمرو بن هند من هذا التعريض ، وكان يفضل بنى تغلب على بنى بكر ، فرمى النعمان بـكلمة قارصة ، فردّ عليه بأشدّ منها ، فتلظّى الملك غيظا وطرده من حضرته .

---

(١) الحلزة : اسم دويبة تـكون فى صدف ، وأسم للبومة ، ويقال : امرأة حلزة للقصيدة والبخيلة . والحلز : السيء الخلق .

واهتبلها عمرو بن كلثوم فوقف وأنشد القسم الأول من معلقته ، ولـكنه لم يحسن بدوره انتهاز الفرص ، فقد بالغ فى فخره حتى جاوز الحد ، ولم يرعَ حرمة الملك فطاوله ، وقد ظن أنه قد بلغ الإرب من خصومه البـكريين بعد ما طُرد خطيبهم ، و إذا بالحارث بن حلزة يصدمه بمعلقته ، فصلح ما أفسد النعمان ، وقيل للملك : إن به « برصاً » فأمر بأن تمدّ بينه و بين الحارث سبعة ستور ، فنصبت ، وكان لقصيدة الحارث صدى فى نفس الملك ، فأعجب بها . وكانت أمه هند تسمع فقالت لابنها : « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول ، يكلم من وراء سبعة ستور » فقال الملك : « ارفعوا ستراً ، وأدنوا الحارث » وهكذا حتى رُفعت الستور السبعة ، وأقعده الملك قريبا منه على مجلسه ، ثم أطعمه فى جفنته ، وأمر ألا يُنضح أثره بالماء ، ثم جزّ نواصى السبعين الذين كانوا رهنا فى يده من بكر ، ودفعها إليه ، فلم تزل تلك النواصى فى بنى يشـكر يفتخرون بها ، وضرب بالحارث المثل فى الفخر ، فقيل : « أفخر من الحارث بن حلزة » .

وعُمِّر الحارث طويلا حتى زعم الأصمعى أنه أنشد هذه القصيدة ، وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة .

آثاره :

للحارث ديوان صغير نشره المستشرق « كرُنـكو » مع ديوان عمرو ابن كلثوم ، لم يتضمّن المعلقة ، ومن أغراضه : الفخر بقومه ونفسه ، والتعريض بالأعداء ، ومدح بعض الملوك كأبى قابوس .

المعلقة :

تعالج المعلقة ، كسائر المعلقات ، أغراضا مختلفة بعضها رئيسى ، و بعضها ثانوى ، يبدؤها الحارث بهذا المطلع التقليدى من النسيب ، والوقوف بالأطلال .

وذكر الفراق ، ولكنه صاحب جد فلا يطيل فى غزله ، وإنما ينثنى إلى وصف الناقة التى يستعين بها على الهم ، ثم ينتقل إلى الردّ على بنى تغلب ، كأبرع ما يكون المحامى المدافع والمدّعى فى آن واحد ، فهو يُفنّد اتهامات التغلبيين ، ويرسلها إليهم سهاماً مسمومة تقع فى نحورهم ويذكر انتصارات البكريين وغيرهم عليهم ، ويشير إلى ما كان من تقاعس التغلبيين عن عهود السلام ، ويتقرب من الملك بمدحه ، وذكر علاقات الود والمحالفة بين المناذرة والبكريين، وقد كان لدهاء الحارث وبراعته فى العرض والدفاع والهجوم والمدح والتعريف أثرٌ فعال فى نفس عمرو بن هند . فأحيا فى نفسه الذكريات ، وأثار فى قلبه ما كان كامنا من حب وبغض ، وخطّ أمام عينه صورة واضحة للتغلبيين والبكريين وإذا أولئك أعداء الملك ، وإذا هؤلاء موالون مخلصون ، وخدام أمناء ، وأنسباء أحباء .

ويستهل الشاعر فخره بذكر دعوى تغلب على بكر ، وأخذها فى الاستعداد للحرب موطئا بذلك لدفاعه حيث يقول :

وأتانا من الحوادث والأنـ ـباء ، خطب نُعنَى به ونساء
إن إخواننـــا الأراقم يَغْلو ن علينا ، فى قيلهم إحفـاء

فانظر إلى هذا اللين وهذه النعومة فى قوله : « إن إخواننا الأراقم » وقابل بها تعالى عمرو وتكبره فى خطابه للبكريين : « إليكم يا بنى بكر إليكم » وقوله : « ألا لا يجهلنْ أحد علينا » فترى الفرق بين الشاعرين من حيث اللباقة والمهارة والرزانة ، ومن حيث الخداع والدهاء ، ثم يأخذ فى الرد على عمرو بن كلثوم وقد أبدى بلاغة واضحة ، كانت نتيجتها حاسمة ، وأرجحت كفة البكريين بعد أن كانت خاسرة وبعد أن يذكر شيئا من مفاخر البكريين ينتقل إلى مدح والد عمرو بن هند ، ثم ألقى على عاتق التغلبيين مغبة حرب طاحنة ،

وحذرهم مغبة نقض العهود والمواثيق والأحلاف القائمة بين العشيرتين ، ثم أخذ يعيرهم أياما غلبوا فيها ليغض من شأنهم أمام الملك ، سالكا أسلوب المواجاة والتوضع ، ولكنه الأسلوب الموجع فهو لا يصرخ فيهم بالهزيمة يوم كذا وكذا ، بل زعم أنهم يطالبون بكرا بذنوب غيرها من القبائل وجعل يسمى تلك القبائل التى انتصرت عليهم ، ويسخر منهم بقوله : «أعلينا يقع الذنب إذا قهركم بنو كنده و بنو قضاعة ، و بنو العباد .. » كل هذا فى هدوء واتزان وترتيب متناسق مؤيد بالبرهان والحجة .

ثم ذكرهم ، وذكر ابن هند بمقتل والده المنذر ، وفتكه بهم ، لاحجامهم عن نصرته فى طلب الثأر ، وكأنه أراد بهذه الذكرى ايغار صدر الملك عليهم ، وكان ذلك آخر سهم مسموم صوبه إلى قلوبهم فاستقر منها فى العين . و بذلك حقق الحارث غرضين : الغرض الأول إزالة ما كان من أثر سيء فى نفس الملك ، الغرض الثانى أن يبنى على أنقاضه أثرا جديداً ملائما لصالح البكريين ، وقد وصل إلى غايته فضرب عصفورين بحجر واحد ، إذ استغل التهور والطيش فى كلام عمرو ، ثم لجأ إلى المداراة والحنكة فى التزلف إلى الملك ، إنه يمدح الملك فيوطىء لبلوغ موضع الرضا والقبول من نفسه ، و يرد على التغلبيين محاذراً أن يكبو وأن يتعثر فى حمية عمرو الجلجلة .

والمعلقة لم تخل من المظاهر الملحمية ، ولكنها دون مظاهر عمرو ، فقد قدم لنا ثبتا بأسماء المعارك التى خاضها بنو تغلب ضد البكريين وغيرهم وهنا نلمح وجه التاريخ ، ثم يعرّج على وصف القتال والاستعداد له ، وصفا يتخذ طابع الفخر ، والدفاع عن القبيلة ، فهو يعدد مفاخر بنى بكر ذاكراً بعض أيامهم مختتما معلقته .

المنتخبات

المعلقـــة

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهـــاَ أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ(١)
وأَتَانَا مِنَ الحَوَادِثِ وَالأَنْبَاءِ خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ(٢)
أَنَّ إِخْوَانَنَا الأَرَاقِمَ يَغْلُونَ عَلَيْنَا ، فِي قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ(٣)
يَخْلِطُونَ الْبَرِيءَ مِنَّا بِذِي الذَّنْبِ
وَلاَ يَنْفَعُ الخَلِيَّ الْخَـــلاَءُ(٤)
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيرَ مُوَالٍ لَنَا ، وَأَنَّا الْوَلاَءُ(٥)
أَجْمَـــعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً ، فَلَمَّا
أَصْبَحُوا ، أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ(٦)

---

(١) آذنتنا : أعلنتنا . أسماء : اسم محبوبته . الثاوى : المقيم . الثواء : الإقامة.

(٢) المعنى ، اتانا من الأخبار والحوادث أمر عظيم يحزننا .

(٣) الأراقم : جماعة من تغلب ، يغلون : يجاوزون الحد . الاحفاء : الالحاح. القيل : القول .

(٤) الخلى : البرىء .

(٥) العير : السيد والحمار والوتد . أى حملوا العرب جميعا جناية بعضنا .

(٦) أجمعوا أمرهم : عقدوا نيتهم .

مِنْ مُنَادٍ ، ومِنْ مُجِيبٍ ، وَمِنْ تَصْهَـ
ـالِ خَيْلٍ خِـلاَلَ ذَاكَ رُغَاءُ(١)

* * *

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو ، وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ(٢)
لاَ تَخَلْنَا عَلَى غَرَاتِكَ إِنَّا قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الْأَعْدَاءُ(٣)
فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينَا حُصُونٌ ، وَعِزَّةٌ قَعْسَاءُ(٤)
قَبْلَ مَا الْيَوم ، بَيَّضَتْ بِعُيُونِ النَّاسِ ، فِيهَا تَغَيُّظٌ وَإِبَاءُ(٥)
وَكَأَنَّ الْمَنُونَ تَرْدِى بِنَا أَرْ
عَنَ جَوْنًا ، يَنْجَابُ عَنْهَا الْعَمَاءُ(٦)

---

(١) التصهال : كثرة أصوات الخيل . الرغاء : صوت الإبل ، وفى البيتين إيجاز بليغ ، ووصف جميل للاستعداد .

(٢) المرقش : مموه الكلام ، يعنى عمرو بن كلثوم . هل لذاك بقاء : أى ليس لكلامك تأثير .

(٣) أى إن إغراءك الملك بنا لا يخضعنا ، فكثيرا ما وشى بنا الأعداء .

(٤) الشناءة : البغض . القعساء : الثابتة المنيعة .

(٥) ما : زائدة ، وكذلك الباء فى بعيون ، المعنى : أن عزتنا قد أعمت الناس من قبل .

(٦) تردى : ترمى . الأرعن : الجبل . الجون : الأسود . ينجاب : ينكشف العماء : السحاب ، والمعنى إن مصائب الدهر لا تؤثر فيهم .

مُكْفَهِرًّا عَلَى الْحَوَادِثِ، لاَ تَرْ ... تُوهُ لِلدَّهْرِ، مُؤْيِدٌ صَمَّاءُ[١]

مَلِكٌ مُقْسِطٌ، وَأَفْضَلُ مَنْ ... يَمْشِي، وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ[٢]

أَيَّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّو ... هَا إِلَيْنَا تَمْشِي بِهَا الْأَمْلاَءُ[٣]

إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ فَالصَّا ... قِبِ، فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ[٤]

أَوْ نَقَشْتُمْ، فَالنَّقْشُ يَجْشِمُهُ النَّاسُ ... وَفِيهِ الإِسْقَامُ وَالْإِبْرَاءُ[٥]

أَوْ سَكَتُّمْ عَنَّا، فَكُنَّا كَمَنْ ... أَغْمَضَ عَيْنًا، فِي جَفْنِهَا الْأَقْذَاءُ[٦]

---

(١) ترتوه: ترخيه. المؤيد: المصيبة. الصماء: الشديدة، يعنى أننا ثابتون كهذا الجبل.

(٢) مقسط: عادل. وأما القاسط فمعناه الجائر الظالم.

(٣) الخطة: الأمر والطريقة. الأملاء: الجماعات ذوو الشرف، ومفردها ملأ.

(٤) نبشتم: بحثتم عن الماضى. ملحة والصاقب: جبلان.

(٥) النقش: الاستقصاء والبحث. يجشمه: يتحمله، والمعنى: إذا بحثتم فيما جرى بيننا وجدتم الأسقام فيكم.

(٦) الأقذاء: جمع قذى، وهو ما يقع فى العين من الغبار. والمعنى: إذا أعرضنا عنكم لم يغمض لنا جفن خوفا من غدركم.

أَوْ مَنَعْتُمْ ما تَسْأَلُونَ ، فَمَنْ حُـــدِّ
ثْتُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَـــلاَءُ(١)

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّاسُ غِوَاراً ، لِـكُلِّ حَيٍّ عُواءُ(٢)

إِذْ رَفَعْنَـا الْجِمَـالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْـ
ـرَيْنِ ، سيراً ، حَتَّى نَهَاهَا الْحِساءُ(٣)

ثُمَّ مِلْنا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمْنَا وَفِينا بَنَـاتُ قَوْمٍ إِماءُ(٤)

لاَ يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْلِ وَلاَ يَنْفَعُ الذَّلِيلُ النَّجَاءُ(٥)

لَيْسَ يُنْجِي مُوَائِلاً مِنْ حِذَارٍ
رَأْسُ طَوْدٍ ، وَحَـــرَّةٌ رَجْلاَءُ(٦)

---

(١) منعتم ما تسألون : إذا رفضتم ما نعرضه عليكم من المهادنة .

(٢) الغوار : إغارة القوم بعضهم على بعض . العواء : صوت الذئب . هل : بمعنى قد .

(٣) السعف : أغصان النخيل . البحرين والحساء : بلدان على خليج العرب أوالخليج الفارسى . أى أغرنا مسرعين حتى بلغنا الحساد .

(٤) أحرمنا : دخلنا فى الشهر الحرام . أغرنا فى طريقنا على تميم ،ثم أحرمنا ، وكان معنا آنذاك عدد من السبايا .

(٥) النجاء : الهرب . أى أن الشركان عاما .

(٦) الموائل : طالب النجاة ، وفعله وأل .

فَمَلَكْنا بِذَلِكَ النَّاسَ ، حَتَّى مَلَكَ الْمُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماء[1]
وَهُوَ الرَّبُّ ، والشَّهِيدُ عَلَى يَوْ مِ الحِيَارَيْنِ ، والْبَلاَءُ بَلاَءُ[2]
مَلِكٌ أَضْرَعَ الْبَرِيَّةَ ، لاَ يُو جَدُ فِيهاَ ، لِما لَدَيْه كِفَاءُ[3]

* * *

فاتْرُكُوا الطَّيْخَ وَالتَّعَاشِي ، وَإِمَّا تَتَعَاشَوْا ، فَفِي التَّعَاشِي الدَّاءُ[4]
وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي المَجازِ ، وَمَا قُدِّ
مَ فِيهِ الْعُهودُ وَالْكُفَلاَءُ[5]
حَذَرَ الْجَوْرُ والتَّعَدِّى ، وَهَلْ يَنْـ
قُضُ ما فِي الْمَهَارِقِ الأَهْوَاءُ[6]
وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيـ مَا اشْتَرَطْنَا ، يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ

* * *

---

(١) المنذر : هو والد عمرو بن هند ، من ملوك الحيرة ، وفى البيت إقواء ، إذ القافية مرفوعة ، والسماء مجرورة .

(٢) الرب . السيد : يوم الحيارين : يوم قاتل فيه البكريون إلى جانب المنذر .

(٣) أضرع : أخضع . البرية : الخلق . الكفاء : المعادل .

(٤) الطيخ : التكبر . التعاشى : التعامى .

(٥) ذو المجاز : موضع ، جمع فيه ابن هند بكرا وتغلبا وأصلح بينهما .

(٦) المهارق : معربة عن الفارسية ، وتعنى : الأوراق .

أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ : أَنْ يَغْـ ـنَمَ غَازِيهِمُ ، وَمِنَّا الْجَزَاءِ ؟[١]
أَمْ عَلَيْنَا جَرَّى إِيَادٍ ؟ كَمَا قِيـ ـلَ لِطَسْمٍ : أَخُوكُمُ الأَبَّاءُ[٢]
أَمْ عَلَيْنَا جَرَّى حَنِيفَةَ ، أَمْ مَا جَمَّعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غَبْرَاءُ
أَمْ عَلَيْنَا جَرَّى قُضَاعَةَ ، أَمْ لَيْـ ـسَ عَلَيْنَا فِيمَا جَنَوْا أَنْدَاءُ[٣]
أَمْ جَنَايَا بَنِي عَتِيقٍ ، فَمَنْ يَغْـ ـدِرْ فَإِنَّا مِنْ حَرْبِهِم بُرَآءُ
عَنَنًا بَاطِلاً وَظُلْمًا ، كَمَا تُعْـ
ـتَرُ عَنْ حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ[٤]
لَيْسَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ ، وَلاَ قَيْـ
ـسٌ ، وَلاَ جَنْدَلٌ ، وَلاَ الْحَذَّاءُ[٥]
وَثَمَانُونَ مِنْ تَمِيمٍ بِأَيْدِيـ
ـهِم رِمَاحٌ ، صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ[٦]

---

(١) الجناح : الإثم ، والمعنى : أتحملوننا آثام ما فعلت بكم كندة حين غزتكم .

(٢) الجرى : الجناية .

(٣) أنداء : جمع ندى ، وهو ما نزل من الرطوبة آخر الليل ، وأرادبها الذنوب لأنها تصيب الجانى كما يصيب الندى الأرض .

(٤) العنن : الاعتراض . العتر : ذبح ذبيحة للأصنام فى رجب .

(٥) يذكر عددا من المهزومين .

(٦) القضاء : الموت .

تَرَكُوهُم مُلَحَّبِينَ ، وآبُوا ... بِنِهَابٍ يُصَمُّ مِنْهُ الْحُدَاءُ[١]

ثُمَّ جاءوا يَسْتَرْجِعُونَ ، فَلَمْ تَرْ ... جِعْ لَهُمْ شَامَةٌ وَلاَ زَهْرَاءُ[٢]

لَمْ يُحِلُّوا بَنِي رِزَاحٍ بِبَرْقَا ... ءِ نِطَاعٍ ، لَهُمْ عَلَيْهِمْ دُعَاءُ

ثُمَّ فَاءُوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الظَّهْـ ... ـرِ ، وَلاَ يَبْرُدُ الْغَلِيلَ الْمَاءُ[٣]

ثُمَّ خَيْلٌ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ مَعَ الْفَـ ... ـلاَّقِ لاَ رَأْفَةٌ وَلاَ إِبْقَاءُ[٤]

---

(١) الملحبون : المقطعون . النهاب : الأسلاب .

(٢) جاءوا : الضمير عائد إلى بنى رزاح . الشامة : السوداء . الزهراء :البيضاء .

(٣) فاءوا : رجعوا . القاصمة : القاطعة ، وقاصمة الظهر : المصيبة . الغليل : العطش .

(٤) الفلاق : رجل من بنى تميم أغار على بنى تغلب .

موضوعات للبحث

١ — ضرب المثل بفخر الحارث ، فقيل : « أفخر من الحارث بن حلزة » أينطبق هذا المثل على ماورد فى معلقة الشاعر ؟ وإلى أى حد ؟ وكيف تعلل ذلك ؟ .

٢ — قيل : « لو طالت معلقات الجاهلية لاستحالت ملاحم ، وسدّت ثغرة فى الأدب العربى » اشرح وناقش .

٣ — هذه اللهجة التى اتخذها الحارث فى مخاطبة بنى تغلب تدل على الحنكة والدهاء . حلل مميزاتها ، واذكر ما قد يكون من تأثيرها ، مستندا إلى الشواهد .

المراجع

١ ـ عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة (الروائع) : فؤاد افرام البستانى، بيروت ، ١٩٢٩

٢ ـ رجال المعلقات العشر : مصطفى الغلايينى ، بيروت ، ١٣٣٢

٣ ـ شعر الحرب فى الجاهلية : على الجندى ، مصر ، ١٩٥٩

٤ ـ المحيط (فى أدب البكالوريا) : جبران مسعود ، بيروت ، ١٩٥٩

٥ ـ تاريخ الأدب العربى : حنا فاخورى ، بيروت ؟

عنترة بن شداد

(٥٢٥ م – ٦١٥ م)

حياته :

ولد عنترة بن عمرو بن شدّاد العبسيّ حوالى سنة ٥٢٥ م ، وكانت أمُّه زُبَيْبَة أَمَةً حبشيّة سوداء ، سباها أبوه فى بعض حروبه ، واستولدها ، فولدت طفلا تبدو عليه سمات القوة وأمارات الذكاء ، كما ورث عن أمِّه معالم جنسها ، فأتى أسود البشرة ، حتى عُدَّ من أغْربة العرب ـ مشقوق الشفة السفلى ، وقد كان لونه موضع تحقير أبناء قومه ، وكان من عادة العرب إذا استولدوا إماءهم ، ألاّ ينسبوا أولادهم منهن إلى أنفسهم أنفة وكبرا ، ولذلك بقى عنترة زمناً يرعى إبل أبيه ، دون أن يُلحقه هذا بنسبه ، ولا يحضر مجامع قومه ، ولا يشهد أندية فتيانهم .

وحدث يوما أن رأى « عبلة » ابنة عمه فراقه حسنها وتعلق قلبه بها ، وودّ لو يتزوجها ، ولكن كيف وهو عبد يرعى الإبل ، وهى سيدة من كرائم القوم الحرائر ؟ وطلبها من عمه ، فأباها عليه ، وعز ذلك على عنترة وثار فيه إحساس عميق بالظلم ، وأراد أن يدفعه بلسانه وقلبه ويده معا ، وتحركت لديه غريزة الشاعر وشاءت الظروف أن تسعف عنترة ، وأن تفجر كوامن فروسيته ، فهجم الأعداء على الحىّ يوما وغنموا بعض الإبل واستاقوها ، فخرجت فى أثرهم بنو عبس لعلهم يستردونها ، ونشبت بين الفريقين حرب ضروس ، وأحس بنو عبس بالحرج ، فطلب شداد إلى عنترة أن يلحق بهم ، ويكرّ معهم ، ولكنه رفض ملمحا إلى « أن العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر » ، فما كان من أبيه

إلا أن قال له : « كر وأنت حر » وكرّ عنترة ، فاستنقذ الإبل ، وتوالت كراته ، حينما قامت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، فأبدى بطولة نادرة لم تشهد مثلها مواقع القتال .

كما كان حرا ذا نفس أبيّة ، يواجه الموت بعزيمة لا تفتر ، وينجد رفقاءه المستغيثين به ، ويعف عند المغنم ، وصار عنترة بعد هذه الحرب فارس عبس غير منازع ، حتى ضرب به المثل فى الشجاعة والإقدام ، ونسجت حوله الأخبار والأساطير ، وروى له الرواة كثيرا من القصص التى تتجلى فيها بطولته ونزاله الكماة وقراعه الخطوب ، ومازالت هذه القصص تروى فى المغرب وفى غيره من بلدان العالم العربى ، أما فى المغرب فتروى فى « باب عجيسه » و « باب الفتوح » بفاس ، وفى « باب جامع الفناء بمراكش » وفى باب منصور العلج » بمكناس ، فى حلقات هادئة يطرب لها الناس ، ويستمعون لها فى شوق شديد ، وينقلونها على مرّ الزمن من جيل إلى جيل ، والواقع أن شهرة عنترة « كفارس مغوار » طغت عند العامة على شهرته « كشاعر مطبوع » رقيق الحاشية ، فياض العاطفة .

ولقد طال الأجل بعنترة ومات قبل الإسلام بقليل حوالى سنة ٦١٥ م ، وفى وفاته روايات عدة ، منها : أن أحد أعدائه رماه بسهم فقتله ، ومنها أن الريح هاجت عليه يوما فمات فى الطريق .

آثاره :

عنترة أحد فحول الشعراء الجاهليين ، ومن أصحاب المعلقات وقد حوى ديوانه شعرا كثيرا ، بعضه مما يشك فى صحة نسبته إليه ، وأهم الأغراض التى طرقها : الفخر والغزل ، والحماسة :

المعلقة :

كان السبب فى نظمها ماروى من أنه جلس يوما فى جمع من أصحابه بعد ما كان قد أبلى بلاء حسنا فى مختلف الوقائع التى حدثت بين قومه و بين أعدائهم حتى أدى ذلك أن إلى يعترف به أبوه وأن يلحقه بنسبه و يعتقه ، فسبّه فى هذا المجلس رجل من بنى عبس وذكر سواده ، وسواد أمه ، و إخوته ، وأنه لا يقول الشعر فردّ عليه عنترة سبّه وفخر عليه قائلا «والله إن الناس لا يترافدون للطعمة ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك مرافد الناس قط ، و إن الناس لا يدعونه فى الغارات ، فيعرفون بتسويمهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط . و إن اللبس لا يكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة الفصل ، و إنما أنت فقع بقرقر و إنى لأحتضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعفّ عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ، وأفصل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم » .

ثم أنشد معلقته ، وكان لا يقول من قبل ذلك إلا البيتين أو الثلاثة ، وهو يستهلّ معلقته ، ببيت يذكر فى شطره الأول ـ بطريقة الاستفهام الإنكارى ـ أن الشعراء لم يدعوا بابا من أبواب الشعراء إلاّ ولجوه ، ثم ينتقل إلى ذكر الدار والغزل ببنت عمه « عبلة » ثم يصف الروضة ، والناقة و يستقرّ أخيرا فى موضوع المعلقة الرئيسى فيذكر مغامراته ، ويفخر بشجاعته ، و يصف فرسه ، ويتحدث عن أعدائه و يتهددهم ، ويتشفى فيهم ، ولا يفوته أن يصف مجالس لهوه وأنسه ، ولكنه فى كل هذا حريص على مكارم الأخلاق ، فهو غضيض الطرف ، معرض عن المغانم ، لا يفرط فى عرضه إذا دارت الخمر برأسه ، و إن كان لماله من المهلكين .

غـزله :

إن الرواة جعلوا همهم الحديث عن حروب عنترة وعن عبوديته وعن بطولته وشجاعته ، وإذا ذكروا عبلة أتوا بها عرضا دون أن يشرحوا مأساته الغرامية مع أن شعره الصحيح لا يخلو من الإشارة إليها ؛ لأن عنترة درج على أن يصور بطولته من خلال غزله كما فى المعلقة وغيرها ، فهذا والد عبلة - كما فى المعلقة - كان يتنكر له ، ويهرب بينته إلى ديار الأعداء ليبعدها عنه ، فيشكو الشاعر الفارسى عداوة قومها له ، : « حلت بأرض الزائرين فأصبحت عسرا على طلابك » فعبلة فى أرض الزائرين ، أى الأعداء ، وقومها هم الذين ذهبوا بها إليهم فاضطر عنترة إلى مقاتلة الأعداء ومقاتلة أهلها معهم « وأقتلوا قومها » فأصبح طلبها عسيرا عليه ، كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ .

أو يبعث بجاريته تتجسس له أخبارها :

فبعثت جاريتى ، وقلت لها : اذهبى وتجسّسى أخبارها لى واعلمى

على أن اليأس والحرمان لم يفت من عضد عنترة طوال حياته ، فلقد رق له قلب عمه مالك فزوّجة عبلة وبذلك اندمل قلبه الجريح ، وإن كان التاريخ لا يقطع بخبر زواج عنترة من عبلة أو ينفيه ، فعبلة لم ترافق عنترة فى شعره الغزلى وحده ، بل رافقته فى فخره وحماسته وذكر حروبه ، فإذا فخر ، وإذا غامر فإن ذلك بحافز من أجلها ، وهو بهذا يقدّم لنا صورا من غزل الفرسان ، كهذا اللون الذى شاع فى أوروبا فى القرون الوسطى ، كما يقـدم لنا قصائد فخرية تجتمع فيها ألفاظ الحب بألفاظ الحرب ، فنراه يعرض معاركه على عبلة لتشهد مواقفه الحربية فى مبارزة الأبطال ، وكيف أنه يبذر الموت فى كل مكان

وأن ذكر اسمه يبعث الرعب فى قلوب الأعداء، ويصف لها معاركه فإذا هى ملاحم يغشاها غبار المعركة وتبرق فى سمائها السيوف القاطعة وهو درع لقومه يتقون به رماح الأعداء وإذا هو ركن المعركة وقوامها وحجر رحاها ، وعليه يتوقف مصير القوم ومصير الحروب .

فخره :

وَسَمَت الوراثة عنترة بالسواد ، ورمته تقاليد البيئة بالعبودية ، فعصفت به الأعاصير، ولكن أمله بنيل حقه لم يتبدّد ، فانصرف إلى الأعمال المجيدة ، وإلى حلبات الطعان وهى خير محك لمعادن الرجال فى تلك الأزمنة ـ ليخرس الحساد ، ويستهوى محبوبته ، وهل أجدر من الكرم والأنفة ، والنبل والشجاعة ، وحسن المخالقة بتمثيل هذه الرجولة ؟ .

وإذا سرنا طلقا مع كفاح عنترة ، وجدنا أن كفاحه ظل يدفع به ـ كى يلحق بركب الأحرار ـ حتى أدركهم ، وتخطاهم ، وبرّز عليهم ، ولقد تحول مركب النّقص فيه إلى النقيض من الشعور بالعظمة والبطولة ، بدل أن يدفع به إلى التقاعس ، والخلود إلى الأرض ، ومن ثمّ فهو يخاطب ابنة عمه عبلة فى نشيد حماسى قوامه ثلاثة أبطال : الشاعر ، وحصانه ، وخصمه . ويفاخر ، ذاكر لها قدرته على نزع الدرع عن الفارس «إننى طب بأخذ الفارس المستلئم» ، إلا أنه لا يلبث أن يستدرك قسوته ، فيظهر خلقه النبيل ، إذ يعترف لها بأنه لا يعتدى ، لكنه يدافع عن شرفه إذا ظلم ، وهذا الخلق يدلّ على خاصة هامة من خصائص الفروسية فى الجاهلية ، فالبطل الحق ينبغى أن يكون ليّن العريكة عادلا ، وعنترة لا يفخر بقدرته الجسدية فحسب ، بل بعاداته : كشرب الخمر ، والكرم ، والعفة ، وهو يستشهد الخيل على ذلك « هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ؟ » ولا شك أن هذا

أبلغ فى الدلالة من استشهاد الجنود والقوم . وقوله : « وأعف عند المغنم » ، وقوله من قصيدة أخرى :

ولقد أبيت على الطوى ، وأظله حتى أنال به كريم المأ كل

يدلنا على فضيلة أخرى من فضائل الفروسية ، فالشاعر لا يغشى الحرب فى سبيل بعض الغنائم ، وإنما يقصد الحرب للبطولة ، وهذا يؤكد لنا أن الحرب كانت بالنسبة لعنترة طريقا لتحقيق الذات ، وإثبات العظمة ، فهو يستدرُّ بها إعجاب الناس ، وإعجاب حبيبته ، وينفض عن نفسه مبسم الضعة الذى وسمته به الحياة . ولقد ذكر هذا البيت السابق للرسول عليه الصلاة والسلام ، فأعجب به ، وقال : « ما ذكر لى أحد من الجاهلية ، وتمنيت أن أعرفه إلا عنترة » .

ولعنترة خبرة خاصة فى القتال ، فهو لا يُقبل على المعركة كيفما كان الأمر ، يظل يهتبل الفرصة السانحة التى تضطرب فيها صفوف الأعداء ، ويولون الأدبار ، فينبرى لهم ، ويضرب فى أعقابهم .

كما أن البطولة لا يخص بها نفسه ، ولا يستأثر بها دون غيره ، بل يراها فى حصانة الأدهم ، لحصانه بطل مثله ، وقد زاد فارتفع عن أصله الحيوانى ، فأناط به حالة إنسانية ، إذ جعله يشتكى ، ويعبر وجهه عن علامات الأسى ، ووطأة القتال ، وأين هذا الفرس من فرس امرىء القيس الكميت الذى يزل الغلام الخف عن ظهره ، فذلك فرس على وهذا فرس وجدانى ، يشارك عنترة فى شجاعته ، ويستمد منه عزما ومضاء ويساعد فى بلوغ غاياته ، يرمى صاحبه الأعداء بثغرة نحره ، فلا يجفل ولا يقصر ، بل يفهم مراده .

وهتاف الجند بعنترة أن يسرع إلى معونتهم يدل على أن هؤلاء الجنود يذكرونه عندما تضيق بهم المسالك ، ويأخذ القتال بمخنقهم ، وهذا النداء حبيب إلى أذنه ، وأجمل نغمة تقع عليها ، لأنه ، لايدل على مساواته بالقوم فقط ،

بل يدل على تفوقه عليهم ، ولعل لفظتى « شفى » و « أبرأ » عميقتا الدلالة على حقيقة نفسيته .

وتلك بعض المعانى التى يستشهد بها من يقرر أن الأدب العربى لم يخل من مظاهر ومقاطع ملحمية ، فأعمال عنترة ليست أعمالا عادية ، بل فيها بعض الأعمال الخارقة والبطولية ، وكما أن هكتور بطل حصار طروادة فى إلياذة هوميروس لايقل بطولة عن أخيل ، فكذلك خصم عنترة لايبخسه عنترة حقه فهو «مدجج كره الـكُماة نزاله » شجاع مجرّب فى الحروب ، مهيب الصورة ، عنيد فى قتاله ، لم يخض معركة إلا ثبت فى ميدانها من غير أن يهرب أو يستسلم ، وهو كريم الأصل ، نبيل الخلق ، يذود عن ذمار نفسه وقومه ، ويحلو لعنترة أن يصف خصمه بهذه الصفات ليفيد من ذلك فى إظهار قوته ، ومقارنة نفسه به ، وهناك بطل آخر يرتدى الدّروع السابغة الطويلة ، ولقد قصده عنترة ، فضربه بالرمح ، فجندله عن فرسه ، فإذا به كشجرة هائلة قد رنّ صَدَى سقوطها فى الأفق .

ثم يزداد إمعانا فى إظهار قوته ، فيصور قومه هاربين ، وقد لحق بهم الأعداء ، أو يصورهم وقد ضيق عليهم العدو الحصار ، وبلغت منهم القلوب الحناجر ، فهم فى ضنك ، وهو ينتهز هذه السانحة فيكرّ مقدما فيبدّد اللّاحقين . ويُنقذهم من العسرة والضائقة التى كانوا يعانونها .

وهو خير من أولئك القوم الذين يفتخرون عليه ويحتقرونه ، وليس لهم فضل عليه إلاّ أنهم ذوو أخوال وأعمام بينما هو من أمَة حبشية ، وقد أراد عنترة أن يُظهر لهم أن عظمة الإنسان إنما هى فى نفسه ، فى قدرته وكفاءته وشخصيته ، ونقرر هنا أن وراء بطولته تلك شعوراً حاداً بالمستحيل

وبالنقص الذى لا يعوّض ، فليس فى نفسه حقد على الأعداء الذين يقاتلهم ، بقدر ما فيها على بنى قومه الذين لا فضيلة لهم إلا أنهم أحرار .

وعندما يتصدّى عنترة للأعداء ويُقبل على ساحة المعركة بعد أن يولّى الجميع الأدبار ، فإنه يواجه مشكلة الموت ، ومن ثمّ فهو يجاهد كى يظل سليما وحيًا ، لأنه يريد أن يُحقّق ضربًا من ضروب البطولة التى تتحدث بها الركبان على مرّ الزمان ، ولا يرى سعادته إلا فى تحقيقها .

المنتخبات

أولاً — المعلقة

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (١)

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِى ... وَعِمِى صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِى (٢)

دَارٌ لِآنِسَةٍ غَضِيضٍ طَرْفُهَا ... طَوْعَ العِنَانِ لَذِيذَةِ الْمُتَبَسَّمِ

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِى وَكَأَنَّهَا ... فَدَنٌ لِأَقْضِى حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ (٣)

وَتَحُلُّ عَبْلَةُ بِالْجِوَاءِ وَأَهْلُنَا ... بِالْحَزْنِ فَالصَّمَّانِ فَالْمُتَثَلَّمِ (٤)

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ (٥)

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ ... عَسِرًا عَلَيَّ طِلَابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا ... زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فَلَا تَظُنِّى غَيْرَهُ ... مِنِّى بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

---

(١) المتردم : الموضع الذى اعتراه الوهن .

(٢) الجواء : اسم موضع . عمى صباحا : طاب صباحك .

(٣) وقفت : أوقفت . الفدن : القصر . المتلوم : المتمكث .

(٤) الحزن والصمان والمتثلم : أماكن .

(٥) الطلل : الآثار الباقية . أقوى وأقفر : خلا . أم الهيثم : كنية عبلة .

إنْ تُغْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإنَّنِي   طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ (١)
أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإنَّنِي   سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إذَا لَمْ أُظْلَمِ (٢)
فَإذَا ظُلِمْتُ فَإنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ   مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ (٣)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ (٤)
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ   قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشِّمَالِ مُفَدَّمِ (٥)
فَإذَا شَرِبْتُ فَإنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ   مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ (٦)
وَإذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى
وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي (٧)

---

(١) تغدفى : ترخى . الطب : الحاذق . المستلئم : لابس اللأمة ، وهى الدرع .

(٢) مخالقتى : من خالق القوم ، عاشرهم بخلق حسن . سمح : سهل .

(٣) باسل : قوى شديد . العلقم : الحنظل وكل شىء شديد المرارة .

(٤) المدامة : الخمر ومعنى المدامة : التى أديمت فى الدن . الهواجر : جمع هاجرة ، وهى شدة الحر عند نصف النهار . المشوف : الدينار المجلو . المعلم : المنقوش المعروف .

(٥) الأسرة : الخطوط فى اليد والوجه ونحوها . أزهر : أى أبريق لامع : مفدم : مسدود بالفدام ، أى المصفاة .

(٦) مستهلك : منفق . العرض : الشرف . الوافر : التام . يكلم : يجرح .

(٧) الندى : الجود والفضل . شمائل : مفرده شميلة ، أى الطبع والسجية .

وَحَلِيــــلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً
تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ [(١)]

سَبَقَتْ يَدَاىَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنِ الْعَنْدَمِ [(٢)]

هَلاَّ سَــأَلْتِ الْخَيْــلَ يَاابْنَةَ مَالِكٍ
إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَــا لَمْ تَعْلَمِى [(٣)]

إِذْ لاَ أَزَالُ عَلَى رِحَالَةِ سَــابِحٍ
نَهْدٍ، تَعَــاوَرَهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمِ [(٤)]

طَوْرًا يُجَرَّدُ لِلطِّعَــانِ وَتَارَةً
يَأْوِى إِلَى حَصْــدِ الْقِسِىِّ عَرَمْرَمِ [(٥)]

---

(١) الحليل : الزوج . الغانية : المرأة الجميلة التى غنيت بجمالها عن الزينة . المجدل : الملقى على الجدالة ، أى الأرض .

(٢) الرشاش : ما تناثر من الدم . النافذة : الطعنة النافذة . العنــدم : نبات أحمر .

(٣) هلا : أداة تحضيض . ابنة مالك : عبلة . بما لم تعلمى : عما لو تعلمى . وحرف الجر متعلق : بسألت .

(٤) الرحالة : السرج : السابح : صفة للفرس المسرع . النهد : الضخم . تعاوره : تداوله . الكماة : جمع كمى ، وهو البطل المدجج بالسلاح .

(٥) يجرد : يخرج من الصفوف . الحصد : المحكم . القسى : جمع قوس ، وهى آلة ترمى بها السهام . العرمرم : الكثير .

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي
أَغْشَى الْوَغَى ، وَأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ (١)

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةُ نِزَالَهُ لاَ مُمْعِنٍ هَرَبًا وَلاَ مُسْتَسْلِمِ (٢)

جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوَّمِ (٣)

بِرَحِيبَةِ الْفَرْغَيْنِ يَهْدِي جَرْسُهَا
بِاللَّيْلِ مُعْتَسَّ الذِّئَابِ الضُّرَّمِ (٤)

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ
يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ (٥)

---

(١) الوقيعة : الموقعة أى المعركة . الوغى : الحرب .

(٢) المدجج : التام السلاح .

(٣) المثقف : الرمح المقوم . الصدق : الصلب . الكعوب : العقد فى قصبة الرمح .

(٤)

(٥) جزر السباع : كالشاة التى تذبح ، وتكون طعمة للسباع . ينشنه : يتناولنه . يقضمن : يأكلن بمقدم الأسنان . المعصم : موضع السوار .

وَمِشَكٍّ سَابِغَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَهَا
بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مُعْلِمِ (١)

رَبِذٍ يَدَاهُ بِالْقِدَاحِ إِذَا شَتَا   هَتَّاكِ غَايَاتِ التِّجَارِ مُلَوَّمِ (٢)

لَمَّا رَآنِي قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ   أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمِ (٣)

عَهْدِي بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا
خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ (٤)

فَطَعَنْتُهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ   بِمُهَنَّدٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ مِخْذَمِ (٥)

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ
يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ (٦)

---

(١) المشك : زرد الدرع . هتك : قطع . الفروج : الحلقات . المعلم . المعروف .

(٢) الربذ : السريع . القداح : أسهم القمار . شتا : دخل الشتاء . الغايات : الرايات . التجار : الخمارون .

(٣) أبدى نواجذه : كشر عن أسنانه .

(٤)

(٥) المخذم : السريع القطع .

(٦) السرحة : الشجرة . يحذى : تجعل حذاء له . السبت : جلود البقر المدبوغة . ليس بتوأم : قوى البنية .

يَاشَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ (١)

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبِي
فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِيَ وَاعْلَمِي (٢)

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الأَعَادِي غِرَّةً
وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ (٣)

وَكَأَنَّمَا الْتَفَتَتْ بِجِيدِ جَدَايَةٍ
رَشَإٍ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرٍّ أَرْثَمِ (٤)

نُبِّئْتُ عَمْراً غَيْرَ شَاكِرِ نِعْمَتِي
وَالْكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ (٥)

وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّي بِالضُّحَى
إِذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الْفَمِ (٦)

---

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦) الوصاة : الوصية . تقلص : . تنقبض : وضح الفم : الأسنان .

فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ الَّتِي لاَ تَشْتَكِي
غَمَرَاتِهَا الْأَبْطَالُ غَيْرَ تَغَمْغُمِ (١)
إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ ، لَمْ أَخِمْ
عَنْهَا ، وَلَكِنِّي تَضَايَقَ مُقْدَمِي (٢)
لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ
يَتَذَامَرُونَ ، كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ (٣)
يَدْعُونَ عَنْتَرَ ، وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ (٤)
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالدَّمِ (٥)
فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ (٦)

---

(١) الحومة : حيث تدور الحرب . التغمغم : الصياح الذى لايفهم منه شيء .

(٢) يتقون : الضمير للأصحاب . الأسنة : الرماح . أخم : أجبن . تضايق مقدمي : تضايق موضع أقدامي .

(٣) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال . القوم : قومه .

(٤) أشطان : مفردها شطن وهو الحبل . اللبان : الصدر . الأدهم : الضارب لونه إلى السواد . المعنى : إن رماح الأعداء تتداول صدر فرسه ، فكأنها فى دخولها فيه وخروجها منه حبال البئر ، يرتفع إحداها ، ويتدلى الآخر .

(٥) الثغر : النقرة فى أعلى النحر . تسربل : اتخذ سربالا ، وهو الثوب الذى يغطى الجسم .

(٦) ازور : مال من الألم . العبرة : الدمعة . تحمحم : صهيل الفرس يطلب العلف أو المعونة .

لَوْ كانَ يَدْرِى ما الْمُحَاوَرَةُ اشْتَـكَى
وَلَـكانَ ، لَوْ عَلِمَ الْـكَلامَ مُـكَلِّمِى[1]
وَلَقَدْ شَــــفَى نَفْسِى وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا
قِيلُ الْفَوَارِس : وَيْكَ عَنْتَرَ ، أَقْدِمِ[2]
وَالْخَـــــيْلُ تَقْتَحِمُ الْخَبارَ عَوابِسًا
مِنْ بَيْنِ شَيْظَمَةٍ ، وَأَجْرَدَ شَيْظَمِ[3]
ذُلُلٌ رِكابِى ، حَيْثُ شِئْتُ مُشَايِعِى
لُبِّى ، وَأَحْفِـــزُهُ بِأَمْرٍ مُبْرَمِ[4]
وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ ، وَلَمْ تَدُرْ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَىْ ضَمْضَمِ[5]

---

(١) المحاورة : حاور محاورة وحَـوارا وحِـوارا ، جاوبه وراجعه فى الـكلام .

(٢) أبرأ : شفى . السقم : المرض ، المعنى : إن نفسى مريضة (أى المتألمة من تحقير قومه له) .

(٣) الخبار : الأرض اللينة . الشيظم : الطويل من الخيل .

(٤) الذلل : جمع ذلول وهو الجمل الذى ليس بصعب . لبى : عقلى .
أحفزه : أدفعه وأسوقه .

(٥) ابنا ضمضم : هما حصين وهرم ابنا ضمضم المرى . وكان عنترة قد قتل ضمضماً أباهما فى حرب داحس والغبراء يوم المريقب .

الشَّاتِمَىْ عِرْضِى ، وَلَمْ أَشْتِمْهُـمَاَ
وَالنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ أَلْقَهُـمَاَ دَمِى
إِنْ يَفْعَلاَ ، فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
جَزَرَ السِّبَاعِ ، وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ (١)

(١) جزر السباع : مقتولا تأكله السباع . القشعم : الكبير من النسور .

ثانياً : فخر وعـــزة

[ذكر صاحب الأغانى فى الجزء السابع فى ترجمة عنترة : أن عبسا غزت بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس ووقف عنترة للتميميين فصدهم ، وتلاحقت به فلول قومه ، فقال قيس بن زهير وكأنه ساءه ما صنع عنترة : «والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء ، وكان قيس أكولا ، فقال عنترة يفخر ويعرض به من قصيدته التى أولها كما فى العقد الثمين : «طال الثواء على رسوم المنزل »] .

نادَيتُ عبساً فاستجابوا بالقَنَا وبكلِّ أبيضَ صارمٍ لم يَنْحَلِ (١)

حتى اسْتَبَاحُوا آل عوف عَنْوَة بالمَشْرَفِيِّ وبالوَشِيجِ الذُّبَّلِ (٢)

إنِّى امْرُؤٌ من خير عَبْسٍ مَنْصِباً

شَطْرِى وأحْمِى سـائرى بالمُنْصُلِ (٣)

إن يَلْحَقُوا أَكْرُرْ وإن يَسْـتَلْحِمُوا

أَشْدُدْ وإنْ يُلفَوْا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ (٤)

حين النزول يكون غاية مثلنـا ويفرّ كلّ مُضَلَّلٍ مُسْتَوْهَلِ (٥)

---

(١) ينحل : يرق .

(٢) عنوة : الغصب . المشرفى : السيف . الوشيج : القنا اللدنة .

(٣) يفخر بنسبه من جهة أبيه فى الشطر الأول ، وفى الشطر الثانى يقول وإن كنت ابن جارية فإن سيفى يعلى من قدرى .

(٤) يستلحمو : يلتحم الجيش مع الجيش الآخر .

(٥) مستوهل :

ولقـــــد أبيتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظَلّه
حتي أنَالَ بِهِ كَــرِيمَ المــأكلِ[1]
وإذا الـكَتِيبَةُ أحْجَمتْ وتلاحَظَتْ
أُلفِيتُ خــيراً من مُعِمٍّ مُخْوِلِ[2]
والخيلُ تعـلمُ والفـــــوارِس أنّنى
فرّقْتُ جَمْعَهُمُ بطعنَةِ فَيْصَــلِ[3]
بَــكَــرَتْ تُخَوِّفُني الحُتُوفَ كأنّنى
أصْبَحتُ عَنْ غَرَض الحُتُوف بمَعْزِل[4]

---

(١) الطوى : الجوع . وعندما سمع رسول الله هذا البيت قال : « ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنترة .

(٢) الـكتيبة : الطائفة من الجيش . أحجمت : تأخرت . تلاحظت : نظر بعضهم إلى بعض بمؤخر العين من شدة الهول . ألفيت : وجدت . معم مخول : أى ذوعم وخال ، وهما كناية عن الشرف والنسب تعريض منه بقيس بن زهيرة .

(٣) طعنة فيصل : ضربة ماضية فرقت الجموع .

(٤) بكرت : بادرت . الحتوف : جمع حتف ، وهو الموت . غرض : هدف . معزل : مجانب له .

فأجَبْتُها : إنَّ المنِيّةَ مَنْهَلٌ　　لا بُدَّ أن أُسْقَى بكَأْسِ المَنْهَلِ (١)

فاقْنَىْ حَيَاءكِ ـ لا أبَالَكِ ـ واعْلَمِى　　أَنِّى امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إنْ لم أُقْتَلَ (٢)

إن المنية لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ　　مِثْلِى إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزِلِ (٣)

والخيل ساهمةُ الوجوه كأنما　　تُسْقَى فوارِسُها نَقِيعَ الحَنْظَلِ (٤)

وإذا حمَلْتُ على الكَرِيهةِ لم أقُلْ　　بَعْدَ الكريهة ليتنى لم أفْعَلَ

(١) المنية : الموت . منهل : مشرب .

(٢) اقنى حياءك : الزمى الحشمة ، وتلك الجملة من ابتكارات عنترة . وقنى الحياء : كرضى ورمى لزمه .

(٣) تمثل : تصور . الضنك : الضيق والشدة .

(٤) ساهمة الوجوه : متغيرة عابسة . الحنظل : نبات له ثمرة شديدة المرارة . النقيع : ما نقع فى الماء من غير طبيخ .

موضوعات للبحث

١ — كان عنترة ترجماناً صادقاً لحال فرسه ، كما اتسمت بعض مقاطع معلقته بالطابع الإنسانى ، والأسلوب القصصى — ناقش .

٢ — كان عنترة يشعر بالغبن الاجتماعى شعوراً قوياً ، ويتألم بسببه تألماً شديداً ، ولكن هذا الغبن لم يثبط عزائمه ولم يكسر من شوكته ، وذلك لأن نفسه كانت كبيرة ، ولأن قلبه كان مملوءاً بالحب العفيف . أوضح ذلك وأيد كلامك ببراهين مأخوذة من حياة الشاعر ومن شعره .

٣ — امتاز شعر عنترة بثلاثة ألوان : الفخر ، والحماسة ، والغزل ، حلل هذه الألوان فى شعره ، و بين فى أىّ منها تفوق .

٤ — لكل من امرئ القيس وطرفة وزهير وعنترة مثل أعلى فى الحياة — ما المثل الأعلى لكلٍ منهم ، وما الذى عمل على تكوينه فى نفسيتهم وأحوال حياتهم .

المراجع

١ — عنترة بن شداد (الروائع	: فؤاد إفرام البستانى ، بيروت	١٩٣٠
٢ — شعراء النصرانية	: لويس شيخو ، بيروت	١٨٩٠
٣ — ديوان عنترة	: عنترة بن شداد	
٤ — شرح المعلقات السبع	: الزوزنى ، مصر	١٩٢٥
٥ — الأغانى	: أبو الفرج الأصفهانى ط دار الكتب	
٦ — الأدب العربى وتاريخه	: محمد هاشم عطية ، مصر	١٩٣٦

الفصل الثالث

سائر الشعراء

النّابغة الذّبيانى

(؟ — ٦٠٤م)

حياته :

هو أبو أُمامةَ زياد بن معاوية ، ولُقِّبَ بالنابغة ، لأنه استعمل كلمة « نبغَ » فى إحدى أبياته ، وقيل : لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك ، ثم فاجأ الناس بشعر بذَّ بِهِ الشعراء ، وكان له منه مادة لا تنقطع ، فشبهوه بالماء النابغ ، وهناك شعراء آخرون يلقب كل منهم بالنابغة ، منهم : النابغة الجعدى ، والنابغة الشيبانى ، والنابغة الغنوى ، والنابغة العدوانى ، والنابغة التغلبى .

ولم يحدِّد المؤرخون سنة ولادته ، ولم يعنوا بتدوين وقائع نشأته ، وكل ما نعرفه أنه كان من الطبقة المتوسطة فى قومه ، وأنه عنى منذ فجر حياته بشئون قبيلته .

وهو أحد شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى ، وأحد الثلاثة المقدمين ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة . وأحد سراة بنى ذبيان ، ومن ذوى الوجاهة فيهم ، ولكن تكسبه بالشعر غضّ من قدره ، وطأطأ من إشرافه ، ولقد عاصر بعض أحداث حرب داحس والغبراء ، وحروب المناذرة والغساسنة ،

وكان بينهما تنافس شديد ، وكان من مظاهر هذا التنافس حرص أمراء كل منهما على اجتذاب الشعراء ، ليكونوا دعاية لهم ، يمدحونهم ، ويدافعون عنهم ، ويذيعون مآثرهم فى العرب ، واتجه النابغة إلى أبواب غسّان والحيرة ، حيث مهّدت له شاعريته أن يتصل بأمرائها ، ويعيش بينهم عيشة كريمة ، بيد أنه وهو فى الحيرة ، و بلاد الشام لم يقطع الأواصر بينه و بين بيئته الأولى ، فكان يدافع عن قومه ، وهو بعيد عنهم و يمدح حلفاءهم ، ويهجو أعداءهم ، فأتى شعره صفحة سجلت جوانب البادية من الناحية الأسلوبية ، ومن الناحية التصويرية ، كما سجلت جوانب الحضارة التى عاشها فى بيئته الثانية بين المناذرة والغساسنة .

وكان أظهر من اتصل بهم من أمراء المناذرة النعمان بن المنذرة أبا قابوس ، الذى قربه ، ونادمه ، وأجلسه على طعامه وشرابه ، وغمره بعطاياه ، حتى قيل إنه كان يأكل فى صحاف الذهب والفضة ، وعدا اسم النابغة والنعمان من الثنائيات الشهيرة فى تاريخ الأدب العربى ، ولكن هذه الصلة ما لبثت أن ألهبت صدور منافسيه فى حاشية النعمان ، فدسّوا له عنده ، وأوغروا صدره عليه ، حتى أغضبوه غضبة دفعته إلى التفكير فى الانتقام منه ، وقيل كان غضبه لأنه تغزّل بامرأته المتجردة غزلاً أراب النعمان ، ويروى الرواة على ذلك قصة ، مؤداها أن النابغة كان ذات يوم عند الملك النعمان ، فدخلت المتجردة ، وكانت امرأة رائعة الجمال ، وعلى وجهها نصيف ، وهو الخمار ، وكانت نساء الأشراف تتبرقع توقراً بمثل هذا القناع فسقط هذا الحجاب عن وجهها ، فسترته بيدها ، فأعجب النعمان بهذه الحركة اللطيفة ، وأمر الشاعر بأن يصفها ، فأنشأ قصيدة يقول فيها :

سقط النصيف ، ولم تُرد إسقاطه فتناولته ، واتقتنا باليـــــد

واستطرد إلى وصف مادى متطرف ، وكان المُنخّل اليَشكُرىُّ الشاعر من

ندماء النعمان ، وكان يهوى المتجردة ، و يحسد النابغة على علوّ قدره عند الملك ، فغار من وصفه ، ووشى به إلى النعمان ، حتى هاج غيرته ، فأظهر له الجفاء .

إلا أن الأغلب على الظن أن الملك اللخمى ، إنما غضب على النابغة لسبب سياسى ، هو اتصاله بالغساسنة ، والغساسنة ألدّ أعداء المناذرة . وكان عصام حاجب النعمان صديقاً للنابغة ، فأنذره قبل أن يتمكن النعمان منه فهرب إلى الغسانيين فى الشام ، وعرف النابغة عندهم حياة حضرية يحف بها الترف والنعيم فتأثر بها وتسرّب تأثره إلى شعره ، ومن أشهر ملوك الغساسنة الذين مدحهم النابغة : الحارث الغسانى وعمرو بن الحارث ، والنعمان بن الحارث ، ومع أن الغساسنة قربوه وأكرموه ، فإنه بقى يحن إلى عهوده القديمة فى قصور النعمان ، إمّا لأنه كان ينال لديه أكثر مما كان ينال لدى الغساسنة ، و إما لأنه أخلص له الود ، و إما حقده لنجاح منافسيه فى إقصائه عن الحيرة ، ومن ثمّ راح يُمهِّد لعودته إلى الحيرة ، التى كانت ماتزال تحتل فى نفسه مكانا عليا يدفعه إلى أن يلتمس طريق الرجوع إلى ربها .

أنشد النابغة لذلك قصائد عدة ، حاول أن يترضاه بها ، و يعتذر إليه من الغسانيين ، و ينتزع من نفسه آثار الوشاية التى تمكنت منها ، وكان لهذه القصائد أثرها فى نفس النعمان ، فقد خففت من حدة غضبه ، وفتحت للنابغة باب العودة إلى الحيرة مرة أخرى ، فحل الوئام محلّ الخصام ، وانتقل النابغة إلى بلاط النعمان ، ولكن الفرس مالبثوا أن نكبوا النعمان ، فعاد النابغة إلى قومه ، وتوفى بينهم فى حدود سنة ٦٠٤ م .

آثاره :

ديوان شعر شرحه البَطَليوسى ، وأشهر مافيه أقواله فى سياسة القبيلة ، ومدح

الفساسنة ، واعتذاره إلى النعمان ، ودالية يصف فيها المتجردة ، وقد عده بعض النقاد من أصحاب المعلقات ـ كما ذكرته من قبل ـ ومطلع معلقته :

عُوجوا فحيّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار ماذا تُحَيُّون من نُؤْيٍ وأحجار[(١)]

اعتذارياته :

« اعتذاريات النابغة » هى رأس ما عرفه الأدب العربى فى هذا الباب ، فهى من أروع كلامه فناً وإبداعاً ، وأكثره تصرفا فى الألفاظ والمعانى ، وبها استطاع أن ينتزع ما فى صدر النعمان من الغلّ والحقد عليه ، ولا شكّ أن النابغة كان عالما بنفسية النعمان ، ونفسية الملوك من واقع مخالطته لهم ، ومن ثم أدرك أن مثل معانيه تعجب النعمان ، وتقع من نفسه موقع الرضا والاستحسان ، ولكن تلك المبالغة بعظمة سيد الحيرة ، وذلك الإلحاح والإغراق فى الخوف منه ، أمور عيبت على النابغة فى اعتذارياته على الرغم من أن الشاعر قد أفلح فى أدائها أداء فنيًا رائعا . فالنابغة ـ كما قلنا ـ شاعر من الطبقة الأولى ، وصاف دقيق ، وناظم متين السبك ، قادر على تطويع المعانى وكان يهمه أن يتنصل من تهمتين ، إحداهما يشتد فى إنكارها ، ويقسم الأيمان المغلظة على البراءة منها ، وهى الكلام الذى نقله الوشاة ، فقوّلوه ما لم يقل ، وألبسوه جريمة لم يقترفها ، « أتاك بقول لم أكن لأقوله » والأخرى لا يستطيع أن يطمسها ، وهى ذهابه إلى الفساسنة أعداء المناذرة بمدحهم ، ويذكر انتصارهم يوم حليمة حين قتلوا المنذر جدّ النعمان « تُوورِثْنَ من أزمان يوم حليمة إلى اليوم . . » ولكن النابغة بحسن اعترافه وبفنه ودهائه استطاع أن يلطف وقع ذلك فى نفس النعمان ، فجعل الملوك دونه منزلة وفضلا :

---

(١) عوجوا : قفوا . نعم : اسم امرأة . الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار . النؤى : نهير صغير حول الخباء يمنع ماء المطر من أن يجرى إليه .

فإنك شمس ، والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وأشهر عناصر اعتذاره : (١) تعظيم المصاب : فهو تارة مهدد بأفعى تساوره ، وتارة مريض يتلوّى على فراش من شوك (٢) ونفى التهمة وهجاء الوشاة (٣) وتبرير علاقته بالغساسنة (٤) والمدح : إذ يدرك النابغة أن نفى التهمة ، وتبرير الموقف يحتاجان إلى مايدعمهما لدى النعمان ، فيلجأ إلى وسيلة طالما لجأ إليها الشعراء ، هى المدح (٥) الدعوة إلى التروى : فالتهمة خطيرة ، وفى تصديقها موته مهما تناءت به المسافات (٦) القسم والدعاء : لأن العرب كانت تعتقد أن اليمين الفاجرة ـ تدع الديار بلاقع ـ أى خراب .

الدالية :

بعث النعمان إلى النابغة وهو مقيم بين الغساسنة ، إنك صرت إلى قوم قتلوا جدى ، فأقمت فيهم تمدحهم ، ولو كنت صرت إلى قومك ، لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن ، إن كنا أردنا بك ما ظننت ، وسأله أن يعود إليه ، فبعث إليه بهذه « الدالية » يعتذر ، وحدّث حسان بن ثابت أن النابغة قدم فى جوار رجلين من فزارة لهما منزلة عند النعمان ، فرأى إحدى قيان الملك ، فلقنها تلك القصيدة لتغنيها ؛ وهى .

يا دار ميـة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

فشرب النعمان ، فلما سكر غنته الجارية القصيدة ، فطرب لها ، وقال : « هذى شعر علوى ، هذا شعر أبى أمامة » ورضى عنه ، وقد بدأ بوصف الأطلال على عادة الشعراء ، ثم انتقل إلى وصف الناقة ، ووصف عراك الثور والـكلاب ، وتخلص إلى مدح النعمان ، ثم أدلى بعذره ، وفى خلال ذلك وصف الفرات ، ونلمس فى القصيدة شدة حرص النابغة على محبة النعمان واسترضائه ،

وهو يشتدّ عنفا إذا ذكر الوشاة ، فيبرر ساحته ، ويقسم ويغالى فى القسم ليبعد الريبة ، ثم يحاول أن يلين قلب الملك فيمدحه ، وإذا النعمان بحر واسع من الجود والحلم والعدل والسلطان ذو مقدرة لا تحدّ ، ونظر ثاقب ، ثم يشبهه بالفرات ، وإن أراد تصوير غضبه ، فهو لا يستطيع الفكاك منه ، وهو إزاء هذا الغضب قلق البال سيء الحال ، لا يقر له قرار ، ولا يغمض له جفن .

البائية :

الشاعر فى تلك القصيدة مرتب الفكرة ، أحسن عرض قضيته عرضاً دقيقاً ، فبدأ بالإشارة إلى التهمة ، وما اعتراه من هم بسببها ، ثم سارع فأقسم على أن هذه التهمة باطلة ، ثم عقب بشرح التهمة ، وأتى بدفاع منطقى من موقف النعمان نفسه مع خلصائه ليبطل عنه التهمة ، ثم عقّب بعد الدفاع بطلب التبرئة (فلا تتركنى . .) وأخيراً لجأ بعد الأدلّة المنطقية إلى استمالة عواطف النعمان ، فعظم منزلته ، وجعله فوق الملوك مكانة ليستجلب رضاه ، فترى الشاعر سلك فى قضيته مسلك المحامى البارع ، واختار النابغة لاعتذاره هنا اللفظ السهل ، وسبكه فى عبارات مركزة واضحة ، فيها كثير من أدوات الإقناع ، كالقسم «حلفت..» والاستفهام التقريرى « ألم تر أن الله أعطاك سورة » .

والشرط الجدلى « فإن أك مظلوما .. » وبذلك يكون الأسلوب مساعدا للمعانى التى تتوجه كلها إلى استرضاء النعمان .

العينية :

يقدّم لنا الشاعر صورة أخرى لاعتذاره وهى تتفق مع الصورتين السابقتين

فى الخوف من عقاب النعمان ، والاعتذار إليه ، والتبرئة من التهمة ، ولـكنه زاد فى هذا النص التصريح بأعدائه الواشين وهجاءهم ، ونرى الشاعر هنا مرتب الفـكر كما بدا فى النصين السابقين ، فذكر التهمة ، ثم فزع من وعيد الملك ، ثم تبرأ منها تارة بالأيمان ، وتارة بتفنيدها ، وإظهار الدوافع التى حملت الوشاة على تلفيقها ، ثم عقب استحالة إقدامه على ما نسب إليه باطلا .

ولا شك أن هذا التفـكير المرتب جاء وليد الحياة الحضرية التى عاشها النعمان فى كنف ملوك الحيرة ، وملوك الغساسنة ، كما يدل ذلك على عقلية ناضجة استحق بها النابغة أن يحكم بين الشعراء فى الأسواق الأدبية فى الجاهلية .

المنتخبات

أولاً — الدّالية

١ – وصف الأطلال :

يا دارَ ميّــــةَ بالعَلْياء فالسَّــنَد

أقْوَتْ ، وطال عليهـــا سالفُ الأَبَد[١]

وقفتُ فيهـــا أُصَيْلاَلاً أُسَائِلُهـــا

عَيَّتْ جَوَاباً ، وما بالرَّبْع من أحـد[٢]

إلاَّ أَوَارِىَّ ، لأْياً ، أُبَيِّنُهـــا

والنُّؤْىَ كالحوض بالمظلومة الجـلَدَ[٣]

---

(١) مية : اسم امرأة . العلياء : مكان مرتفع . السند : سند الوادى فى الجبل وهو ارتفاعه . أقوت : خلت من أهلها . الأبد : الدهر . لاحظ كيف يتحول من صيغة الخطاب فى الصدر ، إلى الغيبة فى العجز .

(٢) أصيلا لا : أى الأصيل وهو العشى . عيت : أى لم تعرف وجه الجواب .

(٣) الأوارى : حبال تشد فيها الدواب . لأيا : بجهد ومشقة . النؤى : حفرة تجعل حول البيت تمنع وصول الماء. المظلومة : الأرض التى حفر فيها حوض فى غير موضع الحفر ، فكأنها ظلمت بذلك . والجلد : الأرض الصلبة .

أَضحتْ خلاءً ، وأَضْحَى أهلُهـا احتملوا
أَخْنَى عليهـا الذى أخنى على لُبَد . . [١]

٢ — مدح النعمان :

فتـلك تُبْلِغُني النُّعمانَ إنَّ له
فَضْلاً على النّاس فى الأدْنى وفى البُعُد [٢]

ولا أرى فاعلاً فى النَّاس يُشبهُهُ ولا أُحاشى من الأقوام من أحد [٣]

إلاَّ ســـــليمانَ ، إذْ قَالَ الإلهُ له :
قُمْ فى البريّة فاحْـــدُدْهَا عن الفَنَد [٤]

وخَيِّسِ الجنَّ إنّى قد أَذِنْتُ لهم يبْنُون تدمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد [٥]

---

(١) أخنى عليها : أتى عليها وأفسدها . لبد : اسم نسر كان آخر نسور لقمان بن عاد ، وعددها سبعة ، ويقال : إن هذا الحكيم عاش عمر هذه النسور ، ومات بموت آخرها ، وهو غير لقمان الذى ذكره القرآن .

(٢) فتلك : أى الناقة .

(٣) أحاشى : استثنى .

(٤) سليمان : هو سليمان النبى ابن داود عليه السلام . البرية : الخلق . احددها : امنعها . الفند : الخطأ والظلم .

(٥) خيس . ذلل . الصفاح : حجارة عراض دقاق . تدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان . العمد : السوارى من الرخام .

فمَنْ أطـــاعك فانفعْه بطاعتــه ،
كما أطاعك ، وادلُلْه على الرَّشَـد[١]

ومن عَصَاكَ فعاقِبْه مُعاقبـةً
تَنْهى الظَّلُومَ،ولا تقعُدْ على ضَمَد[٢]

إلاّ لمثِلك ، أو من أنت سَـــابِقُه
سَـبْقَ الجوادِ إذا اسْتَوْلَى على الأَمَد[٣]

٣ — الاعتذار :

فلا لَعَمْرُ الذى مسَّـــحْتُ كعبتَه
وما هُريقَ على الأَنْصَابِ من جَسَد[٤]

والمؤمنِ العـــائذاتِ الطـير تَمْسَحُها
رُكْبَانُ مكَّةَ بين الغِيل والسَّعَد[٥]

---

(١) الرشد : طريق الحق .

(٢) تنهى الظلوم : يرتدع بها الظالم . الضمد : الذل والغيظ .

(٣) إلا لمثلك : أبيك ، ومن خرج من صلبك . الأمد : الغاية التى تجرى إليها الخيل . أى لا تضمر الحقد إلا لمن كان عظيما مثلك ، أما من دون ذلك من الناس فاغفر لهم وسامحهم ، ويقول النابغة هذا على لسان الله سبحانه لسيدنا سليمان ، ويرجو بذلك أن يرغب النعمان فى العفو عنه .

(٤) مسح بالكعبة : طاف بها . هريق : صب . الأنصاب : حجارة فى الجاهلية تذبح عليها الذبائح . الجسد : الدم .

(٥) العائذات : الملتجئات إلى الحرم . تمسحها : تلمسها ولا تؤذيها . الغيل والسعد : موضعان بين مكة ومنى .

ما قلتُ من سَيِّءٍ ممـا أُتيتَ به
إذاً ، فلا رَفعتْ سَوْطى إلىَّ يدى[١]

إذاً ، فعـاقَبنى ربّى مُعـاقبةً
قرّتْ بهـا عينُ من يأتيك بالفَنَد[٢]

هـذا لِأَبرأَ من قولٍ قُذِفْتُ به
طارت نوافذُه حَرّا على كبدى[٣]

أُنبئتُ أنَّ أَبَا قَابوسَ أَوْعَـدَنِي
وَلا قرارَ على زَأْرٍ من الأَسَـد[٤]

مَهْلاً ، فداء لكَ الأقوامُ كُلُّهُم
وما أُثَمِّرُ من مال ، ومن ولد[٥]

لا تَقْذِفَنِّى برُكنٍ لا كِفَاء له
وإنْ تأثَّفَكَ الأَعْدَاء بالرِّفَد[٦]

---

(١) ما قلت : جواب القسم . إذا : أى إن كنت كاذبا شل الله يدى حتى لايمكننى رفع سوطى .

(٢) قرت بها : اطمأنت . الفند : الكذب .

(٣) النوافذ : حدت الأقوال .

(٤) أبو قابوس : كنية النعمان . أوعدنى : هددنى . قرار : اطمئنان .

(٥) أثمر : أربى وأتعهد .

(٦) لا كفاء له : ليس له نظير . تأثفك الأعداء : اجتمعوا حولك . الرفد : المعاونة . والمعنى : لا ترمنى بسخطك وغضبك الذى لا مثيل له ، ولا تسمع قول الوشاة الذين اجتمعوا حولك يعاون بعضهم بعضا على الوشاية بى عندك .

ثانياً — البائية

أَتَانى ، أَبَيْتَ اللعـــنَ ، أَنَّك لُمْتَنى
وَتِلْكَ التى أَهْتَمُّ منها ، وأَنْصَب[1]

فَبِتُّ كأَنَّ العَائِدَاتِ فَرَشْنَ لِى
هَرَاساً ، بهِ يُعْلى فِراشِى ، ويُقْشَب[2]

حَلَفْتُ ، فلم أَترك لِنفسك رِيبَةً وليس وراءَ الله للمرءِ مَذْهَب[3]

لَئِن كُنْتَ قد بُلِّغْتَ عــنِّى وشايَةً
لَمُبْلِغُـك الوَاشِى أَغشُّ وَأَكْذب[4]

ولـكنَّنى كنتُ امرأً لى جانِبٌ
من الأَرض فيه مُسْتَرادٌ وَمَذْهب[5]

---

(١) أبيت اللعن : دعاء بالبعد عن أسباب الذم واللوم ، وهى تحية جاهلية . أهتم منها : أحزن . أنصب : أتعب .

(٢) العائدات : الزائرات ، أو الهموم التى تعاوده . الهراس : نبت كثير الشوك . يقشب : يجدد .

(٣) الريبة : الشك . مذهب : طريق . أى ليس بعد الحلف بالله يمين ، فينبغى أن تصدقنى .

(٤) الوشاية : الحديث يراد به الافساد .

(٥) لى جانب : أى متسع . فيه مستراد : أى إقبال وإدبار .

مُلُوكٌ وإخوانٌ إذَا ما أَتَيْتُهم أُحَكَّمُ فى أَمْوَالِهم ، وأُقَرَّب[١]
كَفِعْلِكَ فى قومٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهم
فلم تَرَهُمْ فى شكرِ ذَلكَ أَذْنَبُوا[٢]
فلا تَتْرُكَنِّى بالوعيد ، كأَنَّنى
إلى الناسِ مَطْلِىٌّ به القارُ أَجرب[٣]
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُورةً
ترى كُلَّ ملْكٍ دُونها يَتَذَبْذَب[٤]
فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكب
ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شَعَثٍ ،أىُّ الرجالِ المُهَذَّب؟[٥]

---

(١) ملوك وإخوان : أراد الغسانيين الذين أكرموه . أحكم فى أموالهم : تصرف فيها كيف أشاء .

(٢) اصطنعتهم : غمرتهم بمعروفك .

(٣) الوعيد : الانذار والتهديد . إلى الناس : أى فى الناس . القار : القطران ، يقول : لا تتركنى كالجمل الأجرب المطلى بالقطران المعزول عن باقى الجمال .

(٤) سورة : منزلة وفضيلة . يتذبذب : يضطرب .

(٥) تلمه على شعث : تقبله على مافيه من عيب ، والمعنى إذا كنت لاتتجاوز عن سيئات الأصدقاء ، فلست بمستبق صديقالك ، فإنا لا نجد رجلا كامل الأخلاق لا عيب فيه .

فإنْ أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمـــته
وإنْ تكُ ذا عُتْبَى ، فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ(١)

ثالثاً — العينية

وعيدُ أبي قابوسَ ، في غـير كُنْهِهِ
أتاني ، ودُوني رَاكِسٌ فالضَّوَاجِعُ(٢)
فبِتُّ ، كأنِّي سَاورتْني ضئيلـــةٌ
من الرُّقْشِ ، في أَنْيابِها السُّمُّ نَاقِعُ(٣)
يُسَهَّدُ من ليلِ التَّمَامِ سَلِيمُها لحَلْيِ النِّسَاءِ في يديْهِ قَعَاقِعُ(٤)
تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ من سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُه طوْراً وطوراً تُرَاجِعُ(٥)

---

(١) العتبى : الرضا والصفح . يعتب : يعفو ويرضى .

(٢) في غير كنهه : أي في غير موضعه . راكس : اسم واد . الضواجع : جمع ضاجعة : منحنى الوادي .

(٣) ساورتني : واثبتني . ضئيلة : نحيفة . الرقش : جمع رقشاء صفة للأفعى إذا كانت منقطة بنقط سود وبيض . الناقع : الثابت الذي يطول مكثه .

(٤) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : ليالي الشتاء التي تطول على من قاساها . السليم : الملدوغ . والعرب تسميه سليما تفاؤلا بسلامته .

(٥) تناذرها الراقون : أي أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها من شدة سمها . تطلقه : الهاء عائدة على سليم ، أي تخف الأوجاع عنه تارة ، وتشتد عليه أخرى .

أَتَانِى ـ أَبيتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لُمْتَنِى
وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامِعُ[١]

مقالةُ أن قَدْ قلتَ : « سوفَ أنالُهُ »
وذلك ، من تلقاء مِثْلِكَ ، رائِعُ[٢]

لَعَمْرِى ـ وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ـ
لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَىَّ الأَقارِعُ[٣]

أَقَارِعُ عَوْفٍ ، لا أُحاوِلُ غيرَهَا
وُجُوهُ قُرُودٍ ، تَبْتَغِى مَنْ تُجَادِعُ[٤]

أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِىَ بِغْضَةً
له مِنْ عَدُوٍّ ، مِثْلَ ذلكَ شَافِعُ[٥]

---

(١) تستك : تضيق وتنسد . تلك : إشارة إلى الملامة .

(٢) مقالة : بدل من العبارة « إنك لمتنى . ذلك : إشارة إلى القول « سوف أنا له » . رائع : مفزع . يقول : أتتنى عنك ملامة أفزعتنى تمنيت أن أكون أصم ولا أسمعها لشناعتها .

(٣) الأقارع : أراد بنى قريع بن عوف الذين وشوا به إلى النعمان . لعمرى : العَمر العُمر ، إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا المفتوح العين .

(٤) لا أحاول غيرها : أى لا أقصد غيرها بالهجاء . تجادع : تشاتم .

(٥) البغضة : البغض . مستبطن : مضمر . شافع : أى آخر يشفعه فيكونان اثنين ، وكلاهما عدو لى .

أتاكَ بِقول هَلْهَـلِ النَّسْجِ كاذبٍ

ولم يأتِ بالحقّ الذى هو ناصِـع[١]

أتاك بقول لم أكن لأقولَه

ولوْ كُبِّلَتْ فى ساعدِيّ الجـوامع[٢]

(١) هلهل النسج : رقيق قليل الغزل . الناصع : الواضح .

(٢) الجوامع : الجامعة القيد تجمع به اليدان إلى العنق .

موضوعات للبحث

١ — كان الشاعر فى الجاهلية وصدر الإسلام صحافى عصره ـ إلى أىّ حد ينطبق هذا القول على النابغة الذبيانى ؟

٢ — يدور كل نص من النصوص الثلاثة السابقة حول أفكار ، يحاول بها النابغة أن يترضى النعمان ، وينتزع الغضب من نفسه ـ وضح ذلك فى نص منها مع تبيان الصور البلاغية التى تقع عليها .

٣ — كان النابغة شاعر البلاط وقد أكسبته العيشة فى البلاط سياسة لم نعهدها لغيره من شعراء الجاهلية ، كما أكسبه البلاط أساليب خاصة ظهرت فى شعره ، وكان لها أثر واسع فى الأدب العربى ، أوضح ذلك ، وأقم عليه البرهان .

المراجع

١ ـ النابغة الذبيانى	:	عمر الدسوقى ، مصر ، ١٩٤٥
٢ ـ النابغة الذبيانى	:	حنا نمر ، بيروت ١٩٥٣
٣ ـ ديوان النابغة الذبيانى	:	(تحقيق كرم البستانى) بيروت ١٩٥٣
٤ ـ النابغة الذبيانى	:	سليم الجندى ، دمشق ، ١٩٤٥
٥ ـ النابغة الذبيانى (الروائع)	:	فؤاد افرام البستانى ، بيروت ١٩٣١
٦ ـ الشعر العربى فى بلاطات الملوك	:	نسيم نصر ، بيروت ١٩٥٠
٧ ـ تاريخ الشعر السياسى	:	أحمد الشايب ، مصر ١٩٤٥

الأعشى الأكبر

(٥٣٠ — ٦٢٩م)

حياته :

هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس البكرى ، أحد فحول شعراء الجاهلية ، والمتكسبين بالشعر منهم . لم يحدد المؤرخون تاريخ ولادته ، وهو على التقريب ٥٣٠ م ، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره ، وينتهى نسبه إلى بكر بن وائل ، وكان يسكن أرض اليمامة فى قرية تسمى « منفوحة » قال الشعر وأجاده ، ويؤثر عنه أنه كان راوية لخاله المسيب بن علس ، وتكسب بالشعر حتى ذاع صيته ، ومدح الملوك والأجواد ، ومنهم المناذرة ، وملوك نجران ، حتى طمع فى جوائز كسرى ، فرحل إليه ومدحه . ولقد أثرت هذه الرحلات فى شعره بمـا جمعه خلالها من أخبار وقصص ، وبما شهده من مظاهر الحياة الاجتماعية وبما عقده من علاقات مع من قابلهم من ملوك وسادة ، وله شعر غزير جيد ، وقصائد مطولة ، وهو أحد المكثرين فى وصف الخمر ، ولقد عرّب فى شعره كثيراً من الألفاظ الفارسية بعد دخوله أرض فارس .

كان إذا مدح رفع شأن ممدوحيه ، وإذا هجا حط من قدرهم ، ويروى على ذلك قصة له ، كان الأعشى يوافى سوق عكاظ فى كل سنة ، وكان المحلّق الكلابى مئناثاً مُملقا ، فقالت له امرأته : « ما يمنعك من التعرّض لهذا الشاعر ، فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا أكسبه خيراً » . قال : ويحك ! ما عندى

إلا ناقتى : قالت الله يخلفها عليك . فخرج مسرعاً نحوه قبل أن يسبقه إليه أحد ، فأخذ خطام ناقته ، وتوجه به نحو مضاربه ، فقال الأعشى : منْ هذا الذى غلبنا على خطامنا ؟ قال : المحلق . قال شريف كريم . وأناخ بالناقة ، ونحر له ناقته ، وكشط له عن سنامها وكبدها ، وسقاه خمرا ، وأحاطت به بناته يخدمنه و يمسحنه. فقال : ماهذه الجوارى حولى ؟ فقال : بنات أخيك ، وهن ثمان » فلما رحل من عنده ، وحلّ بسوق عكاظ ، وصحبه المحلق جعل ينشد قصيدته « لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة »فى مدحه ، ثم نادى : يامعاشر العرب ! هل فيكم مذكار ، يزوّج ابنه إلى الشريف الكريم ؟ فطار اسم المحلق بين الناس ، وما قام من مقعده إلا وقد زوجهنّ . كل واحدة على مائة ناقة ، فأيسر وأشرف .

وأدرك الأعشى الإسلام ، وانتجع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأعدّ فى مدحه قصيدة رائعة ليلقيها بين يديه وهى « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » ، فتساقطت أخبارها إلى قريش ، وعلمت بما انتواه الأعشى ، فخافت مغبة إسلامه ، وقالت هذا صنّاجة[1] العرب ، مامدح أحداً إلا رفع من قدره ، ولئن أتى محمداً ، واتبعه ليضرمن علينا نيران العرب ، فرصد له رجال منهم فى الطريق ، فلما ورد عليهم ، قالوا : إلى أين يا أبا بصير[2] ؟ قال : إلى صاحبكم لأسلم ، قالوا : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وأنت لها محب ، قال : وماهى ؟ فذكروها له . وكان من بينها الخمرة ، فقال : أرجع إلى ضبابة عندى فأشربها ، ثم آتى محمدا ، فقال له أبو سفيان : هل لك فى خير مما هممت به ؟ قال: وما هو قال :

---

(١) الصناجة : صاحب الصنج وهو آلة الطرب ، والتاء هنا للمبالغة لا للتأنيث . وسمى بالصناجة ، لأنه كان يتغنى بشعره .

(٢) قيل لنفاذ بصيرته ، وقيل : كنى بذلك تفاؤلا بالشفاء .

نحن معه فى هدنة ، وسنعطيك مائة من الإبل تأخذها وترجع إلى بلدك عامك هذا ، وتنظر ما يصير إليه أمرنا معه ، فإن ظهر علينا أتيته ، وإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا ، فقال : ما أكره ذلك ، فجمعوا له مائة من الإبل ، فأخذها وانصرف إلى أهله ، حتى إذا كان بضرب «منفوحة» نفر بعيره فرمى به ، فوقع على الأرض ، فدق عنقه ، فمات سنة ٦٢٩ م .

آثاره :

للأعشى ديوان شعر كبير ، أشهره لاميتان طويلتان ، كلتاهما تعد من المعلقات ، وقدطرق الأعشى جميع فنون الشعر ، فأجادالغزل ، والخمريات ، والهجاء والمدح ، وقد عرف شعره طريقه إلى الفرنسية والألمانية على يد بعض المستشرقين أمثال دى ساسى ورودلف كيير .

اللامية :

أشرنا إلى أن للأعشى لاميتين ، ويهمنا لامية «ودع هريرة» فيجد ربنا أن نفردها بقسط من االتحليل والدراسة ، قال مستهلا القصيدة بقوله :

ودع هريرة ، إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا ، أيها الرجل

ثم يمعن فى الغزل فيظهر ضعفه أمام فراقها ، وأمام سلطان الحب ، لأن هريرة جميلة قد منحها الله بياضا ، وطول شعر ، ونقاء أسنان ، وتجمّلت بمشية هادئة متزنة ، ولقد وفق فى تصوير مشيتها التى تدلّ بها فلم يجعلها بطيئة تستثقل ولا سريعة تمتهن ، وقد جعلها خفيفة الظل تتصاعد منها موسيقى ناعمةهى وسواس لا يجرح الأذن ، كما تزينت بالخلق السمح الذى جعلها محببة إلى جيرانها ، وكفاها حلية أن صانت للجيران حقوقهم ، وأغلقت آذانها عن أسرارهم ، وهى

عصارة ما فى الروض من ورد وريحان ، ولقد استوعب العوامل الثلاثة ذات الأثر الفعّال فى ازدهار الرياض ، أرضا مرتفعة ، ومطرا غزيراً ، وشمساً ساطعة ، والشاعر بعد هذا معذب يدخل إلى محرابها و يصف حاله فإذا هو معذب ، و إذا نحن أمام سلسلة غرام فى غرام .

و ينتقل الشاعر من هريرة إلى الخمرة وهو يجيد وصفها إجادة لفتت نظر القدماء إليه ، فقالوا : « إنه أشعر الجاهلين إذا طرب » إذ يجسم فيهـا بيئتها ومجالسها وما يُنْثَر فيهامن الورود ، فهو فى عصابة من عشاق الخمرة ، وهو طروب يتغنى و يرقص مع شعره ، و إذا أصحابه على مذهبه فى الحياة قد أيقنوا أن ما قدر الله لابد منه ، فراحوا يردّدون لأهازيجه و يشاطرونه طربه ، و إذا أمامنا مشهد من ريحان تنوزعت قضبه ، وخمرة مخضّلة الراووق ، تمتد إليها الأيدى بعد الأيدى ولايسمع من الشرب إلا كلة « هات » ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . و يصف الساق بأنه غلام لم يطر شاربه بعد ، كان يعلق فى أذنيه قرطا ، و يلبس قيصاً قصيراً قدقلص أسفله ، و يضيف إلى ذلك وصف عود كانت أنغامه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه عازفة وتغنيهم قينة فى ثوب دقيق يشف عن جسدها ومن ورائهاجوقة من النساء يرفلن فى ثياب الحرير وأنهم تمتعـوا بكل ذلك مرة بعد أخرى .

والأعشى فى خمريته لم ينحو نحوا مستقلا فيفرد لها قصائد كأبى نواس ولـكنه كان يأتى بها فى خلال أغراضه الأخرى شأن شعراء الجاهلية فى جل قصائدهم ، ولـكنه مع هذا أمدنا بالطريف فهو يتخذ للخمرة أسماء جديدة مستمداً أكثرها من اللغة الفارسية ، ومنها لفظة « الأسفنط » ، و يصف لونها فيشبهه : بالشعاع والزعفران والورود الحمراء ، و يبهره صفاؤها فإذا هى كعين الديك « وكأس

كعين الديك » أما رائحتها فتحكى رائحة المسك ، وأما عمرها فضارب فى القدم لأن أجود الخمور ما كان معتقا ، كما يصف عالم السكر ، واللهو ، فيصف السكران ويصف الشرب وقد خبلت الخمر عقولهم ، ويصف الرفقاء الذين ينطلقون معه إلى الحانوت ، ويصف الساقى الذى يسعى بالأكواب ، ولكن أفراح المجالس لاتكتمل مالم يرافق الشراب السماع .

ثم ينتقل فى آخر القصيدة إلى وصف السفر والناقة فلا يلمسها إلا قليلا وهو دون طرقه فى هذا ، ولكنه يفيض فى وصف البرق والمطر حتى يكاد يبلغ شأو امرىء القيس ، ثم ينبرى لرجل يقال له يزيد الشيبانى ، وكانت بينهما ملاماة ، فيهدده ويفتخر عليه ، ويذكر له انتصارات قومه على القبائل .

المنتخبات

وداع هريرة

١ – وصف هريرة

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ ، إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ
وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً ، أيُّها الرَّجُل ؟[١]
غَرَّاء ، فَرْعَاء ، مَصْقُولٌ عَـوَارِضُهَا
تَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ[٢]
كأنَّ مِشْيَتَهَـا مِنْ بيتِ جَارَتِهَا
مَرُّ السَّحَابَةِ : لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَل[٣]
تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً ، إذا انْصَرَفَتْ
كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِق زَجِلُ[٤]

---

(١) هريرة : وتكنى « بأم خليد » كما سيأتى فى البيت ١١ ، قينة كانت لبشر بن عمرو بن مرثد أو لأخيه حسان .

(٢) غراء : بيضاء ، واسعة الجبين . فرعاء : طويلة . الفرع : شعر الرأس . العوارض : الأسنان التى بعد الثنايا ، أى الرباعيات والأنياب : الوجى : الدابة التى تشتكى حافرها ، الذى آلمته قدماه من المشى حافيا . الوحل : الواقع فى الوحل .

(٣) الريث : الابطاء ، والتمهل .

(٤) الوسواس : الصوت ، العشرق : شجير مقدار ذراع لها أكام فيها حب صغار ، إذا جفت فرت بها الريح تحرك الحب . فشبه صوت الحلى بخشخشته على الحصى .

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَه الجيرانُ طَلْعَتَها
وَلَا تَرَاهَا لِسِرِّ الجَارِ تَخْتَتِلُ[١]
يَكَادُ يَصْرَعُها ، لَوْلَا تَشَدُّدُهَا
إِذَا تَقُومُ إِلَى جَارَاتِهَا ، الكَسَلُ
إِذَا تَقُومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصْوِرَةً
والزَّنبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ[٢]
مَارَوْضَةٌ مِنْ رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ
خَضْرَاء جَادَ عليهـا مُسْبِلٌ هَطِلُ[٣]
يُضاحِكُ الشَّمْسَ منهـا كَوْكَبٌ شَرِقٌ
مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[٤]

---

(١) تختتل : تتسمع .

(٢) يضوع : ضاع يضوع الطيب : فاحت رائحته . أصورة : صوار : الرائحةالطيبة. الورد : الأحمر . أردان: جـ . ردن : طرف الكم . شمل : شامل .

(٣) الحزن : المرتفع من الأرض المعضبة .

(٤) الكوكب : النبات المستطيل . الشرق : الريان الممتلىء ماء ، مؤزر . لابس الإزار ، شبه مادار « بالكواكب » ، من عميم النبت بإزارله ، مكتهل : الذى قد بلغ وتم .

يَوماً بأطيَبَ مِنهـا نَشْرَ رائِحـــةٍ
وَلا بِأَحْسنَ مِنْهَا ، إذْ دَنَا الأُصُـل[١]
صَـــدَّتْ هُرَيْرَةَ عنَّا مَا تُكلِّمُنَا
جَهْلاً بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ ![٢]
أَأَنْ رَأَتْ رَجُـلاً أَعْشَى أَضَرَّ به
رَيْبُ المَنُونِ ، وَدهرٌ مُفِيدٌ خَبِل ؟[٣]
عُلِّقْتُها عَرَضاً ، وعُلِّقَتْ رجـــلاً
غَيْرى ، وعُلِّقَ أخرى غيرهاَ الرَّجُلُ[٤]
وَعُلِّقَتْهُ فَتَاةٌ مَا يُحاوِلُها ، ومِنْ بَنِى عَمِّها مَيْتٌ بِها وَهِلُ[٥]
وعُلِّقَتْنِي أُخَـيْرَى مَا تُلاءِمُنِى فاجْتَمعَ الحُبُّ حُبّاً كُلُّهُ تبِلُ[٦]

---

(١) الأصيل : ج . الأصيل : الوقت من العصر إلى العشاء . والأبيات الثلاثة تؤلف استدارة تشبيهية :

(٢) جهلا ... : استفهام تعجبي معناه : حبل من تصل إذا لم تصلنا ؟ .

(٣) ثم أأن : أى أمن أن رأت ، حذف الجار . مفندة : من الفند وهو الفساد وكذلك الخبـــال .

(٤) علقتها : أحببتها .

(٥) الوهل : الذاهب العقل .

(٦) تبل : كأنه أصيب بتبل : من تبله : ذهب بعقله .

فـكُلُّنا مُغْرمٌ يَهْذِى بِصَاحِبِه : ناءٍ وَدَانٍ ، ومخبُولٌ ومُخْتَبلُ[١]

قالت هُـرَيْرَةُ ، لمَّا جئْتُ زَائِرَها :

« وَيلِي عَلَيك ، وَوَيْلِي مِنَك ، يارجُل ! »

٢ ــ اللهو والشرب :

إمَّا تَرَيْنـاَ حُفَـاةً لا نِعـالَ لَنـاَ

إنَّا كَذلك : ما نَحْفى ونَنْتَعِل ؛[٢]

فقد أُخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ وقد يُحاذِرُ مِنِّى ، ثُمَّ ما يَئِلُ[٣]

وقد أقُودَ الصَّبِى يوماً فَيَتْبَعُنِى ، وقد يُصَاحِبُنِى ذو الشِّرَّةِ الغَزِلُ[٤]

وقد غَـدَوْتُ إلى الحَـانُوت يَتْبعُنِى

شَاوٍ ، مِشَلٌّ ، شَلُولٌ ، شُلْشُلٌ ، شَوِلُ[٥]

---

(١) مخبول ومختبل : مغرم ، هائم .

(٢) إما : إن ما . إنا كذلك : الأصل فيها فإنا . ما نحفى : ما زائدة . — إن ترينا نتبدل مرة ونتنعم أخرى فكذلك حالنا ، والإنسان يحتاج تارة ويستغنى أخرى .

(٣) يئل : ينجو .

(٤) الشرة : الحدة ، النشاط ، الغضب ، الطيش . وفى رواية : الشارة الهيئة الحسنة : الغزل : الذى يحب الغزل .

(٥) الحانوت : بيت الخمار ، الشاوى : الشواء ، الذى يشوى اللحم . المشل : سواق الإبل . الشلول : الخفيف ؛ وروى أبو عبيدة : نشول : الذى ينشل اللحم من القدر ويقدمه للقوم . الشلشل : المتحرك . الشول : الذى يحمل الشىء ؛

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الحِيلَةِ الحِيَلُ(١)
نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ ، مُتَّكِئًا وقهوةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ(٢)
لاَ يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا ، وهي راهِنَةٌ
إِلاَّ بِـ « هَاتِ » وإنْ عَلُّوا وإن نَهِلُوا(٣)
يَسْعَى بِهَا ذو زُجَاجاتٍ له نُطَفٌ
مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ ، مُعْتَمِلُ(٤)
ومُسْتَجِيبٍ لِصَوْتِ الصَّنْجِ تَسْمَعُهُ
إِذَا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ(٥)
من كلِّ ذلك يومٌ قد لَهَوْتُ به ؛
وفي التَّجَارِبِ طُولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ(٦)

(١) الحيل ؛ وفى رواية : الأجل . ـ أى أيقنوا أن ما قدر الله لابد منه .

(٢) الريحان : كان من عادة بعض الجاهليين أن يستعملوا قضب الريحان للتحية . قال النابغة فى مدح بنى غسان : يحيون بالريحان يوم السباسب : القهوة : الخمر . الراووق : إناء الخمر : الخضل : الدائم الذرى .

(٣) راهنة : دائمة ، معدة . إلا بـ «هات» أى بقولهم للساقى : هات . علوا : من العلل : الشرب الثانى والشرب الأول هو النهل .

(٤) نطف : جـ . نطفة : لؤلؤة كبيرة أو قرطة ، وقيل نطف : قبان من جلد أحمر ، بلغة اليمن . معتمل : دائب مجتهد فى الخدمة .

(٥) المستجيب : العودة . يعنى أنه يجيب الصنج ؛ القينة : المغنية . الفضل التى عليها ثياب فضلتها فى مباذلها .

(٦) فى التجارب : أى فى تجاربى .

موضوعات للبحث

١ — لقد وضع الأعشى الخطوط العامة الكبرى لأدب الخمريات ؛ إذ ألم بكل ما نشهد فيه من أحوال وتشابيه ـ أوضح ذلك موازنا بينه و بين الأخطل ، وأبى نواس .

٢ — قيل : « إن شعر الخمريات انعكاس للحياة الحضرية ، فكلما تعقدت الحضارة تعقد وتفرع وازداد عمقاً » ناقش هـذا القول متتبعاً تطور الخمريات من عهد الأعشى إلى زمان أبى نواس .

٣ — تناول المقطع الأول من اللامية بالتحليل ، مبينا رأيك فى غزله ، وفى وصفه ، وفى ألفاظه .

المراجع

١ ـ رجال المعلقات العشر : مصطفى الغلاييني ، بيروت ١٣٣٢

٢ ـ دراسة الشعراء : ابراهيم الإبيارى وآخرون، القاهرة ١٩٤٤

٣ ـ الأعشى الأكبر : فؤاد افرام البستانى ، بيروت ، ١٩٣٢

٤ ـ أعلام الشعر الجاهلى : محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٤٩

٥ ـ فن الشعر الخمرى : ايليا حاوى ، بيروت ١٩٦٠

٦ ـ تطور الخمريات فى الشعر العربى : جميل سعيد ، مصر ، ١٩٤٥

الباب الثاني

النثر الجاهلي

تمهيد :

المعلوم أن العصر الجاهلى يمتد إلى ما قبل الإسلام بنحو قرنين تقريبا ، وأن اللغة خلال ذلك التاريخ ، وعند اقترابها من ظهور الإسلام ، كانت ملحمة تصاول الفصحاء فى الأسواق الأدبية والمحافل الجامعة .

ومن ثمّ لا نشك فى أنه كان للعرب فى جاهليتهم نثر فنى جميل تناول فنونا مختلفة من القول ، حتى نزل القرآن بلغتهم وفى هذا أقوى دليل على أن العرب كان لهم نثر فصيح وأن القرآن جاءهم معجزة تتحداهم من جنس كلامهم .

فأين ذلك النثر كله ؟ وما بال هذا الكلام ليس من جملته بأيدى الرواة إلا قليل يستطيع كاتب فى عصر واحد أن ينشىء مثله ، ولا يبلغ أن يكون فى غرض أدب ابن المقفع ، ولا فى سعة بلاغات الجاحظ ؟ وهذا قسّ بن ساعدة خطيب العرب وقاضى خطبائها فى عكاظ ، ليس له إلا هذه الأسطر القليلة من خطبة لو لم يشهدها رسول الله ما تناقلها الرواة ، وما اتصل خبرها إلى اليوم .

وليس ذلك لانصراف العرب عن النثر فإنهم كانوا مشغوفين بالخطابة وضرب الأمثال ورواية القصص من تاريخية وخيالية وإنما ذلك لأن أسباب التضييع قد عدت عليه ، وتبدد لكثرته على الأسماع ، وثقلت المعونة فى حفظه على الناس وشغل العرب عنه بالشعر لاستطرافهم له ، وغلبته على عقولهم ، ولوفائه بما حرصوا عليه من تقييد مآثرهم ، وتخليد مناقبهم وأيامهم ، حتى مست الحاجة فى ذلك الوقت إلى من يتخصص فى حفظ أنساب القبائل ، والاحتياط لما يفوت على الكافة من جملة أخبارها ، فنشأت طبقة النسّابين الذين منهم : دَغْفل الشيبانى وزيد بن الكيِّس النَّمَرى ، وورقاء بن الأشعر المعروف بابن لسان الحُمَّرة وأضرابهم .

والقليل الذى وصل إلينا من النثر الجاهلى ليس له كبير قيمة تاريخية ، يعتمد عليها الباحثون فى استخراج صورة واضحة لحياة العرب فى هذا العصر الجاهلى .

كما أنه يخلو من القيمة الفنية الحقيقية . فإن الرواد الذين نقلوه حرّفوا فيه ما حرفوا ، وقد لحق التحريف معناه ومبناه ، حتى فقد كثيرا من حقيقته وصبغته الأولى .

* * *

مميزات النثر الجاهلى :

أول مايلاحظ على عباراته خلوها من اللحن لتمكن السليقة منهم وقلة اختلاطهم بغيرهم .

إيجازها ، فقد كانوا يرون البلاغة فى الإيجاز .

إرسالها على ما تقضى البلاغة الفطرية دون تكلف فيها ولا مراعاة لما أتت به الصناعات اللفظية بعد .

اشتمالها على كثير من الألفاظ المترادفة ، على القول بأن هناك ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض .

كانت المعانى فى الجاهلية قصرا على الحقيقة ، وإذا جاوزتها إلى غيرها فإلى المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من الألفاظ .

أما الغرض العام الذى يرمى إليه ، فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنقهم ، ويكاد ذلك ينحصر فى وصف المعيشة البدوية ومرافقها من حل وترحال .

الفصل الأول

الخطـــابة

كان العرب يستعملون النثر لأغراض مختلفة ، فقد كان وسيلة للتفـكهة والتعليم ، كما كان وسيلة للعمل الاجتماعى والسياسى ، ومن ثم كان له فنون عدة منها الخطابة والمثل والقصص .

دواعيها :

كثرت الخطابة فى الجاهلية لتعدد بواعثها ، ومن أهمها : تأصل ملـكة البيان فيهم ، وصيرورة الـكلام صناعة لهم ، وتداعيهم إلى شهود المواسم الجامعة للتفاخر بهذه الآثار الأدبية . لأجل ذلك كله كثر الخطباء ، وكان لهم شأن كبير ، إلا أنه لم يبلغنا من خطبهم إلا الشىء القليل منثوراً فى الـكتب التاريخية وأكثر ما يروى من الخطب الجاهلية لا يصح الاطمئنان له من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته .

أسلوبها :

امتازت بقصر العبارة وكثرة الحـكم والأمثال ، واللجوء إلى السجع القصير الفواصل ، وعدم الارتباط بين المعانى ، وخلوها من العمق .

أشهر الخطباء :

ومن أشهر خطباء الجاهلية « كعب بن لؤى » ، وهو الجد السابع للنبى

صلوات ، الله عليه وهو من أقدم خطبائهم ، ولا يعرفون عنه إلا أنه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة خاصة على البر . وأنه لما مات أكبروا موته وأرخوا به إلى عام الفيل . ويعدون من أشهرهم قيس بن خارجة خطيب حرب داحس والغبراء ، وكذلك خويلد بن عمر الغطفانى ، خطيب الفجار ، وقس ابن ساعدة خطيب عكاظ ، وأكثم بن صيفى حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها ، وغير هؤلاء كثيرون لا يعرف تاريخ الأدب غير أسمائهم ، ولم يصل إليه إلا الشيء القليل من آثارهم .

قس بن ساعدة

(؟ — ٦٠٠ م)

هو أسقف نجران ، وخطيب العرب وحكيمها وقاضيها فى عصره . كثيرا ما كان يوافى سوق عكاظ ويخطب فى الملأ ترغيبا لهم عن الوثنية وتخويفا من غضب الله ونقمته . وقد مال عن الدنيا وزخرفها ، وعاش على الكفاف يعظ الناس ويعبد الله ، وقالوا : إنه أول عربى خطب متوكئا على عصا ، وأنه أول من استعمل فى كلامه : أما بعد ، وأول كاتب كتب : من فلان إلى فلان ، وكان متصلا بقيصر الروم : وفد إليه وأكرمه وعظمه ، وعمّر حتى رآه النبى قبل الرسالة فى عكاظ .

وأسلوبه بعيد عن الصنعة ، كثير السجع — القصير الفواصل — . يعمد فيه قس إلى ضرب الأمثال وإرسال الحكم .

الخطابة :

لقد وفق قس كل التوفيق فى تنبيه الناس إلى آيات الكون ، وعظمة الخالق — جل شأنه — وإلى إقناعهم بفساد عقيدتهم ، وإلى تحقير هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله ، وإلى تنبيههم على أن هناك ديناً خيراً من هذا الدين ، وقد نزل القرآن مصدقا لقوله ، مقراً طريقة قس فى الاستدلال بعجائب المخلوقات على وجود الخالق — قال تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقتْ ، وإلى السَّماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبتْ وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ ؟ وقال تعالى : « انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

وكذلك ورد الوعظ بالموت فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكأن الذى نشيع من الأموات سفر[١] ـ عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم[٢] ونأكل من تراثهم[٣] كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة وأمِنَّا كُلَّ جائحة[٤] .

وقد عمد قس فى خطبته إلى السهولة فى اللفظ ، وتجنب الغريب وحرص على الإيجاز وعلى السجع الذى لا تكلف فيه ، كما قصد إلى التأثير فى سامعيه ، وحملهم على الإيمان بفكرته ، وكان عماده فى ذلك فصاحة القول ، ومتانة الأسلوب من جهة ، والحجة المنطقية من جهة أخرى ، فهو يسوق الأدلة مستنبطاً منها القضايا والحقائق ، وكانت أدلته ما نشاهد فى الكون من عجائب تدل على وجود الله . كما أنه اتخذ من الموت عبرة وعظة ، وقد أكد هذه الحقائق بأدوات التوكيد « إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، وإن لله ديناً هو أرضى له، إنكم لتأتون من الأمر منكرا » وبالقسم يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه ، أما أفكاره فهى مفككة لا يربطها إلا الوعظ .

مناسبة الخطبة :

كان بعض العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام والنجوم من دون الله ، وظهر منهم قلائل مفكرون دانوا بالتوحيد ، وآمنوا بالبعث ، منهم قس بن ساعدة الإيادى ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعث يخطب فى عكاظ وهو راكب جملا فأعجبه كلامه .

(١) مسافرون .
(٢) نشيعهم فى قبورهم .
(٣) ميراثهم .
(٤) حادثة .

الخطبة :

أيّها النّاسُ ، اسمعوا وعوا ، وإذا سمعتم شيئاً فانتَفِعوا ، إنه من عاشَ مات ومن مات فاتْ ، وكلُّ ما هو آتٍ آت ، إنّ فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعِبرا : ليلٌ داجٍ[1] ، ونهار ساجٍ[2] وسماء ذات أبراج[3] ، وأرض ذات فِجاج[4] ، وبحار ذات أمواج . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُركوا هناك فناموا ؟ تبًّا لأرباب الغفلة والأمم الخالية والقرون الماضية ! .

يا معشر إياد ، أين الآباء والأجداد ؟ وأين المريض والعوّاد ؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيّد ، وزخرف ونجّد ؟ أين من بغى وطغى ، وجمع فأوعى ، وقال : أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً ، وأطول منكم آجالاً ؟ طحنهم الثرى بكلكله[5] ، ومزّقهم بطوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ! كلا بل هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

فى الذاهبين الأولـــين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحـوها يمضى الأصاغر والأكابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

---

(١) داج : مظلم .
(٢) ساج : ساكن .
(٣) أبراج : كواكب .
(٤) فجاج : جمع فج ، وهو المسلك الواسع بين جبلين .
(٥) الكلكل : الصدر ، والمراد هنا بصدر الثرى ثقله .

الفصل الثانى

الأمثـــــــال

المثل قول مأثور يمتـاز بالإيجاز وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الـكناية ، وهو مثال الجملة العربية فى أسمى أشـكالها ، وللمثل مورد قيل فيه أولاً سواء أكان حقيقياً أم فرضياً ، ومضرب وهو ما يقال فيه بعد . فالغرض منه تشبيه الحال الثانية بالأولى ليفيد الـكلام قوة ووضوحاً كما مر من قبل .

وليس فى الناس من لم تمر به ظروف وأحوال يضطر فيها إلى مواجهة أمور لايحب واحداً منها ، ولـكنه يرى أن لامفر له من اختيار واحد منها آخر الأمر ، مفضلا له على ما هو أعظم منه ضرراً . وكثير منا من تمر به هذه التجربة ، ويقع اختياره على ما يختاره من غير أن يعبر عن ذلك بشىء ، ولقد يحاول بعضنا أن يعبر عن ذلك ، كل منا بصورة مختلفة من صور البيان . فمنا مثلا من يقول : لقد كانت كلها شراً واخترت واحداً منها ، أو : لم أجد بداً من اختيار أقل هذه الشرور . أو : الشر الذى اخترته أهون من الشرور الأخرى . ولـكننا حين نسمع العبارة الآتية : « إن فى الشر خياراً » نتهلل لها ، ونقتبسها فى مثل هذه الظروف لأنها مع تأديتها المعنى الذى يجول بخواطرنا ، قد عبرت عنه تعبيراً دقيقاً موجزاً .

وقد وصل إلينا من عرب الجاهلية عدد كبير من أمثالهم وحكمهم ، أصبحت جزءاً أساسياً فى لغتنا وأدبنا . ولهذه الحكم والأمثال نظائر فى كل أمة ، فقد تقع الفكرة الواحدة لأكثر من شخص فى أكثر من مجتمع ، يعبر كل منهم عنها بما توحيه إليه عبقريته الخاصة و بيئته الخاصة . ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هذه الحكم والأمثال ليست قضايا كلية شاملة ، بمعنى أنهـا تصدق فى كل حال من الأحوال ، إذ أننا نجد فى بعضها تناقضاً مع بعض . فنى الوقت الذى نقرأ فيه « من تأنّى نال ما تمنّى » نقرأ أيضاً « وفاز باللذة الجسور » فإنما هذه الحكم تعبير عام يتضمن كثيراً من الحالات التى تنطبق عليها . فنى بعض الأحيان يكون المطلوب التأنى وفى بعض الأحيان يكون المطلوب الجسارة والإسراع .

وأمثال كل أمة مظهر من مظاهر ثقافتها و بيئتها وحياتها . غير أن هناك أفكاراً عالمية شائعة بين جميع الناس يعبر عنها قائلوها مستقلين دون أن يعرف أحدهم ما قال الآخر . ولقد يسلكون إلى التعبير عنها وسائل متشابهة ، ولقد يتخذون فى تصويرها صوراً مختلفة يستوحونها من بيئاتهم .

فمن النوع الأول مثلاً قول العرب « إن أخاك من آساك » ، و يقابله عند الإنجليز : « الصديق فى وقت الشدة هو الصديق الحق » .

وقول العرب : « أقلل طعامك تحمد منامك »

ويقابله فى الإنجليزية : « يأتى النوم الهادىء من الطعام المعتدل » .

ويقول العرب : « لكل جواد كبوة » .

ويقول الإنجليز : « ما دام للحصان أربع أرجل فإنه يكبو » .

ويقول العرب : « من أشبه أباه فما ظلم » .

ويقول الإنجليز : « كما يكون الأب يكون الابن » .

أما النوع الثانى فهو المظهر الحقيقى لحياة الأمة وبيئتها ، فمع اشتراك الأفكار نجد أن الصورة التى تصوز فيها الفكرة تستمد أجزاءها من البيئة . ففى الوقت الذى يعبر فيه العرب عن الخبير بالأمور بأنه « يعرف من أين تؤكل الكتف » يقول الإنجليز : « إنه رجل يعرف الحبال » يقصدون حبال الشراع فى السفن ، لأنهم أمة بحرية نشأت على البحر وسفنه .

وعلى هذا يمكنك أن تتصور نشأة المثل ، وأن تدرك أنه : قول موجز ورد فى حادثة ما ، وذاع على الألسنة ، فأصبح يضرب فى كل حالة ، تشبه الحالة التى ورد فيها .

على أن من الأمثال نوعاً آخر لم يرتبط بحادثة واقعية ، وإنما ارتبط بقصة خيالية أو حكاية رمزية على ألسنة الحيوان والطير ، وذلك كما سترى فى قولهم : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » .

ومن اليسير أن تدرك سر ذيوع الأمثال فى البيئة الجاهلية ، فهى بيئة فطرية تغلب فيها الأمية ، وتشتد فيهـا الحاجة إلى خلاصات التجارب تركز لها ، لتنتفع بها ، وتسير فى هديها ، والأمثال ليست إلا خلاصات لهذه التجارب ، صدرت فى أكثر حالاتها عن ذكاء ودقة ملاحظة ، ونفاذ بصيرة ، فإذا أضفت إلى هذا أن المثل يرتبط بحادثة أو حكاية وأنه كثيراً ما يتسم بدقة التشبيه وحسن التعبير ، أدركت سر ذيوع الأمثال .

وهذه الأمثال ترتبط بالبيئة الجاهلية ، وتعتبر صدى لها ، تعبر عنها تعبيراً فطريا صادقا لا تكلف فيه ولا تصنع ، وذلك لأنها تنبع من مختلف البيئات والثقافات .

ونحن إذا درسنا أمثال العرب دراسة دقيقة أمكننا أن نستخلص منها كثيراً من عاداتهم وأخلاقهم ، فنجد مثلا أنهم كانوا يغارون على حسن السمعة والبعد عما يسبب انتقاصهم ، حتى إنهم قالوا : « حسبك من شر سماعه » .

ونجد منها مايمثل منهجاً معيناً فى الحياة كقولهم : « إن الحديد بالحديد يفلح » ومنها ما يحمل توجيها خاصاً ، كقولهم : « قبل الرماء تملأ الكنائن » وقولهم : « أن ترد الماء بماء أكيس » .

كما أن منها مابنى على ملاحظة الطبيعة من حيوان ونبات وجماد . كقولهم : « أهدى من قطاة » و « هو أشبه به من التمرة بالتمرة » ، و « أظمأ من رمل » .

ومنها ما يرتبط بأشخاص اشتهروا فى صفات خاصة ، حتى صاروا مثلا فيها كقولهم : « أجود من حاتم » و « أبخل من مادر » .

وكانت لهم نظرات صادقة فى الحياة والمجتمع عبّرت عنها بعض أمثالهم . فقد أشاروا إلى الطبيعة البشرية فى تغاضيها عن الهفوات لمن تحب بقولهم : « حبك الأشياء يعمى و يصم » . كما اعترفوا بعامل المصادفة وأثره فى الحياة فقالوا : « رمية من غير رام » و « من الخواطىء سهم صائب » و « رب أخ لك لم تلده أمك » .

ومن آدابهم الاجتماعية تجنب النميمة ، وقد صوروها تصويراً بشعاً إذ قالوا : « سبك من بلّغك » وقالوا : « الرواية أحد الشاتمين » .

ومع فصاحتهم وانطلاق ألسنتهم أدركوا أن كثرة الكلام مزلة للأقدام ، وأنه ما سلم مكثار ، ولذلك قالوا : « مقتل الرجل بين فكيه » ، وقالوا : « المكثار كحاطب ليل » . وحاطب الليل لا يرى طريقه ، فربما نهشته حية أو لدغته عقرب فى احتطابه ليلا ، فكذلك المكثار ربما تكلم بما فيه هلاكه .

ودلوا على دقة ملاحظتهم فى عدة نواح أخرى ، نذكر منها بعض ما لاحظوه على الطفل فقالوا : « أكذب من صبى » وهم فى غير هذا ينظرون إلى ظاهر حال الطفل من أنه كثيراً ما يغير الحقيقة ، وهو فى معظم الأحيان يكذب مما يسميه علماء النفس كذب الخيال ، وقد يكذب للخوف الخ .. ، ولكنه على كل حال يبدو فى صورة المغير للحقيقة . وقالوا : « أبخل من صبى » لشدة حرصه الناشىء عن غريزة حب التملك التى لم تكن قد هذبت فيه بعد . وقالوا : « ما أسكت الصبى أهون مما أبكاه » .

ومما لاحظوه فى بيئتهم من نباتها وحيوانها وأرضها ثم سجلوه فى أمثالهم قولهم : « إنه لأشبه به من التمرة بالتمرة » و « أكسى من بصلة » وهما « كركبتى البعير » و « أصدق من قطاة » و « أعقد من ذنب الضب » و « أعطف من أم إحدى وعشرين » (وهى الدجاجة لأنها تحتضن جميع فراخها وتزقها كلها ، فإن ماتت إحداهن تبين الغم فيها) . كما قالوا : « أظمأ من رمل » (لأنه أشرب شىء للماء وخاصة فى الصحراء) وأغرّ من سراب وألزم للمرء من ظله .

وهذه طائفة من أشهر ما قالوه فى هذا الباب .

طائفة من أمثال العرب

فى جاهليتها وإسلامها

بلغ السيل الزبى — بينهم عطر منشم ، تجوع الحرة ولا تأكل بثديها —

تختر عن مجهوله مرآته — ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل — ثار حابلهم على نابلهم — جعجعة ولا أرى طحناً — جرى المذكيات غلاب — جوع كلبك يتبعك — حلب الدهر أشطره — حذو القذّة بالقذة — حرّك لها حوارها تحن — صار الزّجّ قدّام السنَان ـ عند الصباح يحمد القوم السُّرَى ـ عند النطاح يغلب الكبش الأجم — عند جهينة الخبر اليقين — فى بيته يؤتى الحكم — قبل الرماء تملأ الكنائن — كان كراعاً فصار ذراعا — كلام كالعسل وفعل كالأسل — كل الصيد فى جوف الفرا — كل فتاة بأبيها معجبة .

إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم .

قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ .

فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب .

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

ما على الرسول إلا البلاغ .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

قل كل يعمل على شاكلته .

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

كل حزب بما لديهم فرحون .

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

الحق أحق أن يتبع .

أمثلة فرضية :

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟

أصل هذه القصة رمزية شاعت بين العرب ، وهى :

أن أخوين أجدبت أرضهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب فيه حية تحميه ، فهبط أحدهما إلى الوادى ليرعى فيه ، فنهشته الحية .

وأراد أخوه أن ينتقم من الحية ، فتوسلت إليه أن يتركها على أن تدعه ينعم بخير الوادى الذى تعيش فيه ، وتعاقدا على ذلك .

ومرت به ذكرى اعتدائها على أخيه فهاجت نفسه وأسرع إليها بفأسه ليقتلها ولكن الفأس أخطأتها ، وتركت أثراً فى جحرها ، وأرادت الحية أن تنتقم منه ، فأخذ يرجوها أن تتركه على أن يعود العهد بينهما كما كان ، فقالت له :

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ .

ويضرب لمن يحذر شرٌ من نقض عهده .

الحكم :

وهناك لون آخر من النثر شبيه بالأمثال : هو الحكم ، مثل :

« رب عجلة تهب ريثا » .

« مصارع الرجال تحت بروق الطمع » .

« آفة الرأى الهوى » .

« من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء » .

« من شدد نفر ، ومن تراخى تألف » .

« خير الموت تحت ظلال السيوف » .

« رضا الناس غاية لا تدرك » .

« حسبك من شر سماعه » .

والحكمة — كما ترى — قول موجز ، صائب الفكرة ، دقيق التعبير ، يحمل توجيهاً إلى جانب من جوانب السلوك ، يتحرى فيه قائله - غالبًا - الخير والسداد كما مر من قبل .

وهى تختلف عن المثل فى أنها تصدر — أكثر ماتصدر — عن طائفة خاصة من الناس ، لها خبرتها وتجاربها وثقافتها ، كما أنها لا ترتبط فى أساسها بحادثة أو قصة .

نماذج مشروحة

إن غداً لناظره قريب .

لناظره . أى لمنتظره . وأول من قال هذا المثل قراد بن أجدع وذلك أن النعمان بن المنذر خرج للصيد على فرسه اليحموم فجرى به فى إثر عير حتى انفرد عن أصحابه ، وأمطرت عليه السماء فطلب ملجأ يلجأ إليه ، فوجد بناء فيه رجل من طيء يقال له حنظلة ، ومعه امرأته ، فقال لهما : هل من مأوى ؟ فقال حنظلة : نعم ، فخرج إليه وأنزله ، ولم يكن للطائى غير شاة ، وهو لا يعرف النعمان ، فقال لامرأته أرى رجلا ذا هيئة ، وما أخلقه أن يكون شريفًا خطيراً ، فما الحيلة ؟ قالت : عندى شىء من طحين كنت ادخرته ، فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين ملة ، فأخرجت المرأة الدقيق ، فخبزت منه ملة ، وقام الطائى إلى شاته فاحتلبها ثم

ذبحها فاتخذ من لحمها مرقة ، وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها ، وجعل يحدثه بقية ليلته ، فلما أصبح النعمان قال للرجل . يأخا طيء ، اطلب ثوابك ، أنا الملك النعمان ، قال : أفعل إن شاء الله ، ثم لحق الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائى بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبة وجهد وساءت حاله ، فقالت له امرأته : لو أتيت الملك لأحسن إليك ، فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة ، فوافق يوم بؤس النعمان ، فإذا هو واقف فى خيله ، فلما نظر إليه النعمان عرفه وساءه مكانه . فقال له أنت الطائى الذى نزلت به ؟ قال نعم ، قال أفلا جئت فى غير هذا اليوم ؟ قال : أبيت اللعن ، وما كان علمى بهذا اليوم ؟ قال : والله لو سنح لى فى هذا اليوم قابوس ابنى لم أجد بداً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا وافعل مابدا لك فإنك مقتول . قال أبيت اللعن . وما أصنع بالدنيا بعد نفسى . قال النعمان : إنه لا سبيل إليها . فقال : فإن كان لا بد فأجّلنى حتى ألمّ بأهلى فأوصى إليهم وأهيّء حالهم ثم أعود إليك . قال النعمان : فأقم لى كفيلا بموافاتك . فالتفت الطائى إلى شريك بن عمرو وهو من حاشية النعمان ، فقال له :

ياشريك يابن عمرو   هل من الموت محالة
يا أخا كل مضاف   يأخا من لا أخا له
يأخا النعمان فك اليوم ضيفاً قد أتى له
طالما عالج كرب الموت لا ينعم باله

* * *

فأبى شريك أن يتكفل به ، فوثب رجل من كلب يقال له قراد بن أجدع ، فقال للنعمان : أبيت اللعن هو علىّ ، قال النعمان : أفعلت ؟ قال : نعم . فضمّنه إياه ، ثم أمر للطائى بخمسمائة ناقة ، فمضى الطائى إلى أهله وجعل الأجل

حولا من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، فلما حال الحول و بقى من الأجل يوم ، قال النعمان لقراد : ماأراك إلا هالـكا غدا ، فقال قراد :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً لنـاظره قريب

* * *

فلما أصبح النعمان ركب فى خيله متسلحاً كما كان يفعل ، وأخرج معه قراداً وأمر بقتله ، فقال وزراؤه : ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه ، فتركه ، وكان النعمان يشتهى أن يقتل قراداً — لينجو الطائى من القتل . فلما كادت الشمس تغرب وقراد قائم مجرد فى إزار على النطع والسياف إلى جنبه ، فبينماهم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد ، فقيل له : ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو ، فـكف حتى انتهى إليهم الرجل فإذا هو الطائى ، فلما نظر إليه النعمان شق عليه مجيئه ، فقال له ماحملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل . قال : الوفاء . قال : وما دعاك إلى الوفاء ، قال : دينى ، قال النعمان : وما دينك ؟ قال النصرانية ، قال النعمان : فاعرضها على . فعرضها عليـه . فتنصر النعمان هو وأهل الحيرة أجمعون ، وكان قبل ذلك على دين الجاهلية ، فترك القتل منذ ذلك اليوم ، وأبطل تلك العادة ، وعفا عن قراد والطائى وقال : والله ماأدرى أيهما أوفى وأكرم أهذا الذى نجا من القتل فعاد ، أم الذى ضمنه ، والله لا أكون ألأم الثلاثة . فأنشأ الطائى يقول :

ما كنت أخلف ظنه بعد الذى أسدى إلىّ من الفعـال الخالى
ولقد دعتنى للخلاف ضلالتى فأبيت غير تمجدى وفعـــالى
إنى امرؤ منى الوفاء سجية وجزاء كل مكارم بذال

يضرب المثل فى طلب التريث والانتظار .

* * *

(رجع — بخفى حنين) :

أصله أن حنيناً كان إسكافيًا من أهل الحيرة فساومه أعرابى بخفين ، فاختلفا حتى أغضبه ، فأراد غيظ الأعرابى ، فلما ارتحل الأعرابى أخذ حنين أحد خفيه وطرحه فى الطريق ، ثم ألقى الآخر فى موضع آخر فلما مر الأعرابى بأحدهما قال : ماأشبه هذا الخف بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته ، ومضى ، فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول ، وقد كمن له حنين ، فلما مضى الأعرابى فى طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها ، وأقبل الأعرابى وليس معه إلا الخفان . فقال له قومه : ماجئت به من سفرك ؟ فقال : جئتكم بخفى حنين ، يضرب عند اليأس من الحاجة — بالخيبة .

الفصل الثالث

أيام العرب فى الجاهلية

قد تأصلت فى نفوس العرب طبائع البدو من النجدة وحب الغزو ، والميل إلى الانتقام ، والأخذ بالثأر . وكان العربى منهم حين يفتح عينيه لا يرى إلا تألق الأسنة ، ولا يسمع إلا صهيل الخيل ، وزئير الوحش ولم يكن لهم حمى يلجئون إليه إلا ظهور خيولهم ومقابض سيوفهم ، فرسخت فيهم صفات الفروسية وقوة المراس ، وكثرة الفتك والنهب ، وإنما كانوا يبتغون الماء ويرتادون منابت العشب ، فتنازعوا على المرعى ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف ، وانتشرت بينهم العداوة ، وفشت فيهم الحروب وتخطف بعضهم بعضا ، واحتمت بعض قبائلهم بالحلف وبقيت بعض القبائل الأخرى متجمرة فى نفسها معتزة بعصبيتها ، وكان هذا أهم الأسباب التى أدت إلى هذه الأيام أو الغارات المشهورة .

يوم حليمة

لما تولى المنذر بن ماء السماء مُلك الحيرة واستقر فى ملكه سار إلى الحارث الغسانى مطالبا بثأر أبيه عنده ، وبعث إليه : « إنى قد أعددت لك الكهول على الفحول » ، فأجابه الحارث : « قد أعددت لك المرد على الجرد » ، وسار المنذر حتى نزل « بمرج حليمة » وسار إليه الحارث أيضا ، ثم اشتبكوا فى القتال ومكثت الحرب أياما ينتصف بعضهم من بعض .

فلما رأى ذلك الحارث قعد فى قصره ودعا ابنته حليمة وكانت من أجمل النساء فأعطاها طيبا وأمر أن تطيب من مرّبها من جنده ، فجعلهم يمرون بها

وتطيبهم ، ثم نادى : يافتيان غسان ، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتى ، فقال لبيد بن عمرو الغسانى لأبيه : ياأبت أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة ، ولست أرضى فرسى فأعطنى فرسك ، فأعطاه فرسه ، فلما زحف الناس واقتتلوا ساعة ، شدّ لبيد على المنذر فضربه ضربة ثم ألقاه عن فرسه ، وانهزم أصحاب المنذر من كل وجه ، ونزل لبيد فاجتزّ رأسه . وأقبل به إلى الحارث وهو على قصره ينظر إليهم فألقى الرأس بين يديه ، فقال له الحارث : شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها ، فقال : بل أنصرف وأواسى أصحابى بنفسى ، فإذا انصرف الناس انصرفت .

ورجع فصادف أخا المنذر قد رجع إليه الناس وهو يقاتل وقد اشتدت نكايته ، فتقدم لبيد فقاتل حتى قتل ، ولكن لخماً انهزمت ثانية ، وقُتلوا فى كل وجه ، وانصرفت غسان بأحسن الظفر ، بعد أن أسروا كثيراً ممن كانوا مع المنذر من العرب ، وهو اليوم الذى قيل فيه (ما يوم حليمة بسر) .

يوم الكلاب الثانى

الكلاب اسم ماء بين الكوفة والبصرة ، ويوم الكلاب الثانى انتصرت فيه تميم على مذحج .

وقد أحسن بنو تميم لما أوقع بهم كسرى يوم الصفقة أنهم أغضبوا الملك ، ووهنوا وتسامعت بهم القبائل ، فلا يأمنون دوران العرب ، ثم اجتمعوا إلى سبعة منهم وشاوروهم فى أمرهم ، منهم : أكثم بن صيفى ، وقيس بن عاصم المنقرى ، والنعمان بن الحسحاس ، والزبرقان بن بدر ، وتشاوروا واختاروا ماء يجمعهم ولا يعلم الناس أمرهم ، فكان ماء الكلاب .

ثم التقى بنو تميم مع مذحج وأحلافها عند هذا الماء ولما اقترب جمعهما قال ضمرة بن لبيد لحسحاس ولقومه من مذحج : (انظروا) إنكم ستساقون النعم ، فإن أتت الخيل عصباً عصباً ، وثبتت الأولى للأخرى حتى تلحق بها ، فإن أمر القوم هين ، وإن لحق بكم القوم فلم ينظروا إليكم حتى يردوا النعم ، ولا ينتظر بعضهم بعضا فإن أمر القوم شديد ، وتقدّمت سعد والرباب فى أوائل الناس ، ولم يلتفتوا إليهم واستقبلوا النعم من قبل وجوهه ، وأخذوا يصرفونه بأرماحهم ، واقتتلوا قتالاً شديداً يومهم ، حتى إذا كان آخر النهار قتل النعمان ، وظن أهل اليمن أن بنى تميم سيهزمهم قتله ، ولكن ذلك لم يزدهم إلا جرأة عليهم ، وما زالوا على قتالهم حتى حجز الليل بينهم ، وبات يحرس بعضهم بعضاً .

ولما أصبحوا تولى قيس بن عاصم المنقرى إمرة تميم ، وحملوا على أهل اليمن حملة صادقة ، فهزمت مذحج ، وأسر عبد يغوث بن صلاءة سيد بنى الحارث ، أسره فتى من بنى عمير بن عبد شمس ، وانطلق به إلى أهله ، وكان العبشمى أهوج . فقالت له أمه : ورأت عبد يغوث عظيماً جميلاً — من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم فضحكت ، وقالت : قبحك الله من سيد قوم ، حين أسرك هذا الأهوج . ثم قال : للمرأة : هل لك إلى خير ؟ وعرض على ابنها مائة من الإبل ليطلق سراحه ، وذهب به إلى الأهتم سيد تميم ، ولكن قد مشت سعد والرباب فيه إلى الأهتم وقالوا : قتل فارسنا ولم يقتل لكم فارس فدفعه الأهتم إليهم وسار به عصمة بن أبير التيمى ، وانطلق به إلى منزله : فقال عبد يغوث : اقتلونى قتلة كريمة ، فقالوا : وما تلك ؟ قال : اسقونى خمراً ، ودعونى أنح على نفسى ، فسقوه الخمر ، وقطعوا له عرق الأكحل ، وترك عصمة معه ابنين له واستمر ينزف حتى مات .

أيام الفجــار

ومن أيام العرب الفجار ، وهى أربعة أفجرة ، وكانت قريش ومن معها من كنانة على هوازن فى هذه الأيام ، وكان أهمها الفجار[1] الرابع ، وهاجه قتل البراض الكنانى عروة الرحال مجير لطيمة النعمان بن المنذر (وهى عير عليها قطف وبز كان يرسلها النعمان إلى أسواق العرب تباع له ، ويستبدل بها مما فى هذه الأسواق من أدم ومتاع) وكان عروة سيدا مطاعا ، والبراض خليعاً ليست له نباهة ولا شرف ، وقد شهد النبى بعض هذه الحروب ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : كنت أنبل على أعمامى وأنا ابن أربع عشرة سنة ، وقيل أكثر من ذلك (يعنى يناولهم النبل) وإنما سميت هذه الأيام الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، وهى عندهم : ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وكانوا يتناهون فيها عن الثأر والحرب .

---

(١) وقد كان بعض هذه الأيام على قريش وأحلافها وبعضها لها على هوازن ، وهو يوم عكاظ ، وإلى ذلك يشير ضرار بن الخطاب الفهرى بقوله :

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يُثْبِتِ الأمرَ كالخابر
غَداةَ عُكاظ إذا استكملت هوازن فى لفها الحاضر
وجاءت سُليم تَهزُّ القنا على كلّ سَلْهَبة ضامر
وجئنا إليهم على المضمرات بأرْعن ذى لجبٍ زاخر
فلما التقينا أذقناهمُ طِعَانًا بسُمْر القنا العائِر
ففرتْ سُليمٌ ولم يَصْبِروا وطارت شَعاعًا بَنُو عامر
وفرّت ثَقِيفٌ إلى لاتِها بمنقَلَب الخائِب الخاسر

ولغير ضرار شعر فى هذه الحروب اكتفينا بهذا منه .

يوم بعـــــاث

ومن حروب الأوس والخزرج ، وهم سكان يثرب أو المدينة أنصار النبي صلوات الله عليه في الإسلام ، يوم بعاث وهو أعظم أيامهم (و بعاث في ديار بني قريظة من اليهود ، وفيه مزرعة لهم تسمى قُورَى) وكان ليهود يثرب من بني النضير و بني قريظة شأن يذكر في إعانة الأوس على الخزرج بسبب غدر عمرو ابن النعمان البياضي برهائن اليهود التي كانت عند الخزرج على ألا يُمينو عليهم إخوتهم من الأوس .

وكانت الرؤساء يومئذ حضير الكتائب الأشهلي على الأوس ، وكان أمرهم قبل ذلك إلى أبي قيس بن الأسلت الوائلي ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي وفي هذا اليوم انهزمت الخزرج وأصابت حضير الكتائب جراحات شديدة مات متأثراً بها بعد ذلك اليوم ، فقال : خُفَاف بن نَدْبة يرثيه ، وكان صديقا له في الجاهلية :

أتاني حَديثٌ فكذبتُه وقيل خَليلُك في المَرْمَسِ
فياعينُ بكِّي حُضَيْرَ النَّدَى حُضَيْر الكتائبِ والمجلِسِ
ويوم شديدٍ أُوارِ الحدَيد تَقَطَّعُ منه عُرا الأنفس
فأوْدَى بنفسكَ يومُ الوَغَى ونقى ثيابكَ لم يَدْنَس

وكان هذا اليوم قبيل الهجرة بنحو خمس سنين .

يوم ذي قار

ومن الحروب التي وقعت بين العرب وغيرهم يوم ذي قار ، وهو ماء قريب

من البصرة ، وكان بين العرب والفرس ، وهو أعظم أيامهم ، وكان سببه على ما يذكر الرواة : أن كسرى استقدم إليه النعمان بن المنذر فى المدائن ، ثم غدر به وقتله ، وفى ذلك اليوم خطب هانىء بن قبيصة الشيبانى يحرض قومه بكرا على القتال بقوله :

« يامعشر بكر ! هالك معذور خير من ناج فرور ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، وإن الصبر من أسباب الظفر . قاتلوا فما للمنايا من بد ، » وكان هذا اليوم بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم « وأخبر به أصحابه فى حديث مروى أن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا اليوم ، ومن ذلك قول الأعشى من قصيدة :—

لو أن كل مَعدٍ كان شاركَنا ... فى يوم ذى قار ماأخطاهم الشرَف
لما أمَالوا إلى النُّشَّاب أيديهم ... مِلْنا بِبيض لِمثْل الهَامِ تَخْتَطِف
بَطَارِقٌ وبنو مُلْكٍ مَرَازِبَةٌ ... من الأعاجِم فى آذانها النُّطُف
كأنما الآل فى حافات جَمْعِهِمُ ... ولا عن الطَّعْنِ فى اللَّبّاتِ مُنحَرِف

حرب البسوس :

وقعت هذه الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد مكثت أربعين سنة وقعت فيها هذه الأيام :

١ ـ يوم النهى (والنهى ماء لبنى شيبان) لتغلب على بكر .

٢ ـ يوم الذنائب (الذنائب موضع على طريق البصرة إلى مكة) لتغلب على بكر

٣ ـ يوم واردات : (وواردات موضع عن يسار طريق مكة إلى البصرة) لتغلب على بكر .

٤ ـ يوم عنيزة (وعنيزة : موضع فى اليمامة) تكافأتا .

٥ — يوم القصبيات (القصبيات : موضع فى ديار بكر وتغلب) لتغلب على بكر .

٦ — يوم تحلاق اللمم : سمى بذلك لأن بنى بكر حلقوا فيه جميعا رءوسهم ، لبكر على تغلب ، وسبب هذه الحرب الطويلة أن جساس بن مرة قتل ابن عمه كليب بن ربيعة ، زوج أخته جليلة ، وقد مر نموذج من شعرها فى (شواعر العرب) .

وقد كان كليب سيد معد كلها وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته وقد ملأه الغرور والبغى حتى إنه كان يرعى مواقع السحاب فلا يُرعى حماه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه اجلالا له ، ولا توقد نار مع ناره ، ولا يغير أحد إلا بإذنه ... فضرب بعزته المثل فقيل (أعز من كليب) وقد تزوج جليلة بنت عمه أخت جساس ، وكان جساس فارسا شجاعا فدَبّت الغيرة منه فى نفس كليب فأراد إذلاله فعقر كليب ناقة (البسوس) خالة جساس ، وكانت فى حماه ، واستبد كليب ببنى عمومته و فوثب عليه جساس فقتله ، ووقف جساس يشهد مصرع كليب و بجواره ابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل ، فطلب كليب شربة ماء فضن بها جساس ، ثم ضن بها عمرو بن الحارث ، ولم يكتف بضنه بل نزل وأجهز عليه فقيل : —

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنـــار

ثم أشعلت نيران الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة لم تبق قوة القبيلتين وهى سجل حافل لأدب رفيع وشعر رائع .

حرب داحس والغبراء : —

وقعت هذه الحرب بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالا وانتهت بالصلح ، وداحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير العبسى . وكان لحذيفة بن بدر الفزارى فرسان هما الخطار والحنفاء ، وسبب هذه الحرب أن قيس بن زهير ، وحمـــل بن بدر أخا حذيفة بن بدر تراهنا على أفراسهما ، وجعلا الرهان مائة بعير للسابق فيها ، فأجرى قيس : داحسا والغبراء ، وأجرى حمل : الخطار والحنفاء ، ولـكن حمل بن بدر أكمن فى طريق السباق فتيانا أن يردوا داحسا والغبراء إن جاءا سابقين . فلما شارفت الجياد الغاية وهى ذات الآصاد (اسم لقليب بين هضب فى ديار نجد) برز داحس فوثب الفتية فلطموا وجهه وألقوه فى المـاء فـكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل ، وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما أبطأ ثم عاد إلى الطريق واجتمع مع فرسى حذيفة ، ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار والحنفاء ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير على رسله ، وأخبر الغلام قيسا بما صنع بفرسه . ثم تشاحن حذيفة أخو حمل بن بدر على السبق ، ثم دفعه حذيفة إلى قيس وسكن الناس ، ثم بدا لحذيفة بعد ذلك أنه تسرع وندم وأرسل له رجلا اسمه ندبة يسترد السبق من قيس ، ولما تـكرر الطلب قتل قيس ندبة بن حذيفة وأوشكت الحرب أن تقع ، ولـكن القوم اجتمعوا فاحتملوا ديته إلى حذيفة وسكنوا إلى أن استفرد حذيفة أخا لقيس هو مالك بن زهير فقتله فقامت الحرب وعاد الربيع بن زياد العبسى إلى قومه ، وكان بينه وبين قيس بن زهير

شحناء فتصالحا واجتمعا على قيادة عبس فى هذه الحروب ، وتشتمل على أيام : المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة . وفروق . وقطن . وقد انتهت هذه الحروب بالصلح وتحمل هرم بن سنان والحارث بن عوف ديات القتلى ، و بلغت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين . وفى ذلك قال زهير بن أبى سلمى المزنى معلقته يمدح فيها هرما والحارث ويذكر هذه الحرب (ارجع إلى النصوص) .

وللعرب غير ما ذكرنا أيام كثيرة يطول علينا استيعابها ، وقد استوفى معظمها صاحب العقد ، ومنها فى كتب الأمثال والأغانى وابن الأثير شىء كثير ، فليرجع إليه من أراد .

وقد كانت هذه الحروب كما قدمنا من أعظم المواطن التى تهيج فيها النفوس بالشعر للتحريض على القتال ، وللنوح على القتلى ، والافتخار بالانتصار ، والشعر كما يقولون : يوحيه الحب والحرب والموت .

موضوعات للبحث

١ — لم يَعْدُ قس أن استعرض حقائق ، وخرج منها إلى نتائج ـ ناقش .

٢ — للعرب فى جاهليتهم أمثال كثيرة ، وإذا لم نستطع أن نتخذ منها مقياساً للنثر العربى ، فإنها تصور لنا العقلية العربية والخلق العربى — وضح .

٣ — أيام العرب مادة صالحة لخلق الملحمة العربية المستكملة للشرائط الفنية للملحمة — ناقش .

المراجع

١ ـ الخطابة عند العرب : محمد الخضر الحسين ، القاهرة ، ١٣٤٦

٢ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى : شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٤٦

٣ ـ من الأدب العربى (كتاب النثر) : عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة ، ١٩٥٥

٤ ـ أيام العرب فى الجاهلية : محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، القاهرة ، ١٩٤٦

٥ ـ تاريخ الأدب العربى : السباعى بيومى ، القاهرة ، ١٩٥٩

٦ ـ الأدب العربى وتاريخه : محمد هاشم عطية ، القاهرة ، ١٩٣٦

٧ ـ جمهرة خطب العرب : أحمد زكى صفوت ، القاهرة ،

٨ ـ مجمع الأمثال : الميدانى

العصر الإسلامي

والأمـــوي

تمهيـــد

(ا) فى صدر الإســـلام

الناحية السياسية :

أوضح مظاهر هذه الناحية خضوع العرب لإمام واحد يأتمرون بأوامره المستمدة من أحكام الدين ، وكان شعار الحـكم الإسلامى المساواة وحسن المعاملة لغير المسلمين ، وقد مرن فى الإسلام على الحـكم ، وأظهر حكامهم وقادتهم براعة تشهد لـكثير من خلفائهم وأمرائهم برجاحة العقل وحسن السياسة والبراعة فى قيادة الجيوش و إدارة شئون الدولة ، وكان أساس حكمهم ماأمر به الدين من العدل والمساواة بين العربى وغير العربى ، ولذلك امتزج العرب بأهل البلاد التى فتحوها من فرس وروم وسريان وغيرهم وأحسنوا معاملتهم ، وتـكونت من الجميع أمة إسلامية ودولة مترامية الأطراف مهيبة الجانب .

* * *

الناحية الاجتماعية :

كان للإسلام أعظم الأثر فى وضع الأساس الصالح المتين لنظام اجتماعى قويم ظهر فيما رسم الدين من مبادىء وقوانين تتصل بالأسرة وكيانها وحقوقها ولا سيما حقوق المرأة ، وتجلى كذلك فيما حث عليه فى التكسب من الطرق الشريفة بدلا مما كان يلجأ إليه بعض العرب من الغارات والنهب والاعتداء — وأوضح ظاهرة اجتماعية هى ذلك الاتحاد القلبى الذى يبدو فى

صلاة الجماعة وصلاة الجمعة والعيدين وفى الحج — ففى هذا توجيه إلى توحيد أهداف الحياة إلى جانب التوحيد فى العقيدة بالإيمان بإله لا شريك له ، وكل هذه أصول خلقية تحفظ الأمة قوية عزيزة الجانب .

بذلك تحولت الأمة العربية إلى أمة مجتمعة القلوب متحدة الغاية ألف الدين بين أفرادها فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

(ب) فى العهد الأموى

الحياة السياسية :

عندما قتل على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنتهت بقتله دولة الخلفاء الراشدين ، وتولى بعده معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، وكان سياسيًا بارعا ، فاجتمعت عليه كلمة الأمة الإسلامية ، لا سيما بعد أن توفى الحسن بن على رضى الله عنه ـ ولم يعد هناك من ينازعه الأمر .

وفكر معاوية فى أن يحتفظ بهذا التراث الضخم — فجعل الخلافة ملكا يتوارثه بنو أمية ، وجعل يزيد ولى عهده ، وسكت المسلمون احتراما لمعاوية أو خوفا منه أو تأثراً بدهائه .

فلما ولى يزيد الأمر بعد أبيه ، ثارت النفوس وخرجت من هدوئها وشبت الثورات التى قتل فيها الحسين بن على رضى الله عنه ـ فبدأ عهد الدماء للعلويين والشقاء للأمويين .

ولم تلبث الأحزاب أن ظهرت ، فهذا حزب العلويين ، وذاك حزب الزبيريين مع عبد الله بن الزبير ـ وهؤلاء أحزاب الحكومة الأموية ، وأولئك الخوارج لا يرضيهم من هؤلاء أحد .

استمر هذا التناحر حتى أودى بالدولة الأموية سنة ١٣٢ هجرية بعد أن ثل عرشها العباسيون ، وهم أبناء عم العلويين ، قاموا معهم للمطالبة بالثأر ـ ثم انفردوا بالأمر دونهم .

والذى يهمنا من هذا سياسية معاوية التى عملت على توطيد دعائم ملكه ، وكان من آثارها إشعال النار بين الشعراء ، لينسوا بعداوتهم ما عليه دار الخلافة من نقائص ، وما عمله من إلزام أبناء الصحابة وسلائل الأشراف أن يسكنوا المدينة ولا يبرحوها — مع مدهم بالمال الكثير حتى ينسيهم لهوهم أمر الخلافة .

وكان لكل ذلك أثره فى عالم الشعر والأدب .

الحياة الاجتماعية :

فى هذا العصر ظهرت الحياة العربية فى صورتين مختلفتين أو بيئتين متغايرتين : ـ

١ ـ أهل الخطط والبلاد المفتوحة ، كمصر والشام والعراق ، وقد كانت الحياة عندهم مملوءة بالترف ، وظهرت فيهم العصبية والطائفية بين شيعة وأموية وزبيرية ، ثم مضرية وقحطانية ، وكان خلفاء بنى أمية يزيدون نار هذه العصبيات والأحزاب اشتعالا ، ليشتغل العرب بعضهم عن بعض ، عن النظر إلى الخلافة وأعمالها .

وظهر لكل من هؤلاء شعراء ، فأنت ترى ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ، والكميت شاعر الهاشميين ، وجرير والأخطل ومسكن الدارمى للأمويين .

٢ — العرب الذين آثروا البناء فى أوطانهم ، ولم يهاجروا إلى البلاد المفتوحة وهم قسمان :

أهل الحجاز : وكان أكثرهم من بقايا أصحاب رسول الله الناقين على خلافة معاوية ، والمؤثرين الحيدة والتقية فى دولته ، ومن أبناء الخلفاء و بنى هاشم وكبار الصحابة ـ ممن خلف لهم آباؤهم من الثروة الطائلة ما يغنيهم عن الخدمة فى دولة ، وممن غمرهم معاوية بالأعطيات يجاملهم بها و يترضاهم عن سياسته ، فكان منهم طائفتان متناقضتان فى أحوال المعيشة ، فاكتفى جمهورهم بمجاورة الحرمين يتعبدون و يتدارسون علوم القرآن والسنة والفقه والسير والمغازى وآثر بعض شبانهم المترفين عيشة التمتع بالطيبات واللذائذ المباحة وغير المباحة وانضم إليهم حاشية و بطائن من الموالى والقيان يغنون و يعزفون بالمزاهر ، و ينشدهم بعض خلعاء الشعراء المقطعات الغزلية فيطربون لها و ينعمون ، وعاش كلاهما على طريقته زمن عصر بنى أمية .

أعراب البادية : وقد عاشوا عيشة تشبه من ناحية عيشة الجاهلية من حيث القيام على رعاية الإبل والغنم من مرابعهم ومصايفهم والمفاخرة والمهاجاة . والمناقضة وتخالفها من حيث الإيمان والعبادة ومن غارات العدو على التفاوت بينهم فى ذلك .

الباب الأول

الشعر

(١) فى صدر الإسلام

ميزة الشعر الإسلامى :

كان الشعر عند العرب فى جاهليتهم ديوان آدابهم ولسان بيانهم الذى به يفصحون عما يقع تحت حواسهم ، فلما بدّلهم الإسلام بحياتهم الجاهلية حياة راقية من حيث التدين والتعقل والاجتماع والسياسة ، كان شعر الشعراء الذين عاشوا فى عهد النبى وخلفائه ممن أدركوا الجاهلية والإسلام جامعاً بين مظاهر الحياتين ولذلك يسمون بالمخضرمين لأن الأصل فى معنى الخضرمة أن يجعل الشىء بين بين وتظهر الصبغة الإسلامية واضحة فى شعر الشعراء الذين تملئوا بروح الإســـلام أو عاشروا رسول الله ودافعوا عنه كحسان ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ولا تتضح جلية فى شعر أعراب البوادى من أمثال الحطيئة .

واقتضى عناد مشركى مكة أن يقاوموا الإسلام بما استطاعوا من قوة حتى قوة الهجاء ، فعانوا الشعر بعد أن لم يكن لهم شأن فيه وظهر فيهم شعراء ناصبوا رسول الله العداء ، ونظموا فى هجائه شعراً مصطبغاً بصبغة وثنية ، حتى إذا أسلموا هجروا الشعر : من أمثال عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص .

على أن كثيراً من الشعراء أصغروا الشعر وقوله عن أن يكون مشغلة لهم عن مدارسة القرآن وعبادة الله وخاصة بعد أن سمعوا قوله تعالى « والشعراء يتّبعهم الغاوون ، ألم ترأنهم فى كلّ وادٍ يَهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » ومن

هؤلاء لبيد العامرى من أصحاب المعلقات ، لأن أكثر أغراض الشعر من باب هذه الغواية التى ذمها القرآن .

ونجمل هنا ذكر ما طرأ على شعر هؤلاء المخضرمين (ومدتهم قليلة لا تبلغ نصف القرن من الزمان) .

١ — تطوره بالنسبة للشعر الجاهلى :

١ — هجـــر الشعراء المتورعون فى الدين من المسلمين كثيراً من أغراض الشعر المعدودة من باب الغواية التى نعى القرآن على أهلها فى قوله « والشعراء يتبعهم الغاوون » ولا تحسب من باب الانتصار للدين من ظالمية المستثنى من الغاوين بقوله « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » أما غير المتورعين من أشباه الحطيئة وغير المسلمين من نصارى العرب ، فكانت حالهم فى شعرهم أشبه بحالهم فى جاهليتهم ، فمن هذه الأغراض التى هجر قول الشعر فيها : الغزل المفحش الصريح ودواعيه ، وتملق الناس بالمدح ، وهجوهم بغير كفرهم وعنادهم ، والفخر بالباطل ، ووصف الخمر وما يحشد فى مجالسها من الندمان والقيان ، ووصف صيد الوحش وطرده مما كان يعده المسلم المتأثر بالحياة الإسلامية الجديدة عبثاً ولهواً وغرورا .

٢ — مناقضة شعراء المسلمين لأهاجى شعراء المشركين ـ وخاصة ما وقع بين شعراء الأنصار وقريش قبل فتح مكة ممن تقدم ذكرهم آنفاً .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهجاء المشركين لأن العرب كانت تعد سيرورة الشعر بهجائهم أشد عليهم من وقع السهام .

٣ — استعمال الشعر فى تأييد دعوة الإسلام وفيما يطابق روح القرآن كالحث على العمل الصالح وكالموعظة الحسنة ـ وكمدح رسول الله وأنصاره والحض

على جهاد أعداء الإسلام ، ورثاء من استشهد فى غزوات رسول الله أو قتل ظلما من خلفائه وكبار الصحابة .

٤ — شيوعه على ألسنة شعراء الفاتحين زمن الخلفاء الراشدين فى الفخر والتباهى بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ، ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال والحصار التى لم يكونوا عرفوها ، وأنواع الحيوان العجيب الذى لم يشاهدوه ومنه الفيلة التى حارب الفرس عليها العرب ، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام ومفاتن البحر ، ونحو ذلك مما ملئت به كتب المغازى والفتوح ويكثر فى هذا النوع من الشعر الأراجيز .

فى المعانى :

١ — وجد فى هذا العصر من المعانى ما يناسب العهد الجديد بعد أن تثقفوا بكتاب الله وسنة رسوله ، وشاهدوا فى أثناء فتوحهم كثيراً من ألوان الحضارة فاتسعت أفكارهم وتجددت معانيهم .

٢ — عندما هجرت أغراض لا تناسب الدين الجديد ـ ذهبت معها معانيها وأفكارها .

٣ — بدءوا يرتبون المعانى ويرعون تسلسلها ، ويتعلمون ذلك من القرآن الكريم .

فى أساليبه وألفاظه :

ظهر أثر القرآن الكريم والسنة الشريفة فى شعر المخضرمين وألفاظهم فيما يأتى :

١ — بدءوا يهجرون الألفاظ الغريبة والمستكرهة .

٢ — أخذوا يتخيرون الألفاظ و ينسقونها و يستمدون من القرآن ما يزين شعرهم و يجمل فنهم .

٣ — دخل فى الشعر كثير من الألفاظ الدينية كالجنة والنار والصلاة والصوم .

(ب) فى العهد الأموى

ميزة الشعر الأموى :

و يمتاز الشعر الأموى بمزايا فى ألفاظه وأسلوبه وأغراضه ومعانيه :

ألفاظه وأساليبه :

رقت ألفاظ الشعر ، وهجر الشعراء الغريب الجاف ، وكان للإسلام وللقرآن الكريم أثر فى صفاء أسلوب الشعر وسهولة ألفاظه ورقتها فى بعض الأغراض حتى أصبحت صالحة لأن يتغنى بها ، وتجد الفرق واضحا فى ألفاظ الشعر وأسلوبه حين توازن بين النماذج التى درستها فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى .

أغراضه :

لم تختلف أغراض الشعر فى العصر الأموى عما كانت عليه فى العصر الجاهلى وقد نشط الشعر الغزلى الرقيق ولاسيما فى الحجاز حيث كان يقيم الأثرياء من أبناء العظماء ، الذين ورثوا الثروة عن آبائهم وآثروا — حياة الترف والنعيم — وقد شجعهم على ذلك أن خلفاء بنى أمية كانوا يغدقون الأموال على هذا الجيل من شباب العرب — لكى يسترضوهم و يسكتوهم ويأمنوا مطالبهم السياسية فى الخلافة والحكم .ومازال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون وهوما يعرف (بالشعر المكشوف) .

وتأثر فى البوادى بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز فى ثوب الفخر والتباهى والتهاجى والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك .

وتأثر عند رقاق القلوب وأهل الغرام بنزعة نفوسهم — فخطر فى حلة الشعر العفيف الذى يعتبره قدماء المتأدبين من أجمل ماقيل من الشعر العربى وهو مايعرف (بالشعر العذرى) .

كما تأثر الأدب عند أهل الأمصار وحاميتها بصورة حياتهم — فكان لكل حزب سياسى أو طائفة مذهبية من الخوارج والشيعة والزبيرية وللروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر — ويخطبون فى تأييد نحلتهم — وقام مربد بالبصرة ومسجد الكوفة مقام عكاظ فى اجتماع الشعراء والخطباء بهما ومن ثم قويت شوكة (الشعر السياسى) .

معانيه :

لاشك فى أن الحضارة التى نال العرب منها قسطا معتدلا فى العصر الأموى والآفاق الحيوية التى امتدت أمامهم فى حياتهم الجديدة — وما رأوا فى البلاد التى فتحوها من جديد المظاهر كل ذلك أمدهم بالمعانى الجديدة و بعض التشبيهات الطريفة ، وذلك مثل قول عدى بن الرقاع فى وصف الظبية :

تزجى أغن كأن ابرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها

فهو يصف قرن الظبية و يشبهه بالقلم المغموس فى المداد .

على أن هذا الإبداع فى التجديد الخيالى لم يكن كثيرا ـ فإن شعراء العصر ساروا على نهج الجاهلين واقتدوا بهم ـ ولذا يقول بعض النقاد : إن مثل شعراء هذا العصر مع المتقدمين مثل رجلين ـ ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه .

أما نهج القصيدة فقد سار فى العصر الأموى على غرار ما كان فى العصر الجاهلى على النظام الذى أوضحنا من قبل .

الفصل الأول

الشعراء المخضرمون

الخَضْرمة :

جاء فى القاموس المحيط للفَيْرُوزَ بادى المخضرَم ، بفَتح الراء من لم يختتن ، والماضى نصف عمره فى الجاهلية ، ونصفه فى الإسلام . أو من أدركهما ، أو شاعر أدركهما كلبيد وسواه . أو شخص أسود ، وأبوه أبيض . والناقص الحسب . والدّعىّ . ومن لا يُعرف أبوه . أو ولدته السرارى . ولحم لا يُدرى من ذكر أو أنثى . والطعام التافه . والماء بين الثقيل والخفيف . وناقة مخضرمة ، أى قطع طرف أذنها ... والخضارمة : قوم من العجم خرجوا فى بدء الإسلام فسكنوا الشام ، الواحد خِضرمى . .

وجاء فى لسان العرب لابن منظور نفس التعريفات ويزيد : أصل الخضرَمة أن يجعل الشىء بين بين فإذا قطع بعض الأذن من الناقة ، فهى بين الوافرة والناقصة ، وقيل : هى المنتوجة بين النجائب .. ومنه قيل : لكل من أدرك الجاهلية والإسلام : مخضرم ، لأنه أدرك الخضرمتين ، وامرأة مخضرمة : أخطأت خافضتها، فأصابت غير موضع الخفض . .

وقال ابن برى : أكثر أهل اللغة على أنه (مخضرِم) بكسر الراء ، لأن

أهل الجاهلية لما دخلوا الإسلام خضرموا آذان إبلهم ليكون علامة إسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ، ويقال لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرِم ـ وأما من قال : مخضرَم ، بفتح الراء ، فتأويله عنده أنه قُطع عن الكفر إلى الإسلام » .

الشعراء المخضرمون :

إما أن ننظر إليهم من حيث حياتهم ، وإما من حيث إنتاجهم ، وعلى كلا الوجهين فالخضرمة تتمثل فيهم ، وهم : لبيد ، والخنساء ، وجلّ شعرهما فى الجاهلية والحطيئة ، وحسان ، وكعب بن زهير . وجل شعرهم فى الإسلام .

وميزة هؤلاء الشعراء ، أن شعرهم تتمثل فيه ريح البداوة والصحراء من حيث الإيجاز والقوة ، وطريقة القصيدة فى تعدد موضوعاتها ، وبراعة الوصف ـ كما تتمثل فيه خصائص جديدة اكتسبها من الإسلام ذلك الدين الجديد ، فنجد فيه الرقة فى الألفاظ ، والوضوح فى المعانى ، وذلك الطابع الدينى بما فيه من تعابير جديدة ، وأفكار مستحدثة .

الخنساء

(٥٧٥ — ٩٦٤م)

حياتها :

هى السيدة تُمَاضِر بنت عمرو بن الشَّريد السُّلمية ، والخنساء[1] لقب غلب عليها ، نشأت الخنساء جميلة تزينها وفرة عقلها ، وتتمتع بشرف أبيها ، ومنزلة أخويها : معاوية وصخر سادات سُليم من مضر ، وقد رآها دُرَيْد بن الصِّمَّة فارس هوازن تَهْنَأُ بعيراً لها فملكه جمالها ، وحيَّاها بقوله :

حيّوا تُماضِرَ ، وارْبَعوا صَحْبِى   وقفوا فإن وقوفكم حسبى[2]

ثم توجه إلى أبيها ليخطبها ، فقال له أبوها : « مرحبًا بك ياأبا قُرَّة[3] ، إنك للكريم لا يُطْعنُ فى حسبه ، والسيد لا يُردُّ عن حاجته ، والفحلُ لا يُقرع أنفه[4] ، ولكن لهذه الفتاة فى نفسها ماليس لغيرها ، وأنا ذاكرك لها ، وهى فاعلة » ثم دخل إليها وقال لها : « ياخنساء أتاك فارس هوازن ، وسيد بنى جُشَم دريد بن الصِّمَّة يخطبك » وكان دُريد يسمع حديثهما ، فقالت : « ياأبت ،

---

(١) قيل لقبت بالخنساء لجمالها تشبيها لها بالبقرة الوحشية ، أو لجمال أنفها ، لأن الخنس : هو تأخر الأنف عن الوجه ، مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .

(٢) ربع : وقف وانتظر .

(٣) كنية دريد ، والقرة : البرد ، وما تقربه العين .

(٤) أى لا يعاب .

أتُرانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحةً شيخ بنى جُشَم ، هامة اليوم أو غد ؟ ، ثم أنشدت تقول :

أتُكْرِهُنِى ، هَبِلْتَ ! ! على دُرَيدٍ   وقد طرَّدْتُ سيِّد آل بدْر ؟[1]

فخرج إليه أبوها ، فقال : « أبا قرَّة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد » فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان ، وأنشأ قصيدة يهجو فيها الخنساء :

وقاكِ الله ياابْنَةَ آلِ عَمْرٍو   من الأزْواج أشباهى ، ونفسى
فلا تَلِدى ، ولا ينْكِحْكِ مثلى   إذا ماليـلةٌ طرقتْ بنحْسِ

وهكذا آثرت الخنساء التزوج فى قومها ، فتزوجت أولاً من رواحة بن عبد العزيز السلمى ، ثم من مرداس بن أبى عامر السلمى ، ولما قوّض الدهر ركنىْ بيتها بموت أخويها معاوية وصخر ، جزعت عليهما أشدَّ الجزع ، وبكتهما أحرَّ البكاء ، ورثتهما بأبلغ الرِّثاء ، ولا سيما صخر لما بلته من كثرة إحسانه ، وشدة حنانه . *

وكانت الخنساء فى أول أمرها تقول البيت أو البيتين ، فلما مات أبوها وأخواها هاج الحزن عليهم طبيعة الشعر الكامنة فى حناياها ، فأتت فى رثائهم بما لم يعهد كثرة وجودة .

وقد وفدت مع قومها وهى عجوز على النبى عليه السلام ، فأسلمت ، وأعجب النبى بشعرها ، فكان يستنشدها ، ويقول : هيه ياخناس ! ويُومىء بيده .

---

(١) طرّدت ، وطرَدت : واحد ، وهبلت : دعاء عليه ، أى ثكلت ، ولا يقال : فى الدعاء هبلت .

وبقدر جزعها على أخويها فى الجاهلية ، كانت رابطة الجأش فى أمر بنيها الأربعة بعد إسلامها ، فلقد حضرت معهم حرب القادسية ، وحرضتهم على القتال بقولها :

يابنى ! إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجّنتُ حَسَبكم ، ولا غيّرت نسبكم ، واعلموا : أن الدار الآخرة خير من الفانية ، اصبروا وصابروا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظْفَروا بالغُنم والكرامة فى دار الخلود والمُقامة .

فخرج بنوها قابلين لنصحها ، عازمين على قولها ، فلما أضاء لهم الصبح ، بادروا مراكزهم ، وأنشأ أولهم يرتجز قائلا :

يا إخوتى ، إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
بمقالةٍ ذاتِ بيانٍ واضحه فباكروا الحربَ الضروسَ الكالحه

وتقدم فقاتل حتى قتل ، وهكذا لحق به الثانى والثالث والرابع ، حتى استشهدوا جميعهم فى ساح المعركة ، فلما نُعُوا إليها ، قالت : « الحمد لله ، الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » . وقد أعطاها عمر أرزاق أبنائها طول حياتها ، وقد ماتت الخنساء بالبادية فى خلافة معاوية سنة ٦٦٤ م ـ ٢٤ هـ .

آثارها :

للخنساء ديوان شعر طبع فى بيروت ، وطبع طبعة ثانية بمصر ، وكله فى رثاء أخويها ولا سيما صخر ، وأكثره قيل فى الجاهلية .

شعرها :

ليس فى شاعرات العرب قبل الإسلام و بعده من تفوق الخنساء فى رصانة شعرها ، ورقة لفظه ، وحلاوة جرْسه ، ولربما ضارعت فى هذه الصفات الشعراء الفحول ، فقد حضرت سوق عكاظ ، ففضلها النابغة ـ وكان له الحكم فى الشعر ـ على كل من حضر السوق إلا الأعشى ، فهاج ذلك غضب حسان . وسئل جرير من أشعر الناس ؟ فقال : أنا لولا الخنساء . وكان بشار يقول : لم تقل امرأة الشعر إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، وقد فضلها معاوية على الأخطل ، وهو حاضر عنده للإنشاد فأقرّ لها الأخطل بالفضل .

وأغلب شعر الخنساء ـ كما قلنا ـ فى رثاء أبيها وأخويها ، وماتبع ذلك من فخر بالكرم ، ووصف بالشجاعة ، ولشعرها وقع فى القلب ، وهزّة فى النفْس ، والنّساء أشجى الناس ، وأشدّهم حزنا على هالك . ومما يزيد رثاءها حسناً أن مدحها لصخر لايشو به التكلف ، و إنما هو مشبع بصدق اللهجة وصدق العاطفة معا ، ولعل الغلو أظهر خاصة فى الخنساء ، فهى مغالية فيما تنعت به صخراً من النعوت الفخرية ، ولكنه إذا قيس بمقياس التفجع ، و بمقياس البراءة من حيث وصفها لأخيها كان غلواً صادقاً ولا يقتصر غلوها على المعانى ، وما فيها من صور مادية ، بل يتناول ألفاظها ، فأكثر ما يكون لفظها فى صيغ المبالغة التى تترك أثراً محسوساً فى النفس ، فمن تعابيرها الخاصة قولها : شهّاد أنديه ، جمّال ألوية ، هبّاط أودية ، نحار ، مغوار ، أغر أبلج . ولم يرتفع بها الفكر كثيراً إلى المعانى الحكمية التى نجدها فى رثاء لبيد لأخيه أربد ، فهى حزينة لا تتعزى ، وضعيفة لا تملك أن تعظ نفسها ، ونادبة تهيج البواكى .

قذى بعينك :

تعبر الخنساء فى الأبيات الأولى عن حزنها ، وتصور ألمها العميق الذى أجرى دموعها غزيرة هطالة ، وأن الدهر ملىء بالأحداث ، والموت لا مفرّ منه فهو مصير كل حىّ . ثم تذكر مآثر أخيها من السيادة وشدة البأس فى الحروب ، ثم تعود إلى التعبير عن توجعها بفقد أخيها ، وتتخذ لذلك مثلا من الناقة التى فقدت ولدها وهو صغير ، فيحشى جلده ويوضع على ظهرها ليدُرّ لبنها ، وبعد ذلك تعود إلى تعداد صفات أخيها ، ثم تعبر عن ألمها الذى أرّقها حتى باتت ساهرة ترقب النجم ، وتعيد الكرة فتذكر مايملأ النفس من صفحات صخر المشرقة فتسردها لعلها تخفف بذلك ما تعنيه من وجد وأسى . ثم تختم القصيدة بذكر من كان لصخر عليهم فضل .

ويتضح فى القصيدة كثير من مظاهر البيئة العربية ، فخيال الشاعرة مستمد من وحى البيئة (فدمعها سيل يفيض) والسيول كثيرا ما تملأ الأودية غبّ الأمطار (وأخوها أغر أبلج) والفرس الأغر يكون مشهوراً بينهم ، كما تشبه أخاها (بعلم فى رأسه نار) وهى بذلك تشير إلى عادة كرماء العرب حيث كانوا يوقدون النيران فى الليل الداجى ليهتدى إليها الضال والضيفان . كما تلحظ فى شعر الخنساء (وحدة الموضوع) وصدق العاطفة .

يؤرقنى التذكر :

تعرض الخنساء فى هذه القصيدة ، فى لوعة حزينة مناقب أخيها صخر ، وتذكر أن فجيعتها فيه أليمة ، وأن ذكراه لاتبارحها ، وأنها جديرة بأن تبخع نفسها حسرة عليه ، لولا ماتراه حولها من آلام وأرزاء ، ثم يخونها الجلد ، فتعلن أنها

لن تنساه أبد . وأنها ودّعت لذتها وأنسها يوم ودّعته ، وتصيح صيحتها الوالهة بأنها لا تحتمل أن تحيا وصخر تحت أطباق الثرى .

وهى فى رثائها هنا تمزج بين تصوير احساسها الحزين ، وتعداد مناقب أخيها ، وموازنه مأساتها بمآسى غيرها ، وبهذا تبلغ الغاية من التأثير فى النفوس ، ومع أن أبياتها تكاد تخلو من الصور الخيالية : فإن ذلك لم يقلل من هذا التأثير ، لأنها كانت تسكب ذوب نفسها فى هذه الخواطر الفطرية ، وتحس فى الأبيات روح المرأة بما تراه فيها من طغيان العاطفة ، والتهاب الحس ، ورقة الألفاظ .

المنتخبات

أولا — قذى بعينك

— ١ —

قَذًى بِعَيْنِك ؟ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَّارُ
أَمْ ذَرَّفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ (١)

كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ
فَيْضٌ يَسِيلُ على الخَدَّيْنِ مِدْرَارُ

تَبْكِى لِصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلِهَتْ
وَدُونَه مِنْ جَدِيدِ التُّربِ أَسْتَارُ (٢)

تَبْكِى خُنَاسُ فَمَا تَنْفَكُّ ما عَمَرَتْ
لَهَا عليه رَنِينٌ وَهِيَ مِفْتَارُ (٣)

تَبْكِى خُنَاسُ على صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا
إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ (٤)

---

(١) العوار : وجع فى العين . ذرفت : قطرت قطرات متتابعة .

(٢) العبرى : التى لا تجف من الدموع . ولهت : الوله : شدة الجذع .

(٣) مفتار : أى أصابها الفتر ، أى ضعف وانكسار .

(٤) رابها الدهر : أتى بمافيه الشك فى الآمن والسلامة .

لا بُدَّ مِنْ مَيْتَةٍ فى صِرْفِهَا غِــيَرٌ
والدَّهْرُ فى صَرْفِهِ حَوْلٌ وأَطْوَارُ[(١)]

— ٢ —

قَدْ كان فيكُمْ أَبُو عَمْـروٍ يَسُودُكُمْ
نِعْمَ الْمُعَمَّمُ فى الدَّاعِــينَ نَصَّار[(٢)]

صُلْبُ النَّحِيزَةِ وهَّابٌ إِذَا مَنَعــوا
وفى الحُرُوب جَرِيءُ الصَّدْرِ مِهْصَارَ[(٣)]

يا صَخْـــرُ ورَّادَ ماءٍ قَدْ تَنَاذَرَهُ
أَهـلُ المَوَارِدِ ما فى وِرْدِه عَار[(٤)]

مَشْيَ السَّبَنْتَى إلى هَيْجَاء مُضْلِعَـةٍ
له سِـلاَحَان : أَنْيَـابٌ وَأَظْفَارُ[(٥)]

---

(١) غير : غير الدهر أحداثه . وفى رواية (عبر) . حول : أى تحول وتقلب . أطوار : حالات مختلفة .

(٢) أبو عمرو : كنية صخر . المعمم : المسود .

(٣) النحيزة : الطبيعة . مهصار : يهصر الأعناق أى يدقها .

(٤) وراد ماء : أرادت إقدامه على الموت . تناذره : أنذر بعضهم بعضا هوله .

(٥) السبنتى : النمر . مضلعة : شديدة .

— ٣ —

فَمَا عَجُولٌ على بَوٍّ تُطِيفُ به لها حَنِينانِ : إصْغارٌ وإكْبَارُ[١]

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إذا ادَّكَرَتْ فإنما هِيَ إقبَـالٌ وإدْبَارُ[٢]

لا تَسْمَنُ الدَّهْرَ في أرضٍ وإنْ رُبِعَتْ فإنَّما هي تَحْنَانٌ وتَسْجارُ[٣]

يوماً بأوْجَـدَ مِنِّي يَوْمَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وللدَّهْرِ إحْـلاَءٌ وإمْرَارُ[٤]

— ٤ —

وإنَّ صخراً لـكافينا وسَيِّدُنا وإن صَخْراً إذا انشتو لنَحَّارُ[٥]

وإنَّ صخراً لِمِقْدَامٌ إذا رَكِبُوا وإنَّ صخراً إذا جَاءُوا لَعَقَّار

(١) عجول : التي يموت ولدها وهو صغير . البو : ولد الناقة إذا هلك يؤخذ جلده ويحشى ويقرب من أمه فيدر لبنها . إصغار : حنين بصوت منخفض . إكبار : بصوت عال .

(٢) ادكرت : تذكرت . إقبال وإدبار : أى أنها قلقة تقبل وتدبر من شدة مابها من الاضطراب .

(٣) ربعت : أصابها مطر الربيع . تسجار . حنين ممتد مستطيل الصوت .

(٤) البيت جواب قولها فما عجول . بأوجد : بأشدوجداً . إحلاء وإمرار : أى يأتى الحلو والمر .

(٥) إذا نشتو لنحار . لأن النحر فى الشتاء والإطعام فيه أشد مئونة .

وإن صخراً لتأتَمّ الهُدَاةُ به كأنّه عَلَمٌ فى رَأْسِه نارُ[١]

جَلْدٌ ، جميـلُ المُحَيَّا ، كامِلٌ ، وَرِعٌ
وَلِلْحُـرُوبِ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِسْعَار[٢]

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ للجَيْشِ جرّار

فَقُلتُ لمّا رأيتُ الدَّهْـرَ ليسَ له
مُعَاتِبٌ وَحْدَه يُسْـدِى وَنَيَّار[٣]

لقدْ نَعَى ابنُ نَهِيـكٍ لى أخا ثِقَةٍ
كانتْ تُرَجّمُ عنـه قَبلُ أَخْبار[٤]

— ٥ —

فبتُّ ساهرةً للنَّجْـم أَرْقُبُـه
حتَّى أَتى دُونَ غَوْرِ النجم أَستار[٥]

---

(١) الهداة : الأدلاء الذين يهتدى بهم .

(٢) مسعار : موقد نار الحرب .

(٣) السدى فى النسيج مامد من الخيوط طولا . والنير : اللحمة . والمراد أن الدهر وحده ينقض الأمور ويبرمها .

(٤) ابن نهيك : أحد رجال بنى سليم نعى إلى الخنساء موت صخر . أخو ثقة : يعتمد عليه . ترجم عنه أخبار : أى تذكر على سبيل الظن والرجم بالغيب .

(٥) غور النجم : سقوطه . أستار : ظلمات .

قدْ كانَ خالِصَتِي مِنْ كلٍّ ذِي نَسَبٍ
فقد أصيبَ ، فما العيش أوْطَارُ[١]

مِثْلُ الرُّدَيْنِيِّ لم تَنْفَدْ شَبيبتُه كأنه تحتَ طيِّ البُرْدِ اسْوَار[٢]

مُوَرَّثُ المجـــــدِ ، مَيْمُونٌ نَقيبتُه
ضَخْمُ الدَّسيعَة في العَزَّاء مِغْوار[٣]

فِي جَوْفِ رَمْسٍ مُقيمٌ قد تَضَمَّنَه
في رَمْسِه مُقْمَطِرّاتٌ وأحْجارُ[٤]

لِيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أفْنَى حَرِيبَتَهُ دَهْرٌ، وحالفَهُ بُؤْسٌ وإقْتَارُ[٥]

وَرُفْقَةٌ حارَ هادِيهم بِمَهْلَكةٍ كأنّ ظُلْمَتَها في الطُّخْيَةِ القَارُ[٦]

لا يَمْنعُ القومَ إنْ سألُوهُ خِلْعَتَه ولا يُجَاوِزُه باللَّيْل مُرَّار[٧]

---

(١) خالصتى : أى الذى اخترته لنفسى خاصة . أوطار ، جمع وطر ، أى الحاجة .

(٢) الرديني : الرمح منسوب إلى امرأة كانت تقوم الرماح . أسوار : سوار المرأة ، والمراد أنه قليل اللحم .

(٣) مورث المجد : قد ورث الشرف . ميمون النقيبة : محمود الطبيعة . الدسيعة : العطية . الضراء : الشدة .

(٤) الرمس : القبر . مقمطرات : صخور عظام صلاب .

(٥) الإقتار : ضيق العيش . الحريبة . مايتعيش به الإنسان من المال .

(٦) الطخية : الغيم الذى يوارى النجوم فيحار الهادى والدليل .

(٧) خلعة : خيار ماله ، أو مايعطى من ثياب .

ثانياً – يؤرقني التذكر

١ – فداحة المصاب :

يُؤَرِّقُني التَّذَكُّرُ حين أُمسي
فَأُصْبِحُ قد بُلِيتُ بِفَرْطِ نُكْسِ (١)

على صَخْرٍ ، وأيُّ فتًى كصخرٍ
ليومِ كريهةٍ وطِعانِ خَلْسِ (٢)

فلم أَرَ مِثْلَه رُزْءاً لِجِنٍّ ولم أرَ مثله رزءاً لِإنْسِ (٣)

أشَدُّ على صُروفِ الدَّهْرِ أَيْداً
وأفضلُ في الخُطوب بغير لَبْس (٤)

وضيفٍ طارِقٍ ، أو مُسْتَجِيرٍ
يُرَوَّعُ قلبُه مِنْ كلِّ جَرْسِ (٥)

فأكْرَمَه ، وأمَّنَه ، فأمْسَى خلِيّاً بالُه مِنْ كلِّ بُؤْسِ

---

(١) النكس : عودة المرض بعد النقه .

(٢) يوم كريهة : يوم حرب . طعان خلس : الطعن السريع في مهارة وخفاء .

(٣) الرزء : المصيبة .

(٤) صروف الدهر نوائبه . الأيد : القوة . الخطوب : الأحداث . لبس : شبهة .

(٥) الضيف الطارق : الوارد ليلا . يروع : يفزع .

٢ – التأسى فى المصاب :

يُذكِّرُنى طلوعُ الشمسِ صخْـراً
وأذكُرُه لـكلِّ غُـروبِ شمْس

فلولا كثرةُ الباكينَ حَوْلِى على إخْوَانِهم لقتلتُ نَفْسى

ولـكن لا أزال أرى عَجُولاً ونائِحَةً تنوح ليَوْمِ نحْسِ (١)

هما كِلْتَاهما تَبْكِى أَخَاها عَشيَّةَ رُزْئهِ، أو غِبَّ أمْسِ (٢)

وما يبكِين مثلَ أخِى، ولـكِن أُعزِّى النَّفسَ عنه بالتَّأَسِّى (٣)

٣ – وداع اللذات :

فَلاَ وَاللهِ لا أَنْسَاكَ حَـتَّى
أُفارِقَ مُهْجَتِى، ويُشَقَّ رمْسِى (٤)

فقد ودَّعْتُ يوم فِراقِ صَخْرٍ أَبِى حَسانَ، لَذَّاتِى وَأُنْسِى (٥)

فيَا لَهْـفِى عليـه ! وَلَهْفَ أُمِّى
أَيُصْبِـحُ فى التُّرَابِ وفيـه يُمْسِى ؟

---

(١) العجول : الثكلى المولهة .
(٢) غب أمس : بعد أمس .
(٣) التأسى : التصبر، والمعنى أنها تجد من مصائب غيرها مايخفف من مصابها .
(٤) الرمس : القبر .
(٥) أبو حسان : كنية صخر .

موضوعات للبحث

١ — وازن بين رثاء الخنساء والمهلل من حيث الأفكار والعاطفة والأسلوب .

٢ — قيل يتصف رثاء الخنساء بالطبع المرسل على سجيته ، والبساطة الواجبة فى الحزن ، والسهولة اللازمة للإجادة فى التعبير عن خلجات النفس ولوعة الفؤاد ، وضح ذلك .

٣ — إن الخنساء بكت فى صخر الفاجعة التى حلت بموته ، والغوث المادى الذى انقطع عنها ـ اعمد إلى إحدى القصيدتين ، واستخرج منها الخصائص الفكرية والأسلوبية ، وأصدر حكمك على قيمته الشعورية والفنية .

المراجع

١ ـ الخنساء : فؤاد إفرام البستانى ، بيروت ١٩٣٠

٢ ـ الرثاء : شوقى ضيف ، مصر ١٩٥٥

٣ ـ الخنساء : بنت الشاطىء ، مصر ١٩٥٧

٤ ـ أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء : الآباء اليسوعيون ، بيروت ١٨٨٩

٥ ـ شاعرات العرب : بشير يموت ، بيروت ١٩٣٤

٦ ـ من الأدب العربى (كتاب الشعر) : عبد الحميد الدواخلى ، مصر ١٩٥٤

الحُطيئة

(؟ — ٥٩ هـ)

حياته :

هو أبو مليكة جَرْوَل بن أوس بن مالك العبسىّ ، الملقب بالحطيئة لقصره ، شاعر جاهلى ، طالت حياته فأدرك الإسلام ، وعصر الراشدين ، فهو مخضرم ، ولد فى بنى عبس دعيّاً لا يُعرف له نسب .

[لأن أمّه جارية يقال لها (الضّراء) ، وأباه (أوسا) مات ولم يعترف به ، وكان أوس متزوجاً زوجة حرة من قبيلة ذُهل ، وله منها ولدان ، وكان لها أخ يقال له الأفقم ، فلما وُلد الحطيئة جاء دميما شبيهاً بالأفقم ، وسألتها مولاتها : من أبو هذا الصبى ؟ فنسبته الضراء إلى الأفقم ، ولم تنسبه إلى أوس خوفاً منها .

فلما مات أوس أعتقت زوجتُه الذُّهلية الضراء أم الحطيئة ، فلما صارت حرة اعترفت أن الحطيئة من أوس ، فكان يذهب لعبس ، فإذا دفعته عبس غضب عليها ، وقال : أنا من ذهل ، وإذا دفعته ذهل غضب عليها ، وانتسب لعبس .

[فقد أتى أهل (القُرَيّة)[1] وهم بنو ذهل ، وطلب ميراثه من الأفقم ومدحهم بقوله :

إنّ اليمامة خـــيرُ ساكِنها   أهلُ القُرَيّة ، من بنى ذُهْل

---

(١) موضع باليمامة به مساكن ذهل .

الضّامنون لمـال جارِهمُ   حتى يتمّ نواهضُ البَقْل(١)
قومٌ إذا انتسبوا ، ففرعُهُمُ   فَرْعى ، وأثبتُ أصْلِهِم أصلى

فدفعوه ولم يعطوه شيئاً ، فقلب المدح هجاء وقال :

إن اليمـامة شر ساكنهـا   أهل القُرَيَّة ، من بنى ذهل
تمنيّتُ بكراً أن يكونوا عِمَادتى   وقومى ، وبكر شرُّ تلك القبائل

ثم عاد إلى بنى عبس ، وانتسب إلى أوس بن مالك . ومن هنا نرى أنه شبّ محروماً مظلوماً لا يجد مدداً من أهله ، فاضطر إلى التكسب بالشّعر يجلب به القوت ، ويدفع به العدوان ، وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته ، وكان رأس اشتهر به الهجاء وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامرأته وبنيه حتى نفسه .

فلما جاء الإسلام أسلم ، ثم ارتدّ ، ثم عاد مزعزع العقيدة ، فلم يستطع الدِّين أن يرفع هذه النفس ، ولا أن يفلّ هذا المِقْول الجرىء البذىء ، فَمَرَج لسانه فى أعراض الناس ، حتى الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله ، وعامل عمر بن الخطاب ، لم يسلم منه ، فاستعدى عليه أمير المؤمنين فحبسه ، فاستشفع إليه بشعره ، فأطلقه وحذّره هجاء الناس ، فقال : إذاً يموت عيالى جوعاً ، هذا مكسبى ، ومنه معاشى ، فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم فكفّ حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ .

---

(١) يقول : انهم يحفظون لجارهم أنعامه ، ويضمون له علفها ، حتى ينهض البقل ويخصب المرعى ، يشير بذلك إلى ميراثه ، فيقول : إنه محفوظ عندهم .

آثاره :

له ديوان شعر ، فيه مدح وهجاء ونخر وغزل ، وقد طبع هذا الديوان فى مدينة لبسك سنة ١٨٩٣ م ، قامت بطبعه الجمعية الألمـانية الشرقية ، ثم طبع فى مصر والشام بشروح مختلفة ، وللحطيئة أخبار شتى مفرقة فى كثير من كتب الأدب وتاريخه كالأغانى ، والعقد الفريد ، وخزانة الأدب وغيرها .

شـعره :

الحطيئة كزهير معدود فى عبيد الشعر الذين روَّوا فيه ونقحوه . وأثر عنه قوله : « خير الشعر الحولى المنقح » وهو بهذا تلميذ زهير ، فإن لقوا فيه قوة قوافى زهير ، ولقوله نقاء قول زهير ، فهو متين الشعر ، غزير البحر ، رائق الأسلوب ، متصرف فى فنون القول ، لم يعد عليه الناقدون مآخذ كما عدوا على غيره ، بل لقد عقبوا على أقواله بأحكام تجعلها فى الذروة من كلام العرب ، قال حماد الراوية سمعت أبى يقول : « أما إنى ما أزعُم أنَّ أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة » .

ولـكعب بن زهير أبيات فى الحطيئة ، تدلنا على مبلغ تأثر هذا الشاعر بأستاذه وعنايته بتنخل(١) أشعاره ، قال كعب :

فمن للقوافى شانَها من يحوكُها إذا ماثَوى كعب وفوَّز جَرْول(٢)

---

(١) التنخل : تخير أفضل الأشياء .

(٢) شانها : عابها . ثوى وفوز : مات . ولا يقال : فوز فلان حتى يتقدم الـكلام كلام فيقال : مات فلان وفوز فلان بعده .

كفيتُك لا تَلقى من الناس واحدا تنخَّلَ منهــا مثلما تتنخَّــل
نُثَقِّفُهـــــا حتى تلينَ متونُها فيقصُرُ عنها كلُّ مايُتمثّلُ(١)

فمن هذه الأبيات نعلم مذهب الحطيئة فى تنقيح قصائده وتخير ألفاظها ، وهو مذهب زهير وأبناء زهير .

هجاؤه :

الحطيئة نشأ مغموز النسب لا يعرف أباه ، كما ألحنا ويشجوه ألا يجد مالايرثه فيزفر زفرات يقذفها براكين على أمه الضراء ، وكان كلما سألها عن نسبه موّهت عليه ، ولا تجيبه جوابا صريحاً ، فيشتد قهره ، ويحقد عليها ، لأنه يعرف أن صراحة النسب فى العرب شرف لا يعدله شرف ، فيمضى وهو يقول :

تقولُ لِيَ الضَّراء : لستَ لواحدٍ ولااثنين فانظرْ كيف شِرْكُ أولئكا
وأنت امرؤٌ تبغى أباً قد ضلَلْتَه هَبِلْتَ ! ألَمّا تَستَفِقْ من ضلالها(٢) ؟

* * *

وحبه للمال بل بخله به يحمله على هجو ضيوفه ، وله فى ذلك أخبار عجيبة ، فقد ضافه رجل من بنى رؤاس فهجاه بهذين البيتين :

وسلَّم مرّتين ، فقلت : « مهلاً ! كفتك المرّةُ الأولى السّــلامَا »

---

(١) نثقفها : نقومها ، والتثقيف يكون لقناة الرمح . استعارة للقوافى .

(٢) يقال : هبلته أمه : أى ثكلته ، والقياس أن يقال فى الدعاء هُبلت (بالبناء للمجهول) لأنه إنما يدعو عليه أن تثكله أمه ، وجاء فى لسان العرب . أنه يقال فى الدعاء هبلت (بالبناء للفاعل) .

ونَقْنَقَ بطنُه ، ودعا رءوسًا لما قد نال من شِبَعٍ وناما[1]

* * *

هجاء الزبرقان :

قد يخيل إلى بعض من يسمعون بشهرة الحطيئة فى الهجاء أننا سندرس فيه شاعراً بذيئاً فحاشاً ، نهاشًا للأعراض يخجل الأديب من رواية شعره ، على حين أن الحقيقة غير هذا ، فهو وإن كان أكثر شعراء الجاهلية بضاعة فى فن الهجاء فهو أقلهم فُحشًا ، وربما غلبت العفة على لسانه فما ينطلق بما تستحى العذراء أن تتلوه لأبيها ، ولو نظرنا إلى قصيدته التى قالها فى الزبرقان بن بدر التميمى لوجدنا أنه ناله حقًا فى الصميم ، وجرحه تجريحاً شديداً ، وأعمل فيه سنان الكلام وهى أنكى من سنان السيف لذعًا وتقريعاً وتصغيراً ، ولكنه لم يفحش ، ولا ولغ فى العرض ، ولا نهش فى لحم ، بل رمى بهجوه بالبخل ، وضعف الهمة ، والقعود عن طلب المعالى ، ويناضل بينه وبين خصم بغيض ، ولكن بعد أن مرّر هذا الهجاء من خلال نفسه لأنه ألف الضعة ومن ثم كان قدومه وسيره فى آخر القافلة ذليلا مهانا يتعثر دون معين . وبعد هذا الهوان الذى خلعه على نفسه حتى وصل درجة الكلاب يعود فيشرئب مدعيا الاباء . وقصة الحطيئة مع الزبرقان تدل على الشره ، وقلة الوفاء ، أما الشره : فلأنه تعجل عطاء بغيض بن وائل ، ولم ينتظر الزبرقان حتى يعود ، وأما غدره ، فلأنه ترك جوار الزبرقان من غير إساءة لحقته من الرجل ، ولم يكتف بذلك ، بل هجاه .

كان النبى عليه الصلاة والسلام قد ولّى الزبرقان عملا ، فلما ولى عمر الخلافة قدم عليه الزبرقان ليؤدى صدقات قومه ، فلقيه الحطيئة بقَرْقَرَى[2] . فقال له الزبرقان (وقد عرفه ، ولم يعرفه الحطيئة) : أين تريد ؟ .

---

(١) نقنق : قرقر . رؤاس . من بنى كلاب . يقول حين شبع بطر ونادى : بالرؤاس .

(٢) أرض باليمامة .

قال العراق ، فقد حَطَمَتْنَا هذه السنة .

قال : وما تصنع بها ؟ .

قال : وددتُ أن أصادف رجلا يكفينى مئونة عيـالى ، وأُصفيه[1] مدحى أبدا .

فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبناً وتمراً ، ويجاورك أحسن جوار وأكرمه .

فقال له الحطيئة : هذا وأبيك العيش .

قال : قد أصبته عندى .

قال : ومن أنت ؟ .

قال : أنا الزبرقان بن بدر .

قال : وأين محلك ؟ .

قال : اركب هذه الإبل ، واستقبل مطلع الشمس ، وسل عن القمر ، حتى تأتى منزلى ، وكتب معه كتاباً إلى زوجته لتحسن إليه .

فسار الحطيئة إلى منزل الزبرقان فلقى من زوجته الإكرام والإحسان . فبلغ ذلك بغيض بن عمار بن شماس بن قريع التميمى ، وكان ينافس الزبرقان فى الشرف ، فأعملوا الحيلة ليحوّلوا الحطيئة إليهم ووعدوه وأطمعوه ، ودسوا إلى هُنيدة امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج مليكة بنت الحطيئة ، وكانت جميلة كاملة ، فظهرت من المرأة جفوة وهى فى ذلك تداريه .

واحتاج أهل الزبرقان للنجعة ، فقال لهم الحطيئة تقدموا وأنا لاحق بكم

---

(١) أجعله خالصا .

وكانت الأطماع من بنى أنف النـاقة[1] قد اعتلجت بنفس الحطيئة ، فلحق ببغيض وقومه ، فبالغوا فى إكرامه وأعطوه لقاحًا وكسوة .

فلما قدم الزبرقان سأل عنه ، فأخبر بقصته ، فجمع قومه وركب فرسه ، وأخذ رمحه ، ووقف ينادى القوم وقال : ردوا على جارى ، فقالوا : ماهو لك بجار ، وقد تركته بمَضِيقة ، وألمّ أن يكون بين الحيين حرب ، فحضرهم أهل الحجا من قومهم ، وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاختار بغيضًا وقومه ، فجاءه الزبرقان ، فقال له : ياأبا مليـكة أفارقت جوارى عن ذمّ وسخط ؟ ، فقال : لا ، فتركه وانصرف .

فجعل يمدح بنى شماس من غير أن يهجو الزبرقان ، وهم يحضونه على هجاء الزّبْرقَان حتى هجاه ، وناضل عن بغيض فى قصيدته

دع المـكارم :

والقصيدة تبدأ فى المرافعة ، كأن الشاعر يقنع بعض الناس الذين ما زالوا يلومونه على غدره بالزبرقان ومدحه لآل الشماس قوم بغيض فهو يقول : إن من لامنى ، على مدح آل لأى وشماس ، فليس بعاقل ولا فطن ، « ثم يلمح إلى ماأحس به من جفوة امرأة الزبرقان التىاستقلت الرحل من دونه ، ثم يذكر أنه استدرهم بمدحه فلم يدروا له بخير ، وقد أراد أن يستوفى جميلهم فرفضوا كى يكون لهم الفضل وحدهم فى الانعام عليه فانتظر خيرهم كما ينتظر الضيف الإبل العائدة من الشرب بعد أن أبطأت فى المرعى ، لـكنهم بالرغم من ذلك بدءوا

---

(١) لقب جد بغيض وقومه وكانوا يستحيون منه حتى مدحهم الحطيئة بقوله :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

يصدون عنه كما تصد المرأة عن زوج تكرهه ، فأى ذنب لبغيض أن رأى رجلا يعيش فى الفاقة ، ويجاور قوما أهانوه وغادروه كأنه مقيم بين الأرماس ، فهم قد ملوا قراه وجعلت كلابهم تنبحه ، وتجرّحه بأنيابها » ، ثم يقول له إن أعمالك دون أعمال الرجال فكن كالقواعد من النساء لا عمل لك إلا الأكل والشرب وأرسل عبدك يأتيك بالوطاب الضخم التى لا يسقى منها الضيفان ثم يذكر أن من يفعل الخير والمعروف لن يعدم الجزاء والثواب من الناس ومن الله . وأنه لا ذنب له إذا كانت حصاة آل لأى قد كسرت معاول الزبرقان فتفرقوا عليه بالمجد ، وقد نافسوه المعالى وأخرجوا من كنائنهم مجدا تليدا بدا فى شعرهم الذى جزوه من رءوسهم يوم أن انتصروا عليهم وأسروهم ثم أطلقوا سراحهم بعد جزّ نواصيهم .

فاستعدى عليه الزبرقانُ عمرَ بن الخطاب ، فرفعه عمر إليه ، واستنشده القصيدة ، فأنشده إياها ، فقال عمر بن الخطاب : ماأسمع هجاء ، ولكنها معاتبة .

فقال الزبرقان : أما تبلغ مروءتى إلاّ أن آكل وألبس ؟ .

فقال عمر : علىّ بحسان بن ثابت ولبيد ، فجىء بهما ، فسألهما عمر :

فقال حسان : لم يهجُه ، ولكن سلح عليه .

وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حُمْرَ النَّعَم ، وأنه قد قيل فىّ هذا البيت .

فألقاه عمر فى بئر وحبسه ، حتى كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره ، فأخرجه من السجن ، ودخل الحطيئة عليه فأنشده قصيدته « ماذا تقول . . » يستعطفه فيها حتى بكى عمر بن الخطاب ، واستتابه واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وقال له :

إياك وهجاء المسلمين : قال : « إذاً يموت عيالى جوعا ، هذا مكسبى ومنه معاشى » .

إن مشكلة الحطيئة ولدت معه لأنه ولد فى بيئة تقدس شرف الأصل ، لقد أتى إلى هذا العالم ليكفر عن ذنب لم تقترفه يداه ، بل قدره له أبواه ، ولسان حاله يردد قول المعرى :

هذا ماجنــــاه أبى على   وما جنيت على أحـــد

ومن ثمّ .

يمكننا أن نعدّ الحطيئة من الشعراء اللاعانين الذين كانت تتعقّد فى نفوسهم أزمة المصير والقيم والعدل والقدر ، فهو حائر يدور فى حلقة مفرغة ، فهو معتل النسب ساخط على أمه وأبيه ، وهو فقير معدم ساخط على إخوته لحرمانه من الميراث ، وهو قبيح الخلقة ، ذرى الهيئة ساخط على الناس لأنهم نبذوه وصاروا يعرضون عنه .

لقد كان هجاؤه للناس صورة لنفسه القاتمة ، فحقده الأصيل ينبع من نفسه ، وينصب على نفسه وعلى القدر الذى مسخه وشوه خلقه — دون أن يدرك ، فهجاؤه لأمه وأخويه وزوجته و بنيه هو فى الواقع ليس غير امتداد لذاته ، حتى بلغ النهاية فى هجائه لنفسه ، فلقد أنشأ فى هجاء أمه وزوجها و بنى جحش من العبسيين غير قصيدة منها : « ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى » ففيها صورة شعرية رسمها الشاعر معبراً بها عما يعتلج بين جوانحه ، وتكتوى بها نفسه ، فهو ما برح يتساءل عن السبب الذى تركه فى مؤخرة القافلة يختلف عن سائر الفتيان، واهتدى إلى أن السبب كامن فى أمه وهكذا فإن المعانى فى شعر الحطيئة ليست ذات قيمة كبرى ، بالقياس إلى عمق الصورة التى رسمها ، و إلى الرمز الذى تشير إليه

فهجاؤه ليس هجاء صنعة وارتزاق كالأعشى ، وإنما هجاء نفس برّح بها الأسى ، وقلب يتترى بالألم ، إنه اعتراف الشاعر بذلك الجرح الدامى الذى لا يندمل ولايبرأوهو يذكرنا بمأساة عنترة ومصيبة الشنفرى .

والحطيئة يعتمد إلى جانب الصورة التى يرسمها : أسر القافية وجرس الألفاظ ، فانظر إلى لفظتى (فسؤتنى — فساءنى) فى البيت الأول ، ولفظتى (البئيس — الأبأس) فى البيت الثالث ، فهو يستخدم الألفاظ المحقرة ، من واقع البيئة الجاهلية كما فى البيتين الأخيرين فإن أباهم كالقرد فى الدمامة والثعلب فى اللؤم .

وإذا أمعنا النظر فى هجائه نجد أنه يعكس لنا اتجاهين : اتجاها يندفع إليه حبا فى المال كهجوه الزبرقان ، ونوعًا ينبثق من معين نفسه المكلومة حبا فى التشفى والانتقام كهجوه أمه فهو أشده مرارة ، وأنكى وقعا، وهو فى هذا وذاك بعيد عن الصور الداعرة الموبقة ، والاقذاع الفاحش مكتفيا بالتشويه ، حتى إن عمر ابن الخطاب لما استقرأ هجاء الزبرقان قال «ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة فعمر سار على مبدأ : ادرءوا الحدود بالشّبهات ، ومن ثمّ فإن عفة القول جعلت الخليفة ينكر الهجاء ويحمله على العتب ، وهذا من حيث الظاهر . حيث تبدو الأبيات وكأنها شكوى وعظة ومعاتبة .

ولكنها فى الحق كانت تحمل فى طياتها السم الناقع الذى نظر إليه حسان ولبيد لأنهما نظرا من حيث الفن .

أفليس من العتاب والشكوى « وقد مدحتكم عمدا لأرشدكم . . أزمعت يأسا ، أو ليس من الحكمة والعظة « من يفعل الخير لا يعدم جوازيه » ؟

ثم انظر إلى الهجاء القاتل فى قوله : « دع المكارم ـ لقد مريتكم لو أن درتكم ـ » حيث شبه الزبرقان بالناقة التى لا تدر . . ثم تجده أخيراً يمعن فى

الحطّ من شأنه لأنه دون شأن آل شمّاس الذين صور مفاخرهم بنضال يخرجون فيه من كنائنهم مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس .

استعطاف عمر :

كان من الطبيعى أن يتوسل الحطيئة بشعره ليكسب عطف عمر ، وليخلص نفسه من ربقة السجن ، كما كان يتوسل به ليكسب رزقه ، ويدفع عنه الأعداء ، وفى الديوان ثلاث قصائد نظمها الشاعر مادحاً عمر طالبا منه العفو ، أمّا القصيدة الأولى : فقد كتبها إليه يستعطفه ، وهى أكثر قصائده جودة وقد سلك فيها المنهج التقليدى ، إذ استهلها بالغزل ، مُعرجا على الظبية والناقة ، وقد استغرقت هذه المقدمة الغزلية نحو عشرين بيتا ، ثم تخلص إلى المدح فاستهله بقوله :

إلى ملك عادل حكمه فلما وضعنا إليه الرحالا
جرى قول من كان ذا إحْنَةٍ ومن كان يأمل فِىّ الضلالا

وأردف تلك القصيدة الأولى بهذه الأبيات التى مطلعها : « ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ » وتتسم هذه الأبيات بالرقة والحنان واللهفة الصاعدة من أعماق النفس ، وذكر أولاده وحاجاتهم إليه ، وتضخيم عظيم الفاجعة ألا وهى ترك الأولاد بلاعائل ، وإلقاء التبعة فيها على عمر ، ولقد كان سؤاله لعمر مثيرا وحافزا للخليفة على التفكير فى أمر هؤلاء الصبية الجياع .

ثم يقول إن المسلمين قد ألقوا إليك مقاليد أمرهم من بعد صاحبك الصديق أبى بكر ، الذى رُوى عنه عندما استخلف عمر ، قال له عمر : استخلف غيرى . فقال أبو بكر : « ما حبوناك بها وإنما حبوناها لك » وهكذا اقتبس الحطيئة هذا المعنى فى بيته الرابع ، ثم طلب من الخليفة الحدب على هؤلاء الأطفال بإطلاق

سراحه ، وقد بكى عمر حين سمع هذه الأبيات ، وأطلقه من سجنه بعد أن اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف دينار .

أما القصيدة الثالثة : فقد كتبها إليه بعد أن جلب عليه قعوده عن الهجاء الفقر والحاجة ، فكتب يشكو إليه من ذريته التى لا تشبع وأنه لا يجد مايمسك رمقها وقد استهل تلك القصيدة بقوله :

يأيها الملك الذى أمست له بُصرى وغزّه سهلها والأجرع
أشكو إليك ، فأشكنى ، ذرية لا يشبعون ، وأمهم لا تشبع

و بعض الرواة ينسب هذه القصيدة إلى جرير .

ومنطق الحطيئة فى هذه القصيدة يخالف منطقه وعاطفته فى القصيدتين السابقتين فهو يبدو شديد القسوة على غير ما ألفناه من شدة العطف على أولاده وخوفه عليهم من الموت ، بينما نراه هنا يشكو أنهم لا يموتون ، وذلك مزاجه السوْداوى الذى يستبد به من آن لآخر ، فإذا هو قلب غير ثابت على مبدأ ، وهذه القصيدة لا تعدو أن تكون وسيلة للشكوى ، قلّ فيها المدح ، وكثر فيها التذمر على خلاف سابقتيها ، فهو يخاطب عمر فى الأبيات الأخيرة قائلاً : إنك تجمع المال وتحرص عليه ، لا لتأخذه لنفسك ، بل لتعطيه إلى فريق من الناس كأصحاب الفعال والصفة ، ومن لا خير فيهم – فى زعم الحطيئة – حتى أنك أصبحت بمثابة أمٍ لهم بعد أن ماتت أمهم من عهد بعيد ، ولكن هذا الوضع سوف يجعلهم يجترئون عليك بخاصتهم حتى يثقلوك أو يرضعوا منك .

ألوان من هجائه :

نسير مع الحطيئة فى هجائه ، فنراه يهجو أمه ، فيمعن فى الطعن والاحتقار والبغض والنقمة التى هى أشدّ من الفحش والإقذاع :

جزاكِ الله شراً من عجوز ولقّاكِ العقوق من البنينا
تنحّى فاجلسى عنى بعيداً أراح الله منك العـالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منّى ولـكن لا إخالكِ تعقلينا
أغربالا إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدّثينـا
حياتك ماعلمتُ حياة سوء وموتك قد يسرُّ الصالحينا

ونرى أن حقده على أخويه أشد ضراوة وأكثر تشويهاً ومسخًا إذ أبوا أن يلحقاه بأبيهما ويورثاه ليرفعوا عنه وصمة الضعة والإملاق فهو يقول :

لا تجمعًا عِرضى ومالى باطلاً كلا لعمر أبيكما حبّـان
وكِلا كما جرّت جعارُ برجله نشْبين بين مشيمة وملاق(١)

فوالدهما حبّاق تنبعث منه رائحة كريهة تزكم الأنف بالنتن ، ومولد أخويه كان ولادة بشعة .

أما امرأته فقد هجاها بقوله :

أطوّف ماأطوف ثم آوى إلى بيت قعيدتهُ لـكاع

وهكذا نرى أن هجاءه لأهله ، كان وجهًا من هجائه لنفسه ، وأن نقمته عليهم كانت امتداد النقمته على واقعه . ولهذا نراه يهجو نفسه بالغًا بذلك غاية الحقد والثورة ، إنه يريد أن يكون بخلاف ماجرت به المقادير لـكنه لا يستطيع ، ومن ثم ثارت نفسه المثالية على ذاته الواقعية المشوهة ، فهو مزدوج الشخصية فقد خرج صباح يوم ونفسه تؤج بالثورة وبه رغبة للهجاء لجمل يردد :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلُّما بسوء ، فمـا أدرى لمن أنا قائله

فلم يرى أحداً ، وبينما هو سائر فى طريقه ، وقف على بئر قد سكنت صفحته ، فرأى صورته فقال :

---

(١) جعار : الضبع : يقول ان ولادتهما تعسرت فشدا بساقيهما كالـكلاب .

أرى لى وجهاً شوّه الله خلقه   فقبح من وجه وقبّح حامله

لحالة التوتر الحاد والعصبية الزائدة كانت تسيطر على نفسه الجامحة ، فيشعر أنه يريد الهجاء مرغماً ، ومجبراً لا مخيراً ، وهنا دلالة نفسية جميلة ، فصفحة الماء فى الواقع ليست غير صفحة حياته ، وإن البئر ليس غير الحياة التى تبتلعه فى جوفها ولا يستطيع منها فكاكاً ، ولا لنفسه تغييراً ، وما وجهه القبيح إلا صورة لنفسه القبيحة ، ووجه الإنسان كما يقول علماء النفس : ما هو إلا ملامح وتمثيل لشخصيته فى الخارج ، وإعلان عن واقع نفسه .

ولقد كانت فى حياته فترات إشراق تظهر فيها العاطفة الحانية والنفس المحبة الصادقة ، فنى استعطافه لعمر ليطلق سراحه نفس تشعرنا بأنه أب وأنه محب لأبنائه ، وهو يريد لهم حياة كريمة دانية القطوف ليست كحياته التى تجرع فيها كأس الذل والفاقة ، ثم فى هذه القصة التى تحكى عنه من أنه خرج فى سفر ، ومعه امرأته أمامه وابنته مليكة ، فنزل منزلا ، وسرح ذودا له ثلاثا ، فلما قام للرواح فقد إحداها وهى مصدر رزق أسرته فعدل عن السفر ، وصار يبحث عنها ونفسه تفيض ألماً لفقدها فقال :

أذِئبُ القفْـــــرِ ، أم ذئبٌ أنيسٌ
أصـابَ البـكرَ ، أم حدثُ الليـالى ؟[1]
ونحن ثلاثةٌ ، وثلاثُ ذودٍ   لقـد جار الزمان على عيـالى[2]

---

(١) البكر : من الإبل بمنزلة الفتى من الناس ، يطلق على الذكر والأنثى .

(٢) الذود : الثلاث من الإبل إلى العشر ، وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها .

وفى ديوان الشاعر بعض المقطوعات التى تذكرنا بهجاء ابن الرومى وطريقته فى المسخ ، وذلك لما تشتمل عليه من عمق فى التهكم ، وإتقان للصور « الكاريكاتورية » وإذا كانت مثل هذه الصورة وردت من ابن الرومى سليل الحضارة والمدنية فى العصر العباسى ، عصر ازدهار الامبراطورية الإسلامية ، وسليل الأرومات المختلفة ، فإنها تبدو غريبة من شاعر جاهلى لم يعرف بغير سذاجة الفكرة ، وعدم الإعماق فى الخيال .

فلقد أراد الحطيئة أن يوحى لنا بشعره بخل إنسان فجعله يغمى عليه ، ويوشك أن يلفظ أنفاسه ، ويموت من خوف الاستجداء ، وإنه أجمع أن يشيع فى الناس موته ، وأنه بعد ذلك تنفس فتركه ليستعيد روحه .

المنتخبات

أولاً — دع المكارم

والله ما مَعْشَرٌ لاَمُــــوا امرأً جُنُبًا
في آل لَأْيٍ ، وشَمَّاسٍ بأكْيَاسِ[(١)]
عَلاَمَ كَلَّفْتَنِي مَجْــدَ ابن عمّــكُمُ
والعِيسُ تَخْرُجُ مِنْ أَعْـلاَمِ أَوْطَـاس[(٢)]
ما كانَ ذَنْبُ بَغِيضٍ ، لاَ أَبَا لَــكُمُ
في بائسٍ يَحْدُو آخـر النَّاس[(٣)]
لقَــد مَرَيْتُــكُمُ لو أنَّ دِرَّتَــكُمْ
يوماً تَجيء بهـا مَسْحِي وإبْسَاسِي[(٤)]

---

(١) الجنب : الغريب . لأى وشماس : هكذا فى طبعة القسطنطينية ، أماموله سهير والأغانى فأوردا « لأى بن شماس » والصواب ماذكرنا ، لأن لأيا لم يكن ابن شماس ، بل ابن جعفر . الكيس : الظريف الفطن .

(٢) أوطاس : واد يقع جنوبى مكة .

(٣) بائس : أراد نفسه .

(٤) مرى الناقة يمريها : مسح ضرعها . الدرة : اللبن . المسح : إمرار اليد على الضرع . الإبساس . التلطف للناقة ، بأن يقال لها : بس بس لتسكن ويدر لبنها ، وهو مثل يضرب للملاينة .

وقد مَدَحْتُكمُو عمداً لأرْشِدَكُمْ
كيما يكونَ لكُمْ مَتْحِي وإمْرَاسِي (١)

وقد نظرْتكمُ إعْشَاء صَادِرَةٍ
للْخَمْسِ طال بها حَبْسِي وَتَنْسَاسِي (٢)

فما مَلَكتُ بأنْ كانت نُفُوسكمُ
كفارِكٍ كَرِهَتْ ثَوْبِي وَإلْبَاسِي (٣)

لَمَّا بدا لى منكُمْ عَيبُ أنفسِكُمْ
وَلَمْ يكن لجراحى منكُمُ آسِى (٤)

أزمعتُ يأساً مُبيناً مِنْ نوالِكُمُ
ولا يُرى طَارِداً للحرِّ كالياس (٥)

أَنَا ابنُ بَجْدَتِها عِلْماً وتجربة
فاسْأَلْ بحربَى سَعْداً أَعْلَمَ النَّاس (٦)

---

(١) المتح : نزع الماء من البئر . الأمراس : الحبال . والمراد هنا التخليص والإنقاذ .

(٢) الاعشاء : أن تعشى بعد الشراب . الصادرة : الإبل الراجعة من الشرب . الخمس : هو إظماء الإبل فترعى ثلاثة أيام وترد فى الرابع . التنساس : السوق الشديد .

(٣) الفارك : المرأة التى تكره الإقامة مع زوجها فتتركه .

(٤) فى بعض الطبعات : غيب أنفسكم . الآسى : المداوى .

(٥) أزمعت : عزمت .

(٦) ابن بجدتها : مثل يضرب للعالم بالشىء ، والضمير فى بجدتها راجع للأرض .

سعدُ بنُ زيدٍ كثيرٌ إنْ عَــددتَهُمُ
ورأسُ سعدِ بن زيدٍ آلُ شَمَّاس (١)

والزِّبْرقانُ ذُناباهُمْ وشرهُمُ ليس الذُّنابَى أبا العباس كالرَّاس (٢)

جارٌ لقومٍ أطالُوا هُونَ منزِلِه وغادروه مقيماً بينَ أرْماس (٣)

ملُّوا قِرَاهُ ، وَهرَّتْه كِلاَبُهُمُ وجرَّحُوه بأنيابٍ وَأَضْرَاس (٤)

* * *

دَعِ المَكارِمَ لا ترحــلْ لِبُغْيَتِها
واقعُدْ فإنك أَنْتَ الطَّاعِمُ الكاسِى (٥)

وابعَثْ يساراً إلى وُفرٍ مُذَمَّمَــةٍ
واحدِجْ إليها بذى عَرْكَيْنِ قِنْعَاس (٦)

سيرى ، أُمامَ ، فإنَّ الأكثرين حَصىً
والأكرمين أباً من آلِ شمَّاس

---

(١) سعد : هى القبيلة الكبرى التى يرجع إليها آل شماس والزبرقان .

(٢) الذنابى : الذنب والذيل .

(٣) الأرماس : جمع رمس وهو القبر ، أى غادروه كالميت .

(٤) هرته : نبحته .

(٥) دع المكارم : يخاطب الزبرقان ، أى حسبك أن تأكل وتلبس .

(٦) يسار : هو عبد الزبرقان . احدج : ارحل . القنعاس : البعير الضخم .
العركان : الضاغطان تحت إبطى البعير .

من يفعل الخيرَ لا يَعْدَم جَوَازِيَه
لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والنّاس[١]

ما كان ذنبيَ أنْ فَلّتْ مَعَاوِلَكم ،
من آل لأيٍ ، صَفَاةٌ أصْلُها رَاسِى[٢]

قد ناضلوك فَسَلُّوا من كَنَائِنِهِمْ
مَجْدًا تليداً وَنَبْلاً غيْرَ أنْكاسى[٣]

ثانياً — الخليفة العادل

إلى مَلِكٍ عادلٍ حُكْمُهُ فلمّا وَضَعْنَا إليه الرِّحالا
صَرى قولَ مَنْ كان ذَا إحْنَةٍ ومن كان يأمُلُ فِىَّ الضّلالا[٤]
وخَصْمٍ تَمَنَّى علىَّ المُنَى لِأن جَاشَ بحرُ قُرَيْعٍ فسالا[٥]

---

(١) الجوازى : جمع جازية ، اسم مصدر للجزاء ، وقد أجمع النقاد على أن هذا البيت : أصدق بيت قالته العرب .

(٢) فلت : ثلمت . الصفاة : الصخرة الملساء . والخطاب لأهل الزبرقان .

(٣) أنكاس : جمع نكس ، وهو أضعف السهام وكان العرب إذا أسروا أسير خيروه بين التخلية مع جز الناصية ، وبين الأسر فإذا اختار التخلية جعلوا شعره المجزوز فى كنانتهم ، فإذا افتخروا أخرجوه ، وهذا هو المراد بقوله : مجدا تليدا .

(٤) صرى : قطع ، أو دفع وأبطل وفى رواية : حرا . الأحنة : المداوة .

(٥) المعنى : أن هذا الخصم تمنى أن تظفر بى لأنى مدحت قريعا لكرمه . وتقرأ المنى بالفتح ومعناها الهلاك .

أمينَ الخليفَةِ ، بعدَ الرَّسُـول وأوفى قُريشٍ جميعاً حِبَالا
وأطوَلهم فى النَّدَى بَسْطةً وأفْضَاهم ، حين عُدّوا ، فَعَالا
أتتنى لسانٌ فكذّبتُهـا وما كنتُ أرهَبُها أن تُقَالا[1]
بأن الوُشـاةَ ، بلا جُرْمةٍ أتوكَ ، فرَامُوا لديك المِحالا[2]
فَجِئْتُكَ مُعْتـــذراً راجيـاً
لعفوِكَ ، أَرْهبُ مِنْكَ النَّـكَالا[3]
تَحَنَّنْ علىَّ ، هَدَاك المليكُ فإنّ لـكلٍّ مَقَامٍ مَقَالا !
فلا تسـمعن بى مقـال العـدا
ولا تؤكلنى ، هـديت ، الرجالا
فإنكَ خـيرٌ من الزِّبْرقانِ أشدُّ نَـكالاً ، وخيرٌ نَوَالا

ثالثاً — ماذا تقول

ماذا تقـول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ
زُغْبِ الحواصـل ، لاماء ولا شَجَرُ[4]

---

(١) اللسان : الـكلمة ، أو الرسالة .
(٢) الوشاة : النمامون الجرمة : الجريمة ، الذنب والخطيئة .
المحال : بالـكسر ، السعاية .
(٣) النـكال : القصاص .
(٤) مرخ : واد بالحجاز . زغب : جمع أزغب ، وهو الفرخ يعلوه الريش الأصفر .

ألقيتَ كاسبهم فى قَعْرِ مُظْلمةٍ
فاغفرْ عليكَ سلامُ الله يا عُمَرُ(١)

أنت الامامُ الذى مِنْ بعد صاحِبِه
ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البَشَرُ(٢)

لم يُؤْثِرُوك بها إذْ قدَّموكَ لها
لكنْ لِأَنْفُسِهِم كانَتْ بها الأُثَرُ(٣)

فامننْ على صِبْيَةٍ بالرَّمْلِ مسْكَنُهُمْ
بين الأباطِحِ تَغْشَاهُمْ بها القِرَرُ(٤)

أهلى فِداؤُك كم بينى وبينهُمُ
من عَرْضِ داوِيَّةٍ تَعْمَى بها الخُبُرُ(٥)

---

(١) المظلمة هنا : البئر . وكان الحطيئة قد حبس فيها .

(٢) المقاليد : جمع مقلاد كمفتاح وزنا ومعنى ، النهى : جمع نهية ، وهى العقل .

(٣) الأثر : جمع أثرة . وهى الفضيل .

(٤) القرر : جمع قرة ، وهى البرد .

(٥) الداوية : الصحراء الواسعة . الخبر : جمع خبر ، وهو العالم بالشىء .

رابعاً — يأيها الملك(*)

يأيُّهـــــا الملكُ الذَّى أَمْسَتْ لَه
بُصْرَى وَغَزَّةُ سَهْلُهـا والأَجْـرَعُ(١)
وَمَلِيـكُها وَقَسِيمها عَنْ أَمْرِهِ يُعْطى بأمرك مَا تَشَاء ويمْنَعُ
أَشْـكُو إِلِيكَ ، فأشْـكِنِى ، ذُرِّيَةً
لَا يَشْبَعُون ، وأُمُّهم لا تشبَعُ
كثروا عَلَىَّ ، فمـــا يموتُ كبيرُهم
حتى الحساب ، ولا الصغيرُ المُرْضِـع
وجفاء موْلاىَ الضنين بمـالِهِ وولوعَ نفسٍ همُّهما بى مُوزَعُ(٢)
والخــرقةَ القُدمى ، وإِنَّ عَشـيَرنا
زرَعُوا الحرُوثَ ، وإننا لَا نَزْرع(٣)
فبعثتَ للشعراء مبْعَث داحسٍ أو كالبسوس عِقالَها تتكوَّع(٤)

(*) تنسب هذه القصيدة للبحترى .

(١) بصرى : بلدة فى حوران ، كان لها تاريخ عظيم ، وهى أول بلدة فتحها العرب فى الشام .

(٢) موزع : من أوزع بالشىء : أغرى به .

(٣) الخرقة : القطعة من القماش البالية .

(٤) تتكوع : تطأ على كوعها ، يقول لعمر : كنت على الشعراء آفة كداحس على عبس وذبيان ، أو كالبسوس على بكر وتغلب ، وذلك لمنعه الشعراء من هجاء الناس .

وَمَنَعْتَنِى شَتْمَ البَخيلِ ، فَلَمْ يَخَفْ
شَتْمِى ، فَأَصْبَحَ آمِنـــاً لاَ يَفْزَع
وأخذتَ أَطْرارَ الكَلام ، فلم تَدعْ
شَتْماً يَضرُّ ، وَلا مَديحـاً يَنْفَعُ[1]
وَبعثْتَ للدنيا تُجمّع مَالَها وتصرُّ جِزْيَتها ، وَدأباً تجْمعَ[2]
ومنعتَ نَفْسَك فَضْلَهـا ، وَمَنَحْتها
أَهْلَ الفَعال ، فَأنْتَ خـيرٌ مولعُ[3]
حَتّى يَجِىء إِلَيْكَ عِلجٌ نَازِحٌ فيصيب عفوتها ، وعبد أركع[4]
والعَيلةُ الضّفْفى ، وَمَنْ لاخيرُهُ خَيْرٌ ، ومثلهمُ غُثاء أَجْمَعُ[5]
أُمٌّ زَعَمْتَ لَهُمْ ، وماتتْ أُمُّهمْ فى عهد عادٍ حين مات التُّبَّع
فلتُوشِكَنَّ ، وأنت تَزعـمُ أُمَّهُم
أن يركبوك بثقلهم أو يرضعوا

---

(١) أطرار الكلام : نواحيه وأطرافه .

(٢) الجزية : خراج الأرض ، وما يؤخذ من الذمى .

(٣) فضلها : الضمير للدنيا . منحتها : أى جعلت الدنيا منيحة لأهل الفعال .

(٤) علج : الرجل الضخم من الكفار . عفوة الطعام والشراب خياره . الأوكع : ذو الوكع . والوكع فى الرجل . ركوب الابهام السبابة .

(٥) العيلة : الأسرة . الغثاء : الزبد ، وأوراق الشجر البالية المخالطة زبد السيل . كناية عما لا قيمة له .

خامساً — رهط ابن جحش

واقد رأيتُكِ ، فى النّسَــاء ، فَسُؤْتِنى
وأَبَا بنيكِ فَسَــاءنى فى المجلس[1]

إنّ الذّليــل لمنْ تَزُورُ ركابُهُ
رَهْطَ ابن جَحْشٍ فى مَضيقِ المجلس[2]

لا يَصْــبِرون ، ولا تزال نِسَاؤُهُمْ
تشـكو الهَوانَ إلى البئيس الأبأس[3]

رهطُ ابن جحشٍ فى الخطوب أذلّةٌ
دُسْم الثيـابِ ، قَنَاتُهمْ لم تُضْرَس[4]

بالهمزِ مِنْ طُولِ الثِّقَاف ، وجارُهُمْ
يُعْطى الظُّلامةَ فى الخطوب الخُوَّس[5]

---

(١) رأيتك : يخاطب أمه .

(٢) ابن جحش : هو الكلب بن كنيس زوج أمه .

(٣) الهوان : الذل .

(٤) دسم الثياب : مدنسة . كناية عن دنس الأخلاق . لم تضرس : لم تعجمها الحرب .

(٥) الهمز : الضغط والعض . الخوس : الأمور الشديدة التى تنزل بالقوم .

قَبحَ الإلهُ قبيلةً لم يَمنعوا
يومَ الجُبَيْمر ، جارَهم من فقْعَس[1]

تركوا النساءَ مع الجِياد لمعشرٍ
شُمسِ المداوةِ ، فى الحروب الشُّوَّسِ[2]

أبلغْ بنى جَحْشٍ بأَن نجارَهُم
لؤمٌ ، وأن أباهُمُ كالهِجرِسِ[3]

يُعطِى الخسيسةَ ، رغماً ، مَنْ رامها
بالضَّيم بعد تَكلُّحٍ وتَعبُّس[4]

سادساً — البخيل

كَدَحْتُ بأظفاري ، وأعولتُ معْوَلى
فصادف جُلموداً من الصخرِ أملسا[5]

(١) الجبيمر : أرض لبنى فزارة . فقعس : حى من بنى أسد .

(٢) شوس : جمع أشوس ، الذى ينظر بمؤخر عينه من العداوة .

(٣) النجار : الأصل . الهجرس : ولد الثعلب أو القرد .

(٤) تكلح : قطوب وعبوس .

(٥) كدح : كد واجتهد . اعولت : حرصت . يقال : أعال الرجل واعول إذا حرص . الجلمود : الصخر .

تشاغل لمـا جئتُ فى وجه حَاجَتى
وأطْرقَ حتى قلتُ قد مات أو عسى
وأجمعتُ أن أنعـاهُ حتى رأيتُه
يفوقُ فُواقَ الموتِ ، حتى تَنَفَّسا[1]
فقلتُ له : لا بأسَ لستُ بعـائدٍ
فأفرَخَ يعـلوه السمادِيُر ، مُلبِسا[2]

(١) اجمع : غرم . الفواق : ما يأخذ الميت عند الاحتضار .

(٢) افرخ : سكن وهدأ . السمادير : شيء يتراءى للإنسان من ضعف البصر عند السكر .

موضوعات للبحث

١ — الحطيئة أكثر شعراء الجاهلية هجوا ، ولكنه أقلهم فحشاً ـ ناقش .

٢ — لم يكن الحطيئة كابن الرومى يعتمد فى هجائه على المسخ والتشويه والسخرية ، بقدر ما كان يعتمد على المعانى اليسيرة المموهة الظلال ، والتى تحمل الزراية والحط من قيمة المهجو — ناقش .

٦ — قال الأصمعى : « زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين » أوضح هذه الفكرة وناقشها .

المراجع

١ ـ الحطيئة : إيليا حاوى ، بيروت ١٩٦٠

٢ ـ فن الهجاء : إيليا حاوى ، بيروت ١٩٦٠

٣ ـ الحطيئة شاعر من عبقر : عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٦

٤ ـ شعر الحطيئة : عيسى سابا ، بيروت ١٩٥١

٥ ـ الهجاء والهجاءون : محمد حسين ، مصر ، ١٩٤٨

٦ ـ تاريخ الأدب العربى : محمود مصطفى ، مصر ، ١٩٣٦

٧ ـ أدباء العرب فى العصر العباسى : بطرس البستانى ، بيروت ١٩٤٠

٨ ـ الحطيئة : فؤاد أفرام البستانى ، بيروت ١٩٣٠

كعب بن زهير

(؟ – ٦٦٢ م)

حياته :

هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المَزْنى ، نشأ فى بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، ولما ظهر الإسلام توجه هو وأخوه بُجير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بدا له فتأخر ، وتقدّم بجير يسمع كلام النبى ، وأعلن إسلامه ، فغضب كعب لإسلامه ونهاه ، ثم هجاه وهجا النبى معه بأبيات يقول فيها :

ألا أبلغوا عنِّى بجيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلت : وَيْحَكَ هل لكا ؟
سقاك بها المأمون كأساً رَوِيّةً ... فأنْهَلَكَ المأمون منها وعلّكا
ففارقت أسباب الهدى واتبعته ... على أىِّ شىء وَيْبَ غيرك دلّكا
على مذهب لم تُلْفِ أمًّا ولا أباً ... عليه ، ولم تَعرف عليه أخاً لكا
فإنْ أنتَ لم تفعلْ فلستُ بآسف ... ولا قائل إمّا عثرت لَعاً لكا !

وأرسل بهذه الأبيات إلى بجير ، فلما وقف عليها أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع النبى عليه السلام قوله « سقاك بها المأمون » قال : مأمون والله » وذلك أنهم كانوا يسمون رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمين والمأمون ، ولما سمع قوله : « على مذهب لم تلف أمًّا ولا أبا عليه » قال : أجل ، لم يلف عليه أمه وَلا أباه .

ثم إن رسول الله قال : من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب إليه

بجير يحذره ، ويخبره بانخذال قريش ، وبخاصــة وقد شاهد فتح مكة ، وفرار عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وقال له : « قد أوعد الرسول رجالاً بمكة فقتلهم . وهو والله قاتلك ، أو تأتيَه فتُسْلِم ، فاضطرب كعب ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبت ، ثم قدم المدينة مُتنكراً ، واستجار بأبى بكر ، فأتى به المسجد ، وهو متلثم بعمامته ، وقال : يارسول الله ، رجل يبايعك على الإسلام » فبسط النبى يده لقبول البيعة ، فحسر كعب عن وجهه وقال : هذا مقام العائذ بك يارسول الله أنا كعب بن زهير » فتجهمته الأنصار وأغلظت له فى القول . ولانت له قريش ، وأحبوا إسلامه و إيمانه ، فأمّنه الرسول ، فأنشده كعب قصيدته : « بانت سعاد » فسُرَّ الرسول وبان البشر فى وجهه ، ولما وصل إلى قوله :

إن الرَّسولَ لنورٌ يُسْتَضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

خلع عليه بُرْدَته ، وقد بذل فيها معاوية لـكعب عشرة آلاف درهم فلم يبعها ، فلما مات اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم . وكانت وفاة كعب فى خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ .

آثاره :

له قصائد متفرقة فى كتب ، أشهرها لاميته « بانت سعاد » وقد شرحها وشطرها كثيرون ، وقد جمع أخـــيرا ديوانه وطبع فى دار الـكتب المصرية ١٩٠٥ .

بانت سعاد:

إن كعبا شارع مُفْتن ، ورسام بديع التصوير ، واسع المخيلة ، وأحد رواد المذهب الزهيرى ، فله خاصة والده زهير فى براعة التشبيه والتصوير الحسى ، وله

خاصته أيضا فى إرسال الأمثال الحكمية ، وقد نكون منصفين إذا قلنا : « إن زهيراً وكعبا والحطيئة يترسمّون منهجا واحداً وينتهجون مذهبا أدبيا ذا صبغة واحدة ، على أننا نجد فى شعر كعب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وقد عزا ذلك الدكتور طه حسين إلى أن كعبا كان مقلداً لأستاذه أوس بن حَجر ، ومتشبعا لروحه ، وقد سبقه فى ذلك والده .

ولاميته تلك سار فيها على الأسلوب المقرر فى الجاهلية ، والعناصر التى تعرّض لها هى .

الاستهلال بالغزل : والتغنى بحب سعاد ، وإظهار اللوعة لفراقها وبيان الجوى الذى أسقمه ، والعلة التى أضنته ، ووصفه ساعة الرحيل ، وإظهار جمالها الفاتن فهى غزال عذب الصوت ، فاتر الطرف ، وأن أسنانها لامعة مشتهاه ، كأنما سقيت بالراح ثم يشكو هجرها ، وإخلافها ، ومواعيدها العرقوبية ، فنرى الصور الحسية تتراكم فى أوصافه وتتابع إثر بعضها من تشبيه الثغر ، إلى وصف برودة الماء ، إلى نَكث العهود إلى الحكمة وضرب المثل .

التخلص إلى وصف الناقة . وقد أبدع فى ذلك إبداعاً جعله يقترب من طرفة بن العبد فى ذلك ، كما أخذ يتلاعب بالمعانى ، ويقلّبها ، وفى هذه اللوحة تكثر الصور المادية وتكثر الألفاظ الغريبة ، فيصف ضخامة عنقها وطوله ، وعظم وجنتيها ، ونعومة جلدها .

مدح الرسول وأصحابه فيقول : ماأعظم رسول الله ! إنه لنور ساطع ، أرسله الله ليضىء سبيل الرشاد ويبدد ظلمات الجهالة ، وهو سيف مصلت على المشركين ، دعا إلى دين الله فاتبعته جماعة من قريش وقفت إلى جانبه وصبرت على إيذاء المشركين وثابرت ، قد تكلل جهادها بالنصر ثم دعاهم داعى الهجرة إلى المدينة لنشر الدين فانطلقوا فى الأرض ، وكانوا أعزّة شجعاناً عند لقاء

الأعداء ، ليسوا ممن يرتدون منهزمين يوم الوقيعة ، ولاهم عزل لم يُعدوا للحرب عدتها ، وما أكرم هؤلاء الأبطال ، فهم لا يتدانون ولا يتراكلون عند اللقاء لباسهم يوم الحرب الدروع المحكمة الصنع وهم أصحاب عقول تزن الجبال رجاحة فإذا ماانتصروا لم تأخذهم نشوة الظفر ، كما أنهم لا يجزعون إذاأصيبوا ، وإذا دارت عليهم الدائرة لم يذهب الروع بألبابهم لرباطة جأشهم وهم يلقون الطعن فى نحورهم لا فى ظهورهم كما يفعل الجبان الهارب من الميدان ، ومهما اشتدت عليهم وطأة القتال لا ترى منهم من يفر ، بل يثبتون كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا ، فإما النصر وإما الشهادة .

الاعتذار : تأثر كعب فى اعتذاره للرسول باعتذار النابغة الذبيانى للنعمان حيث يقول :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية   لمبلغك الواشى أغش وأكذب

وترى كعبا يقول هنا :

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم   أذنب ولو كثرت فىّ الأقاويل

والمعنى المشترك بينهما واضح فكلاهما يعتبر ما قيل عنه وشاية ويتبرأ مما نسب إليه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

مدح المهاجرين بالشجاعة والإقدام ؛ وقد أتى فى الأبيات الأخيرة ببعض الصور الجميلة كهذه الكناية عن شجاعة أصحاب الرسول ، وعدم فرارهم بقوله .

« لا يقع الطعن إلا فى نحورهم .

وينجلى فى هذه القصيدة الوصف الرائع للحالة النفسية التى كان عليها كعب عندما أهدر الرسول دمه ، وتخلّى عنه أصحابه ، ولم يجد له مُنْقذا ، كما ينجلى فيها التسليم بالقضاء والقدر حيث لا مفر من ذلك ، وقد كرر الشاعر لفظ الرسول غير مرة ، طلبا لاستدرار عطف الرسول عليه ، وسلّ سخيمة الغضب عليه ، وليؤكد إيمانه برسالة محمد ، ويظهر فى القصيدة أثر البيئة العربية ، كما فى التعبير عن ميادين القتال بالحياض ، كما يظهر فيها الطابع الإسلامى ، سواء فى المعانى أو الألفاظ مثل : « هداك الذى أعطاك نافلة القرآن » .

المنتخبات

بانت سعاد

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ(١)
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ(٢)
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِى ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ(٣)
أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
مَوْعُودَهَا، أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ(٤)
لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا
فَجْعٌ، وَوَلْعٌ، وَإِخْلَافٌ، وَتَبْدِيلُ(٥)

---

(١) بانت : فارقت . متبول : أصابه الحب فسقم وضعف . متيم : ذلك الحب. مكبول : مقيد .

(٢) أغن : أى فى صوته غنة ونبرات حسنة .

(٣) عوارض : الأسنان التى بعد الأنياب . ظلم : ماء الأسنان . الراح : الخمر النهل . أول الشرب . العلل : الشربة الثانية . ذى ظلم : أى ثغر ذى ظلم ، والظلم ماء الأسنان وبريقها .

(٤) الخلة : الصديقة :

(٥) سيط : خلط . فجع : الإصابة بالمكروه . الولع : الكذب . إخلاف : عدم الوفاء بالوعد .

فَمَا تَدُومُ على حالٍ تـكونُ بها
كما تَلَوَّنُ فى أثْوابِها الغُـول[1]

وَلاَ تَمَسَّـكُ بالعَهْدِ الذى زَعَمتْ
إلاَّ كمَاَ يُمْسِكُ المَـاء الغَرابِيلُ[2]

فلا يغُرَّنَّكَ ما مَنَّتْ وَما وَعَـدَتْ
إنَّ الأمَانِيَّ وَالأَحْـلامَ تَضْليِل[3]

كانت مواعيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَـلا
وَمَا مواعيـدُها إلا الأَباطِيلُ[4]

أَمستْ سُعادُ بأرضٍ لا يُبَلِّغُهَا إلاَّ العِتاَقُ النَّجِيباَتُ المَرَاسِيل[5]

* * *

(١) تلون : أى تتلون . الغول : حيوان خرافى ، وكانت العرب تزعم أن الغول تظهر لهم فى الفلوات وتتلون بألوان كثيرة لكى تضلهم عن الطريق .

(٢) تمسك : أى تتمسك .

(٣) منت : أى جعلتك تتمنى . الأمانى:جمع أمنية ، وهى ما يتمناه الإنسان .

(٤) عرقوب : رجل يضرب به المثل فى إخلاف الوعد .

(٥) العتاق : أى النوق الكريمة الحسنة التى خلصت من العيوب . النجيبة : الكريمة من الخيل . المراسيل : جمع مرسال : وهى السريعة السهلة اليدين فى السير .

تَسْعَى الوُشَاةُ جَنَابَيْهَا ، وَقَوْلُهم
إنك يا ابْنَ أبى سُلْمَى لمَقْتُول[1]

وَقَال كُلُّ خَلِيلٍ كنتُ آمُلُه
لاَ أُلْهِيَنَّكَ إنِّى عَنْكَ مَشْغُول[2]

فقلتُ : خَلُّوا سَبِيلى ـ لا أبَا لَكُمُ ـ
فكلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعُول[3]

كُلُّ ابْنِ أُنثى وَإنْ طَالَتْ سَلاَمَتُه
يوماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمُول[4]

* * *

نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ الله أَوْعَدَنِى
والعفوُ عِنْدَ رَسولِ الله مَأْمُول[5]

مَهْلاً ! هَدَاكَ الّذِى أَعْطَاكَ نَافِلَةَ
القُرآنِ فيها مَوَاعِيظٌ وتَفْصِيل[6]

---

(١) جنابيها : أى ناحيتيها وحواليها ، والضمير للناقة .
(٢) لا ألهينك : أى أشغلنك عما أنت فيه من الجزع فاعمل لنفسك .
(٣) لا أبالكم : تعبير يقال فى المدح والذم .
(٤) حدباء : مؤنث أحدب ، وهو الذى تقوس ظهره .
(٥) أوعدنى : هددنى ، والفعل أوعد يستعمل فى الشر ووعدفى الخير .
(٦) نافلة القرآن : عطية القرآن . تفصيل : أى تبيين ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده .

لاَ تَأْخُــــذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَمْ
أُذْنِبْ ، وإنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيل
لَقَدْ أَقومُ مَقَاماً لوْ يَقُـــــومُ به
أَرَى وأَسمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الفِيل(١)
لَظَلَّ يَرْعَدُ إلاَّ أَنْ يَـكُونَ لَهُ
مِنَ الرَّسُولِ بإِذْنِ اللهِ تَنْوِيل(٢)
حتَّى وَضَعْتُ يَمِيـــنى لاَ أُنَازِعُهَا
فى كفِّ ذِى نِقَمَاتٍ قِيلُه القِيلُ(٣)
لِذَاكَ أَهيبُ عِنْـــدى إذْ أُكلِّمُه
وقيلَ : إِنَّك مَنْسُوبٌ وَمسْئُول(٤)
مِنْ خَادِرٍ مِنْ لِيُوثِ الأَرْضِ مَسْكَنُهُ
مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَه غِيـــلُ(٥)

---

(١) يقوم به : الفاعل محذوف دل عليه كلمة الفيل فى آخر البيت .

(٢) يرعد : تأخذه الرعدة . تنويل : العطاء ، والمراد العفو والأمان .

(٣) وضعت يمينى : يشير إلى مصالحته للنبى .

(٤) لذاك : الاشارة للنبى ، منسوب : مسئول عن نسبك .

(٥) من خادر : متعلق بأهيب فى البيت قبله ، خادر : الأسد فى خدره ، أى فى عرينه . عثر : مكان تكثر فيه الأسود . الغيل : الأجمة .

يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ عيشُهُمَا
لَحْمٌ مِنَ القومِ مَعْفورٌ خَرَادِيل[١]

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لا يَحِلُّ لَه
أَنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلا وهو مَجْدُول[٢]

منه تَظَلُّ سِبَاعُ الجوِّ ضَامِرَة ولا تَمَشَّى بوَادِيهِ الأَرَاجِيل[٣]

* * *

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يُسْتَضَاءُ به
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسْلُول[٤]

فى عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا : زُولوا[٥]

---

(١) يلحم : يطعم لحما . معفور: مطروح على التراب . خراديل : المفرد خردله ، أى قطعة صغيرة .

(٢) مجدول : مطروح . يساور : يواثب . القرن : المماثل .

(٣) ضامرة : ساكنة هادئة . الأراجيل : جمع أرجال ، وأرجال ، جمع رجل ، والرجل اسم جمع لراجل ، وهو خلاف الراكب . الجو : الوادى الوسيع .

(٤) مهند : السيف المنسوب إلى الهند .

(٥) قال قائلهم : هو عمر بن الخطاب . زولوا : أى إنتقلوا من مكة إلى المدينة ، يعنى بذلك الهجرة .

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكاسٌ ولا كُشُفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيل[1]

شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ
مِنْ نَسْجِ دَاودَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيل[2]

لاَ يفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِماحُهُمُ
قَوْماً وَلَيْسُوا مَجَازِيعاً إِذَا نِيلُوا[3]

يَمْشُونَ مَشْىَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُم
ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيل[4]

لا يقعُ الطَّعْنُ إِلاَّ فِى نُحُورِهِمُ
وَمَا لَهُمُ عَنْ حِيَاضِ المَوْتِ تَهْلِيل[5]

---

(١) أنكاس : النكس ، الضعيف . كشف : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس له ، ميل : جمع أميل ، وهو الذى لا يحسن الفروسية ، ولا يثبت على السرج . معازيل ، المعزال : الأعزل من السلاح .

(٢) شم : جمع أشم أى عالى العرانين ، والعرنين : طرف الأنف ، وهذا كناية عن الأنفة وكبر النفس . السرابيل : جمع سربال ، وهو القميص .

(٣) مجازيع : مبالغةمن الجزع ، وهو الخوف .

(٤) الزهر : الأزهر ؛ وهو النير المشرق . عمرد : جبن . التنابيل : التنبال هو القصير ، وهو يعرض فى هذا البيت بالأنصار لأنهم كانوا حريصين على قتله .

(٥) تهليل ، هلل ، أى تأخر وجبن .

موضوعات للبحث

١ — إن كعبا قد أفرغ فى تلك القصيدة كل ما فى عقله وقلبه من أفكار وانفعالات ، حتى لتشعر بأن لكل حرف من حروفها يداً ضارعة ، وعينا خاشعة ، تنطق بأحاسس كعب ومشاعره ـ ناقش .

قال بعض النقاد . « إن تلك القصيدة ليس بها شىء من الشاعرية ، لأن كل ما فيها تقليدى مبتذل ، كما أن الشاعر لم يخص النبى بالمدح إلا فى ثمانية أبيات ، على جرأة فى ذكر الخمر والأسد ، وضعف فى الأساليب والصور » ـ ناقش .

٣ — إن النابغة كان يعتذر إلى ملك جاهلى غشوم ، بينما كعب يعتذر إلى نبى أرسله الله رحمة للعالمين ـ وازن بين اعتذار كعب والنابغة من حيث العاطفة والأفكار .

المراجع

١ ـ من الأدب العربى(كتاب الشعر): عبد الحميد الدواخلى ، مصر ، ١٩٥٤
٢ ـ شرح ديوان كعب بن زهير : تحقيق دار الكتب ، مصر ، ١٩٥٠
٣ ـ بردة كعب بنى زهير : تحقيق فرينز كرنبكوف ، ليبزج ١٩١١
٤ ـ تاريخ الأدب العربى : محمــود مصطفى ، مصر ، ١٩٣٦
٥ ـ ديوان كعب بن زهير : تحقيق ، رينيه باسيه ، الجزائر ، ١٩١٠
٦ ـ حديث الأربعاء : طه حسين ، مصر ، ١٩٣٧
٧ ـ كعب بن زهير : فؤاد إفرام البستانى ، بيروت ، ١٩٣٣

حسان بن ثابت

(؟ - ٦٧٤ م)

حياته :

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى من قبيلة بنى النجار من أهل يثرب ، شاعر الرسول ، ومن أعظم الشعراء المخضرمين ، ولد بالمدينة ، ونشأ فى الجاهلية ، وكان من شعرائها المجيدين ، وقد اتصل بملوك المناذرة والغساسنة فنال عطاءهم . ولكنه بالغ فى مدح آل جفنة من ملوك الغساسنة ، وأكثر من انتجاعهم ، فنال رفدهم ، وملأوا يديه بالنعم ، ولم يتنكروا له بعد إسلامه مع تنصّرهم ، بل ظلت منحهم تتوالى عليه من القسطنطينية ، وأكثر ما كان مدحه لجبلة بن الأيهم آخر ملوكهم . حتى سار قوله فيه ، كما اشتهر عطاء جبلة له ، فقد أقسم جبلة لا يطيف به ذكر حسان إلا أرسل إليه ، ولا يمرّ به غاد أورائح إلى المدينة إلا بعث معه ما يطرف به حسان .

ولما هاجر الرسول إلى المدينة أسلم حسان مع أهلها ، ودافع عن النبى بلسانه ، كما دافع قومه بسيوفهم ، وقد كان وقع هجائه على قريش أشدّ من وقع السيوف ، ولم يبدأ بهجائهم حتى أتى أبا بكر وهو أعلم العرب بأنساب قريش ، فجعل يدله على عوراتهم ، فيقول له : كفّ عن فلان ، واذكر فلانا وكفّ عن فلانة ، واذكر فلانة ، وذلك لموضع رسول الله من قرابة قريش فجعل يقع فى أعراضهم ما شاء غير متعرّض لآل النبى ، واستلّه منهم استلال الشعر من العجين كما يقول ، ولقد أبلى حسان فى الدفاع عن النبى ، وتعظيم أمر الإسلام والمسلمين . فلم يترك مقاماً إلاّ قال فيه ، فمن هجاء لقريش وتناول لأشرافها ، إلى وصف لفوز المسلمين فى الغزوات ، إلى مدح للنبى وصحابته ، ولم تفتر همته فى القول بعد موت

النبي فقد استمر يرثيه ، ويمدح خلفاءه ويؤبنهم . ولـكنه كان شديد الخور والخوف ، يتخلف فى المنازل مع النساء والأطفال فى أثناء المعارك ، حدثت صفية بنت عبد المطلب قالت : « كنت يوم الخندق[١] فى فارع[٢] حصن حسان ابن ثابت ، وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان ، فمر بنا رجل من اليهود ، فجعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قُرَيظة ، وقطعت ما بينها و بين رسول الله ، وليس بيننا و بينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا أتانا آت . فقلت : يا حسان ، إن هذا اليهودى ، كما ترى ، يطوف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله » فقال حسان : « يغفرُ الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » فلما قال ذلك ولم أرَ منه شيئاً ، اعتجرتُ ثم أخذت عموداً ونزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : « ياحسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل » فقال : « مالى إلى سلبه حاجة يا ابنة عبد المطّلب » .

آثاره :

كان حسان فى الجاهلية شاعر أهل المدن ، وفى البعثة شاعر النبوة ، وفى الإسلام شاعر اليمانية ، وقد جمعت أشعاره فى ديوان ، وطبع فى الهند وتونس ، ثم طبعته لجنة « تذكار جب » فى انجلترا سنة ١٩١٠ ، وضبطته على النسخ الخطية الموجودة فى مكاتب لندن و برلين وباريس وروسيا ، و يغلب فى شعره الفخر والمدح والهجاء .

(١) هو غزوة من غزوات الرسول وقعت فى السنة الخامسة للهجرة .

(٢) مرتفع .

ولحسان شعر جميل في الجاهلية لا يُبخس حقه ، وقد يكون أجود من شعره في الإسلام ، ولكن شهرة حسان قامت على أنه شاعر الرسول . وحسان في شعره الجاهلي مثله في شعره الإسلامي ، لايتسع له الخيال ، فأكثر قصائده قصيدة ، على أنه في قصائده الجاهلية أوسع خيالاً منه في قصائده الإسلامية ، ولعل عنايته بذكر الحوادث التاريخية أثرت في مخيلته .

مدح الغساسنة :

عندما نوازن بين مدح حسان في الجاهلية ، و بين مدحه في الإسلام نجد فرقاً ظاهراً في الأسلوب واللفظ ، ففي الجاهلية : عبارة جزلة ، ولفظ ضخم ، وتنخل للكلام . وفي الإسلام : عبارة سهلة ، ولفظ ليّن ، فيه حوشي ؛ لذلك قال بعض نقدة حسان : إن شعره في الإسلام دونه في الجاهلية ، لما رأى من هذا الفرق .

وهذا القول حق ، وغدير حسان فيره أن معاني الإسلام جديدة عليه ، فهي ليست تلك المعاني والأفكار التي ألفها في الجاهلية وتشبّع بها ، وكان ينسج منها القصائد الطوال لإرضاء الغساسنة والمناذرة ، وهو في تلك القصيدة التي اخترناها في (مدح الغساسنة) يسير على منهاج القدماء في البدء بالحديث عن الأطلال والدمن ، ثم يدخل إلى موضوع القصيدة وهو المدح ، فالغساسنة لهم منزلة رفيعة عالية ، ولهم عز تالد فوق كل عز ، وقد خالطهم فترة كبيرة من حياته عرف فيها طباعهم ، فهم شجعان كرماء وهم منعمون ، وهم بيض الأحساب .

ثم ينتقل إلى وصف الخمر فيصفها وصفاً سريعاً ، ذاكراً لونها وطعمها وساقيها في بضعة أبيات ، ثم ينتقل إلى الفخر بقومه : فهم سادة ، وهم خطباء مصاقع يفصلون في الأمور ، وهم يحكمون في القضايا المعضلة .

المنتخبات

مدح عمرو بن الحارث

أَسَأَلتَ رَسْمَ الدَّار أمْ لم تسأل
بين الجوابِي فالبُضَيْعِ فَحَومل[1]
فالمَرْج مرج الصُّفَّرين فجاسمٍ فديار سَلْمى دُرَّساً لم تُحْلَلَ[2]
دِمَنٌ تعاقَبُها الرِّياحُ دَوَارسٌ
والمُدْجِناتُ من السِّماك الأعزل[3]
دارٌ لقومٍ قد أراهم مرَّةً فوق الأعزَّة عزُّهم لم يُنْقَل[4]
لله دَرُّ عصابةٍ نادمتُهم يوماً بِجِلَّقَ فى الزمان الأوَّل[5]
يمشون فى الحُلل المُضاعف نَسْجها
مَشْىَ الجمال إلى الجمال البُزَّل[6]

---

(١) الرسم : ما كان لاصقا بالأرض من آثار الدار .

(٢) المرج وجاسم : اسماء امكنة . الدارس : الذى انمحى وذهب .

(٣) الدمن : ما اسود من آثار الديار . المدجنات : الغيوم الممطرة ، السماك : فى السماء سماكان , أحدهما اعزل ، والثانى رامح ، والأعزل لاشعاع له ، والرامح له شعاع مستطيل كالرمح ، ومن للسببية ؛ اى ممطرات بسبب السماك ، لأن سقوطه أو طلوعه كان عندهم سبب المطر .

(٤) يعنى الغساسنة .

(٥) جلق : دمشق .

(٦) البزل : جمع بازل ، وهو الجمل بلغ تسع سنين .

الضّاربون الكبشَ يبرُقُ بيضُه ضَرْباً يَطيحُ له بنانُ المَفْصِلِ[١]

والخالِطُونَ فقيرَهُمْ بغنيِّهِمْ

والمُنْعِمون على الضّعيفِ المُرْمِلِ[٢]

أَوْلَادُ جفنةَ حوْلَ قَبْرِ أبيهِمُ

قبرِ ابْنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ[٣]

يُغْشَوْنَ حتّى ما تَهِرُّ كلابُهُمْ

لا يسألون عن السّوادِ المقبلِ[٤]

يسقُون مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ

بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرّحيقِ السّلسلِ[٥]

بيضُ الوجوه كريمةٌ أَحْسَابُهُمْ

شُمُّ الأُنُوفِ من الطّرازِ الأوّلِ[٦]

---

(١) الكبش : سيد القوم . البيض : الخوذة . يطيح . ينفصل بعيداً .

(٢) المرمل : الفقير الذى نفد ماله .

(٣) حول قبر أبيهم : كناية عن الخصب والاستقرار .

(٤) هرير الكلب : صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد ، والمراد هنا مطلق الصوت .

(٥) البريض : فرع من بردى . يصفق : يخلط . الرحيق : الخمر البيضاء .

(٦) الطراز كلمة فارسية الأصل ، معناها التقدير المستوى . والمعنى هنا من الشكول الجيدة . وشم الأنوف : كناية عن السيادة .

فَلَبِثتُ أزْماناً طِوالاً فيهمُ ثمَّ ادّكرتُ كأنني لم أفعل (١)
أَوَ ما تَرَى رأسِي تغيَّر لونُه شَمطاً فأصبحَ كالثّغام المُحْوِل (٢)
ولقــــــد يَرَانى مُوعِدىَّ كأنّنى
فى قصر دُومة أو سَوَاء الهَيْـكل (٣)
ولقد شربتُ الخمرَ فى حانوتها صهْباء صَافيةً كطعم الفُلْفُل (٤)
يَسْعى علىَّ بكأسها مُتَنَطِّفٌ فَيُعلُّنى منها ، ولوْ لمْ أنْهَل (٥)
إنَّ التي نَاوَلتَنى فَرَدَدْتُهـا قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتها لم تُقْتَل (٦)
كلتاهما حَلَبُ العَصِير فعَاطِنى بزجاجةٍ أرْخَاهما لِلْمَفْصِل (٧)

---

(١) ادكرت : اتعظت .

(٢) وفى رواية أما ترى ، ويرد على الأولى حذف النون من ترى بلاموجب ويرد على الثانية عدم توكيد الفعل مع قرب توكيده هنا من الوجوب .

(٣) دومة : بلدة فى جوف السرحان شمالى غرب نجد

(٤) الحانوت : دكان الخمار . صهباء : متخذة من عنب أبيض .
كطعم الفلفل :لا ذعة .

(٥) متنطف : لابس النطفة (كهمزة) وهى القرط . النهل الشرب الأول ، أو العطش . والمراد هنا الثانى ، أى يسقينى منها ولو لم أكن عطشان . عل (كضرب ونصر) لازم ومتعد ، بمعنى شرب مرة بعد أخرى .

(٦) قتلت : فرجت بالماء فذهبت سورتها .

(٧) كلتاهما : كلا الماء والخمر ، والمعنى أن الماء والخمر ناتجان عن عصر شىء ، فالماء عن عصر السحاب ، والخمر عن عصر العنب .

ولقد تُقَلِّدُنَا العشيرةُ أَمْرَها ونَسُودُ يوم النائباتِ ونَعْتَلِي (١)

ويسودُ سيِّدُنا جَحَاجِحَ سادةً ويُصِيبُ قائلُنا سَوَاء المَفْصِلِ (٢)

ونُحَاوِلُ الأمْرَ المهِمَّ خطابةً

فيهمْ ونفْصِلُ كلَّ أمْرٍ مُعْضِلِ

ونَزُورُ أبْوابَ الملوكِ رِكابُنَا

ومتى نحكَّمْ فى البريةِ نَعْدِلِ

---

(١) تقلدنا : تكل إلينا الأمور .

(٢) جحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد سواء الشيء : وسطه .

موضوعات للبحث

١ — كان حسان مضطرا إلى أن يقول الشعر مرتجلا بكثرة لتعدد الدواعى المتجددة دفاعاً عن الإسلام والنبى والمسلمين ؛ لهذا كان شعره فى الإسلام أضعف من شعره فى الجاهلية — ناقش .

٢ — شعر حسان مرآة تتجلى فيها أحداث حياته ، وأحداث البيئة التى عاش فيها — ناقش ذلك .

٣ — اتصل حسان بالبلاط الغسانى ، وكذلك النابغة ، كما اتصل الأخطل بالبلاط الأموى ، وضح اتجاه كل ، ومدى ما أفاده من احتكاكه بالملوك .

المراجع

١ ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام : محمد عبد المنعم خفاجى مصر ١٩٤٩

٢ ـ حسان بن ثابت : فؤاد افرام البستانى ، بيروت ١٩٣٤

٣ ـ تاريخ الأدب العربى : محمود مصطفى ، مصر ، ١٩٣٦

٤ ـ شاعر النبى : عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٥

٥ ـ من الأدب العربى (كتاب الشعر) : عبد الحميد الدواخلى ، مصر ١٩٥٤

٦ ـ فن المديح : أحمد أبو حاقة ، بيروت ، ١٩٦٢

الفصل الثانى

شعراء الغزل

الغـزل :

الغزل[1] كلمة يطلقونها على الشعر الذى يصف المرأة ، أو الذى يتحدّث إليها ، أو يتخيل قولاً فيها ، أو قصة تتعلق بها ، أو يصف ماتثيره فى نفس الشاعر من حرقة ونعيم ، ومن مرادفات الغزل : النسيب ، والتشبيب[2] .

وهذا الفن من فنون الشعر الغنائى قديم عند الشعوب ، وهو رفيق الأدب العربى منذ فجره ، فقد انصرف إليه العرب الأقدمون يودعونه كلمة القلب ، ولـكنه بقى معهم نظرة إلى قدّ ووجه ، وحديثاً عن لهوٍ ومغامرة ، يُصدِّرون به معلقاتهم ، حتى صار ذلك تقليداً عند الشعراء فى العصور اللاحقة ، ثم وجدنا أبا نواس وأبا العتاهية ومسلم بن الوليد ، و بشار بن برد يثورون على هذا التقليد .

---

(١) ومن الغزل ما يكون موضوعه الحب والعشق الإلهى ، ويعرف هذا النوع بالشعر الصوفى ، ومنه ما يكون موضوعه الغلمان والصبيان ويعرف هذا النوع بالغزل الشاذ .

(٢) وقيل إن هناك فرقا : فالغزل هو الاشتهاء بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك فى الـكلام . والتشبيب ، هو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الـكلام . ومايضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم والأطلال . والنسيب . هو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى .

والغزل يضرب في القدم ، حتى أننا لانعرف أول من قال غزلاً ، كما لا نستطيع أن ندّعى أن هذه المطالع التى يستفتح بها الشعراء الجاهليون قصائدهم هى أول الغزل ، وذلك لجودة هذا الشعر ، ودقة نسجه مبنى ومعنى ، مما يدل على أن الشعر قطع مراحل من قبل حتى استوى على سوقه ووصل إلى تلك الدرجة من القوة والإحكام ، فعنترة مثلا يحدثنا عن متردّم وشعرائها ، ونحن لانعرف شيئا ألبتة عن هذه الأماكن « هل غادر الشعراء من متردم » ، ونلاحظ أن شعراء الجاهلية لم يفردوا للغزل بابا مستقلاً ، فهم لا يتغزلون إلا بأبيات قليلة يجعلونها مطالع لقصائدهم ، أو يبثونها فى طيّاتها ، يتحدثون فيها عن غرامهم سواء أكان عن عفة أو عن تعهر ، لأن معيشة البادية من سفور المرأة واشتراكها فى أمور الحياة ، وخلوّ الرجل من الأعمال يجعل هذا النسيب أمراً لازماً للحياة البدوية ، ولقد شاع فى ذلك العصر ، حتى صار لازمة لقول الشعر ، يبدأ به الشاعر قصيدته ، ولو لم يكن محبّاً فيذكر اسماً مستعاراً ، ويتخيل وقائع يذكرها على عادة العشاق ، ولقد ذكروا أن زهيراً كان عفيفاً يتحرج من النسيب ، ولكنه اضطُرّ أن ينسِبَ ، فذكر اسم امرأته « أم أوفى » فى معلقته .

وغزل الجاهليين كان سطحياً إجمالاً ، لا يصور التجربة الحية ، ولا يسجل المعاناة التى يمرُّ بها الشاعر من حالات الوجد المضنى ، ولحظات اللقاء التى تعقد الألسنة ، وتطلق العيون والقلوب للتحدث عن مكنوناتها ، بل ينصرف إلى الجسد، مع تعريج طارىء سريع على الحب العفيف ، ويتضح منذ ذلك العهد أقسام الغزل. فالغزل الإباحى ويمثله امرؤ القيس ، ومعلقته حافلة بهذا السفور المكشوف ، والغزل العفيف ويمثله عنترة فى معلقته التى ما هى إلا عبارة عن فخره الممزوج بغزله الشريف ، والغزل التقليدى ، غزل الاطلال والدمن والحنين إليها ، وهو فى كلّ قصائد الجاهليين .

فلما كان الإسلام ضعف الشعر الغزلى نتيجة لانصراف المسلمين إلى القرآن وإلى النثر يخطبون به ويعظون، ولعدم تشجيع الدين على هذا اللون ، لأنه دعا إلى صيانة المرأة ونهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكنا مع هذا نجد بعض مطالع القصائد من هذا الغزل التقليدى ، قد جرت على ألسنة بعض الشعراء المخضرمين مثل كعب بن زهير ، فى قصيدته « بانت سعاد » .

فلما كان عصر بنى أمية تبلور فيه الغزل فى مدرستين : المدرسة البدوية ، والمدرسة الحضرية .

المدرسة البدوية :

وطابعها الوفاء والألم والعفّة ، ونشأت فى بوادى العرب ، والغزل فى البادية : وشوشة هامسة يتناقلها السّمار ، وأنغام يشدو بها الحداة ، إنه متنفس القلب فى بيئة لم تعرف ملاهى الحضر ، إليه يفىء العاشقون ، فيبثونه لواعج الأفئدة ، ونُسب هذا اللون إلى بنى عُذرة ، وهم قوم « كانوا إذا عشقو عفّوا ، فماتوا » وأشهر ممثلى هذه المدرسة قيس لُبنى ، وقيس ليلى ، وكثير عزّة ، وإمامهم جميل بثينة .

المدرسة الحضرية :

وطابعها الإخلاص للجمال أنّى كان ، والمجون والخلاعة فى أسلوب إباحى يميل للقصّ ، ونشأت فى حواضر الحجاز ومدنه ، حيث تكثر حياة الترّف والراحة واللهو ، وحيث الأشراف الذين أغدق عليهم الأمويون الأموال ليلهوهم عن شئون السياسة ، فنشأ أولادهم فى ترف وفراغ ففسدت أحوالهم ، واتخذوا لملهاتهم الغزل الصريح ، ويمثل هذه المدرسة : العرجى ، والأحوص ، وإمامهم عمر ابن أبى ربيعة .

جميل بن معمر

(٢٣ هـ – ٨٢ هـ)

حياته :

هو جميل بن عبد الله بن معمر ، عاش فى القرن الأول للهجرة ، وكان قومه على جانب من الغنى والجاه ، وقد اشتهر بحبه (لبثينة) ابنة عمه ، حتى أصبح يلقب بـ (جميل بثينة) وكانا يقيمان فى (وادى القرى) وهو واد بالحجاز شمالى المدينة .

وقيل : إن جميلا كان يرعى إبلاً فى (وادى بغيض) وأقبلت بثينة فنفرت إبله ، فشتمها وشتمته ، فأحبها بعد ما كان يحب أختها الكبرى (أم الجسير) وفى ذلك يقول :

وأول ما قاد المـــودّة بيننا بوادى بغيض يابثين ، سباب
فقلنا لها قولاً ، فجــاءت بمثله لـكل كلام ، يابثين ، جواب

ثم صارت بثينة شابة ، ونضجت أنوثتها ، فازداد بها جميل تعلقا ، ثم أخذ يتغزل بها حتى اشتهر أمره ، فخطبها إلى أهلها ، فردوه مخافة أن يعيرهم الناس ، إذ كان بين العرب تقليد شائع أن كل من يشبب بفتاة لا يتزوجها لقوله فيها ، وليثبتوا أن ابنتهم مازالت طاهرة شريفة ، ومن ثم تزوجت بثينة رجلاً آخر بعد أن أكرهها أهلها على ذلك . ولـكن الفتاة ازدادت شغفا بجميل فأخذت هى وهو يجتمعان فى غفلة من الرقباء ، وخلسة من وراء أهلها ، حتى عرفوا بخبرهما ، فترصدوه ليقتلوه ، فحذرته بثينة ، فاختفى حقبة من الوقت ، ثم هجا قومها

فاستعدوا عليه مروان بن الحكم ، وهو على المدينة من قبل معاوية ، فأهدر دمه ، وقيل نذر ليقطعنّ لسانه ، فهرب إلى اليمن ، وفى ذلك يقول :

أتانىَ عن مروان بالغيب أنّه مُقيدٌ دَمى ، أو قاطعٌ من لسانيا[1]

فنى العِيس مَنجاةٌ ، وفى الأرض مذهبٌ
إذا نحنُ رَفَّعنا لهُنّ المَثانيا[2]

ثم ارتحل أهل بثينة إلى الشام فرحل إليهم فترصدوه ، وأخيراً لجأ إلى مصر أيام عاملها عبد العزيز بن مروان ، فأكرم وفادته ، بعد أن حيل بينه و بينها ، وفى مصر مرض ومات بها سنة ٨٢ هـ - ٧٠١ م .

قيل لما حضرت جميلا الوفاة دعا برجل ، ثم قال له : « هل لك أن أعطيك كل ما أُخلِّفه ، على أن تفعل شيئاً أعهد به إليك ؟ » قال : نعم ! قال : « إذا متُّ فخذ حلتى هذه واعزلها جانبا ، وكل شىء سواها لك ، وارحل إلى رهط بثينة على ناقتى هذه ، والبس حلتى هذه إذا وصلت ، واشققها ، ثم اعل على شرف ، وصِح بهذه الأبيات :

صدع النعىُّ ، وما كَنى ، بجميل وثَوى بمصرَ ثَواء غير قفُول[3]

ولقد أجرُّ الذّيل ، فى وادى القرى
نَشْوان بين مزارع ونخيل

(١) مقيد : أى مهدر دمى .
(٢) العيس : الإبل المثانى : جمع مثناة ، وهو الحبل من صوف أوشعر .
(٣) صدع : تكلم بالحق . ما كنى : ما ستر . غير قفول : غير راجع .

قومى بثينة ، فاندُبى بعــــويل   وابكى خليلكِ دُونَ كلِّ خليلِ

فلما أتى الرجل وأنشد الأبيات ، برزت بثينة وقالت : « يا هذا ! إن كنت صادقاً فقد قتلتنى ، وإن كنت كاذباً فقد فضحتنى » فقال : «ما أنا إلا صادق» وأراها الحلة . فصاحت وصكّت وجهها ، فاجتمع نساء الحىّ يبكين معها حتى غشى عليها ، فلما أفاقت قامت فقالت :

وإنّ سُلُوِّى عن جميل لساعةٌ   من الدّهر ماحانت ،ولاحان حينها

سواء علينا ياجميلُ بنُ معمرٍ   إذا مُتَّ ، بأساء الحياة ولينُها

آثاره :

لجميل شعر فى الهجاء والفخر والمدح ، ولـكنه قليل ، وأكثر شعره فى الغزل ، وقيل كان له ديوان كبير فضاع ، وقد جمع ما بقى من شعره حديثا وطبع فى ديوان صغير .

وفى غزل جميل تتجمع خصائص المدرسة العذرية البدوية ، فتجعل منه إمام الغزليين العذريين ، وأشهر هذه الخصائص : الصدق ، العفة ، الحلو إلى النفس ، ووصف تباريحها ، فقد أتى غزله صورة لنفسه فيه الأنفة والجد ، واللوعة والألم ، والغلو : وهو غلو الفطرة ، غلو قلب متيم لا حرج عليه فيما يقول :

وأسلوبه ، يقوم على البلاغة والسهولة والموسيقى الخفيفة ، البلاغة فى أداء المعنى أداء يتفق مع انسياب عواطفه ، والسهولة فى اللفظ والتأليف ، فهو لايسعى إلى الزخرف ، ولا يميل إلى التعقيد ، بل يعبّر بالسهل من القول عن عواطفه الواضحة ، والموسيقى ظاهرة فى أشعاره ، فهى ألحان تقوم على قواعد من السجع والرنين .

أيام الصفاء :

فى هذه القصيدة نرى صورة صادقة لحب جميل الطاهر العفيف ، ونلمس تعبيرا لعاطفته العميقة ، فهو يناجى حبيبته عن شعور قوى قد خالط ماء نفسه ، فنجده يتمنى عودة أيام الصفاء وسابق ما مضى من زمان القرب ، ثم يذكر أن دموعه تنم عن حبه وإن أخفاه ، وأن هذه الدموع ستزداد كلما بعدت الديار ، ونأت المحبوبة ، ثم يبث المحبوبة شوقه الذى سيقتله ، ويذهب بعقله ، فتتقبل منه هذه العاطفة الثائرة ، وتوافق على استمرار الحب الذى يصهر قلبه ، ومن ثمّ لا يُجاب له طلب ، لأنها مستوثقة من حبه مطمئنة إلى أنه سيبقى على عهده ، وسيظل حبه لها فى نمو ولا يبلى ولا يرثّ .

ثم يعود ليؤكد هذا الحب بأنه حب قوى أصيل ثابت على الزمن نشأ منذ الطفولة فهو تليد وطارف ، وأن وصالها ليس بالأمر الهين ، بل دونه آلاف العقبات وأنه قد أنفق مامر من عمره منتظراً ما تجود به ، ثم يرمى الوشاة بسهام من شواظ غيظه ، ويتمنى أن تطوف به السعادة وأن تسعده الظروف بلقائها فى هذا الوادى القديم الذى يحفظ لهما الذكرى ثم يرد على من يطلبون منه أن يتسلى عن حبه بالذهاب إلى الغزو والقتال ، فيقول : ما هو إلا ميدان جهاد قديم عريق ، وشهداؤه هم شهداء الغرام لا القتال . وأنّى له ذلك وغرامه يزداد اشتعالا واستعارا كلما بعد عنها .

المنتخبات

أولاً — أيام الصفاء

أَلَا ليتَ أيام الصّفاءِ جَدِيدُ   ودَهراً تولَّى يا بُثَيْنَ يعودُ
فنَغْنَى ، كما كنـــــا نـكُونُ وأنتُمُ
صَديقٌ ، وإذْ مَا تبذُلينَ زَهِيـد[1]
وما أَنْسَ ـِم الأشياءِ لا أنْسَ قولَهـا
وقد قرَّبت نِضْوى ، أَمِصْرَ تُريد ؟[2]
وَلَا قولَها : لَوْلا العيون التى ترى
أتيتك ، فاعذِرْنى فَدتْكَ جُدود[3]
خليلىَّ ما أُخْفِى مِنَ الوَجْدِ ظَاهِرٌ
ودَمْعِى بِمـا أُخْفِى الغَـداةَ شَهِيد[4]
أَلَا قَدْ أَرَى وَاللهِ أَنْ رُبَّ عَبْرَةٍ
إذَا الدَّارُ شَطَّتْ بَيْننا سَـــــتَزِيد[5]

---

(١) نغنى : نقيم . نـكون : نوجد . ما تبذلين : ما تنيلين من الوصل .

(٢) م الأشياء : من الأشياء . النضو : البعير المهزول الضعيف .

(٣) الجدود : جمع جد بالفتح ، وهو أبو الأب .

(٤) الوجد : الحب الشديد . الغداة ، الوقت ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

(٥) شطت : بعدت . العبرة : الدمعة ، أو الحزن من غير بكاء .

إذا قُلتُ : مَا بِى يا بُثَيْنَةُ قاتِلى
من الحُبِّ ! قالتْ : ثابِتٌ وَيزِيد[١]
وإنْ قُلْتُ : رُدِّى بَعْضَ عقْلى أعشْ به
مع الناس ، قالت : ذاكَ منك بعيد[٢]
فلا أَنا مَرْدُودٌ بمـا جئتُ طَالِباً ولا حُبُّهـا فيما يَبِيد يَبِيد[٣]
جَزَتْكِ الجَوازِى ، يا بُثَيْن مَلاَمَةً
إذَا مَا خَليـلٌ بانَ ، وَهُوَ حَميـد[٤]
وقلتُ لها : بَيْنى وبيْنَك فاعْلَمى مِنَ الله ميثاقٌ له وعُهود
وقد كان حبِّيكُم طَرِيفاً وتالِداً وما الحبُّ إلاَّ طَارِفٌ وتليد[٥]
وإنَّ عَرُوضَ الوَصْلِ بَيْنى وبينها وإنْ سَهَّلَتهُ بالمُنَى لَصَعُود[٦]
فأفْنَيْتُ عَيْشى بانتظارى نَوَالَهـا
وأَبْليتُ ذَاكَ الدَّهرَ ، وَهُو جـديد[٧]

---

(١) أى أنه باق وسيزيد .

(٢) أى أنك سلبت عقلى بحبك فردى بعضه لى .

(٣) أى فلا أعود بما طلبت ، وهو رد بعض عقلى .

(٤) جزتك الجوازى : يريد بهذا أن يعاتبها . بان : فارق .

(٥) طارف : جديد . تليد : قديم .

(٦) العروض : الطريق فى عرض الجبل . صعود : العقبة والمشقة .

(٧) النوال : العطاء .

فليتَ وُشاةَ النَّاس بَيْنى وبينها يَدُوفُ لَهُم سُمّاً طَماطِمُ سُود[١]
وليتَ لَهم فى كلِّ مُمْسَى وشارقٍ تُضَاعَفُ أَكْبالٌ لَهم وَقُيُود[٢]
ألاَ ليتَ شِعْرِى ! هَلْ أَبيتَنَّ لَيلةً
بِوَادِى القُرَى ؟ إِنِّى إِذَن لَسَعيدُ[٣]
وهلْ أَهْبِطَنْ أرضاً تَظلُّ رياحُها لها بالثَّنايا القَاويات وَئِيد[٤]
وهل أَلْقَيَنْ سُعْدَى مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً
ومارثٌ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاء جَديد[٥]
وهل تَلْتَقِى الأَهْواء من بَعْدِ يأْسَةٍ
وقد تُطلب الحاجَات ، وهى بَعيد
فَمَنْ يُعطَ فى الدُّنيا قَريناً كمِثْلِها
فَذَلك من عيش الحَيَاةِ رشِيد[٦]

---

(١) يدوف : يخلط . طماطم : الطمطم والطمطمى من فى لسانه عجمة ويريد الموالى .

(٢) أكبال : جمع كبل ، وهو القيد .

(٣) ليت شعرى : ليتنى أعرف ، وادى القرى : بالحجاز شمالى المدينة .

(٤) الثنايا : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل أو الجبل نفسه . القاويات الخاليات : وئيد : صوت عال شديد .

(٥) رث : بلى . ما مبتدأ وخبره جديد

(٦) القرين : الزوج . رشيد : موفق .

يَمُوتُ الهَوَى مِنِّى إذا ما لَقيتُها ‏ ‏ ‏ وَيَحْيا إذَا فارَقْتُها ، فَيَعُود
يقُولونَ : جاهِدْ يا جَمِيلُ بِغزْوَةٍ ‏ ‏ ‏ وأىُّ جِهادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيد ؟
لِكلِّ حديثٍ بينهُنَّ بَشَاشةٌ ‏ ‏ ‏ وكلُّ قتيلٍ بينهنَّ شَهِيد [1]
ومن كانَ فى حُبِّى بُثَيْنَةَ يمترى ‏ ‏ ‏ فَبَرْقاءُ ذِى ضالٍ علىَّ شَهِيد [2]

ثانياً — عصيت عواذلى

أبثينَ إنك قد مَلَكْتِ فَأَسْجِحِى
وخُذِى بِحَظِّكِ مِنْ كرِيمٍ وَاصِلِ [3]
فلربَّ عَارِضَةٍ علينا وَصْلَها ‏ ‏ ‏ بالجِدِّ تَخْلِطُه بقولِ الهَازِل
فَأَجَبْتُها فى القولِ بعدَ تستُّرٍ ‏ ‏ ‏ حُبِّى بثينة عن وصالِكِ شاغِلى
لو كانَ فى صَدْرِى كَقَدْرِ قُلامَةٍ
فَضْلاً وَصَلْتُكِ أو أتتكِ رسائلى [4]

---

(١) البشاشة : طلاقة الوجه .

(٢) يمترى : يشك . برقاء ذى ضال : إحدى البرق فى بلاد العرب والبرقاء أرض غليظه ذات حجارة ورمل .

(٣) الاسجاح : حسن العفو .

(٤) القلامة : ما يتطاير من الظفر عند قصه .

ويقلن : إنك قد رضيتَ بباطلٍ
منها ، فهل لكَ في إجتناب الباطل ؟
وَلَبَاطلٌ ممن أحبُّ حديثَه
أشهى إلىّ من البغيضِ الباذِل
لِيُزِلن عنكِ هوايَ ثم يَصِلْنني
وإذا هويت فما هَوَايَ بزائل
صَادتْ فُؤَادى يا بثين حِبالكم
يومَ الحَجُونِ وأخطأتْكِ حبائلى(١)
مَنَّيْتِنى فلَوَيْتِ ما منيتنى
وجعلتِ عاجِلَ ما وَعَدْتِ كآجِلِ(٢)
وَتثاقلتْ لما رأت كَلَفِى بها
أحْبِبْ إلىّ بذاكَ من مُتَثَاقِلِى(٣)
وأطعتِ فىَّ عَوَاذلاً فهجرتنى
وعَصيتُ فيك ، وقد جَهَدْنَ عواذِلى(٤)

---

(١) الحجون : جبل قرب مكة .
(٢) لويت ما منيتنى : أى طويته .
(٣) الكلف : الشغف والولع .
(٤) جهدن : تعبن .

حَاوَلْنَنِي لأبُتَّ حَبْلَ وِصَالِكم
مِنِّي ، ولسْتُ وإن جَهَدْنَ بفاعل[1]

فرددْتُهنَّ وقد سَعَيْنَ بِهَجْركم
لمـا سَعَيْنَ له بأفْوَقِ ناصِل[2]

يَعْضُضْنَ من غيظٍ عليَّ أناملاً
ووددت لو يعضضن صُمَّ جنادل

ويقُلْن : إنّكِ يا بُثين بخيلةٌ
نفسى فداؤكِ من ضنينٍ باخِل

(١) أبت : أقطع .
(٢) الناضل : الهزيل المكدود . والسهم الأفوق : السهم المكسور .

موضوعات للبحث

١ — كيف تعلل نهضة الغزل فى العصر الأموى ؟ وكيف تفرع هذا الفن عندئذ ؟ وما أهم الخصائص التى يتميز بها كل من فروعه ؟.

٢ — قال الدكتور طه حسين :

لعل الشعر الذى تركه شعراء شمالى نجد والحجاز هو خير مايستحق البقاء من الشعر العربى — ناقش.

٣ — النداء ، والدعاء ، والقسم — أساليب معترضة فى بعض الأبيات السابقة ، فَصَل كل منها بين ركنى الجملة ، أو بينها و بين مكمل من مكملاتها — وضح ذلك مبيناً أثر كل أسلوب فى تصوير المعنى.

المراجع

١ — الحب العذرى : موسى سليمان

٢ — جميل بثينة : عباس محمود العقاد

٣ — ديوان جميل بثينة : تحقيق بطرس البستانى

٤ — العشاق الثلاثة : الدكتور زكى مبارك

٥ — الغزل عند العرب : الدكتور حسان أبو رحاب

٦ — الغزل : الدكتور سامى الدهان

٧ — فى الأدب المقارن : الدكتور عبد الرزاق حميدة

٨ — الأدب العربى وتاريخه : محمد هاشم عطية

عمر بن أبى ربيعة

(٢٣ هـ — ٩٣ هـ)

حياته :

هو أبو الخطاب عمر بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، ولد بالمدينة سنة ٢٣ هـ ، ليلة قتل عمر بن الخطاب ، ولعل هذا هو السبب فى كنيته بأبى الخطاب ، وكان إذا جرى ذكره فيما بعد بين أهل التّقى ، قالوا فى حديث ولادته : « أىّ حقّ رفع ، وأىّ باطل وضع » .

ونشأ وترّبى بالمدينة فى أحضان النعيم إذ كان أبوه ثريًّا غنيا فما دفعته حاجة العيش إلى العمل والكد ، فتفرغ لقول الشعر منذ نعومة أظفاره ، وسلك به مسلكاً خاصاً ، إذ قصره على وصف النساء فى تزاورهن ، ومداعبة بعضهن لبعض ، بأسلوب بديع أحبه المغنون والظرفاء ، وشغف به القيان والندماء ، ومقته الزّهاد والصلحاء ، حتى قال ابن جُرَيج : « ما دخل على العواتق فى خُدُورهنّ شيء أضرّ عليهن من شعر ابن أبى ربيعة » ولم يقف شرّه عند ذلك بل كان يتعرض للحواج فيشبب بالعقائل والأميرات ، ويصفهن طائفات محرمات ، فزهدت كرائم الأسر فى أداء هذه الفريضة خشية منه ، وجرت له حوادث مع بعضهن مثل : عائشة بنت طلحة ، وهى قرشية من تيم ، فقد رآها وهى تطوف بالبيت ، وكانت من أجمل نساء عصرها ، فأخذ بجمالها ، وقرأت فى عينيه أنها وقعت من نفسه موقعاً حسنا ، فبعثت إليه بجاريتها ، وقالت لها : اذهبى إلى جميل وقولى له :

اتق الله ولا تقل هُجراً ، فإن هذا المقام لابدّ فيه مما رأيت » فقال للجارية : « أقرئيها السلام ، وقولى لها ابن عمك لايقول إلآخيراً » ولـكنه فتح باب القول فيها فبلغ ذلك فتيان تميم ، فمشى ولد طلحة بن عبد الله فى نفر من قبيلته إلى ابن أبى ربيعة ، وأخبروه بما بلغهم ، فعاهدهم على عدم ذكرها فى شعره أبدا ، ثم أخذ يكنى عن اسمها فى قصائد ، ويحتال فى تبليغها ما يريد على أعواد المغنين .

ومن هذا الخبر وغيره يمـكن أن تستنتج طبيعة العصر ، وأن تقف على أخلاق المرأة العربية فيه ، من ميلها إلى القريض ، واعجابها أن يقال فيها الغزل البرىء ، فقد كانت لها مشاركة عظيمة فى الأدب ، ولها فى الشعر ذوق سليم ومشاركة محمودة ، كما كانت تشارك فى مسامرات الأدب ونواديه تناقش وتنشد ، ومنهن من جعلت من دارها قبلة للقصاد وكعبة للرواد يجتمعون فيه ساعات فى مطارحات أدبية ، ومساجلات شعرية ، واستماع إلى الأغانى ، كسكينة بنت الحسين بن على ابن أبى طالب .

وقد ضاق به عمر بن عبد العزيز فنفاه إلى « دَهْلك » إحدى جزر البحر الأحمر تخلصاً من شرّه ، وقد كانت منفى دولة بنى أمية حينما يغضبون على أحد ولايريدون قتله ، وقد تاب وأناب ، وزهد وتنسك ، فعفا عنه الخليفة ، وعاد به إلى المدينة .

وقد اختلف فى مدة توبته ، فقيل : « فتك عمر أربعين ، ونسك أربعين » يقصدون أنه عاش فى ضلاله أربعين عاما ، وتاب ورجع إلى الله أربعين عاما ، ومع أنه ليس من الثابت إدراك عمر لهذه السنّ المرتفعة ، ومع أن الصناعة واضحة فى هذه العبارة التى وازنت بين حياتى عمر فإنه من الثابت أنه قد تاب ، وأقصر

عن اللهو والعبث مع غروب حياته ، ومن المعقول جداً أن يكون عمر قد تاب بوحى من ضميره ، ولاسيا وقد أحسّ الشيخوخة تسرى فى جسمه ، فهو لم يدفعه إلى ذلك إغراء أخيه ببدر المال ، ولازجر الخليفة وعقابه ، ولـكنها السنّ ، وطول الأجل ، والاحساس بالوقوف قريبا بين يدى عادل حكيم ، فجدير بعمر ، وقد رأى شبابه يذبل ، وصباه يغرب ، وقوته تتصوّح ، والغوانى تنأى عنه بجانبهن ، جدير به بعد كل هذا أن يطرق باب التوبة ، وكذلك غير مستغرب من أمره أن تهيج له الذكرى بعض ما كان فيه ، فيعود إلى شىء من غزله ، فقد ذكروا أن عمر عندما أعلن التوبة ، نَذَرَ لئن قال بيتاً من الشعر ليعتقن به رقبة ، ثم انصرف إلى بيته مهموماً بسبب ماقيد به نفسه ، وأدركت جاريته ما يجول بخاطره من أسف على التوبة ، ومنازعة إلى العودة إلى ما كان عليه ، فقالت له : « إنك لأمراء وإنك لتريد أن تقول شعرا » فاندفع يقول :

تقول وَلِيدَتى لما رأتنى : طَرِبْتَ ، وكنتَ قد أقصرتَ حينا
أراك اليوم قد أحدثتَ شوقاً وهاجَ لك الهوى دَاءً دَفِينا

وقد بلغ عدد الأبيات تسعة ، فما كان منه إلا أن برّ بنذره ، واستدعى تسعة من عبيده وأعتقهم ، وقد تضاربت الروايات فى موت عمر ، فمنها أنه خرج مجاهداً فى سبيل الله فاحترقت سفينة ومات فيها شهيداً ، ومنها أن امرأة دَعت عليه ، لأنه ذكرها بفحش فى شعره ، فهبت عليه ريح صرصر ، وجرحه غصن شجرة كان قد استتر به ، فمات ، وقيل مات باليمن . وقد جاوز السبعين من عمره .

آثاره :

له ديوان شعر كله فى الغزل والنسيب ، وله جملة أخبار متفرقة فى كتب الأدب كالأغانى ، وخزانة الأدب للبغدادى .

وليس من شك فى أن عمر قد ابتدع فى الشعر فنا جديداً بكل ماتحتمل هذه الـكلمة من معنى ، فقد جعل الغزل غرضا يقصد لنفسه لا لشىء آخر ، كما جعله الشعراء الغزليون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرقا مختلفة ، ولـكنها كلها طريفة ، وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنها كانت قصصيّة ، وقد اختار عمر القصص والحوار ينقل بهما ما كان من أخباره ، وليس عمر أول من طرق باب القصص بالغزل ، فقد سبقه إليه ماجن الجاهلية امرؤ القيس ، وكلاهما يتجشم الأخطار ، ويفاجىء المحبوبة ، وقد أتى غزل ابن أبى ربيعة محدود الخيال ، لأن الشاعر نقل وقائع حياته ، كما هى ، ومن خصائص أسلوبه : السهولة فلا تعقيد ولا إبهام ، بل تسلسل مما خفّ وطاب جرساً ، وقامت الموسيقى تـكمل عمل عمر الفنى ، فإذا بقصائده قطع يرن فيها الإيقاع ، ويرقص اللحن ، وطبيعى أن تنساب الأنغام فى شعر عمر . فقد كثر اختلافه إلى مجالس الطرب واللهو والمغنين :

رائيتـــه :

لنأخذ من ديوانه الضخم تلك القصيدة المشهورة التى يتخذها الأدباء عنواناً لشعره ، وإن كان فى شعره الـكثير ممـا قد يكون أجمل منها ، وألذّ موقعاً فى النفس ، وفى هذه القصيدة يتمثل روح عمر ، كما أنها تمثّل أحسن تمثيل لغة قريش فى هذا العصر ، ولغة النساء من قريش بنوع خاص ، وهذه القصيدة عبارة عن قصة قصيرة ، ولـكنها ممتعة مؤثرة ، فقد بدأها بذكر صاحبته « نُعْم » ، وسؤال نفسه أهو منصرف عنها فى يوم من الأيام ؟ ثم يذكر حاجته إليها وكلفه بها وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سُلُوّه عنها ، وعجزه عن الصبر .

تهيم إلى نُعْمٍ فـــلا الشمل جامع
ولا الحبلُ موصولٌ ، ولا القلب مُقْصر

وأبرز صورة يرسمها عمر للمرأة ونفسيتها وغرورها وجسدها ، وجرأتها فى مقابلة من تحب وسرعة انفعالها وحيلها ، هى تلك التى ضمنها هذه (الرائية : أمِن آل نعم) وانظر إليه كيف يُلحّ فى تـكرار اسم « نعم » وكيف يتجنب زيارة « نعم » مخافة التشهير ، ثم لا يلبث هو أن يُشَهِّر بها نفسه ، فيقول :

بآية ما قالتْ غداةَ لقيتُهـــا بِمَدْفَع أكنانٍ ، أهذا المُشَهَّر ؟

وكيف يصور ما يقع بين النساء من حِوار إذا عرض لهنَّ رجل كنَّ يعرفنه ، فأنـكرته لِما تغير من شأنه « قفى فانظرى أسْماء ، هل تعرفينه ؟ » .

وهـكذا يحدثنا عمر فى قصة : أنه دخل خيمة المحبوبة ، فتولهت وعَضت بالبنان ، وقالت له : فضحتنى ! وانطلقت تعاتبه وتعنفه ، وتذكره بأعين الرقباء التى لا تنى تتسقط أسرارها ، ولـكنها امرأة فما يلبث فخرها أن يطغى على خوفها ، إنها فخورة مزهوَّة بهذا الذى يتجشم الهول فى سبيل أن يقابلها ، وإنها لتنتظر منه أن يعترف لها بحبه ، وهى فى سبيل أن تسمع هذا الاعتراف ، تسأل عمر :

فوالله ما أدرى ؟ أتعجيل حاجـــة
سرت بك ، أم قد نام من كنت تحذر ؟

ويتدفق الاعتراف من فم عمر ، فيقول :

فقلت لها : بل قادنى الشّوق والهوى
إليك ، وما نفس من الناس تشعر

فتطمئن أساريرها ، وتهدأ بالها ، ويذهب روعها ، ويتحطم خوفها على صخرة حبها :

فقالت : وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر

ولكن الصبح يلوح ، ويحين من الحى هبوب ، وتستفيق غريزة الخوف فى المرأة ، فتنظر إلى عمر معاتبة تقول : « أشر كيف تأمر ؟ » ويقرّ الرأى على أن تخبر أختيها بالأمر ، فالمرأة للمرأة خير ظهير فى شدائد الحب ، وتقترح الأختان أن يتنكر عمر بزىّ النساء فيمضى معهنّ على هذه الحال ، حتى إذا ما قارب أن ينصرف عنّفنه قائلات : أما تستحى أوترعوى أو تفكر ؟ ولكنهن يُردفن :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

إنهن نساء يتظاهرن بالامتعاض ، ويتعززن وهن الراغبات ، ولكنهن يسألنه الخداع والمداورة ، عندما يعود ثانية ، ويعلمنه ما فاته من دروس الهوى والعشق ، وذلك بأن ينظر إلى فتاة أخرى ، كى يبعد عنهن الشبهة .

موازنة بين جميل وعمر[1] :

جميل وعمر شاعران اشتهرا بالغزل فى عصر بنى أمية ، والموازنة العامة بينهما تكشف لنا أن كل واحد منهما كان يسير فى مسلك من الشعر غير الذى كان يسير فيه الآخر ، فقد كان غزل جميل غزلاً صادقاً ، منبعثاً من أعماق نفس يكاد يقضى عليها الأسى ، وكان غزل ابن أبى ربيعة غزل مرح وعبث ودعابة ، كان غزلاً عاما بكل من يلقى من النساء ، أو كما يقول هو عن نفسه :

---

(١) فى الأدب المقارن : للدكتور حيده — بتصرف .

إنى امرؤٌ مولع بالحسن أتبعه   لاحظ لى فيه إلا لذَّة النظر

وقد نشأ كل منهما فى الحجاز ، ولـكن جميلا نشأ فى ديار بنى عذرة بالبادية ، ونشأ ابن أبى ربيعة بالحاضرة (بمكة) ولهذا الاختلاف أثره العظيم فى اتجاه كل منهما ، فإذا استطاعت البيئة البدوية أن تمنع الشبان من العبث بالنساء ، فإنها لا تستطيع أن تمنع من الغرام والهوى .. وكان للبادية عادات وتقاليد تختلف عن مثلها فى الحضر .

أما الحاضرة ـ مكة ـ التى عاش فيها ابن أبى ربيعة ، فقد كانت مترفة فى ذلك الوقت . وكان كثير من الوافدات إلى مكة يبغين العبث ممن عناهن العرجى فى قوله :

من اللائى لم يحججن يبغين حِسبة   ولـكن ليقتلن البرىء المغفلا

وكان فى مكة لهو ومرح وغناء ومجالس أنس وسمر . . فهناك إذن ظروف مرت بجميل لم يمر مثلها بابن أبى ربيعة .. فلاعجب أن تختلف روح غزلهما ، وأن يكون أحدهما شاعر الوجد والحب المبرح ، وأن يكون الآخر شاعر المرح والتشبيب والعبث . ثم هناك طريقة كل وأسلوبه ومعانيه وعاطفته تصلح مجالاً للموازنة .

المنتخبات

أولا — الرائية

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَداةَ غدٍ ، أمْ رائحٌ فَمُهَجِّرُ (١)
لحاجةِ نفسٍ لم تقلْ فى جوَابِها فتُبلغَ عُذْراً ، والمقالةُ تُعْذِرُ
تَحِنُّ إلى نُعْمٍ ، فلا الشَّمْلُ جامِعٌ
ولا الحبلُ موْصولٌ ولا القلب مُقْصِرِ
وَلَا قُرْبُ نُعمٍ إنْ دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ
ولا نَأْيُهـا يُسْلِي ولا أنتَ تَصْبر
إذَا زُرْتُ نُعماً لم يزلْ ذُو قَرابةٍ لهـا ، كلمّا لاقيتُها ، يتنمَّر
عزيزٌ عليـه أن أُلِمَّ بِبيْتِهـا
يُسِرُّ ليَ الشَّحناء ، والبغضُ مُظْهَر (٢)
أَلِـكْنِي إليهـا بالسَّـلام فإنَّه يُشَهَّرُ إلمـامى بها ويُنَـكَّر (٣)

---

(١) الغادى : السائر غدوة ، أى بين الفجر وطلوع الشمس : الرائح : السائر فى العشى . المهجر : السائر فى الهاجرة ، وهى وقت اشتداد الحر .

(٢) عزيز عليه : أى كبير على نفسه . ألم : أنزل . الشحناء : العداوة .

(٣) ألكنى : أبلغها عنى . يشهر : يعلن . ينكر : يستغرب .

بآية ما قالتْ غَـداةَ لَقِيتُهـــــا
بِمَدْفَعِ أَكْنَانٍ : « أَهَـذَا المُشَهَّر » ؟[١]
قفى فانظُرى أسمـــاء ، هل تَعْرِفينه ؟
أَهَـذا المُغيرىُّ الذى كان يُذْكر ؟[٢]
أَهَـذَا الذى أطْريتِ نعتاً ، فلم أكُنْ
وعيشِكِ ، أنســاه إلى يوم أُقْبَر
فقالت : نَعَم ! لا شــكَّ غيَّر لونَه
سُرَى الليـل يُحْيِي نصَّـه ، والتَّهَجُّر
لئن كان إيَّاه لقــد حَالَ بعدَنا
عن العهدِ ، والإنســانُ قد يتغيَّر !
رأت رجلا : أمَّا إذا الشمس عارضت
فيُضْــحى ، وأمَّا بالعشى فيَخْصر
أخَا سَفَرٍ جوَّاب أرض تقاذفت به فلوات ، فهو أشعث أغبر
قليلاً على ظَهْرِ المَطيَّة ظلُّه سوى ما يقى منه الرِّداء المحبَّر
وأَعْجَبَها مِنْ عَيْشِهِ ظلُّ غرفة وريَّانُ ملتف الحدائق أخضر

---

(١) مدفع أكنان اسم مكان .
(٢) المغيرى : نسبة إلى المغيرة ، وهو من أجداد عمر .

ووالٍ كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلةَ ذِي دَورانَ جشّمتني السُّري ... وقد يجشمُ الهولَ المحبُّ المغرِّر (١)
فبتُّ رقيباً للرِّفاقِ على شَفاً ... أُحاذِر منهم مَنْ يطوف، وأَنْظُرُ (٢)
وبتُّ أُناجى النَّفْسَ : أَيْنَ خِبـاؤُهَا ... وكيف ، لِماَ آتِي من الأمر ، مَصْدَر ؟ (٣)
فدَلَّ عليهـا القلبَ ريًّا عَرَفْتُهَا ... لها ، وَهَوى النَّفس الذى كادَ يظهر (٤)
فلما فَقَدْتُ الصَّوْتَ منهم ، وأُطفِئتْ ... مصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاء ، وأَنْوُر (٥)
وغابَ قُميرٌ كنت أَهْوَى غُيوبَه ... وروَّحَ رُعْيانٌ ، ونوَّم سُمَّر (٦)
وخُفِّضَ عنِّى الصوتُ ، أقبلتُ مِشْيَةَ الـ ... حُبَاب، وَمَشْخِصى ، خَشْيَةَ الحيِّ، أَزْوَر (٧)

---

(١) ذو دوران : موضع. جشم : كلف . السرى : السير ليلا . المغرر : الذى يغرر نفسه ، أى يعرضها للهلاك .

(٢) الشفا : حرف الشيء .

(٣) الخباء : الخيمة مصنوعة من وبر أو صوف .

(٤) الريا : مؤنث الريان ، وهو الأخضر الناعم من أغصان الشجر .

(٥) أنؤر : جمع نار ، ويقال أنور بالواو .

(٦) روح رعيان : أى روحوا إبلهم .

(٧) النفضة : القوم يتقدمون الجيش يفتشون له الطريق . (لأنه فى رواية نفضت عنى النوم) الحباب : الحبة . أزور : مائل .

فحييت إذ فاجأتها ، فتولهت وكادت بمكنون التحية تجهر[١]

وقالتْ ؛ وَعَضَّتْ بالبنـان : فَضَحْتَنِى !
وأنت امرؤٌ مَيْسورُ أمْرِكَ أَعْسَر !

أريتَك إذ هنّــا عليك ، أَلمْ تخَف
رقيباً ، وَحَوْلِى مِنْ عَدوِّكَ حُضَّر ؟[٢]

فوالله ما أدْرِى : أتعجيـلُ حَاجَةٍ
سَرَتْ بك ، أم قد نام مَنْ كنتَ تحذَر ؟

فقلتُ : بل قَادَنِى الشَّـوقُ والهوى
إليك ، وما نفسٌ من النـاس تَشْعر

فقالت ؛ وقد لانتْ وأفرخَ رَوْعُهـا :
كَلَاكَ بحفـظِ ربُّك المتـكبِّر[٣]

فأنت ، أبا الخطَّابِ ، غـيرُ مُدَافِعٍ
علىَّ أميرٌ ما مكثْتَ مؤمَّرُ

---

(١) تولهت : خافت .

(٢) أريتك : بمعنى قل وأشر . هنا : من هان بمعنى حقر . الحضر : جمع حاضر ، وهو الحى العظيم .

(٣) أفرخ روعها : ذهب خوفها . كلاك : أى كلأك ورعاك وحفظك .

فيالَكَ مِنْ ليلٍ تقاصَرَ طُولُه وما كانَ لَيْلِى قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُر
ويا لك مِنْ مَلْهًي هنـــاكَ ، ومجلسٍ
لنـا ، لم يكدِّرْه علينا مُـكدِّر
يَمُجُّ ذكيَّ المســكِ منها مُقَبَّلٌ
نقيُّ الثنايا ، ذو غروبٍ ، مُؤَشَّر(١)
تَراه ، إذا ما افترَّ عنه ، كأنه حَصى بَرَدٍ ، أو أُقحوانٌ مُنوَّر(٢)
وَتَرْنُو بِعَيْنيها إلىَّ ، كَماَ رَنَا
إلى ظبيةٍ ، وَسْطَ الخَمِيلة ، جُؤْذُر(٣)
فلمَّا تقضَّى الليلُ إلاَّ أَقـــلَّه وكادت تَوَالى نجمِه تتغوَّر(٤)
أشارتْ بأنَّ الحىَّ قـد حَانَ مِنْهُمُ
هُبوبٌ : ولـكنْ مَوْعِدٌ لك (عَزْور)(٥)

---

(١) يمج : يرمى به . المقبل : الفم . الغروب : جمع غرب وهو الحد ، والمراد كثرة الريق . المؤشر ، الذى حززت أسنانه

(٢) البرد : قطع الثلج تسقط من السماء عند اشتداد البرد ، تشبه بها الأسنان فى البياض .

(٣) الجؤذر : بضم الذال وفتحها ، ولد البقرة الوحشية . الخميلة : الشجر الكثير الملتف .

(٤) تتغور : تنحدر وتغيب .

(٥) عزور : موضع بمكة .

فما رَاعَى إلاَّ مُنادٍ : ترَحَّلوا وقدلاَحَ معروفٌ من الصبح أشقر
فلمَّا رأت مَنْ قـد تنبَّهَ منْهُمُ
وَأَيقاظَهم ، قالت : أشِرْ ! كيفَ تأمُر ؟
فقلت : أُباديهمْ ، فإمَّا أَفوتُهم وإمَّا ينال السيفُ ثأراً فيثأر[١]
فقالت : أتحقيقاً لِمَا قال كاشحٌ
علينا ، وتصديقاً لمــا كان يُؤْثر ؟[٢]
فإن كان ما لابدَّ منه ، فغيْرُه من الأمر أدْنى للخفاء وأسْتَر :
أَقُصُّ على أُخْتَيَّ بدء حديثنا ـ وَمَالِيَ مِنْ أَنْ تعلما مُتأَخَّر ـ
لعلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبا لكَ مخرجاً
وَأَنْ تَرْحُبا سَرْباً بما كنت أحْصَر[٣]
فقامت كئيباً ، ليس فى وجهها دمٌ من الحزن تَذْرى عَبرةً تتحدَّر[٤]
فقالتْ لأُختيها : أعِينا علىَّ فتًى أتى زائراً ، والأمر للأمر يُقدَر

---

(١) أباديهم : أظهر عليهم وأبارزهم : أفوتهم : أسبقهم .

(٢) الكاشح : العدو الذى يبطن العداوة . يؤثر : يعرف ويحكى .

(٣) السرب : بالفتح الصدر ، وبالكسر النفس ، أحصر من حصر (كفرح) ضاق ذرعا .

(٤) تذرى : تذرف .

فأقبلتا : فارتاعتـــــا ، ثم قالتا :

أَقِلِّى عليكِ اللَّومَ ، فالخطبُ أَيسرُ[١]

فقالت لها الصُّغْرى : سأعطيه مِطْرفِى

ودِرعى ، وهــذا البُرْدَ إن كان يحذر

يقوم فيمشى بيننا مُتنكِّراً فلا سِرُّنا يفشو، ولا هو يَظْهر

فكان مِجَنِّى دُونَ من كنتُ أتَّقى

ثلاثُ شخوص : كاعبانِ وَمُعْصِر[٢]

فلما أَجَزْنا ساحةَ الحىِّ قلنَ لى : أَمَا تتَّقى الأعداء، والليلُ مُقْمِر ؟

وَقُلْنَ : أهــذا دأبُك الدَّهْرَ سَادِراً ؟

أَمَا تستحى ؟ أو تَرْعَوى ؟ أَوَ تفكر[٣]

إذَا جئتَ فامنح طَرفَ عينيك غيرنا

لـكى يحسَبوا أنَّ الهوى حيث تنظر

(١) أقلى عليك اللوم : خفق عنك .

(٢) المجن : الترس . والمراد هنا مطلق الوقاية . الكاعب : الفتاة التى نهد صدرها . المعصر : المرأة راهقت العشرين .

(٣) السادر : الذى يسير ولاينثنى . ترعوى تكف عن الجهل .

ثانياً – ليت هند

ليت (هنداً) أَنجزَتنا ما تَعِدْ وَشَفت أَنْفُسَنا ممـــا نَجِدْ(١)
واستبدَّت مرةً واحـــــــدةً إنمـــا العاجزُ من لا يسْتَبِد
زَعَمُوها سألتْ جارَاتِهــــا وتعرَّتْ ذات يوم تَبتَرِد(٢)
أَكَمَاَ ينعَتُنى تُبصرنَنى عَمْرَكُنَّ اللهَ ! أَمْ لا يَقْتَصِدْ ؟(٣)
فتضاحكْن ، وقد قُلْنَ لها : حسنٌ فى كلِّ عين من تود
حَسداً حُمِّلْنَه من شأنِها وقديماً كانَ فى الناس الحَسَد
غَادةٌ تفـــــــتَرُّ عن أَشْنبِها حين تَجلُوه أقاح أَو بَرَدْ(٤)
ولها عَيْنانِ فى طَرْفيهمــــــا حَوَرٌ منها ، وفى الجِيد غَيَد(٥)

---

(١) أنجزتنا ما تعد : وفت بوعدها . مما نجد : أى من الوجد .

(٢) تبترد : تصب الماء البارد على رأسها .

(٣) ينعتنى : يصفنى . عمركن الله ، أى أذكركن الله . يقتصد : يعتدل فلا يبالغ

(٤) الغادة : المرأة اللينة . تفتر : تظهر . الأشنب : الفم فى أسنانه ماء ورقة وعذوبة . تجلوه : تكشفه . الإقاح : جمع أقحوان . وهو البابونج البرى من نبات الربيع له نور أبيض . البرد : ماء الغمام يسقط جامدا .

(٥) الحور : شدة بياض العين ، مع شدة سوادها . الجيد : العنق . الغيد: النعومة.

قلت : مَنْ أَنتِ ؟ فقالت : أنا من
شفَّهُ الوجـــدُ ، وأبلاه الـكمد[١]

نحن أهلُ الخيف مِنْ أهل مِنًى   ما لِمَقْتُولٍ قَتلناهُ قَوَدْ[٢]
قلتُ : أهلاً ! أنتم بُغْيَتُنا   فتسمَّين ! فقالت : أنا هِنْد[٣]
إنّما ضُلِّل قلـــبى فاحْتَوى   صَعْدَةً فى سابِرِيّ تَطَّرد[٤]
إنّما أَهْلَك جيرانٌ لنـــا   إنَّما نحن وهم شىءٌ أَحَدْ[٥]
حـــدَّثُونا أنّها لى نَفَثَتْ   عُقَداً ، ياحبّذا تلك العُقَد[٦]
كُلَّما قلتُ : مـــتى ميعادنا ؟
ضَحِكَتْ ، هندٌ ، وقالت : بعد غَدْ

(١) شفه الوجد : أهزله الحب . الـكمد : الحزن الشديد .

(٢) الخيف : ناحية من منى عند مكة . القود : القصاص .

(٣) بغيتنا : مطلبنا . تسمين : اذكرن أسماءكن .

(٤) ضلل : صار ضالا لايهتدى . احتوى : اشتمل . الصعدة : القناة تنبت مستقيمة لاتحتاج إلى مثقف . السابرى : الثوب الرقيق الجيد : تطرد : تمشى مستقيمة.

(٥) شىء أحد : شىء واحد .

(٦) نفثت عقدا : أى سحرتنى . والنفث . النفخ . والعقد تـكون من خيوط ينفث فيها قصد السحر .

موضوعات للبحث

١ — أظهر مافى غناء عمر من حلاوة جملته يتبوأ زعامة الغزل فى العصر الأموى ، ووضح بالشواهد قيمة القصص والحوار فى القصيدة ، وحدّد جوانب النفسية النسائية كما ظهرت لك من خلال الحديث .

٢ — قال أحمد الشايب :

ليس الغزل حديثاً عن المرأة بقدر ماهو حديث الرجل عن نفسه وشعوره نحوها . مارأيك فى هذا القول ؟ .

٣ — وازن بين إحدى قصائد عمر وجميل من حيث :

(ا) الغرض الرئيسى فى كلتيهما . (ب) المعانى التى صورها الشاعران .

(ﺣ) العبارة التى استخدمها كلاهما فى تصوير المعانى .

(ء) الأثر الذى تركته فى نفسك كل قصيدة من القصيدتين .

المراجع

١ — ديوان ابن أبى ربيعة : عمر بن أبى ربيعة

٢ — العشاق ثلاثة : الدكتور زكى مبارك

٣ — الغزل عند العرب : الدكتور حسان أبو رحاب

٤ — الغزل : الدكتور سامى الدهان

٥ — فى الأدب المقارن : الدكتور عبد الرزاق حميده

٦ — شاعر الغزل : عباس محمود العقاد

٧ — عمر بن أبى ربيعة : الدكتور جبرائيل جبور

٨ — حب ابن أبى ربيعة وشعره : الدكتور زكى مبارك

الفصل الثالث

الشعر السياسي

هو الشعر الذى يتصل بشئون الدولة ونظامها وقوانينها وطرق قيادتها ويتعرض لطريقة الحكم وللحكام وأعمالهم وأحقيتهم فى أن يلوا أمور الأمة .

ولم يكن فى العصر الجاهلى شىء واضح من هذا ـ لأن العرب حينئذ لم يكن لهم نظام فى الحكم ولم تكن لهم دولة موحدة منظمة يقودها حاكم واحد يتنازعون على رئاستها أو على طرائق الحكم فيها ـ بل كانت كل قبيلة كأنها أسرة كبيرة ولها رئيس هو أمثل أفرادها يرجعون إليه فى شئونهم ومنازعاتهم وخصوماتهم وكانت الحروب تشتعل بينهم لأيسر الأسباب ـ وكل قبيلة تتولى الدفاع عن نفسها ويتعصب لها من ينتمون إليها .

ولما جاء الإسلام نظم حياة العرب الاجتماعية والخلقية والسياسية وجمع شملهم وجعلهم يخضعون لإمام واحد ، ويسيرون طوعا لما جاء به الدين الإسلامى من نظم قويمة وتشريع محكم يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقد حرم الإسلام الدعوى إلى العصبية الجاهلية البغيضة الهدامة ، ومنع التفاخر الممقوت بالأحساب والأنساب ـ ودعا إلى الائتلاف والمساواة والاتحاد (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وبذلك عظم شأن العرب وقويت شوكتهم وتكونت منهم أمة امتزجت فيها محاسن الخلال العربية بمابث الإسلام فيهم من نبيل الصفات وكريم السجايا وقد اتجه الشعراء فى مبدأ الدعوة الدينية إلى استخدام شعرهم فى نصرة الدين وتأييد الدعوة الإسلامية .

وجاءت الدولة الأموية فتسلم خلفاؤها زمام المسلمين على كره من طوائف كثيرة منهم واحتدام النزاع حول الخلافة وأحق الطوائف بها . وبدأت كل طائفة تنتصر لرأيها وتدافع عنه بالسيف وباللسان ، وبذلك ظهرت الأحزاب المتنافسة واستحكم بينها العداء والجدل ، وكان للشعراء نصيب كبير فى هذه الناحية فإنهم كانوا فى الدولة الإسلامية أشبه برجال الصحافة وكتابها . ولم يقتصر على مناصرة شيعة بنى هاشم و بنى أمية – بل تعداها إلى مناصرة الأحزاب الأخرى من زبيرية وخوارج وغيرها – ومن أشهر الشعراء المناصرين لبنى أمية الأخطل وجرير والفرزدق (وكان هذا يتشيع سرا) ونصيب – ومن الزبيرية عبد الله بن قيس الرقيات . ثم اضطر أن يكون أمويا . ومن شعراء الخوارج عمران بن حطان والطرماح بن حكيم – ومن شعراء الشيعة والعصبية لمضر الكميت الأسدى ثم اضطر أن يكون مروانيا) .

الـكميت الأسدى

(٦٠ هـ — ١٢٦ هـ)

حياته :

ولد الـكميت بن زيد الأسدى بالـكوفة سنة ٦٠ هـ وأخذ الـكميت عن علماء الـكوفة الدين والأدب ، والـكوفة يوم إذ منافسة البصرة فى الأدب والنحو والأنساب ، ومنبر الخطباء ، ومدرسة الشعر واللغة ، ومجال المفاخرات والمناظرات والمنافرات ، ومسار العصبيات .

فيها نشأ الـكميت ، فلم يكن بدعا منه أن يكون شاعراً وخطيباً وراويا للشعر وعالما بلغة العرب ، ونسابة له ، يعرف بيوتهم ، ومفاخرهم ومسالبهم ،وزاجرا للطير ومهتديا بالنجوم حتى غلب حمادا الراوية ، فقد روى أن الـكميت اجتمع بحماد الراوية فى مسجد الـكوفة فتذاكرا أشعار العرب وأيامها ، نخالفه حماد فى شىء ونازعه ، وحماد من كبار الرواة ومن أعلم الناس بأخبار العرب ، فقال له الـكميت : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : وما هو بالظن ، هذا والله هو اليقين . فغضب الـكميت ، ثم قال له : لـكم شاعر بصير اسمه عمرو ، ولـكم شاعر أعور اسمه ابن عمر فهل تروى لهما ؟ فقال حماد قولا لم يحفظه ، فجعل الـكميت يذكر شعراء منه من مختلف الأصناف ، و يسأل حماداً : هل يعرفهم ؟ فإذا قال : لا . أنشده من شعرهم حتى ضجر الحاضرون . ثم قال له الـكميت ، فإنى سائلك عن شىء من الشعر ، فسأله عن قول الشاعر :

طرحوا أصحابهم فى ورطة قَذْفَكَ القُلَّةَ شَطْرَ المعترك

فلم يعلم حماد تفسيره . فسأله عن قول الآخر :

تُدَرِّيننا بالقول حتى كأنها تُدَرِّين وِلْدَانًا تصيد الرَّهادِنا

فأُفحم حماد ، فقال له : قد أجلتك إلى الجمعة الأخرى ، فجاء حماد : ولم يأت بتفسيره ، وسأل الكميت أن يفسرها له ، فقال له :

القلة : حصاة أو نواة من نوى القل « وهى النواة التى تنبت من مفردة » يحملها القوم معهم إذا سافروا وتوضع فى الإناء ، ويصب عليها الماء ، حتى يغمرها فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر : النصيب . والمعترك : الموضع الذى يختصمون فيه ، فى الماء ، فيلقونها هناك . وقوله : تدرِّيننا ، يعنى النساء . والرهادن : طير بمكة كالعصافير .

وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تخبرانه بأخبارها ، فاجتمع له بذلك ثقافة الإسلام والجاهلية ، وذوق أهل الحضر والبدو ، ووصل إلى علم غزير بلغات العرب وأشعارها وأيامها .

تشيعه :

كان بنو أسد (قبيلة الكميت) من أخلص شيعة أهل البيت ، فشبّ الكميت متشيعاً بمذهبهم ، واختصهم بمدحه وتأييده ، وحارب أعداءهم من بنى مروان وهجاهم ، وكانت العصبية بين اليمانية والمُضَرية ، قد استغلّها بنو أمية فى ترويج سياستهم ، فهجا شاعر من اليمانية يُسمى (حكيما الكلبى) آل على وشيعته ، ومضر جماء ، فأغرت مضر الكميت به فهجاه ، وهجا اليمانية معه ، فأيقظ شعره ما كان نائماً من العصبية ، وصور حكم بنى أمية أشنع تصوير فألهب

النفوس بقصائده (الهاشميات) حتى هبت الثورة على بنى مروان ، وانتهى الأمر إلى تقويض دولتهم ، وإقامة الدولة العباسية ، وقد كان شعر الكميت هو الطليعة لتلك الثورة ، كما كان الكميت أول من فتح للشيعة طريق المناظرة بالشعر .

ومما يروى لهذا : أن خالد بن عبد الله القسرى وكان أميراً على العراق من قبل هشام بن عبد الملك ، كتب إلى هشام بأخبار الكميت وهجائه بنى أمية ، فأمره هشام بقطع لسان الكميت ويده ، فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره فأخذ وحبس ، وكان أبان بن الوليد عاملا على واسط ، وكان الكميت صديقه ، فبعث إليه ، فكتب إليه أبان بن الوليد : قد بلغنى ماصرت إليه وهو القتل ، إلا أن يدفع الله عزّ وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى زوجتك ، فإذا دخلت عليك تنقبتَ بنقابها ولبست ثيابها وخرجت ، فإنى أرجو ألا يؤبه لك .

فبعث إلى امرأته وقصّ عليها القصة ، فألبسته ثيابها وإزارها ، وبذلك تمكن من الفرار ، ولما طال الأمر على السجان نادى الكميت فلم يجبه فدخل ليعرف خبره فصاحت به المرأة ، فرجع صارخاً إلى باب خالد القسرى ، فأخبره الخبر ، فأحضرها خالد وقال لها : « ياعدوة الله ، احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه ، لأمثلن بك » ، فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ما سبيلك على امرأة منا خدعت ؟ فخافهم وخلى سبيلها ، وأقام الكميت مدة متواريا حتى أيقن أن الطلب قد خفّ فذهب إلى الشام واستجار بقبر معاوية ابن هشام ، فأمّنه هشام ، ثم دخل عليه فأنشده قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

فالآن صرت إلى أميّة والأمور لها مصائر

فعفا عنه هشام وأجزل له العطاء ، وكتب إلى خالد بأمانه ، فظل آمنا

حتى عزل خالد ، فقتل غيلة فى عهد يوسف بن عمر الذى كان من ألد أعداء الهاشميين سنة ١٢٦ هـ .

إن للكميت فى الشعر مكانة شهد له بها بعض العلماء ، وشعره كما سنرى واضح المعنى ، قوى العبارة لا أثر للصنعة فيه ، ويروى أنه لما قال الكميت الشعر كان أول ما قال « الهاشميات » فنظمها ، ثم أتى الفرزدق فقال له : ياأبا فراس ، إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد ؛ قال له : صدقت فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى ، فقلت شعراً ، فأحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره ، وكنت أول من ستر علىّ ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك . فأنشدنى ماقلته . فأنشده :

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ

قال : ففيم تطرب ؟

قال : « ولا لَعِباً منى ، وذو الشيب يلعبُ ؟ » .

قال : بلى ، ياابن أخى ، فالعب ، فإنك فى أوان اللعب .

فقال :

ولم يُلْهِنِى دَارٌ ولا رسْمُ منزلٍ ... ولم يتَطرَّبْنى بَنَانٌ مُخَضَّبُ

فقال : ما يطربك يابن أخى ؟

فقال :

ولا السَّانحاتُ البارحاتُ عَشِيَّةً ... أَمَرَّ سليم القَرْن أمْ مرَّ أعْضَب

فقال : أجل ، لا تتطير .

فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتُّقَى ... وخيرِ بنى حَوَّاء ، والخيرُ يُطْلب

فقال : من هؤلاء ؟ ويحك ؟ ! .

قال :

إلى النَّفَر البيض الذين بِحُبِّهم ... إلى الله فيما نابنى أتقَرَّب

قال : أرحنى . ويحك من هؤلاء ؟ .

قال :

بنى هاشم ، رهطِ النبى فإننِى ... بهم ولهم أرْضَى مراراً وأغْضَب

خفضتُ لهم منّى جناحى مودة ... إلى كنفٍ عِطْفاهُ أهلٌ وَمَرْحب

وكنتُ لهم من هؤلاء وهؤلا ... مِجَنًّا على أنِّى أُذَمُّ وأُقْصَب

وأُرْمَى وأَرْمِى بالعداوة أهْلَها ... وإنى لأُوذَى فيهمُ وأُؤَنَّبُ

فقال له الفرزدق ؛ يابن أخى ادع ، ثم ادع فأنت والله أشعر من مضى ، ومن بقى ، وقد توفى سنة ١٢٦ هـ .

هاشميات الكميت :

هى ست قصائد كبار مجموعها نحو ثلاثة وستين وخمسمائة بيت ، ومعها بعض مقطعات يبلغ مجموعها نحو عشرين بيتًا ، وأطول هذه القصائد بلغت مائة وأربعين بيتا ، ومنها ثلاث أربت كل واحدة منها على المائة ، والأولى منها مطلعها :

من لقلبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتهامِ ... غَيْرَ ما صَبْوَةٍ ولا أحْلام

والثانية مطلعها :

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطرب   ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب ؟

والثالثة مطلعها :

أنّى ومن أين آبك الطرب   من حيث لا صبوة ولا ريبُ

والرابعة مطلعها :

ألا هل عم في رأيه متأملُ   وهل مدبرٌ بَعْدَ الإساءة مُقْبِلِ

هذه هى صورة « الهاشميات » وهى مطبوعة مشروحَة ، أما بقية شعره فجمع حديثاً فى ديوان .

هاشميته الثانية :

هذه القصيدة من الشعر السياسى الذى كثر فى هذه الحقبة نتيجة للظروف الاجتماعية والسياسية ، والـكميت أشهر الشعراء السياسيين الذين كرّسوا جهدهم لمناصرة الدعوة الإسلامية عن عقيدة رَاسخة ، وحب مكين ، ويصور الـكميت فى مستهل أبياته حبه لآل البيت ، ومطلع القصيدة بهذه الصورة ينبىء عن عاطفة قوية معلقة بهم ، فهو يستنكر أن يشغل نفسه عنهم بالغزل فى النساء أو بكاء الأطلال ، أو بغير ذلك مما يشغل به الناس أنفسهم ، ويوجه إلى آل البيت كل قلبه وحبه ، ولم يخرج الشـاعر بهذا المطلع على عادة شعراء عصره فى افتتاح القصائد بالغزل ، غير أنه نهج نهجاً جديداً ، فهو لا يشتاق إلى محبوبة جميلة ، ولا يحن إلى ديارها ، ولـكن شوقه إلى آل النبى ، ولعلك لاحظت هـذا التسلسل الذى يدعو إلى التشويق شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغ الغاية ، فيعلن آخر الأمر : أن بنى هاشم هم موضع إعجاب . وفى قوله : « بنان مخضب » كناية عن المرأة ، وفى قوله « النفر البيض » كناية عن الأشراف .

وفى المقطع الثانى يتجلى كفاح الكميت من أجل آل البيت ، ومواقفه فى تأييدهم واستعداده للبذل والتضحية فى سبيلهم ، كما نرى فيها جانباً من صولاته فى الدفاع عن موقفهم من الخلافة ، حيث يزعم الأمويون أن الخلافة قد ورثوها عن آبائهم ، وهو زعم باطل ، ثم يعلن السخط على أعدائهم ، ويدعوهم للرشاد ، وفى قوله : « خفضت لهم منى جناحى مودة » استعارة توحى بالتواضع ، وقد اقتبسها الشاعر من قوله سبحانه « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وفى قوله : « الذى فى ظل عمياء جونة » كناية عن أعداء الهاشميين ، فهو يتصورهم فى ظلام .

وفى المقطع الثالث : نراه منطقيًا فى جداله لهؤلاء المعارضين ، فيطالبهم بأدلة تثبت دعواهم ، وتعيب من يخلصون لبنى هاشم ، وتلك المعارضة والجدل عُرف بهما الكميت فى جلّ قصيده فهو هنا يدفع الحجة بالحجة ، حتى يُضطرّ خصمه إلى التسليم وينتهى إلى تقرير الخلافة فى قريش وحدها ، ومن ثمّ يجب أن تكون فى بنى هاشم ، فهم أعزّ حىّ فى قريش ، وأقرب الناس نسباً من الرسول .

وفى المقطع الرابع : يمتدح بنى هاشم ويشيد بشرف مَحْتِدِهم وكريم منبتهم ، وفى قوله : «وفيهم خباء المكرمات» كناية عن اتصافهم بكل خير وشرف ، وهى كناية وثيقة الصلة بالبيئة .

وتعكس القصيدة بعد ذلك لوناً من الحياة السياسية فى عصر بنى أمية ، يتمثل فيه ذلك الصراع الحاد الذى أدى إلى ظهور الأحزاب ، وظهور الخطابة السياسية التى تقوم على الحجج والبراهين ، وقد أفاد الشاعر من ذلك فكانت أشعاره مطبوعة بالطابع الخطابى الذى نستبين فيه التنقل من فكرة إلى فكرة ، وفى عرض أدلته عرضاً مرتباً ، جعل النقاد يعتبرونه أول من فتح باب الجدل والمناظرة للشيعة ، كما جعلهم يعتبرونه شاعر أهل البيت ولسانهم المدافع عنهم .

المنتخبات

هاشميته الثانية

— ١ —

طَرِبتُ وما شوقًا إلى البِيضِ أطْرَبُ
ولا لَعِبًا مِنِّى وذُو الشَّيْبِ يلعبُ[(١)]

ولم يُلْهِنى دارٌ ولا رسْمُ مَنْزِلٍ ولم يَتَطرَّبْنى بَنانٌ مُخَضَّبُ[(٢)]

وَلاَ أَنَا مِمن يَزْجُرُ الطَّيْرَ هَمُّه
أَصَاحَ غُرَابٌ أَمْ تعرَّضَ ثعلَب ؟[(٣)]

ولا السَّانِحاتُ البارِحاتُ عشِيَّةً
أَمرَّ سَلِيمُ القَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَب ؟[(٤)]

---

(١) البيض : النساء الحسان . اللعب : العبث . وذو الشيب : استفهام مقدر ، أى وهل يلعب ذو الشيب .

(٢) رسم منزل : مابقى من آثار الديار . يتطربنى : يحملنى على الطرب . بنان : أصابع . مخضب : أى ملون بالحناء .

(٣) يزجر الطير : أى يزعجه من أوكاره ، وذلك أنه كان من عادة العرب إذا أرادوا أمراً عمدوا إلى الطير فأطاروها ، فإن طارت يمينا تفاءلوا ، وإن طارت شمالا تشاءموا .

(٤) السانح : مايمر من اليمين ويتفاءلون به ، والبارح بعكسه ويتشاءمون به . الأعضب : المكسور القرن .

وَلـكنْ إلى أَهْــلِ الفَضائِلِ والنُّهَى
وَخَيرِ بَنِي حَوَّاءَ ، والخــيرُ يُطْلَب[١]

إلى النَّفَرِ البيضِ الَّذين بِحُبِّهم إلى الله فيما نَالَنِى أَتقَرَّب[٢]

بَنِى هاشم ، رَهْطِ النَّبِيِّ ، فإِنَّنِي
بهم ، وَلَهُم أَرْضَى مِرَاراً وَأَغْضب[٣]

— ٢ —

خَفَضْتُ لهم منِّى جَناحَيْ مَــوَدَّةٍ
إلى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَب[٤]

وكنتُ لهم مِنْ هَؤُلاء وَهؤُلا مِجَنّاً على أَنِّى أُذَمُّ وأُقْصَب[٥]

وَأُرْمَى وَأَرْمِي بالْعَداوة أَهْلَها وإِنِّى لأوذى فيهمُ وأُؤَنَّب

فما سَاءنى قَوْلُ امْرِئٍ ذِي عَــــداوةٍ
بِعَوْراءَ فيهمْ يَجْتَدِبنى فَأُجْــدَب[٦]

(١) النهى : جمع نهية ، أى العقل .

(٢) البيض : المشهورون الأشراف .

(٣) الرهط : القوم والقبيلة .

(٤) الكنف : الجانب والظل . عطفاه : جانباه . أهل ومرحب : أى أهل لى يرحبون بى .

(٥) المجن : الترس الذى يتقى به أقصب : أشتم وأعاب .

(٦) يجتدبنى : يطلب منى اتباعه .

فقلْ للذى فِى ظِلِّ عَمْيَاء جَوْنَةٍ
تَرَى الجوْرَ عدلاً أَيْنَ ، لا ، أَيْنَ تَذْهَبُ ؟[١]

بِأَىِّ كتابٍ أمْ بأَيَّة سُنَّةٍ
تَرَى حُبَّهِمْ عاراً علىَّ وَتَحْسَبُ[٢]

فما لِىَ إلا آل أحمدَ شِيعَةٌ
ومالِىَ إلا مَذْهَبَ الحقِّ مَذْهَبُ

وَمَنْ غيرَهُمْ أَرْضَى لِنَفْسى شيعةً
وَمَنْ بعدَهم ، لا ، مَنْ أُجِلّ وَأَرْجُبُ[٣]

إليكمْ ذوى آلِ النَّبِىِّ تَطَلَّعَتْ نَوازعُ مِنْ قَلْبى ظِماءٌ وَأَلْبُبُ[٤]

فإنّى عَنِ الأمْرِ الذى تَكْرَهُونه
بِقَوْلى وَفِعْلى ما اسْتَطَعْتُ لَأَجْنُبُ

يَعِيبُونَنى من خُبِّهِمْ وَضَلالهم
عَلَى حُبِّكم بَلْ يَسْخَرون وَأَعْجَبُ[٥]

---

(١) جونة : سوداء .

(٢) المراد بأى دليل .

(٣) أرجب : أهاب وأعظم .

(٤) ألبب : جمع لب ، وهو العقل .

(٥) الخب : الخبيث .

— ٣ —

وَقَالُوا : تُرَابِيٌّ هَوَاهُ وَرَأْيُه كَذلكَ أُدْعَى فِيهِمُ وَأُلَقَّبُ(١)

إِذَا اتَّضَعُونَا كَارِهِينَ لِبَيْعَةٍ أَنَاخُوا لِأُخْرَى والأَزِمَّةُ تُجْذَبُ(٢)

رِدَافًا عَلَيْنا لم يُسِيمُوا رَعِيَّةً وَهَمُّهُمُو أَنْ يَمْتَرُوها فَيَحْلُبُوا(٣)

وقالوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأُمَّنَا وَمَا وَرَّثَتْهُم ذَاكَ أُمٌّ وَلاَ أَبُ

ولكنْ مَوَارِيث ابْنِ آمنةَ الذي بِهِ دَانَ شَرْقٌ لَكُمْ وَمُغَرِّب

فِدًى لكَ مَوْرُوثًا أَبِي وَأَبو أَبِي وَنَفْسِي وَنَفْسِي بَعْدُ بالنَّاسِ أَطْيبُ

بِكَ اجْتَمعتْ أَنْسَابُنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ فنحنُ بَنُو الإِسْلامِ نُدْعَى وَنُنْسَبُ

---

١) ترابي : نسبة إلى علي بن أبي طالب الملقب بأبي تراب .

٢) الاتضاع : أن تخفض رأس البعير لتضع قدمك على عنقه لتركب . الأزمة : جمع زمام ، وهو ما يقاد به البعير ، المعنى إذا أكرهونا على البيعة فسيكرهوننا على بيعة أخرى .

(٣) ردافاً : أي يترادفون ويتعاقبون على تولى أمورنا واحدا بعد واحد . يسيموا : يرعوا . يمتروا : يستدروا لبنها ، والمراد أنهم لايهتمون إلا بالخلافة دون أن يهتموا بالرعية .

وَأنتَ أَمينُ اللهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ علينا وفيها اختار شَرْقٌ وَمغرب

فَبُورِكْتَ مَوْلودا ، وَبُورِكت نَاشِئاً
وبوركتَ عِنْدَ الشَّيبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَب

وبوركَ قَبرٌ أَنْتَ فيه ، وبُورِكتْ بِهِ وَلَه أَهلٌ لِذَلكَ يثرب

فيا مُــوقداً نَاراً لغيرِكَ ضَوءها
وَيَا حَاطِباً فى غَيْرِ حَبْلِكَ تَحْطب[1]

أَلَمْ تَرنِي من حُبٍّ آل مُحَمَّدِ أَرُوح وأَغْدُوا خَائفا أَترَقَّب

كأَنِّيَ جَان مُحْـدثٌ وكأَنَّمــَا
بِهم أَتَّقِى من خَشْيَة العَارَ أَجْرَبُ

عَلَى أيِّ جُرْمٍ أَمْ بأَيَّةِ سِيرةِ أُعنَّفُ فى تَقْرِيظِهِم وَأُؤَنَّب

— ٤ —

أُناسٌ بِهِم عزَّتْ قُريشٌ فَأَصْبَحُوا
وفيهمْ خِبَاءُ المــكْرُمَات المُطَنَّب[1]

مصَفَّوْنَ فى الأَحْسَابِ محض نِجَارهم
هُمُ المحضُ مِنَّــا والصَّريحُ المُهَذب[2]

(١) فياموقدا : يخاطب هشام بن عبد الملك .

(٢) مطنب : مشدود بالأطناب ، وهى حبال يشد بها سرادق البيت :

(٣) نجارهم : أصلهم .

لَهُم رُتَبٌ فَضْلٌ عَلَى النَّاس كُلِّهم
فَضَـائِلُ يَسْتَعلى بهـا المُتَرَتِّبُ

مَسَاميحُ منْهُم قَائِلونَ وفَاعلٌ
وَسَبَّاقُ غَايَات إلى الخَيْر مُسْهب[1]

مَضَوْا سَلَفاً لا بُدَّ أنَّ مَصيرناَ
إِلَيْهِمْ فَغَادٍ نَحْوَهُمْ مُتَأَوِّب[2]

كَذَاكَ المَنَايا لا وَضِيعاً رَأَيْتُها
تَخطَّى وَلَا ذَا هَيْبَةٍ تَتَهَيَّبُ

وَقَدْ غَادَروا فينا مَصَابِيحَ أَنْجُماً
لنَاَ ثِقَة أيَّانَ تَخْشَى وَنَرْهَب

أُولئك إنْ شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوَى
أَمانىُّ نَفْسى ، والهَوَى حيث يُسْقَب

(١) مساميح : متصفون بالجود والكرم .
(٢) متأوب : راجع .

موضوعات للبحث

١ ـ تدل هذه القصيدة على المذهب الحزبي للكميت ، وأنه من المتشيعين لآل البيت ، ويرى أنهم أحق بالخلافة ـ ناقش .

٢ ـ قال الجاحظ :

ما فتح للشيعة الحِجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحىٍّ سواهم فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون لم يورث ولولا تُراثه لقد شرِكت فيه بجيل وأرحب

مارأيك فى هذا القول ؟

٣ ـ ما رأيك فى خلو الأبيات من الصور البلاغية ، وفى مطلع القصيدة ؟

المراجع

١ ـ تاريخ الأدب العربى : أحمد الاسكندرى وآخرون

٢ ـ ديوان الكميت : الكميت

٣ ـ الشعر السياسى : أحمد الشايب

٤ ـ الشعر الأموى : عبد الرزاق حميدة

٥ ـ الأدب العربى وتاريخه : محمود مصطفى

عبد الله بن قيس الرقيات

(؟ — ٧٥ هـ)

حياته :

هو عُبيد الله بن قيس الرُّقيات القرشي ، من بني عامر بن لؤي ، ولد ونشأ في قريش حريصاً على سيادتهم التقليدية معتزاً بها محباً لها ، وكان مذهبه السياسي ملائماً لهذا كله ، فكان يرضى كبرياءه أن تستقر الرياسة في قريش ، وأن تكون وحدها صاحبة السلطان المطلق في العرب ، يؤيدها في ذلك أقرب العرب إليها وشيجة ، وهم المضريون ، ومن ثمَّ نقم على بني أمية تقريبهم لليمنيين ، واعتمادهم في شئون الدولة دون القرشيين ، فمذهبه السياسي إذاً لا يعتمد على دين ، وإنما هو مبدأ قوامه العصبية القبلية ، وهو من أجل ذلك يحب القرشيين ويجتهد في دحض ومقاومة دعاة الهزيمة والتفكك والاختلاف ، ويود لو ظلت كلمتها مجتمعة كما كانت أيام أبي بكر وعمر وفي هذا المعنى يقول : « حبذا العيش حين قومي جميع » . وهو إذا ناوأ الأمويين ، وهجاهم أمرَّ الهجاء ، وأحبَّ الزبيريين ، وجاهد معهم بسيفه ولسانه عند ما انشقوا على الدولة ، فإنما يفعل ذلك لأن الأمويين كانوا يعتزون باليمنية على المضرية ، فهم طغاة يعتزون بالأجنبي ، على حين كان ابن الزبير قرشياً يدعو لسلطان قريش ، لهذا انضم إلى الزبيريين وخرج مع « مصعب بن الزبير » في العراق ولزمه حتى قتل مُصعب ، ففرَّ الشاعر إلى الكوفة ، ولجأ إلى أول دار لقيته ، وفي هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة ، وكانت تغدو عليه كل يوم فتحييه وتسأله حاجته ، ولا تسأله عن اسمه ، وهو لا يسأل عن اسمها ؛ حتى سمع ذات يوم المنادي ينادي ببراءة

الذمة ممن يؤوى ابن قيس الرقيات ، فنزل إلى صاحبته فأنبأها باعتزام الرحلة ، قالت : لا يَرُعْك هذا الصياح ، فنحن نسمعه منذ سنة ، ولكنه أصرّ على الرحلة .

فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزاداً ووهبت له عبيدا ، وانصرف عنها ، وقد أبت أن تنبئه من هى ، وإنما علم بعد ذلك أن اسمها « كثيرة » ، فمضى حتى بلغ المدينة ، فاستجار بعبد الله بن جعفر ، فأجاره ، وأحسن مثواه ، وكتب فيه إلى « أم البنين » امرأة الوليد بن عبد الملك ، وإلى عبد العزيز ابن مروان أبيها ، فشفعت فيه أم البنين عند عبد الملك بن مروان ، وضمنت له الأمان ، ثم دخل على عبد الملك ومدحه بقصيدته التى يقول فيها :

وأنتم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب
إن الأغرّ الذى أبوه أبو الـ ـعاصى ، عليه الوقارُ والحُجُب
يعتدلُ التاجُ فوق مَفْرِقه على جبينٍ كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : « يا ابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعبٌ شهاب من الله تجلّتْ عن وجهه الظلماء
ملكُه ملكُ عِزّةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق . والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً » . ومن هذا نرى أن نفس الخليفة لم تطب بالرضا عنه ، فلزم عبد العزيز بن مروان ، والى مصر لأخيه عبد الملك ، وأقام معه فى مصر حتى مات سنة ٧٥ هـ .

آثاره :

له ديوان طبع فى ڤينا سنة ١٩٠٢ م مع ترجمة ألمانية ، وقد شرحه السكرى وقد طبع حديثاً فى مصر ، وابن الرقيات سهل الشعر ، رقيق المعانى ، ولا سيما فى الغزل والرثاء ، وقد يرجع ذلك إلى مزاجه الصافى ، وإلى الموضوعات التى قال فيها الشعر ، ولقد تأثر بالقرآن فى شعره كله ، فاكتسب من هذا التأثير ليناً وعذوبة ، لم تكن لغيره من الشعراء الذين عاصروه ، ولقد تسرب إلى شعره السياسى ، فجرى فى أعطاء ماء السهولة .

همزيته :

هذه القصيدة تمثل رأيه السياسى صريحاً جلياً إبّان الخصومة العنيفة بين الزبيريين والأمويين ، فقد كان معاوية بن أبى سفيان أوصى بأن تكون الخلافة من بعده لابنه يزيد ، فلم يُرضِ ذلك طائفةً من أشراف قريشٍ ، فلما مات معاوية وَوَلى الأمر يزيد امتنع عبد الله بن الزُّبير بمكة عن أن يبايعه ، وأنكر على الأمويين اغتصابهم الخلافة واستئثارهم بها ، وشايعه أهل الحجاز ، وقوى حزبه ، وكان بينه وبين الأمويين صراع شديد ، انتهى بمصرع عبد الله على يد الحجاج بن يوسف ، عند ماضيق عليه الخناق وحاصره بمكة وضرب الكعبة بالمنجنيق .

وممن انضم إلى هذا الحزب وناصره ، عبيد الله بن قيس الرقيات ، الذى لزم مصعب بن الزبير حين وَلِيَ العراق حتى قتل هذا الوالى . ونراه فى هذه « الهمزيّة » يأسى لتفرّق قريش ، ويُشيد بأيام عزها فى ظل الوحدة ، واجتماع الشمل ، ويدعو إلى الألفة ،ومقاومة دواعى الفرقة والخلاف ، ثم يمدح مصعباً . فهو يفخر بملك قريش ، ويرى أنه قوام الدولة ، وحياة الشعوب الإسلامية وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبى فى حياته ، وأسسوا دولة قريش

بعد وفاته ، وهو إذاً إنما يمدح مصعب بن الزبير و يناصره ، لأنه ماض فى هذه السُّنَّة ، سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها ، فيقول ما أجمل الحياة حين كانت قريش متحدة الكلمة لم تفرقها الأهواء ، وقبل أن تتناوشها القبائل المعادية ، وتعمل على فلّ وحدتها ، وفصم عرى ألفتها ، وتطمع فى انتزاع الحكم منها ، ولكن رويدك أيها الشامت فى زوال قريش ، فإن فناء قريش و بقاءها بيد الله سبحانه لا بأمانيك ، ولئن زالت وهلكت فلن تقوم لحى بعدها قائمة ، ولأصبح الناس بعدها كالغنم الهائمة طعمة للذئاب تفترسها إذا تركها الرعاة .

ثم ينثنى الشاعر إلى مدح مصعب ، ونلمح فى مدحه تعريضاً بطغيان الأمويين وجورهم ، وابتعادهم عن التقوى ، فمصعب بن الزبير كوكب أنار الله به الدنيا ، وكشف ظلمتها ، فأقام العدل بين ربوعها ، فهو سيد قوى غير طاغ ولا متكبر ، يخشى الله فى كل أمر يزاوله ، ومن جعل مراقبة الله نصب عينيه وصل إلى بغيته ، وأفلح فى سعيه .

وتصريحه بما يأمل من أنه يود أن تشتعل فى الشام حرب تذهب بملك بنى أمية أعدائه ، يدل على شديد عاطفته نحو قريش ، وقيس كغيره من شعراء هذا العصر ، قد تأثر بأدب القرآن — كما أشرنا — وذلك واضح فى قوله : « وقد أفلح من كان همه الاتقاء » فقد أخذه من قوله سبحانه . « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

المنتخبات

همزيته

أقفرتْ بعد عبدِ شمسٍ كَدَاءُ
فَكُدَيٌّ ، فالرُّكنُ ، فالبطحاء(١)
فَمِنًى ، فالجِمَارُ من عبد شمسٍ مُقفراتٌ ، فَبَلْدَحٌ فحِراء(٢)
فالخيامُ التى بعُسْفانَ ، فالجُحْـفَةُ منهم ، فالقاعُ فالأبْواء(٣)
مُوحِشَاتٌ إلى تَعَاهِنَ فالسُّقْـيَا قِفارٌ من عبد شمس خلاء(٤)
قد أراهُمْ وفى المواسم إذ يَغْـدون حِلْمٌ ، ونائل ، وبهاء
وحِسانٌ مثلُ الدُّمى عَبْشَمِيَّا تٌ عليهنّ بَهْجَةٌ وحياء(٥)

---

(١) كداء : جبل بمكة ، وهو عرفة . كدى : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليمانى . البطحاء : بطحاء مكة .

(٢) منى : جبل بمكة . الجمار : جمع جمرة ، وهى موضع رمى الجمار . بلدح : واد فى طريق مكة . حراء : جبل بمكة .

(٣) عسفان : طريق بين الجحفة ومكة . الجحفة : قرية على طريق المدينة . القاع : منزل بطريق مكة . الأبواء : قرية أوجبل بالقرب من المدينة .

(٤) تعاهن : اسم بئر بين مكة والمدينة .

(٥)

لا يَبِعْنَ العِيابَ فى موسم النا　　س إذا طاف بالعِياب النساء[1]

ظاهرَاتُ الجَمالِ والسَّرْوِ يَنْظُرْ　　نَ كما ينظرُ الأرَاكَ الظِّباء[2]

حبّذا العيشُ حين قومى جميعٌ　　لم تُفرِّقْ أمورَها الأهْوَاء

قبل أن تطمع القبائل فى مُلْــــكِ قُريشٍ ، وتشْمَتَ الأعداء

أيها المُشتَهى فنَاَء قريشٍ　　بيد الله عمْرُهَا والفَنَاء

إنْ تودِّعْ من البلاد قُريشٌ　　لا يكنْ بعدَهُمْ لِحَىٍّ بَقَاء

لوْ تُقَفِّى و تَتْرُكُ الناسَ كانُوا　　غَنَمَ الذِّئب غابَ عنها الرِّعَاء

هل ترى مِنْ مُخَلَّدٍ غيرَ أنَّ الــــلهَ يَبْقى وتذهبُ الأشياء

يأملُ الناسُ فى غدٍ رَغَبَ الدهْــــر ألا فى غدٍ يكون القضاء

لم نزل آمنين يحسُدُنا النا　　سُ ويجرى لنا بذاك الثَّراء

فَرضينا فمُتْ بدائكَ غمّاً　　لا تُميتنّ غَــيْرَكَ الأدْوَاء

لو بكتْ هذه السماء على قو　　مٍ كرام ، بكتْ علينا السماء

نحن منّا النبىُّ الأُمِّىُّ والصِّدّ　　يق ، مِنّا التِقىُّ والخُلفاء

وقتيلُ الأحزابِ حمزةُ مِنّا　　أسَدُ الله والسَّنَاء سَنَاء

---

(١) اى لا يطفن بالثياب والعطور فى المواسم كما تفعل النساء الوضيعات .

(٢) السرو : المروءة والشرف .

وعلىٌّ وجعفرٌ ذو الجناحيـــنِ هناك الوَصِىّ والشهداء[١]
والزبير الذى أجاب رسـول اللـــه فى الـكرب والبلاء بلاء
والذى نَغَّصَ ابْنَ دَوْمَــةَ ما تو
حِى الشَّياطينُ والسُّيوفُ ظِماء[٢]
فأباحَ العراقَ يضربُهُمْ بالسَّيْـــف صَلْتاً وفى الضِّرابِ غَلاء
غُيِّبُوا عن مواطنٍ مُقْطِعَاتٍ ليس فيها إلا السُّيوفَ رَخاء
فَسَعَوا كَيْ يُفَلّلُوكَ وَيَأْبَى اللّـــه إلا الذى يرى وَيَشَاء[٣]
حَسَداً إذْ رأَوْكَ فضّلكَ اللـــه بما فُضِّلَتْ به النُّجَبَاء
فعلى هذَيهمْ خرجتْ وما طِبْـــكَ فى الله إذْ خرجْتَ الرِّياء
إنْ تعشْ لا نزل بخير وإنْ تَهْـــلِكْ نَزُلْ مثلَ ما يزول العماء[٤]
إنما مُصْعبٌ شِـهابٌ من اللـــه تجلَّتْ عن وجهه الظلماء
مُلْـكُهُ مُلْكُ قوّةٍ ليس فيـه جبروتٌ ولا به كـبرياء

---

(١) الوصى : على بن أبى طالب .

(٢) ابن دومة : المختار بن أبى عبيد الثقفى والذى نغصه مصعب بن الزبير . ما توحى الشياطين : أن المختار كان يدعى أنه يلهم ضربا من الشجاعة لأمور تكون ، ثم يحتال فيوقعها .

(٣) يفللوك : يضعفوك ويكسروا حدك .

(٤) العماء : السحاب .

يتّقى اللهَ فى الأمورِ وقد أفْـــــلَحَ مَنْ كان هَمَّهُ الاتّقـاء
عَيْنِ فابكى على قريشٍ ، وهل يُرْ
جِـعُ ما فاتَ إنْ بَـكَيْتِ البُكاء
معشرٌ حَتْفُهُمْ سُيوفُ بنى العلَّـــــات يخشَوْن أَنْ يَضيعَ اللِّواء[1]
تركَ الرأسَ كالثَّغَامةِ مِنِّى نَـكَباتٌ تَسْرى بها الأنباء[2]
مثلُ وقعِ القَدُوم حَلَّ بنـا فالنّـــــاسُ ممـا أصابنَا أَخـلَاء[3]
ليس لله حرمةٌ مثلُ بيتٍ نحن حُجَّابُهُ عليـه المُلاء
خصَّه الله بالـكرامة فالبَا دُون والعا كِفُون فيه سواء
حرَّقَتْهُ رِجالُ لخْمٍ وَعَكٌّ وَجُـذَامٌ وحِمْـيرٌ وَصُـداء
فبنيْنــاهُ من بعـد ما حَرَّقُوه
فاسْتَوى السَّمْكُ واسْـتَقَلَّ البِناء[4]
كيف نَوْمِى على الِفراش وَلَمَّا يَشْمل الشَّامَ غارةٌ شعواء

---

(١) يريد لخم وعك وجذام أيام عبد الله بن الزبير وبنى أمية .

(٢) الثغامة : واحدة الثغام ، وهو نبت يبيض عندما ييبس ، يشبه به الشيب .

(٣) أخلاء : أخلياء من الهموم .

(٤) استقل : استقر .

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وَتُبْدِى عن بُرَاهَا المَقِيلَةُ العَذْرَاء[1]

أنا عنكمْ بنى أميةَ مُزْ وَرٌّ، وأنتمْ فى نَفْسِىَ الأَعْداء

إنَّ قَتْلى بالطَّفِّ قد أَوْجَعَتْنى كانَ مِنكم لَئِنْ قُتِلْتم شِفاء[2]

إن لله درَّ قومٍ يُرِيدو نَكَ بالنَّقْصِ والشقاء شقاء

بعد ما أحرَزَ الإلهُ بك الرَّتْــــقَ وهرَّتْ كلابُكَ الأعداء[3]

ورجالٌ لو شِئْتَ سميتَهُمْ منّا ومنا القُضَـاةُ والعلمــاء

منهُمُ ذو النَّدَى سُهيلُ بن عمرو عصمةُ الجارِحِينَ حُبَّ الوَفَاء[4]

حَاطَ أخْــوَالَه خُزَاعةَ لمَّا كَثَرَتْهُمْ بمكةَ الأَحْيَاء

حين قال الرَّسول: زُولوا فزَالوا شَرَعَ الدينَ ليْسَ فيه خفاء

ورِجالٌ من الأحابيش كانت لهُمُ فى الذَّين حاطَ دِمَاء[5]

والذي أُشْرِبتْ قريشٌ له الحُبَّ(م) عليـه ممـــا يُحَبُّ رِداء

---

(١) البرى: الخلاخيل، واحدتها برة، يقصد أن النساء يكشفن عن خلاخيلهن وسيقانهن فى أثناء الحرب حين وقوع الفزع.

(٢) يشير إلى مقتل الحسين بن على فى كربلاء، وهى تقع فى الطف من ضواحى الكوفة.

(٣) أحرز الرتق: أزال التصدع والفرقة.

(٤) سهيل بن عمر: من أشراف قريش، أسلم يوم فتح مكة.

(٥) الأحابيش: جماعة من قريش نسبوا إلى حبشى. وهو جبل بأسفل مكة

وأبو الفضل وابنُه الحِبْرُ عبد الـلـه إن عَىَّ بالرَّىِّ الفقهاء(١)
والذى إنْ أشـار نحوك لَطْمًا تَبِـعَ اللَّطْمَ نائلٌ وعطاء(٢)
والبحورُ التى تُمَدُّ إذا النـا سُ لهم جاهليـةٌ عَمْيَاء
يُطعمونَ السَّدِيفَ من قحدِ الشَّـ وْلِ مَن آوتْ إليهمُ البطحاء(٣)
فى جِفـانٍ كأنهنَّ جَوَاب مُتْرَعات كما تَفِيضُ النِّهـاءَ(٤)
وهم المُحتَبُونَ فى حللِ اليُمْـ نَة فيهم سمـاحةٌ وبهاء(٥)
أقسموا لا نَزَالُ نُطعِمُ ما هَبَّـ تْ رِياحُ الشمال والأَصْبَاء(٦)
وعياضٌ منا عياضُ بن غنْمٍ كان من خَيْرِ ما أجَنَّ النِّسَاء(٧)

---

(١) الحبر : الرى : الرأى .

(٢) المقصود هنا عبد الله بن جدعان ولما كبر حجر عليه أهل بيته كى لا يعطى احداً فكان إذا جاء السائل قال إنى سوف ألطمك فلا ترضى حتى تعطى .

(٣) السديف : قطع السنام ، وأصل السنام يقال له قحدة .

(٤) النهاء : الغدير .

(٥) احتبى بالثوب : اشتمل . حلل اليمنة . ثياب تنسب إلى اليمن .

(٦) الأصباء :جمع صبا وهى ريح الجنوب .

(٧) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد بن ربيعة بن هلال ، أول من أجاز الدرب إلى الروم .

موضوعات للبحث

١ — ترى فى الأبيات السابقة تصوير بغض الشاعر للأمويين وتصريحه بما يأمل من أنه يود أن تشتعل فى الشام حرب تذهب بملك بنى أمية — هل توافق الشاعر على تلك النظرة — ولماذا ؟

٢ — لخص الصفات التى وصف بها مصعب ، و بين مدى ارتباط هـذه الصفات بشخصية الحاكم ، كما ينبغى أن يـكون .

٣ — بعد أن اتصل الشاعر بالأمويين مدح عبد الملك بن مروان بقصيدة جاء فيها :

يأتلق التـاج فوق مفرقه   على جبـين كأنه الذهب

فلم يستحسن عبد الملك هذا المدح ، وقال : تمدحنى بما يمدح به العجم ، وتقول فى ابن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الـلـه   تجلت عن وجهه الظلماء

فما وجه اعتراض عبد الملك على قول ابن الرقيات ؟

المراجع

١ — تاريخ الأدب العربى : أحمد الاسكندرى وآخرون

٢ — ديوان ابن قيس الرقيات : عبد الله بن قيس الرقيات

٣ — الشعر السياسى : أحمد الشايب

٤ — الشعر الأموى : عبد الرزاق حميدة

٥ — الأدب العربى وتاريخه : محمود مصطفى

الفصل الرابع

شعراء البلاط

الأخطل

(٦٤٠ — ٧١٠ م)

حيـاته :

ولد غياث بن غوث التّغلبي فى حدود سنة ٦٤٠ م فى الحيرة على الأرجح ، و « تغلب » قبيلة عزيزة الجانب ذاعت أيامها فى حرب البسوس ، وقد بقى قليل من أبنائها على نصرانيتهم بعد الإسلام ، ومنهم الأخطل ، ولفظ الأخطل لزمه لأن لسانه كان سفيهاً بذيئا .

كان لنشأة الأخطل أثر فى توجيه شعره ، فقد ذاق مرارة الحيـاة وهو بعد صغير ، إذ حرم حنان الأم طفلا ، وعوض منه قسوة امرأة أبيه ، وكانت تضيّق عليه وتؤثر بنيها بالغذاء دونه ، وتذبه إلى المراعى ليرعى غنيمات لها ، فلحظ ذات يوم قربة فيها لبن ، وجراباً فيه تمر وزبيب ، وكان جائعاً ، فقال : « يا أماه ، آل فلان يزورونك ويقضون حقك ، وأنت لا تأتينهم ، وعندهم عليل ، فلو أتيتهم لـكان أجمل وأولى بك » . قالت : « جُزيت خيراً يا بنىّ ، لقد نبهّت على مـكرمة » وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم ، فمضى الأخطل إلى القربة فشرب ما فيها ، وإلى الجراب ، فأكل التمر والزبيب الذى كان به ، فلما رجعت ورأت القربة والإناء فارغين ، علمت أنه قد دهاها ، فعمدت إلى خشبة لتضربه بها فهرب وقال :

ألمَّ على عِنَبــاتِ العجوز وشَـكْوَتِها ، من غياثٍ ، لَمَمْ[1]
فظَلّتْ تنادى : ألا وَيْلها ! وتلعنُ ، واللعن منها أَمَمْ[2]

كما لم يوفق فى حيـاته الزوجية ، ونمىّ فيه ميله إلى الطعن والانتقام اتصاله بالأمويين الذين جعلوا منه أداة للدفاع عنهم .

كان الخلاف مستمراً بين الأمويين وخصومهم ، ومنهم الأنصار ، وحدث أن شبب عبد الرحمن بن حسان الأنصارى (برملة) ابنة معاوية ، فثارت ثائرة أخيها يزيد ، ووقع اختياره على كعب بن جعيل ـ وكان تغلبيا مسلما ـ ليرد على عبد الرحمن ، ويدفع كيد الأنصار ، ولـكن كعباً قال له : « والله ماتلتقى شفتاى بهجاء الأنصار ، ولـكن أدلك على الشاعر الفاجر الماهر ، فتى منا يقال له : غياث ابن غوث . فاتصل يزيد بالأخطل ، وكاشفه بالأمر ، ومن ثم أصبح شـاعر بنى أمية ، وناشر مآثرهم ، يذود عنهم هجمات الأحزاب ، وكان القيسيون من معارضى السلطة الأموية ، بينما كان التغلبيون يساندونهـا ، فوحدت بين الأمويين والتغلبيين ـ أهل الأخطل ـ المصلحة ، فازداد الأخطل تقرباً من البـلاط الأموى ، وازدادت حملاته ، كما دخل بين الفرزدق وجرير فى التهاجى ، منتصراً للأول ، فعدّ بذلك من أصحاب النقائض ، وقد جمع أبو تمام الشاعر العباسى « نقائض جرير والأخطل » وشرحها وصدرها بكلمة فى حرب قيس وتغلب ، وكان الأقدمون يشبهون الأخطل بالنابغة لصحة شعره ، ولـكن فى حقيقة الأمر نرى أن الصلة بين الشاعرين أقوى من ذلك ، فـكلاهما شاعر بلاط قصر مدائحه بالملوك ، وحظى عندهم ، بيد أن الأخطل كان يأخذ عن الشاعر الجاهلى أحياناً ، وآثار هذا الأخذ والانتفاع ظاهرة فى مدحه ، وفى وصفه الثور الوحشى ، وينفرد الأخطل بوضوح الاتجاه السياسى فى شعره ومرد ذلك

(١) الشكوة : وعاء من جلد . اللمم : الذنب الصغير أو الجنون .
(٢) الأمم : القرب والشىء اليسير .

إلى ظهور الأحزاب ، وإلى الصواع الناشب بين الأمويين وغيرهم من المطالبين بالخلافة ومن ثمّ كانت الصفة السياسية بارزة فى شعر الأخطل بينما هى مستترة فى شعر النابغة .

وبلغ من فضل الأخطل أن عبد الملك بن مروان كان يكرمه ويسمح له بالدخول عليه ، والصليب على صـدره ، والخمر تقطر من لحيته ، وهو القائل لعبد الملك :

إذا ما نديمى علّنى ثم عَلّنى ثلاثَ رجاجات لهنّ هدير
خرجتُ أجرُّ الذيل تيها ، كأننى عليك ، أميرَ المؤمنين ، أمير

ويرجح أنه توفى سنة ٧١٠ م .

آثاره :

له ديوان شعر طبع فى بيروت فى أواخر القرن الماضى ، وطرق فيه عدداً من الأغراض أشهرها : الفخر ، والخمريات ، والسياسيات ، والهجاء ، وله فيه كتاب مستقل عنوانه (أهاجى الأخطل) . والمدح ، ولعلّ مما ساعد الأخطل على التجويد فى مدحه شخصية عبد الملك بن مروان الذى كان ذا شخصية سياسية ، وصاحب ذوق بالشعر ، فاستمد الأخطل من مناقب عبد الملك معانى مدحه ، وانصرف إلى سبكها فى إحكام وتجويد لتنال رضاء الخليفة الذى يفهم الشعر وينقده ، وخير مايصور براعة الأخطل فى المدح والهجاء ، بل فى الشعر السياسى مطوّلته (خف القطين) .

خمرياته :

بين الأعشى والأخطل وشائج قربى فى موقفهما من الخمرة ، وقد أخذ الأخطل عن الأعشى بعض معانيه فى الخمر ، ولـكنه لم يقف فى وصفها عند معانى الشاعر

الجاهلى ، بل زاد لبنة إلى لبناته ، وطوّر طوراً من مجراها حتى نضجت واستوت على سوقها على يد أبى نواس ، فلقد أدخل الأخطل على الشعر الخمرى شيئا جديداً لم نعهده فى الجاهلية ، فقد تفنن فى وصف حالة السكران ، وأجاد فى تصوير دبيب الخمر فى الأجسام ، وشبه دنان الخمر برجال من السودان عراة . ومن الأسباب التى حدته إلى الشرب أن الخمرة كانت تجوِّد صوته وتشحذ قريحته ، وتنعش فؤاده ، وتطلق لسانه من عقاله ، وربما دعا غيره إلى معاقرتها لتجويد قريحته ، كما فعل بالمتوكل الليثى ، إذ سمع شعره فقال له : « ويحك يامتوكل ، لو نبحت الخمر فى جوفك كنت أشعر الناس » .

وقد يستنشده الخليفة فلا يستطيع إنشاداً ويحار فى أمره ، حتى يلمّ بالخمرة فيتدفق كأنه السيل الجارى ، فقد روى أنه دخل يوما على عبد الملك فاستنشده ، فقال : « قد يبس حلقى فمر من يسقينى » . فقال : « اسقوه ماء » .

فقال : هو شراب الحمار ، وهو عندنا كثير .

قال : فاسقوه لبناً .

قال : عن اللبن قد فطمت .

قال : فاسقوه عسلا .

قال : شراب المريض .

قال : ماذا تريد ؟ .

قال : خمراً ياأمير المؤمنين :

قال : أوَعهدتنى أسقى الخمر — لا أمّ لك — لولا حرمتك بنا لفعلت وفعلت .

فخرج فلقى فرّاشا لعبد الملك ، فقال : « ويلك ، إن أمير المؤمنين استنشدنى ، وقد صَحِل[1] : صوتى ، فاسقنى شربة خمر » فسقاه رطلا ، فقال : « أعد له بآخر ، فسقاه رطلاً آخر . فقال : « تركتهما يعتركان فى بطنى ! فاسقنى ثالثاً » . فسقاه ، فقال : « تركتنى أمشى على واحدة ، إعدل ميلى برابع » فسقاه رابعاً ، فدخل على عبد الملك فأنشده رائيته الشهيرة .

لم يفرد الأخطل للخمرة قصائد خاصة شأن أبى نواس ، بل تفرّق أكثر شعره فيها مطالع للمدائح والأهاجى ، فهو فى ذلك صنو الجاهليين ، ولكن له يد عليها كما قلنا من قبل فى تطويرها . وفى بعثها بعد الموت فى العصر الراشدى ، إذ أعرض كبار الشعراء عن وصفها خوفا من السلطان ، وتحرجاً من الإشادة بما نهى عنه الإسلام .

مجلس خمرة :

يبدأ الأخطل بوصف السكران وصفاً يسجل فيه حركاته بإخلاص وفن ، فنقع عنده على لوحة قلما نجد لها مثيلا فى جودة الوصف ، وحسن تمثيل الموصوف ، فهذا مدمن خمر قد نهل منها حتى انطفأت قوته ـ فهو لا يعقل إلا ببقية من روح ـ فخرّ صريعاً على الأرض ، فتسابق رفاقه يرفعون رأسه ليصحو ، فألفوه قد أماتت الخمرة عظامه ، وحلّت مفاصله ، فلم يعد يقوى على حمل نفسه ، فراحوا يسندونه ، فيرفع رأسه قليلا ويمشى متهادياً ، ثم تنبح الخمرة فى رأسه فيعاوده الصرع ، وتأخذه النشوى فيتراخى ، فيتكىء من ضعفه وانحلال جسمه

(١) بح .

على هذا وذاك مترنحاً بينهما يكاد لا يعى ، إذا رفعوا منه عضواً ارتخى عضو آخر ، فيضطرون إلى جرّه ، وهم الذين خبلتهم الخمر كما خبلته ، هذه صورة رسمها الشاعر تنطق بواقع السكارى وعالم الخمرة .

ثم يرسم لنا لوحة ثانية عمد فيها إلى القص ساردا وقائع الشرب ، وكيف أن السكير يحاول التوبة من شرب الخمر ، فما يكاد يرى القافلة التى تحملها حتى يحنث فى يمينه ويلاحق أصحابها يطلب السقاء ، فتحط القافلة الرحال ، فيصف لنا الدنان التى تحملها الجمال ، وكأنها رجال من السودان لم يتسربلوا ، ويصف رائحتها ، فإذا هى المسك ، ويصف طعمها ، فإذا هو ريق المحبوبة ، ويصف توهجها ، فإذا هو جمر يتقد ، ويصف الأيدى التى تسارع إلى الكئوس « سفيحاً وبارحاً » :

ويتخلل الشرب غناء مغن ، أو شواء مرعبل ، والأخطل حين يشرب يموت ومن معه «ميتة جاهلية» فلا يستفقون من سكرتهم إلا ليعودوا إلى غيبوبتهم - كسكارى الأعشى - ثم يصف دبيبها فى العظام . يالها من خمرة مذهلة تمشى فى العظام فيحس لها دبيباً بطيئاً كدبيب النمل يتحدر فى مرتفع من الرمل ، ولا شك أن أبا نواس نظر إلى هذا البيت حين يقول :

وتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

ويشربها فتلذع لسانه ، وتؤجّ فى نفسه ، وتتلظى بين جوانحه ، فيخيل إليه أنه مصاب بحمى ، فيطلب قتلها وتخفيف حدّتها ، وذلك بمزجها بالماء ، ثم ينتقل إلى الكرمة التى أعطت هذه الخمرة ، وكيف أن خادمها يعنى بها ، حتى تأتى أكلها شهية لذيذة ، وعند ما نمعن النظر فى ألفاظ القصيدة

وجملها وأخيلتها نجد أنها قد ساعدت على ثقل الجو ، وتشخيص الحركة ، بما فيها من سهولة وطاقة على إيحاء المعنى بقوة ، انظر إلى كلمة « دبيب » ألست ترى أنها بمخارجها وحروفها تمثل الصوت ، والحركة التى ينطوى عليها معناها ؟ وانظر ثانية إلى كلمة « مخبّل » ألا يدلك وزنها الصرفى على المبالغة ، وانظر ثالثة إلى استعمال تلك الكلمات الدقيقة الاستعمال ، حتى أنك لا تكاد تجد غيرها يحلُّ محلها ويؤدى معناها بنفس الدقة « نهاديه ، تحامل يتهيل » .

المنتخبات

أولا — مجلس خمرة

كأنى غداةَ انصعْنَ للبَين ، مُسْلَمٌ بضربة عنقٍ ، أو غَوِىٌّ مُعَذَّل[١]

صريعُ مُدامٍ يرفع الشَّربُ رأسَه
ليحيا ، وقد ماتت عظامٌ ومَفْصِل[٢]

نُهاديه أحيانا ، وحينا نَجرُّهُ وما كاد إلاّ بالحُشاشة يعقل[٣]

إذا رفعوا عُضواً ، تحاملَ صدرهُ وآخر ، ممّا نال منها مُخَبَّل[٤]

شربتُ ، ولاقانى لحــــلِّ أَلِيَّتى
قِطارٌ تروَّى من فلسطين مُثقَل[٥]

عليه من المِعزى مُسوكٌ رَوِيّةٌ مُملَاّةٌ ، يُعلَى بها وتُعدَّل[٦]

---

(١) الغداة مابين الفجر وطلوع الشمس ، انصعن : خضعن ، والنون للأحبة . مسلم : مستكين . بضربة عنق : كمن ضربت عنقه .

(٢) الشرب : الشاربون . المفصل :كل ملتقى عظمين فى الجسد .

(٣) نهاديه : نجعله يعتمد علينا لضعفه . الحشاشة : بقية الروح .

(٤) المخبل : المصاب بمس من الشيطان ، أو المشلول .

(٥) الألية : القسم . القطار : قافلة الجمال .

(٦) المسوك : الجلود ، وهنا الزقاق . الروية : الضخمة .

فقلت : اصبَحونى ، لا أبا لأبيكمُ !
وما وَضعوا الأثقالَ إلاَّ ليفعلوا[١]

أناخوا ، نجرّوا شاصِياتٍ كأنَّها
رجالٌ من السُّودان لم يتسربلوا[٢]

وجاءوا ببيسانيَّة هى ، بعدما يعلّ بها الساقى ألذّ وأسهل[٣]

فصبُّوا عُقاراً فى إناءٍ ، كأنها إذا لمحوها ، جُذْوةٌ تتأكل[٤]

تمرُّ بهــا الأيدى سنيحاً وبارحاً
وتوضع بـ « اللَّهمَّ حيِّ » وتُحْمَل[٥]

وتُوقف أحيانا ، فيفصل بيننا غناء مُغنٍّ ، أو شواء مُرعْبَل[٦]

فلذَّت لمرتاحٍ ، وطابت لشاربٍ وراجعنى منها مِراحٌ وأخْيَل[٧]

فما لبَّثتنا نشوةٌ ، لحقت بنا توابعها ، مما نُعَلُّ وننهل[٨]

---

(١) اسقونى خمرا فى الصباح .
(٢) الشاصيات : المرتفعات .
(٣) البيسانية : الخمرة المنسوبة إلى بيسان ، وهى مدينة فى فلسطين .
(٤) العقار : الخمرة .
(٥) السنيح : الآتى من اليمن . البارح : الآتى من اليسار .
(٦) المرعبل : اللحم المشرح .
(٧) المراح : النشاط . الأخيل : الخيلاء .
(٨) نعل : يشرب مرة بعد مرة . ينهل : شرب مرة واحدة .

تدب دبيباً فى العظام ، كأنه   دبيبُ نِمالٍ فى نقاً يتهَيَّلُ[١]
فقلت : اقتلوها عنكمُ بمزاجها   فأطيبْ بها مقتولةً حين تُقتل[٢]
رَبت ، وربا فى حَجْرها ابنُ مدينةٍ
يظلّ على مِسحاتــَ يترَكَّل[٣]
إذا خاف من نجم عليها ظَماءةً   أدبَّ إليها جدولاً يتسلسل[٤]

ثانيــاً — ميتة جاهلية

شربنا ، فمتنا ميتةً جاهليـــةً   مضَى أهلُها لم يعرفوا ما مُحَمَّد[٥]
ثلاثةَ أيامٍ ، فلمَّا تنبَّهتْ   حشاشاتُ أنفاسٍ أتتنا تَرَدَّد[٦]
حَيينَا حياةً لم تـكن من قيامة   علينا ، ولا حشرٍ أتاناه موعد[٧]

---

(١) النقا : ماارتفع من الأرض . يتهيل : يتحدر .

(٢) اقتلوها : امزجوها بالماء .

(٣) ربت : ربت الكرمة التى أعطت هذه الخمرة . الحجر : الحضن . المدينة : الخادمة . المسحاة : آله تسوى بها الأرض . يتركل : يدفع برجليه .

(٤) الظماءة : العطش . أدب إليها : أجرى إليها . النجم : كناية عن الحر .

(٥) يعنى أنهم شربوا الخمرة على دين الجاهلية .

(٦) الحشاشة : بقية الروح .

(٧) الحشر : القيامة . يقول متنا بالحشر ، ثم قمنا قيامة ليست الحشر الذى يتحدث عنه الدين.

حيـاةَ مِرَاضٍ حولهم، بعد ما صحوا
من النـاس شتَّى : عاذلون وعُوَّد[١]

وقلنا لسـاقينا : عليك ، فعُد بنـا
إلى مثلهـا بالأمس ، فالعَوْدُ أحمـد

فجـاء بهـا ، كأنمـا فى إنائه
بها الـكوكبُ المِرِّيخُ تصفو وتُزْبد[٢]

تفوح بمـــاءٍ يُشـبه الطِّيبَ طِيبُهُ
إذا ما تعـاطت كأسها من يدٍ يد

تُميتُ ، وتُحْيِي بعد موت ، وموتُها
لذيذٌ ، ومَحياها أَلَذُّ وأمجـــد

(١) عود : هو الذى يعود الشخص فى أثناء مرضه .
(٢) شبه الخمر بالمريخ لأن نوره يميل إلى الحمرة .

موضوعات للبحث

١ — قيل فى الأخطل : يجيد نعت الملوك ، ويصيب صفة الخمر ، اشرح وناقش .

٢ — الأخطل شاعر الخمرة فى العهد الأموى ـ وضح الدرجة التى وصل إليها .

٣ — أقم مقابلة بين وصف الأخطل مجالس الخمرة ، ووصف الأعشى . موضحا خصائص أسلوب كل .

المراجع

١ ـ تطور الخمريات فى الشعر العربى	:	الدكتور جميل سعيد
٢ – الأخطل	:	فؤاد إفرام البستانى
٣ ـ الأخطل شاعر بنى أمية	:	السيد مصطفى غازى
٤ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر	:	الدكتور شوقى ضيف
٥ ـ الرءوس	:	مارون عبود
٦ ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام	:	لويس شيخو
٧ ـ الأخطل	:	أحمد الشايب

الفرزدق

(٦٤١ م — ٧٣٢ م)

حيـاته :

هو أبو فِراس هَمّام بن غالب بن دارم ، ثم من تميم ، يُعرف بالفرزدق لجهومة كانت فى وجهه ، ولد فى البصرة ، فى حدود سنة ٦٤١ م ـ ٢٠ هـ ، وقد وَفَد أبوه غالب على علىّ بن أبى طالب بالكوفة ومعه ابنه ، وهو إذ ذاك شاب ، فأشار عليه علىّ أن يعلم ابنه القرآن ، وقد شرع الفرزدق فى تنفيذ ذلك .

وقد ظهر ميله إلى قول الشعر منذ طفولته ، إذ حفظت لنا عنه كتب الأدب شعراً جيداً يمثل نفساً كريمة متشوفة للمعالى والمجد ، ترنم به ، وهو يرعى الغنم لأمه .

وكانت نشأته كنشأة الأخطل فى قبيلة عزيزة الجانب ، شديدة البأس ، كثيرة العدد ، ضخمة الثروة ، وكانت أسرته الخاصة من أكرم أسر تميم وأغناها ، وأوسعها جاها وقوة ، وقد ورث الفرزدق عن أصوله وقبيلته عزّة النفس ، وشدة البأس ، والنفور من الخضوع للنظام ، والإذعان للسلطان ، أضف إلى ذلك البيئة التى عاش فيها ، وهى البصرة ، فقد أكسبته أخلاقا جليلة ، والبصرة ـ يومئذ ـ حاضرة من حواضر الامبراطورية الإسلامية لها شهرتها ، ومكانتها العلمية ، فهى محطة من محاط التقاء البدو بالحضر ، ومركز من مراكز اللغة والأدب ، قصدها الشعراء من كل فج متبارين متفاخرين ، فتأثر الفرزدق بكل هذا ، ومال إلى الفخر ، والهجاء ، فلم يسلم من لسانه حتى أهله .

وقد تزوج الفرزدق غير واحدة ، وكانت حياته الزوجية مضطربة غير مستقرة ، فهو يتزوج اليوم ليطلق غدا ، ولسبب تافه ، ولعل مردّ ذلك لشراسة طباعه ، وغلاظة نفسه ، وأشهر زوجاته : النّوار ابنة عمه .

وقد عُنى الفرزدق بأمر قبيلته ، ففخر بها ، ودافع عنها ، ولكنه لم يكن ذا لون حزبى صريح ينتصر له ، ويقف دونه مجاهدا ، فقد اتصل بالأمويين ومدحهم ، ونال جوائزهم ، ثم مالبث أن اشتد العداء بينه و بينهم فهجا و اليهم زياد بن أبيه ، كما هجا الزبيريين بعد القضاء عليهم ، وقد شايع العلويين ، وجاهر بحبهم ، و إذا مدحهم تدفق شعره عاطفة وحماسة ، وخير دليل على صدق ولائه لآل البيت قصيدته التى مدح فيها (زين العابدين) فهى من أبلغ الشعر ، وأصدقه عاطفة ، وقد أنشدها فى وجه هشام بن عبد الملك ، حينما كان يحج ، و يطوف بالكعبة ، ولم يستطع أن يستلم الحجر الأسود لكثرة الزحام ، فنُصب له كرسى وجلس عليه ينظر إلى الناس ، وحوله جماعة من أهل الشام .

فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على ، ليطوف بالبيت ، حتى إذا انتهى إلى الحجر الأسود أفسح له الناس ومكنته من الاستلام ، فقال هشام على سبيل التجاهل والتحقير : «من هذا ؟» وكان الفرزدق حاضرا ، فقال : أنا أعرفه ، وقال ، قصيدته :

هذا الذى تعرفُ البطحاء وطأتَه   والبيتُ يعرفُه ، والحلّ والحرم

فغضب هشام ، وحبسه فهجاه الفرزدَق بقوله :

أتحبِسُنى بين المـــدينة والتى   إليها قلوب الناس تهوى مُنيبُها

يقلب رأساً لم يكن رأس سيد   وعين له حَوْلاء ، باد عيوبها

فبلغ شعره هشاما فأمر بإطلاقه خوفا من لسانه . وكان الفرزدق كثير الهجاء ، وكان أكثر ما يرمى به غرماءه من مثالب ، هو ضعة الأصل ولؤم النسب ، ومرد ذلك إلى شعوره بكرم أرومته ، وطيب عنصره ، وكأنه كان يأمن أن يناله الشعراء من هذا المنفذ ، وحين تجاوز الأربعين اتجهت نفسه إلى أن يتوب عن نهش الأعراض وعن الهجاء المقذع ، وأن ينفذ وصية الامام على بن أبى طالب لأبيه ، فقيد نفسه وشرع يتمم حفظ القرآن ، ولكن التهاجى بين الشعراء كان قد استشرى خطره ، فحضر إلى الفرزدق بعض نساء مجاشع باكيات وقلن له : (قبح الله قيدك . فقد أسرف جرير فى سب نساء قومك ، فلُحيتَ من شاعر). فأخذته الحمية ، وشجعه ذلك على فك قيده والشروع فى هجاء جرير وغيره ، وقد ارتدع فى آخر حياته عن الهجاء على أنه انتقل من هجو الناس إلى هجو إبليس الذى زَيّن له ما ارتكب من أخطاء .

وعمّر الفرزدق طويلا ، وقد أصيب بمرض وهو فى البادية ، فنقل إلى البصرة حيث مات ، ويرجح أن يكون قد توفى سنة ٧٣٢ م .

وقد غلب على شعره الفخر ، ولغة الفخر تتطلب الجزالة والضخامة ، والأساليب الفخمة ، لذلك أعجب به الرواة ، وفضله النحاة . وقالوا : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة » على أنه طالما تألم من صلابة شعره ، وتمنى أن تكون له رقة جرير ، وفى ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله : « كان الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر » .

آثاره :

له ديوان شعر ضخم مطبوع ، عالج فيه الأغراض التقليدية من فخر ، وهجاء ،

ومدح ورثاء ، ووصف ، كما طبعت (نقائضه مع جرير) فى ليدن فجاءت فى مجلدين كبيرين .

مدح زين العابدين :

ألم الفرزدق فى أول أمره بمذهب العلويين السياسى وأعلن حقهم فى الخلافة ، وله غير قصيدة فى مدحهم ، وفى هذه القصيدة يمدح زين العابدين على بن الحسين، بهذه القصيدة الشهيرة ، وزين العابدين فيها سيد أهل زمانه ، يجمله حسن الأخلاق، وطيب الشيم ، ويجمع إلى سمو الأصل ، وأرومة المنبت سمو الشمائل والخصال ، ومدح الفرزدق نلمس فيه نزعة جاهلية وهى تتضح فى أسلوبه ، وفى بعض معانيه .

هجاء أبليس :

أنشد الفرزدق قصيدته فى هجاء أبليس بعدما بلغ من الكبر عتيًا وجرى الشيب فى رأسه ، وقد أودع فيها خواطره فى الموت والحياة ، وأعلن التوبة و بادر إلى ساحة ربه يطلب المغفرة ، والتكفير عن سابق أعماله ، وتلك ظاهرة طبيعة تعترى كثيراً من الناس عندما تثور ضمائرهم وتحاسبهم على تفريطهم فى حق الله ، وحق أنفسهم .

أمسى الفرزدق قاب قوسين أو أدنى من الموت ، وقد أحسّ بدنو أجله ، فاصطلح العبد على مولاه ، ولكن هل كانت توبة خالصة أم أنها كانت ومضات تبشر بالزهد ، والانقطاع عن المفاسد ، والتكفير عن رذائل الأعمال ، ثم تغيب تحت وطأة النفس الأمارة بالسوء ، وكأنها لم تكن ، ليعود الشاعر إلى سالف حياته ، ويمارس قديم عاداته ، وقد شك كثير من النقاد فى مدى صدق هذه التوبة ، ودعموا شكهم بحجج مستقاة من واقع حياة الفرزدق ، فيقال إنه أوصى بعتق عبيده بعد موته ، ولما كان على فراش الموت ، نادى هؤلاء العبيد وقال لهم :

إلى مَنْ تفزعون إذ حثوتم   بأيديكم عـــلى من التراب ؟

فقال أحد هؤلاء العبيد : « نفزع بعدك إلى الله » فغيظ الفرزدق ، وأمر ببيعه استمرارا له فى العبودية ، و بهذا أبطل وصيته فيه . فهل فى هذه الفعلة ما يدل على توبة نصوح ؟

وسواء تاب الفرزدق تو بة صادقة أم لا ؟ فإن فى هجائه لإبليس انتفاضة الضمير والايمان ، والخوف من الوقوف بين يدى الله ، وهو غارق فى آثامه ، فعبر عن هذا الخوف بهذه القصيدة ، لأنه أحس بأنه لم يفد من الحياة غير الهم والندم ، واجتراح المـآثم ، حتى أنه لم ينتبه إلا والموت وافد عليه .

و يختلف الفرزدق عن طرفة فى نظره للحياة ، فطرفة شاب يستوحى حاضره ومستقبله ، مدافعا عن مسلـكه دفاع صاحب المبدأ ، أما الفرزدق فليس له مستقبل بل له ماض ، ومن ثم فهو يرجع القهقهرى منقبا عن هذه الأوزار ومعترفا بفسادها وحاثا على اجتنابها .

وفى نظرهما إلى الموت اختلاف ، فنظرة طرفة نظرة الجاهلى يعلوها ضباب الوثنية التى لا ترى بعد الموت حياة ، بينما نظرة الفرزدق نظرة المسلم الذى يعرف أن الموت برزخ لحياة أخرى فيها حساب وجنة ونار . ومن ثم فهو لم يدخر وسعا فى التكفير عن سيئاته ، وذلك يجره إلى إغراء ابليس وتضليله لبنى آدم ووقوفه لهم بكل مرصد ليسد عليهم طريق الخير ، فهو قد أضل آدم وحواء وفرعون وأهل ثمود أصحاب الناقة وما كان من إغرائه له على المعاصى ، ومن ثم فهو يهجوه هجاء التشفى والحقد ، لأنه أوبقه ، وأوقعه فى المهاوى ، وهو يتوجه إلى ربه ، ورجاؤه أن تقبل تو بته فلا يكون من الهالـكين .

المنتخبات

أولاً — مدح زين العابدين

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته　　　والبيت يعرفه والحلُّ والحرم[١]

هذا ابن خير عباد الله كُلِّهمُ　　　هذا التقي النقيُّ الطاهر العلم[٢]

هذا ابن فاطمةٍ ، إنْ كنت جاهِلَه

بجَدِّه أنبياء الله قد خُتِموا

وليس قوْلُكَ . من هذا بضائره

العُرْبُ تعرف من أنكرتَ والعجم[٣]

كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعهُمُا

يُستوْكفان ، ولا يعرُوهما عَدَم[٤]

---

(١) البطحاء : أرض منبطحة فى وسطها مكة . البيت : الكعبة ، ويقال لها : البيت العتيق ، والبيت الحرام . الحرم : مالا يحل انتهاكه ، ويقصد هنا مكة . الحل : ما جاوز الحرم من الأرض .

(٢) العلم سيد القوم .

(٣) ضائره : مضرته .

(٤) الغياث : المطر الخاص بالخير . يستوكفان : يستمطران . يعروهما : يلم بهما . العدم : فقدان الشيء ، والفقر .

سـهلُ الخليقة ، لا تُخشى بوادرُهُ
يزينُهُ اثنان : حُسْنُ الخَلق والشِّيَمُ[١]

حمّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا افتُدِحُوا حُلو الشمائل ، تحلو عنده نَعَمُ[٢]

ما قال : لا ، قطُّ ، إلاّ فى تَشَهُّدِهِ
لولا التشـهدُ كانت لاءه نعمُ[٣]

عمَّ البرّية بالإحسـان ، فانقشعتْ
عنهـا الغياهبُ والإملاقُ والعـدمُ[٤]

إذا رأته قريشٌ قال قائلهـا : إلى مكارم هذا ينتهى الـكرمُ
يُغْضِى حياءً ، ويُغْضَي من مهابته فـما يُـكَلَّمُ إلا حين يبتسمُ[٥]

---

(١) الخليقة : الطبيعية . بوادره : الواحدة بادرة ، أى الحدة .

(٢) افتدحوا : أثقلوا بالمصائب . الشمائل : الواحدة شميلة ، أى الطبع والخصلة . نعم : أى تحلو عنده لفظة نعم .

(٣) التشهد . يقول إن زين العابدين لايعرف أن يقول : لا ، إلا حينما يتلو شهادته .

(٤) البرية : الخلق ، انقشعت : انكشفت . الغياهب : الظلمات ، الواحدغيهب .

(٥) يغضى : يخفض بصره من الحياء ، وهو مع ذلك عظيم الهيبة ، لا يقدم الناس على محادثته إلا إذا ابتسم لهم تنشيطا .

بكفه خيزرانٌ ريحُهُ عبِقٌ

من كفِّ أروعَ ، فى عِرْنينه شَمَمُ[1]

يكادُ يُمسِكُهُ عِرْفانَ رَاحتِه

رُكْنُ الحَطيم إذا ما جاء يستَلِم[2]

اللهُ شرّفَه قدْماً ، وعظّمَهُ جرى بذاك له فى لوْحِهِ القَلَمُ[3]

أىُّ الخلائقِ ليستْ فى رقابِهِمُ لأوّلِيّة هــذا ، أوله نِعَم

من يشكرِ اللهَ يشكرْ أوّليــةَ ذا

فالدِّينُ من بيت هذا ناله الأُمَمُ

يُنْمى إلى ذروة الدِّين التى قصُرتْ

عنها الأكفُّ ، وعن إدراكها القَدَم

من جدُّه دانَ فضْلُ الأنبياءِ له وفضلُ أُمّتِه دانتْ له الأُمَمُ

---

(١) العبق الذى تفوح منه رائحة الطيب . الأروع : من يروعك حسنه أو شجاعته . العرنين : الأنف . الشمم : ارتفاع فى قصبة الإنف مع حسنها واستوائها .

(٢) الراحة : الكف . الركن : الجانب : الحطيم : حجر الكعبة : يستلم الحجر : يلمسه إما بالتقبيل أو باليد .

(٣) اللوح : الكتاب الذى يسطره القضاء والقدر . القلم : أى قلم القضاء والقدر .

مُشْتَقَّةٌ من رسول الله نبعتُهُ طَابَتْ عناصِرُهُ والخِيمُ والشِّيمِ (١)

يَنْشَقّ ثَوْبُ الدّجَى عن نورِ غرّتِهِ
كالشمس تَنجابُ عن إشراقِها الظُّلَمُ (٢)

من معشر حُبُّهمْ دِين، وبُغْضُهُمُ
كُفْرٌ، وقُرْبُهُمُ مَنْجىً ومُعْتَصَمُ (٣)

مُقَدَّمٌ بعدَ ذِكْرِ الله ذِكْرُهُمُ في كلّ بدْءٍ ومختومٌ به الكَلِمُ (٤)

إنْ عُدَّ أهلُ التّقَى كانوا أَئمّتَهُمْ
أو قيل: «من خيرُ أهل الأرض» قيل: هم

لا يستطيع جَوَادٌ بعد جُودِهِمُ ولا يُدانيهمُ قومٌ، وإن كَرُمُوا

هُمُ الغيوث، إذا ما أزْمةٌ أزَمَتْ
والأُسد أسدُ الشّرى، والبأس مُحْتَدم (٥)

لا يُنْقِصُ العُسرُ بسطا من اكفِّهِمُ سيّانِ ذلك: إن أثْرَوْا وإنْ عَدِمُوا

يُستدْفَع الشّرُّ والبلوى بحُبّهِمِ ويُسْتَرَبُّ بِهِ الإحسان والنِّعَمُ (٦)

---

(١) النبعة : شجرة تصنع منها القسى ، وهى أجود . الخيم : الطبيعة والسجية .
(٢) تنجاب : تنكشف .
(٣) المعتصم : الملجأ .
(٤) أى أن المسلم يحمد الله فى بدء كلامه وختامه ثم يصلى ويسلم على النبي وآله.
(٥) الأزمة : الشدة ، أزمت : اشتدت . الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل .
(٦) يسترب : يستزاد .

ثانياً — هجاء أبليس

[دخل الفرزدق « المربد » ـ وهى سوق فى البصرة ـ فلقى رجلا من موالى باهلة يقال له « حمام » ومعه نحى (زِقٌ) من سمن يبيعه ، فسامه الفرزدق به ، فقال له حمام : أدفعه إليك ، وتهب لى أعراض قومى ؟ . ففعل ، وقال الفرزدق يهجو إبليس تائباً ، بعد هذه الحادثة التى أثارت ضميره] .

ألمْ تَرَنى عاهدتُ ربّى ، فإننى لبينَ رِتاجٍ ، قائمٌ ، ومقامِ(١)
على قَسَمٍ : لا أَشْتِمُ الدّهرَ مُسْلماً ولا خارجا من فِىَّ سوءُ كلام
ألم تَرَنى والشعرَ أصبح بيننا دُروءٌ من الإسلام ذاتُ حَوَام(٢)
بهنّ شفى الرحمنُ صدرى ، وقد جلا
عَشا بَصرى منهنّ ضوءُ ظلام(٣)
فأصبحتُ أسعى فى فِكاكِ قلادةٍ رَهينةِ أوزارٍ علىّ عظام(٤)
أحاذِرُ أن أُدعى ، وحوضى محلّقٌ إذا كان يومُ الوِرد يومَ خِصَام(٥)
ولم أنتبهْ حتى أحاطت خطيئتى ورائى ، ودقت للهوان عظامى

---

(١) الرتاج : الباب العظيم .

(٢) الدروء : الموانع والدوافع ، أى أن الإسلام بما فيه من رادع أخلاقى حال بينى وبين الهجاء .

(٣) العشا : سوء البصر بالليل .

(٤) القلادة : ما يجعل فى العنق من الحلى .

(٥) الحوض : مجتمع الماء . المحلق : الذى ذهب ماؤه . يوم الخصام : يوم الحساب . كنى بالحوض المحلق عن خلو حياته من الأعمال الصالحة .

لعمرى لنعم النِّحْىُ ! كان لقومه عشيَّةَ غبَّ البيْعُ ، نِحْىُ حُمام (١)
بتَوْبة عبــدٍ قد أناَبَ فــؤادُهُ
وما كان يُعْطى النـاس غيرَ ظِلام
أطعْتُكَ يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شيبى ، وتمّ تِمامى (٢)
فَرَرْتُ إلى ربى ، وأيقنتُ أنّنى مُلاقٍ ، لأيامِ المَنُونِ ، حِمامى
ولمـا دنا رأسُ التى كنتُ خائفاً وكنتُ أرى فيهـا لِقاَء لزام (٣)
حلفتُ على نفسى لأجتهِدَنَّها على حالهـا من صحةٍ وسَقام
ألاَ طالمـا قد بِتُّ يُوضع ناقتى أبو الجنِّ إبليسُ بغير خِطام (٤)
يظلّ يُعنِّينى على الرَّحل وارِكاً يكون ورائى مرةً وأمامى (٥)
يُبَشّرُنى أن لن أموتَ وإنه سَيُخْلِدنى فى جنـةٍ وسـلام
فقلتُ له : هَـلاَّ أُخيَّـكَ أخرجتْ
يمينكَ من خُضْر البحور طَـوامِى (٦)

---

(١) غب البيع : تم . يمدح النحى الذى كان سببا فى انقاذ نفسه من الموبقات

(٢) تم تمامى : أدركت آخر عمرى .

(٣) رأس التى كنت خائفا : يعنى الموت . اللزام : الحساب .

(٤) يوضع الناقة : يجعلها تسير مسرعة .

(٥) واركا : ثانيا وركه ليستريح .

(٦) أخيك : تصغير أخاك ، ويعنى به فرعون الذى غرق وجيشه فى البحر الأحمر . الطوامى : المرتفعة .

رميتَ به فى اليمِّ لما رأيتَه
كفرقةِ كطودَى يذْبلٍ وَشَمام

فلما تَلاَقى فوقه الموجُ طاميا نكصْتَ ، ولم تحْتَلْ له بمرام

ألم تأتِ أهلَ الحِجْرِ ، والحجرُ أهلُه بأنْعُمِ عيشٍ فى بيوت رُخام ؟(١)

فقلتَ : اعْقِرُوا هذى اللَّقوحَ ، فإنها لكم ، أو تُنيخوها لقوحُ غرام (٢)

فلما أناخوها تبرَّأتَ منهمُ . . وكنت نكوصاً عند كل ذِمام

وآدمُ قد أخرجتْه ، وهْو ساكنٌ وزوجتَه ، من خير دارِ مُقام

وأقسمتَ يا إبليس أنك ناصحٌ له ولها إقسامَ غير أثام

فظلاَّ يخيطان الوَراقه عليهما بأيديهما ، من أَكل شرِّ طمام (٣)

فكم من قرونٍ قد أطاعوك ، أصبحوا
أحاديثَ ، كانوا فى ظِلال غمام

وما أنت يا إبليسُ بالمرء ابتغى رضاه ، ولا يقتادنى بِزِمام

سأجزيك من سَوْءات ما كنتَ سُقْتنى
إليه جُروحاً فيك ذاتَ كِلام (٤)

(١) أهل الحجر : ثمود ، وهم جماعة من العرب البائدة .

(٢) اللقوح : الناقة الحلوب . الغرام : العذاب .

(٣) الوراق : خضرة الأرض من الحشيش . يشير إلى أكل آدم من الثمرة المحرمة .

(٤) الكلام : الجروح .

— ٣ —

ولو ولدَتْ فقَيرَةُ جَرْوَ كلبٍ   لسُبَّ بذلك الجروِ الـكلابا
ولو وَطئتْ نساء بنى نُمَيْرٍ   على نبراك أخبثتِ الترابا
فلا صَــــلّى الإله على نُمَيْرٍ   ولا سُقِيتْ قبورُهُمُ سَحابا

ثانيا ـ مدح عبد الملك

أَتَصْحُو أمْ فُؤَادك غيرُ صاحِ   عَشيَّةَ هَمَّ صحبُك بالرَّواحِ(١)
تَقُولُ العاذِلاتُ عَلاكَ شَيبٌ   أَهذَا الشَّيبُ يَمْنعُنى مَراحى(٢)
يُكلِّفنى فؤادى منْ هَوَاه   ظَعائنَ يَجْتَزِعْنَ على رِقاح
ظَعائِنُ لمْ يَدنَّ مع النَّصارَى   ولا يَدْرِينَ ماسَمك القِرَاحِ(٣)
فَبعْضُ الماء ماء رَبابِ مُزْنٍ   وبعضُ الماء من سَبِخٍ مِلاحِ(٤)
سَيكْفيكَ العَوَاذِلَ أَرْحَبيٌّ   هِجانُ اللَّوْنِ كالفَرْدِ اللَّياحِ(٥)

---

(١) تصحو : تترك الباطل . الرواح : الذهاب عشية .

(٢) المراح : النشاط والاختيال .

(٣)

(٤)

(٥) أرحبي : نسبة إلى أرحب أى فحل نجيب . هجان : أبيض . الفرد : المنفرد . اللياح : الثور الوحشى .

يَعزّ على الطّريقِ بِمَنكِبَيه ... كما انبرَكَ الخليعُ على القِداح
تَعزّتْ أمّ حَزْرَةَ ثم قالتْ : ... رأيْتُ الوَارِدِينَ ذَوِى امتناح(١)
تعلّلُ ، وهي ساغبةٌ بَنِيها ... بأنفَاسٍ من الشّبِمِ القَرَاح(٢)
سَأَمْتَاحُ البُحــورَ فجنّبيني ... أَذَاةَ اللّوْمِ،وانتَظرى امْتِيَاحِى(٣)
ثِقِى بالله ليس له شريكٌ ... ومن عِنْدِ الخليفةِ بالنّجاح
أَغِثــنِى يا فِداكَ أبى وَأُمّي ... بِسَيْبٍ منْكَ إنّكَ ذو ارْتياحِ(٤)
فإنّي قــد رأيتُ علىّ حَقّا ... زيارَتِىَ الخليفةَ وامْتِداحى
سأشكُرُ إن رَدَدْتَ إلىّ ريشى ... وأنبتَّ القَوَادِمَ فى جَنَاحى(٥)
أَلَسْتم خير مَنْ رَكِبَ المطَايا ... وأَنْدَى العالمينَ بطونَ رَاحِ

(١) أم حزرة : زوجة جرير . الواردون : أى الذين يردون الماء بإبلهم . امتناح : أخذ العطاء .

(٢) ساغبة : جائعة . الشبم : الماء البارد . القراح : الماء الصافى .

(٣) امتاح : اغترف .

(٤) ارتياح : التحرك للعطاء والسرور له .

(٥) القوادم : عشر ريشات فى مقدم جناح الطائر ، وما فوق ذاك الخوافى .

موضوعات للبحث

١ — هل تجد فى هجاء الفرزدق لإبليس دعوة إلى نهج حياتى واضح — كما فى معلقه طرفة ؟ وازن بين المنهجين .

٢ — مدح الفرزدق زين العابدين — استخرج من هذه القصيدة منهجه فى المدح ، موضحاً خصائص أسلوبه .

٣ — لقد قيل : لم يبلغ الفرزدق شأو الأخطل فى المدح غير أنه تفوق عليه فى الفخر — ناقش .

المراجع

١ — الفرزدق	:	فؤاد إفرام البستانى
٢ — الفرزدق	:	ممدوح حقى
٣ — الفرزدق	:	خليل مردم
٤ — ديوان الفرزدق	:	الفرزدق ، تحقيق الصاوى
٥ — تاريخ الأدب العربى	:	حنا فاخورى

جـــرير

(٤٢ هـ — ١١١ هـ)

حياته :

هو جرير بن عطية بن الخَطَفَى (١) ، والخطفى هو حُذَيفة بن بدر ، وينتهى إلى نزار ، وكنية جرير أبو حَزْرة ، ولد باليمامة سنة ٤٢ هـ فى خلافة عثمان ، وقيل إنه ولد لسبعة أشهر ، وإن أمه رأت قبل ولادته كأنها ولدت حبلا أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو ويقع فى عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة فأولت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاماً شاعراً ذا شرّ وشدّة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمته جريراً ، وهو الحبل ، وجعلت ذلك رمزاً إلى رؤياها . ونشأ بالبادية أعرابياً فقيراً يرعى غنيمات لأبيه ، فشبّ فصيح اللسان ، صحيح الوجدان ، مطبوع القريحة على الشعر ، وقد ظهر جرير فى عصر صراع سياسى وأدبى ، نجم من كثرة الأحزاب ، واختلافها وجهاتها ، فمن : أمويين ، إلى علويين ، إلى خوارج ، إلى زبيريين ، ورأى جرير الشعراء يسهمون فى هذه المعارك ويناصرون فريقاً على فريق ، وهذه الأحزاب تشجعهم ، وتسخو فى عطائها عليهم ، فكانوا بمثابة الصحافة الحزبية فى وقتنا الحاضر ، فبهر ذلك نفس جرير ، وحرك طموحه ، فانخرط فى هذا الميدان ، وكانت فيه موهبة دفعت به حتى صار فى الطليعة ، فارتاد البصرة مرة بعد أخرى ، ورأى الفرزدق ينعم بالعطايا ، وتقدير الأمراء ، فاشتد تطلعه إلى أن يظفر بما يظفر به الفرزدق وغيره ، وواتته الفرصة ، فقد رأى غسّان السَّليطى (وهو من بنى عمومته) يهجو

(١) الخطفى لقب غلب على جده حذيفة لأن هذا اللفظ ورد فى شعره ، ومعناه السريع السير .

قومه ، والناس مجتمعون حوله ، فثارت حميته ، ورد على غسانَ رداً أفحمه ، وأطرب القوم .

وانضم إلى السليطى شاعرٌ من بنى مجاشع ، (قوم الفرزدق) اسمه البعيث ، فهجاه جرير هجاء مراً ، ورأى الفرزدق هجاء جرير لبنى مجاشع قومه ، فدخل فى المعركة يهجو جريرا ، ولكن جريراً تصدّى له ، والتحمت بينهما حرب هجائية طويلة ، استمرت أربعين سنة ، واشترك فيها كثير من الشعراء ، وصيغت فيها النقائض التى سنذكر طرفًا منها فيما بعد ، وشغلت الناس زمناً ، وتتبعها علماء اللغة والرواة والأدباء ، ولم ينزع عنها جرير والفرزدق حتى وافاهما الموت .

وقد جاء رجل لجرير فسأله من أشعر الناس ؟ فقال : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذه بيده ، وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً فجعل يمصّ ضرعها ، فصاح به أخرج يا أبت ، فخرج شيخ دميم رثّ الهيئة ، وقد سال لبن العنزة على لحيته . فقال جرير : أترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أوَ تعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبى . أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب ، فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً فغلبهم جميعًا .

ولم يستطع جرير أن يفخر بعشيرته من كليب لأنهم كانوا فقراء خاملى الشأن بخلاء ، ولذا كان يفاخر ببنى يربوع وهم قبيلته العليا ، وفيهم شرف وعلو قدر . وكان يفخر أيضاً بمضر وفيهم النبوة والخلافة ، ومن ذلك ما قاله فى مفاخرة الأخطل :

إن الذى حرم المكارم تغلبًا جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

فلما بلغ الخليفة هذا الشعر قال : ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطياً ، أمّا لو أنه قال : لو شاء ساقكم إلىّ قطينا . لسقتهم إليه كما قال . وقد مات جرير باليمامة سنة ١١١ هـ فيكون قد عمر زهاء سبعين سنة .

آثاره :

له ديوان شعر يقع في جزأين طبع في مصر ١٨٩٥ ثم طبع بعد ذلك طبعات عدة ، وله نقائض جرير والفرزدق طبع في ليدن ١٩٠٥ ونقائض جرير والأخطل طبعة بيروت .

وكان شعره خالياً من التكلف والحشو والتعقيد ، يقوله عن سليقة ، وقد سار شعره بين الناس ، وأعجب به العامة والخاصة ، بينما شعر الفرزدق لم يدر إلا على ألسنة العلماء ، وقد أجمع أصحاب البصر بالشعر على أن جريراً والفرزدق والأخطل هم المقدمون على سائر شعراء العصر الأموى ، ثم اختلفوا في المفاضلة بينهم ، وقد فاضل بينهم مروان بن أبي حفصة ، وهو من كبار الشعراء في العصر العباسي، فحكم للفرزدق بالفخار ، وللأخطل بالمدح والهجاء .

ولجرير بجميع فنون الشعر ، فقد كان يجول في ميدان واسع ، وقال الشعر في أكثر الأغراض ، وأجاد فيها ، وأعانته على ذلك طبيعته الخصبة المواتية ، ولهذا كان النقاد يقولون عنه : « إنه يغترف من بحر » .

وكانت معانيه فطرية ، ليس فيها غور ، ولا تعمق فلسفى ، ولكنه كان يعرضها في مظهر أنيق من اللفظ ، كما أن صوره وأخيلته جاءت متصلة بالبادية التي ارتبطت بها حياته فترة كبيرة من الزمن ، ولكنه مع هذا قد تأثر تأثراً واضحاً بالإسلام وثقافته .

البائية المنصورة :

شاق الأخطل وقع الألسنة حداداً ، فتحرش بجرير ، فزادت النار به اشتعالاً ، وكان عُبَيْد الراعى بغنًى عن مهاجاة جرير ، ولـكنه أحب أن يصلى بناره فأحرقته ، ولم يستطع الثبوت له كما ثبت الفرزدق والأخطل، نخزى وأخزى قومه بنى نُمير ، والذى هاج العداوة بينهما أن الراعى كان يُسأل عن جرير فيقول : « الفرزدق أكرمهما وأشعرهما » فلقيه جرير وطلب إليه ألا يدخل بينهما ، وقال: « أنا كنت أولى بعونك ، إنى لأمدحكم . وإنه ليهجوكم » قال : «أجل ولست لمساءتك بعائد » ثم نمى إلى علم جرير أنه عاد إلى تفضيل الفرزدق عليه ، فلقيه بالبصرة ، وجرير على بغلته ، فعاتبه ، وقال : « زعمت أنك غير داخل بينى و بين ابن عمى » فأخذ الراعى يعتذر إليه ، و بينما هما واقفان لحق الراعى ابنه جَنْدَل ، فرفع كرْمانيةً معه ، فضرب بها عجز بغلة أبيه ، ثم قال : « لا أراك واقفاً على كلب من بنى كليب ، كأنك تخشى منه شرّاً ، أو ترجو خيراً ، وضرب الدابة ، فرمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته . فمرّ الراعى ولم يعرج عليه ، فانصرف جرير مغضباً ، ثم أقبل على المنزل الذى كان يقيم فيه بالبصرة ، وقال لراويته : « زد فى دهن سراجك الليلة ، وأعدَّ لوحاً ودواة ، وجعل يملى عليه مفتتحاً بقوله:

أقِلّىَ اللّومَ عاذِلَ والعتـــابا وقولى ، إنْ أصبتُ : لقد أصابا

حتى بلغ قوله :

فغضّ الطرف إنك من نُميرٍ فلا كعباً بلغت ، ولا كلابا

فوثب حتى بلغت رأسه السقف ، وجعل يردّده لايزيد عليه ، ويقول : أخزيته والله ، غصصته والله ، وقدمت إخوته عليه ، والله لا يفلح بعدها ، ولم يأت السحر حتى كان قد أكملها ثمانين بيتاً ، فلما أصبح وعرف أن الناس قد

جلسوا بالمِرْبد قال : يا غلام أسرج ، فأسرج له حصانا ، ثم قصد مجلس الراعى ، حتى إذا كان موقع السلام ، قال : يا غلام ، ولم يسلم ، ثم قال للراعى : أبعثك نسوتك تـكسبهنّ المال بالعراق ؟ أما والذى نفس جرير بيده ، لترجعنّ اليهنّ بمير يسوءهنّ ولا يسرهنّ ، ثم اندفع فيها فنكس الفرزدق وراعى الإبل ، وأزم القوم حتى فرغ منها فسار ، فقال الراعى من فوره لأصحابه : ركابـكم ، ركابـكم ، فليس لنا هاهنا مقام . .

قال الراعى : فسرنا إلى أهلنا سيراً ما ساره أحـد ، فوجدت البيت قد سبقنا إليهم ، وصار الرجل من بنى نمير إذا قيل له : من أنت ؟ قال : عامرى ، ويكنى عن نمير ، وقد شاعت هذه القصيدة ، حتى كان العرب يسمونها الفاضحة ، ويسميها جرير : الدامغة لشدة تأثيرها ، ويسمى قافيتها : (الباء) المنصورة ، لأنه ما قال عليها قصيدة إلا انتصر بها . وهذه القصيدة على طولها لم يرد منها فى ديوان جرير أكثر من عشرين بيتاً .

مدح عبد الملك :

لم يُعرف جرير فى بلاط الأمويين إلا بعد أن طارت شهرته فى خلافة عبد الملك بن مروان . وكان اتصاله أولا بالحجاج بن يوسف ، وهو على العراقين ، فمدحه ونال جوائزه ، فأوفده الحجاج فى صحبة ابنه محمد إلى عبد الملك ، وكان لا يسمع لشعراء مضر ، ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زُبيريةً ، فلما دخل عليه جرير بعد لأى ، قال له عبد الملك : ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا :

من سدّ مُطّلَعَ النِّفاق عليكمُ أو مَنْ يصولُ كصولة الحجاج

إن الله لم ينصرنا بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته ، وظهر الغضب فى وجه عبد الملك ، فتوسط ابن الحجاج فى الرضا ، فاستأذن جرير فى الإنشاد ، وأنشد قصيدته تلك ، حتى بلغ قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتبسم عبد الملك وقال « كذلك نحن » وأمر له بمائة من الإبل ، وثمانية أعبد لرعايتها .

وقد جرّد جرير من نفسه شخصاً يخاطبه ، فيقول أتقلع عن غوايتك ؟ أم تظل حزيناً لفراق الأحبة الذين عزموا على الرحيل ، وها هى ذى نسوة لأمامات يستنكرن منى أن أكون محباً ، وقد جرى الشيب فى رأسى ، ثم يجرى حواراً بينه و بين زوجته ، فهى تشكو سوء الحال ، وهو يمنيها بأن الخليفة سيحقق له الآمال ، ثم تخلص إلى مدح الخليفة فوصفه بالكرم والشجاعة ، ولا عجب فى ذلك فإنكم أفضل الناس . وأكرم الخلق طراً .

والقصيدة معانيها قريبة الخطور بالبال ، فنى استطاعة كل شاعر أن يبالغ فيقول لممدوحيه أنتم خير الناس وأكرم الناس وأشجع الناس ، ولكن الذى جمّل هذا الأسلوب إخراجه على هذه الطريقة من أسلوب الاستفهام التقريرى ، فأخرج المعنى فى صورة الحقيقة الواقعة والأمر المسلم به ، وزاد فى حسنها ذلك الحوار الذى ساقه بين نفسه و بين زوجته .

وقد أخذ النقاد على جرير ــ مع هذا ــ جملة مآخذ منها : سوء المطلع . فهو وهو و إن كان يخاطب نفسه ، إلا أنه واجه به الخليفة ، فعابه عليه وتألم وقال له : بل فؤادك أنت .

ومنها : أنه جعل شكره مبنياً على عطاء الخليفة « سأشكر إن رددت على ريشى » وكأن الخليفة لا يستحق الشكر إلا إذا أعطى .

ومنها : هذه المبالغة والغلو ، حيث جعل من الأمويين : أكرم الناس طراً وأشجع الناس جميعا ، وزاد من ذلك تصريحه بالاستجداء « أغثنى ــ يا فداك أبى وأمى » .

المنتخبات

أولا ـ البائية

أَقِلِّى اللَّوْمَ عاذِلَ والعِتَابَا وقُولِى إنْ أصبْتُ لقدْ أصَابَا
أَجِدَّكَ لا تَذَكَّرْ عَهْدَ نَجدٍ وحَيًّا طَالَمَا انتظروا الإيابا
بلى ، فارْفُضْ دُموعَك غيْرَ نَذر كما عَيَّنْتَ بالسرب الطِّبَابَا(١)
وَهَاجَ البرقُ لَيْلَةَ أَذْرِعَاتٍ هَوًى ما تستطيع له غِلابا
علوت عليك ذِرْوة خِنْدِفيٍّ ترى من دونها رُتَبًا صِعَابا
لَنَا حَوْضُ النَّبىِّ وساقياه ومن وَرِث النُّبُوَّةَ والكتابا
ألسنا أكْثَرَ الثَّقلَيْن حيًّا ببَطنِ مِنىً ، وأكثرهم قِبَابَا

— ٢ —

إِذَا غَضِبتْ عَليكَ بنو تميمٍ حَسِبتَ الناسَ كلَّهُمُ غضابا
فَلاَ وأبيك ما لاقيتُ حيًّا كَيَرْبُوعٍ إذا رَفَعُوا النِّقَابا
فَغُضَّ الطَّرف إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعبًا بلغْتَ ولا كِلابا
فلو وُضِعَتْ فِقَاحُ بنى نُمَيْرٍ على خَبَثِ الحديد إذاً لذابا

---

(١) التعيين : أن يصب فى الوعاء ماء فينظر من أين يسيل ، فيسد خلله . الطباب : الجلدة تضرب على أسفل المزادة . السرب : السيلان .

موضوعات للبحث

١ — جرير شاعر البدو ، والأخطل شاعر الحضر ، والفرزدق شاعر يهيم بعبقريته — ناقش .

٢ — يقولون إن البيت :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

أمدح بيت قالته العرب ، اكتب مقالاً فى ذلك .

٣ — سئل الأخطل : أيكم أشعر ؟ .

فقال : أما أنا فأمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر ، وأما جرير فأنسبنا وأسهبنا وأما الفرزدق فأفخرنا . ناقش .

المراجع

١ — جرير : فؤاد إفرام البستانى

٢ — جرير : جميل سلطان

٣ — الرءوس : مارون عبود

٤ — تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب

٥ — تاريخ النقائض فى الشعر العربى : أحمد الشايب

٦ — الأدب العربى وتاريخه : محمود مصطفى

النّقـــائض

عُرفت القصائد الهجائية التى تبادلها جرير وغرماؤه ، ولا سيما الفرزدق والأخطل بـ (النقائض) وطار هذا اللون من الشعر فى العصر الأموى ، واهتمّ له أهل اللغة ، وقد كان معروفاً من قبل ولـكنه لم يكن بهذه الـكثرة ، وهذا الشيوع ، والأصل فيه : أن يقول الشاعر قصيدة فينقضها عليه خصمه ، أى يرد عليه ، مفاخراً ويتعقب أفـكاره ومعانيه فينفيها أو يهجّنها ، ويقلبها إلى ذم وقدح ويضيف إليها مثالب أخرى ، وهو فى كل هذا يلتزم ماالتزمه صاحبه من الوزن والقافية .

المناقضة بين جرير والفرزدق

أول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير بالهجاء (يائيته) التى أولها :

ألم تر أنى يوم جوِّ سُوَيقة بكيتُ فنـادتنى هُنَيْدَةُ ماليا

ثم يمضى الشاعر فى ذكر صاحبته ، حتى إذا فرغ التفت إلى البيت الذى استعان به على جرير فهجاه ووصفه بالضعف والجبن وسوء النسب ، ثم ينتقل إلى جرير فيسبّه ، ويصفه بالذلة والقلة ويفخر عليه بحسبه ونسبه ، ولا يطيل ، وقد ردّ عليه جرير(بيائيته) ، التى أولها :

ألاَ حَيِّ رَهبًا ثم حىِّ المطاليا فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا

وفيها غزل رقيق ، ثم يعاتب أباه وأسرته لـكثرة مايسيئون إليه ويخذلونه ، مع أنه لا يلقاهم إلا بالمعروف ، ثم يفرغ للفرزدق فيهجوه وينعت أسرته بأنهم صُنّاع أغلال وقيود ، لا شرف لهم ، ويصف خصومه بالغدر .

اللاميتان :

من أشهر القصائد التى فخر بها الفرزدق ، وهجا فيها جريرًا هـذه اللامية ، ثم انثنى له جرير يرد عليه وينقضها بيتاً بيتاً ، فالفرزدق يفخر فى لاميته على

جرير بأن الله أعطاهم شرفاً أسمى من كل شرف ، وأن الله الذى رفع السماء هو الذى يرعاه ، وقد انتظم هذا الشرف غطارفة عظاماً هم آباء الفرزدق ، وليس فى آباء جرير من يدانيهم إذا ما عدّت الأفعال الفاضلة ، وكيف يدانيهم وهو من بيت مغمور أوهى من بيت العنكبوت ، واستمر الفرزدق فذكر أن آباءه وقومه أعزة شجعان ليسوا ضعافاً خاملين كقوم جرير ، وملابسهم فى الحروب هى الدروع ، ولهم عقول تزن الجبال رجاحة ، وإذا نابذهم أحد بالشر انقلبوا عليه كالصواعق ، وإذا كان الأمر كذلك فلن يستطيع جرير أن ينال من مجد الفرزدق ، وإن فعل فهو .

كناطح صخرة يومًا ليوهنهـا　　فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

ثم يهون الفرزدق ويقلل من شأن أخوال جرير ، ويفاخره بأخواله ذوى المناصب الـكريمة ، ثم يسجل على جرير بأنه قد شغل عن طريق المجد والرفعة بصغائر الأمور .

وقد ردّ عليه جرير بلاميته ينقض فيها ماقال الفرزدق . ونرى فى هذه القصائد عودة إلى ما كان الإسلام قد قضى عليه من التكاثر بالعدد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، وقد غضّ بنو أمية أبصارهم عنه وتلقفته العامة واجدة فيه ملهاة ، ومنتصرة لهذا الشاعر أو ذاك .

المنتخبات

أولاً – لامية الفرزدق

إن الذى سمكَ السماء بنى لنــا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول[١]

بيتاً بناه لنــا المليكُ ، وما بنى حكم السماء فإنه لا يُنْقل

بيتــاً زرارةُ مُحْتَبٍ بفنــــائه

ومجاشِعٌ ، وأبو الفوارس نهْشَـل[٢]

لا يحتبي بفنــاء بيتك مثلُهم أبداً إذا عُدَّ الفَعال الأفضل[٣]

ضربت عليك العنـــكبوت بنسجها

وقضى عليك به الـكتاب المنزل[٤]

وإذا بَذَخْتُ ورايتى يمشى بهــــا

سُفْيان ، أو عُدُس الفَعَال ، وجَنْدل[٥]

---

(١) سمك السماء : رفعها . الدعائم : الأعمدة التى تقيم البيت ، والمفرد دعامة ، يريد أن الله أعطاهم شرفاً أعز من شرف جرير وقومه .

(٢) زرارة ومجاشع ونهشل : من أجداد الفرزدق . محتب : جالس ، والاحتباء ، هو أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بثوب أو غيره .

(٣) الفعال : الفعل الحسن .

(٤) ضربت عليك : نبت عليك ، والمعنى أن بيت جرير فى الضعف كبيت العنـكبوت .

(٥) بذخت : فخرت .

الأكثرون إذا يُعدُّ حصَاهُمُ ... والأكرمون إذا يُعدُّ الأوَّل[١]
إنّ الزحام لغيركم ، فترقّبُوا ... وِرْدَ العشىِّ إليه يخلو المنهَلُ[٢]
حلَلُ الملوكِ لباسُنا فى أهلنا
والسابقاتِ إلى الوغى نتسرْبل[٣]
أحلامنا تزن الجبالَ رزَانَةً ... وتخالُنا جِنًّا إذا ما نجهل[٤]
فادْفَع بكفِّكَ ، إن أردت بناءنا
شهلانَ ذا الهضباتِ ، هل يتحلحل ؟ —[٥]
يابن المراغة أين خالُك ، إنّنى
خالى حُبَيْشٌ ذو الفَعَال الأفضل[٦]

---

(١) يعد حصاهم : إذا عدوا كانت فيهم كثرة بالغة .

(٢) الزحام : التزاحم عند ورود الماء . لغيركم : المراد الأقوياء . ترقبوا : انتظروا . ورد العشىء : ورود الماء ليلا ، أى حين يخلو من المتزاحمين ، وذلك لضعفهم . المنهل : مورد الماء .

(٣) حلل الملوك : ثيابهم . السابغات : الدروع . الوغى : الحرب .

(٤) أحلامنا : عقولنا .

(٥) شهلان : جبل عظيم بنجد . الهضبات : جمع هضبة ، وهى هنا الجبل المكون من صخرة واحدة . هل يتحلحل : لا يتحرك .

(٦) ابن المراغة لقب جرير ، لقبه به الفرزدق والأخطل .

خالى الذى غَصَبَ الملوكَ نفوسَهم
وإليه كان حِبَاءُ جَفْنَةَ يُنْقَلُ [1]

وشُغِلْتَ عن حَسَبِ الكرام وما بنوْا
إن اللئيمَ عن المكارم يُشْغَلُ [2]

إن التى فُقِئَتْ بها أبصارُكُمْ
وهى التى دَمَغَت أباكَ ـ الفَيْصَلُ [3]

وهبَ القصائدَ لى النوابغُ إذْ مَضَوْا
وأبو يزيدَ ، وذُو القُروح ، وَجَرْوَلُ [4]

ثانياً — لامية جرير

أعددتُ للشعراء سُمّاً ناقعاً فَسَقَيْتُ آخرَهم بكأسِ الأولِ [5]

---

(١) الحباء : العطاء ، والمراد هنا الضريبة . جفنة من أبناء الغساسنة ، وهم ملوك الشام فى الجاهلية .

(٢) حسب الكرام : مجدهم وشرفهم . ما بنوا : أفعالهم الطيبة التى ترفع قدرهم .

(٣) فقئت : قلعت ، والضمير عائد على القصيدة ، دمغت أباك : محقته . الفيصل : القضاء بين الحق والباطل ، وهذه القصيدة كانت تسمى (الفيصل) .

(٤) النوابغ : النابغة الذبيانى ، والنابغة الجعدى ، والنابغة الشيبانى ، وأبو زيد : هو المخبل السعدى . ذو القروح : امرؤ القيس . جرول : هو الحطيئة .

(٥) ناقعا : قاتلا .

لمـــا وضعتُ على الفرزدقِ ميسَمى
وضَفَا البعيثُ جدَعتُ أنف الأخطل[١]

أخزى الذى سمكَ السماءَ مُجاشِـــمًا
وبنى بنـاءك فى الحضيض الأسفل[٢]

ولقد بنيتَ أخسَّ بيتٍ يُبْتَنى   فهدمْتُ بيتَـكُمُ بِمثْلَيْ يَذْبُلِ[٣]

إنى انصَبَبْتُ من السماء عليكمُ   حتى اختطفتُك يافرزدقُ من علِ

أحلامنا تزن الجبـالَ رزانةً   ويفوقُ جاهلنا فعالَ الجُهَّل

كان الفرزدق إذ يعوذُ بخالِهِ   مثلَ الذليل يعوذُ تحت القَرْمَل[٤]

إن الذى سمك السماء بنى لنا   عزًّا علاك ، فما له من مَنْقَل

---

(١) الميسم : المكواة ضفا : تذلل . جدع الأنف : قطعه ، والمعنى سلطت شعرى على الفرزدق فلذعته كالنار ، وعلى الأخطل لحط منه وشوهه .

(٢) مجاشع : قوم الفرزدق . الحضيض : المكان المنخفض .

(٣) يذبل : جبل بنجد .

(٤) القرمل : شجر ضعيف لا ورق له .

الباب الثاني

النثر

الفصل الأول

النثر فى صدر الإسلام

القرآن الكريم

كتاب أنزله الله على نبيه ، ليكون برهان نبوته ، ودليل رسالته ، وشرع به سياسة الدين والدنيا ، وضمن السعادة لمن اتبع سبيله ، واهتدى بنوره ، حكم بالغة ، وأمثال بجامع القلوب آخذة ، وحجة تخرس المنطيق ، وتأخذ على الباطل الطريق ، قد صاغ من تلك الأمة المفككة العُرى ، المقطوعة الأواصر شعباً يجتمع على كلمة واحدة .

والقرآن باعتباره كتاباً أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير لا يجرؤ النقد البيانى على أن يطير فى جنباته ، وباعتباره معجزة الرسول تحدّى به العرب أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله فعجزوا .

نزول القرآن :

نزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة تبتدىء من يوم أنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغار حراء ، وتنتهى بوفاته عليه السلام ، وكان بدء ما نزل عليه : « إقرأ باسم ربك الذى خَلَق خلق الإنسان من علق اقرأ وربُّك الأكرَمُ الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم » وآخر ما نزل « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وقد نزلت أكثر سور القرآن والرسول عليه السلام بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فقد مكث بها داعياً قرابة ثلاث عشرة سنة ، ونزل بعضه الآخر

فى المدينة بعد هجرة الرسول ، وظلّ ينزل فيها نحو عشر سنوات ، وكان ما نزل منه بالمدينة ـ باتفاق ـ عشرين سورة، واختلف فى موطن نزول اثنتى عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكىّ باتفاق .

جمع القرآن :

كان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة ، فلم يكن القرآن خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ، ووحدة الأسلوب ، وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض ، وإنما تجمّع على هذه الصورة ، ودوّن بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولا فأولا محفوظاً فى الصدور أو مسطوراً فى الصحف . ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ، ولا على حسب موضوعه ، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار ، أو لتشابه الأسباب .

كتابة المصاحف :

فى عهد عثمان انتشر القرآن فى الأمصار كالعراق والشام ومصر ، وقد احتاج المسلمون إلى مصحف يجتمعون عليه ولا يشذّ أحد عنه ، فعهد عثمان إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيرهما فى أن يكتبوه ، فلما نسخوا الرّقاع فى المصاحف أرسل إلى كل مصر من الأمصار المشهورة مصحفاً ، وألزمهم القراءة على حسب ما فيه ، وكانت هذه المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة ، فلما اخترع الشكل بعدُ نقطت المصاحف ، ثم شكلت على النحو الذى نراه اليوم .

قراءات القرآن :

« المعروف الآن للقرآن أربع عشرة قراءة : سبع منها مرويّة بالتواتر ،

وبقية العشر آحاد ، وما عداها شاذ ، وقد كانت هناك قراءات أكثر من ذلك لم تدون ، وإن كان قراؤها من الصحابة ، وإنما كان تعدّد القراءات رحمة من الله للعرب ، فإن فيهم الشيخ الذى لا يستقيم لسانه إلا بلهجته ، فتحويله عنها مشقة لم يردها الله بهم ، لذلك قيل : إن جبريل نزل على النبى بالقراءات المختلفة ، فكان النبى يُقرِىء كلاً بلهجته ، فيمدّ بقدر الألف أو الألفين أو الثلاثة لمن لغته كذلك ، ويفخم ويرقق ويُميل ويُشم لمن تقتضى لغته ذلك ، وكلّ هذا بلغة قريش ومن حولها ، لا يتعداها إلى غيرها ، لأن العرب كانت قد سبقت ، فأجمعت على لغة قريش قبيل الإسلام ، وخطب بها الخطباء ، وأنشد الشعراء .

واللهجات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش هى لهجة بنى سعد ، وثقيف ، وخُزَاعة ، وهُذَيل ، وكنانة ، وأسَد ، وضَبَّة ، ثم قيس وأكنافها ، وهم يسكنون وسط الجزيرة ، وجاء فى القرآن بعض ألفاظ من لغات غير عربية ، ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط ، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل ، وقد صقلها العرب على لسانهم ، وأجروها على أوزانهم ، فصارت بذلك عربية [1] » .

أسلوب القرآن :

وللقرآن أسلوب بليغ فصيح سما فوق ما كانت تنهجه العرب وتنسجه فى نظمها ونثرها ، حتى قسّم بعضهم اللغة إلى نظم ونثر وقرآن ، لحسن تأليفه . وانسجام كلماته ، وجمال إيجازه ، وقوة حجته ، وبديع أمثاله ، واطراد قصصه ، كل هذا وغيره أحله منزلة رفيعة قصر دونها أسلوب البلغاء والفصحاء من العرب ،

(١) محمود مصطفى : الأدب العربى وتاريخه ص ١٦ .

لا يمل قارئه ، ولا يَخلق بترديده ، قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريباً ، وهى مع سهولتها جزلة عذبة متساوقة لا تُحسّ فيها خشونة أو بنُوا ، فإذا أضيف إلى ذلك سموّ معانيه و إصابة أهدافه أدركنا سرّ إعجازه و بلاغته .

ونلاحظ أن أسلوب القرآن كان يلبس لكل حالة لبوسها ، و يسير وفق أحوال الناس إزاء الدعوة الإسلامية ، فهو فى أكثر السور المكية كسورة (ص) قصير الآيات ، قوى المقاطع ، قوى المعانى ، فى تهديد ووعيد . وهو فى السور المدنية فى غير الغزوات ، طويل الآيات ، هادىء المقاطع ، يفيض ليناً ورحمة و يبعث الأمل .

إعجاز القرآن :

تضافرت الأدلّة ، وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز ، و إنما الخلاف فى سبب إعجازه ، فمن قائل إنه شرفُ الغرض ، وتنوّع القصد ، والإخبار بالغيب ، ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة ، والمذهب الواضح ، والأسلوب الموثق ، ونحن إلى هذا الرأى أميل ــ كما ذكرنا آنفا ــ فإن القوم الذين تُحدوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء ، حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة ، إنما كانوا بلغاء فطاحل ، وخطباء مصاقع ، وشعراء فحولاً ، وفى القرآن من دقة التشبيه والتمثيل ، و بلاغة الإجمال والتفصيل ، وروعة الأسلوب ، وما يُعجز طوق البشر و يخرس المعارضين بالسكات والحصر[١] .

أغراض القرآن :

جاء القرآن الكريم يدعو البشرية إلى الإيمان بالله وتوحيده منفراً من عبادة الأصنام والأوثان والأشخاص مشيراً إلى أن هناك يوما سيحاسب فيه

(١) احمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ـ ص٨٨ بتصرف .

الإنسان على ما قدمت يداه وهو يوم القيامة والقارعة التى تقرع القلوب بهولها وشدائدها ، كما اشتمل على نظام الأسرة من آداب وزيارة وتعامل وحقوق الجار والزواج والطلاق والميراث ، ونظام المجتمع وعلاقته بخالقه ، وتقرير العدالة والقضاء ، وتحديد المعاملة الحسنة فى البيع والشراء إلى غير ذلك مما يكفل حياة فاضلة ، ومجتمعاً مثالياً .

أثر القرآن في الأدب واللغة :

تسابق العرب والمسلمون إلى حفظ القرآن ، فنسجوا على منواله ، واقتبسوا من آياته وتشبعت نفوسهم بجماله فنضحت فى أدبهم شعراً ونثراً ، وما ورد فيه من قصص حمل المسلمين على العناية بالتاريخ ، كما كان القرآن سبباً فى نشأة كثير من العلوم كالتفسير وعلوم البلاغة . وقد حفظ القرآن اللغة العربية من الانقراض فهى باقية ما بقى القرآن ، وقد صرّح الله سبحانه بهذا فى قوله « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » كما أنه وحّدَ لهجاته ، وأثرى اللغة بكثير من الألفاظ مثل : المؤمن ، والكافر ، والصلاة ، كما أنه كان سبباً فى التوسع فى استعمال بعض الألفاظ لتتسع للمعانى الدينية .

الحديث الشريف

الحديث الشريف هو : قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه ، فهو فى المنزلة الثانية من كتاب الله ، فيما يتعلق بالدين والثقافة والأدب ، وأغزر ينابيع التشريع فى العبادات والحقوق ، وأهدى الطرق وأقومها إلى فهم مرامى القرآن ، يوضح إشكاله ، ويفصل إجماله ، ويقيد إطلاقه ، ويخصص عمومه ، والأحاديث التى صحت عن رسول الله قليلة ، وهى موسومة بطابع العبقرية ، وتنضح بالطهر والجلال والخير والفصاحة ، حتى لقد قال له أبو بكر الصديق : « لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ » فقال الرسول عليه السلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وكما أعدّ الله رسوله وصنعه على عينه ليحمل أداء هذه الرسالة الكريمة ، كذلك جمّله بالفصاحة ، وأنطقه بالبلاغة ، على الرغم من أنه لم يجلس إلى معلم ، ولم يمسك قلماً ، فجعله من قريش ، وهى فى سنام العرب فى الفصاحة ، واختاره من أكرم بيوتها نسباً ، ثم كانت رضاعته فى بنى سعد ، وهم من أفصح القبائل ، ولذا قال عليه السلام : « أنا أفصح العرب بَيْدَ أنِّى من قريشٍ ، ونشأتُ فى بنى سعد بن بكر » ولم تقف عناية الله برسوله إلى حدّ المولد والنشأة ، بل علمه لغات العرب كلها ، فكان يخاطب كل قبيلة بلهجتها فيبزّهم ، ولم يثبت أن الرسول طاف بتلك القبائل وأقام فيها حتى يجيد لهجتها ، ولقد قال له على — كرم الله وجهه — حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد : « يارسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه » فأجابه رسول الله بما أجاب به أبا بكر آنفاً .

تدون الحديث :

وهذا الحديث لم يدون فى حياة الرسول عليه السلام ، كما دوّن القرآن ، بل

كان يرويه الصحابة من ذاكرتهم ، فكانوا يروون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا ، أو فعل كذا ، بناء على ماشاهدوه ، أو سمعه بعضهم من بعض ، وانسلخ العصر الأول ولم يدون الحديث ، وإنما كان يروى مشافهة وحفظاً ، ولكن بعض الصحابة كعبد الله بن عمر كان يدونه لنفسه لا ليكون مؤلفاً عاماً للناس . وفى القرن الثانى للهجرة شرع الناس يجمعون الحديث ويدونونه فى الكتب .

أغراض الحديث :

للحديث منزلة دينية سامية تلى منزلة القرآن قداسة ونفعاً ، قال الرسول عليه السلام فى خطبته فى حجة الوداع : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله ، وسُنّة رسوله » فالحديث بين ماورد بالقرآن مجملا — كما ذكرنا من قبل — فمثلا : الصلاة لم يذكر القرآن عددها وكيفياتها ولا أوقاتها ، ففصل الحديث كل ذلك و بينه ، وكذلك الزكاة .

أثر الحديث :

للحديث الشريف أثر كبير فى الثقافة والأدب واللغة والدين ، فبها يستعين مفسرو القرآن ومنها تستنبط الأحكام الشرعية وتوضح كالصلاة والزكاة والصوم والمعاملات ، ومنها يقتبس الخطباء والكتاب والشعراء .

بلاغة الرسول :

كان رسول الله يوجز غالباً ليعقل عنه مايقال ، ولم يكن ذلك بمانعه من الإطالة حين يقتضى المقام ذلك ، ولقد تجنب سجع الكهان والشعر ، فكان كلامه أبلغ كلام عرف بعد القرآن ، وقد وصفه غير واحد ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين :

كلامه صلى الله عليه وسلم هو الكلام الذى قلّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يامحمد « وما أنا من المتكلفين » فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحابَ التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسيط ، والمقصور فى موضع القصر وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السُّوقىّ ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويُسّرَ بالتوفيق ، وألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطّوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم ، إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتجّ إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلْجَ إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يَهْمِز ولا يَلْمِز ، ولا يُبْطِئ ، ولا يَعجل ، ولا يُسْهِب ، ولا يَحْصَر ، وما سُمِع كلام قطّ أعمّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وقال القاضى عياض فى الشفاء :

وبعد فقد كان صلى الله عليه وسلم فى بلاغة لسانه : « بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، وفصاحة لفظ وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخُصّ ببدائع الحكم ، وعِلْم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها .... »

الخطـــابة

توافر للخطابة فى صدر الإسلام دواع كثيرة هيأت لها أن تصل إلى مستوى لم تصل إليه من قبل، حتى خمد ريح الشعر، وقويت ريح الخطابة.

عوامل رقيها :

أولا : ظهور هذا الدين الجديد الذى احتاج إلى الخطابة فى الدعوة إليه وتأييده.

ثانيا : ابتذال الشعر قبيل ظهور الإسلام، حتى عدا أداة للتكسب مما صرف سادة العرب عنه إلى الخطابة.

ثالثا : ظل العربى متمتعاً بحريته فخوراً بفصاحته معتمداً على الكلام بدل الكتابة لأميته.

رابعا : انتشار الفتوح الإسلامية، واعتماد الخلفاء. وقواد الجيوش على الخطابة للحث على الجهاد، ولهذا كان قواد الجيوش يختارون شجعاناً فصحاء.

خامسا : اتخذها الإسلام ركيزة من ركائزه ووسيلة من وسائله فى الجمعة والعيدين ومواسم الحج.

أغراضها :

الدعوة إلى الإسلام، وتحميس جيوش المسلمين، ورسم سياسة الدولة، والوعظ والإرشاد.

مميزاتها :

كانت الخطب فى صدر الإسلام تبدأ غالباً بحمد الله والثناء عليه، وإذا خلت من ذلك سميت جذماء، وتمتاز بقوة العبارة، وسهولة الألفاظ، وقلة السجع، ثم هى تحاكى أسلوب القرآن وتستمد منه موضوعات وآيات ومعانى، وإذا خلت من آية من آيات القرآن سميت شوهاء.

عثمان بن عفان

(— ٣٥ هـ)

حياته :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد فى السنة السادسة من الفيل ، وتربى فى أسرة موسرة ، وكان على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ، ومنها الأنساب والأيام ، ولما جاء الإسلام ، أسلم ، وكان ممن دعاهم الصديق إلى الإسلام ، وهاجر الهجرتين ، الأولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة ، وتزوّج رقيّة بنت الرسول قبل النبوة ، ولما ماتت زوّجه الرسول بأختها أم كلثوم ، ولا يعرف أحد تزوج بابنتى نبى غيره ، ولذلك سمى ذا النورين ، فهو من السابقين الأولين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، وقد استخلفه الرسول على المدينة ، فى غزوته إلى ذات الرقاع ، وإلى غطفان ، ورُوى له عن الرسول ستة وأربعون ومائة حديث ، وكان كاتبا يجيد الكتابة ، فاعتمده الرسول فى تدوين الوحى .

وكان أول الناس إسلاماً بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة ، بويع بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال أى سنة ٢٣ هـ ، وظل بها اثنتى عشرة سنة ، وقد قتل مظلوماً سنة ٣٥ هـ بدعوى أنه استعمل أقرباءه ، وأهل بيته على الولايات.

خطبة التولية :

يصرح عثمان رضى الله عنه : بأن الدنيا ليست دار إقامة ، ويجب أن يبادر الإنسان إلى فعل الخير فى حياته ، فهو تحت رحمة الأقدار فى كل ساعة ، ولا يدرى

متى يودّع هذه الدار ، ولا يصح أن يغتر بالدنيا وزخرفها ، و بما يلقاه فيها من نعيم ، وأن يتخذ من الموت عبرة ، فقد مات آباؤنا وأصدقاؤنا ، ثم غادروا هـذه الدنيا ولم يحملوا معهم شيئاً .

ولقد وفق الخليفة فى التزهيد فى الدنيا ، والتحقير من شأنها ، والمبادرة إلى العمل الصالح فى الحياة قبل انتهاء الأجل ، ونلمس فى الخطبة الاقتباس من القرآن الـكريم ، وهو متناسب مع غرضه ، ومع أن هذه أول خطبة للخليفة عثمان وهى خطبة مبايعته بالخلافة ، وتوليته أمور المسلمين ، إلا أنه لم يرسم فيها منهاجه فى سياسة الأمة ، و يوضح طريقته فى الحـكم ، كما فعل أبو بـكر وعمر ، بل اقتصر فيها كما سترى فى النص على موضوع واحد ، وهو التزهيد فى الدنيا . و إنه لم يصرح بمنهجه فى تلك الخطبة إلا أن خطبه اللاحقة ، قد جاءت بشىء من منهجه فقال مثلا فى إحدى خطبه التالية : « إنى قد حملت ، وقد قبلت ، ألاَ و إنى متبع ، ولست بمبتدع ، ألاَ و إنّ لـكم علىّ بعد كتاب الله عزّ وجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم وسنّ سُنّة أهل الخير فيما لم تسنوا .. والـكف عنكم إلا فيما استوجبتم ، ألاَ و إن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ، ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها » .

المنتخبات

خطبة التولية

المناسبة :

(اجتمع أهل الشورى بعد وفاة عمر بن الخطاب وهم : عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوّام ، وسعد بن أبى وقّاص ، واتفقوا على مبايعة عثمان[1] ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى ، وقال) :

إنكم فى دار قُلْعة[2] ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صُبّحتم أو مُسّيتم ، ألاَ وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تَغُرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرّنكم بالله الغَرُور ، اعتبروا بمن مضى ، ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَروها ، ومُتّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلا ، والذى هو خير ، فقال عزّ وجلّ : « واضْرِبْ لهم مثلَ الحياةِ الدُّنيا كماء أنزلناه من السَّماء ، فاختلط به نباتُ الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرِّياحُ ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربّك ثوابا وخيرٌ أملا » .

(١) طلحة بن عبيد الله من أهل الشورى ، ولكنه لم يحضر هذا الاجتماع .
(٢) لا مقام فيها ، بل سنرحل عنها .

على بن أبى طالب

(٦٠٠ — ٦٦١ م)

حياته :

هو على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين ، وأعظمهم شهرة أدبية ، ولد حوالى سنة ٦٠٠م ، ورُبِّىَ فى حِجر الرسول عليه السلام ، ولما بُعث الرسول سنة ٦١٠ م . كان علىّ أول من آمن به من الصبيان ، واشترك إلى جانبه فى المعارك ، وأبدى من ضروب الشجاعة ما كان يعجز عن مثله الكماة .

قوته وشجاعته :

كان قوياً فى شبابه ، وظل كذلك حتى ذرّف على الستين ، و بلغ من القوة أنه كان يرفع الفارس بيده فيضرب به الأرض من غير جهد ، ولم يُصارع أحداً إلا غلبه ، ولم يبارز أحداً حتى قضى عليه ، ففى موقعة الخندق خرج عمرو ابن ودّ فارس الجزيرة العربية مُقنّعاً فى الحديد يصيح فى جيش المسلمين من يبارز ؟ فصاح علىٌّ : « أنا له يا نبى الله » . قال النبى عليه السلام ، وهو مشفق على علىّ : « إنه عمرو ! ! اجلس » ثم عاد عمرو ينادى : « ألاَ رجل يبرز ؟ ؟ » وجعل يُؤنبهم و يوبخهم قائلاً : « أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلىّ رجلا ؟ » فقام علىّ مرة بعد مرة وهو يقول : « أنا له يا رسول الله » ورسول الله يقول له مرّة بعد مرة : « اجلس ، إنه عمرو » وهو يجيبه : « و إن كان عمراً » حتى أذن له ، فمشى إليه لايهابه ولا يخافه ، ثم نظر إليه عمرو فاستصغره ، وأقبل يسأله : « من أنت ؟ » قال : «أنا علىّ » قال : « ابن عبد مناف ؟ » قال : « ابن أبى طالب » فأقبل عليه عمرو يقول :

« يا ابن أخي! مِنْ أعمامك مِنْ هو أسنّ منك ، وإنى أكره أن أهريق دمك »
فقال له عليّ : « لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك » فغضب عمرو ، وأهوى إليه بسيف كأنه شعلة نار ، واستقبل عليّ الضربة بدرَقته فقدّها السيف ، وأصاب عليا ، ثم ضربه على فسقط ونهض ، وثار الغبار فما انكشف إلا عن عمرو قتيلا ، وعليّ يجأر بالتكبير ، وكانت أخت عمرو بن ودّ تنشد على سبيل التأسى بعد قتله :

لو كانَ قاتلُ عمرو غيرَ قاتله ... بكيته أبداً ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لانظـــــير له ... وكان يدعى أبوه بيضة البلد

ومن شجاعته إقدامه على النوم فى فراش النبى صلى الله عليه وسلم عند ماائتمر المشركون على قتله ، وأخبر الله نبيه بذلك ، وهذه شجاعة من على دونها كل شجاعة ، وعندما رآه المشركون رجعوا بالخيبة .

خضوعه للحق :

كان من صفات على الواضحة خضوعه للحق ، ومن ذلك أنه فُقدت درع له ، ثم وجدها عند نصرانىّ ، فذهب به إلى شريح ـ قاضيه ـ يخاصمه ، كما يقاضى الرجلُ الرجلَ من عامّة الأمة ، وقال : إنها درعى ، ولم أبع ، ولم أهب ، فسأل شريح النصرانىّ : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب . فسأل شريح علياً : « يا أمير المؤمنين هل من بيّنة ؟» فابتسم عليّ وقال : « أصاب شريح ! مالى بينة » وقضى شريح بالدرع للنصرانىّ ، فأخذها ومشى وعلى ينظر إليه ، و بعد أن سار النصرانى قليلا قال : « أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدنينى إلى قاضيه ، يقضى عليه : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ! الدرع ، والله درعك يا أمير المؤمنين » فقال على : « أمّا إذ أسلمت فهى لك » .

عليّ والخلافة :

لما لحق الرسول بربه كان عليّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والإصهار ، فلما بايع المسلمون أبا بكر ، وقام من بعده عمر ، ثم استقرت الشورى على عثمان ، ناوص الجرّة ثم سالمها ، متحاملاً فى كل ذلك على نفسه ، وقتل عثمان فبايعه الناس فى الحجاز سنة ٣٥ هـ . وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان ، وقعود عليّ عن القتلة .

وكانت موقعة الجمل أول معركة يحارب فيها عليّ خصومه ، فقد ثار طلحة والزبير بعلى ـ تساندهما عائشة زوج النبى ـ فسار إليهم وانتصر عليهم ، وبقى عليه أن يخضع والى الشام المتمرد معاوية بن أبى سفيان الذى نصب نفسه مطالباً بدم عثمان ، ولم تنفع الرسائل المتبادلة بين الخليفة والوالى فى تصفية الأمور ، ولم يبق إلا الاحتكام إلى السيف ، فنشبت معركة (صفين) وكاد عليّ ينتصر فيها لولا الخدعة التى لجأ إليها معاوية ، وابن العاص ، فأحجم السيف عن قطف الثمار أمام المصاحف التى رفعها جند الشام استجابة لنصيحة عمرو بن العاص ، فتوقف القتال ، وقبل مبدأ التحكيم ، وألبّ عليه التحكيم جماعة من جيشه ، كانوا يريدون متابعة القتال ، فخرجوا عليه وعرفوا (بالخوارج) وأصبحوا من أصلب أعدائه قناة ، وأسفرت نتيجة التحكيم عن خلع عليّ ، فانصرف إلى الكوفة يستعد للجولة الثانية ، ولكن عبد الرحمن بن ملجم الخارجى ، كَمَن له وهو فى طريقه إلى المسجد فضربه بسيف مسموم فتوفى بعد ثلاثة أيام ، وكان ذلك سنة ٦٦١ م ـ ٤٠ هـ

آثاره :

لعليّ أدب نثرى غزير : منه الخطب ، والرسائل ،والوصايا ، والحكم ، ويهمنا

من إنتاجه خطبه ، فقد ذاعت بعد وفاته ، ولم تنتظم فى كتاب إلا فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، حين عمد الشريف الرضى إلى جمعها فى كتاب « نهج البلاغة » .

موضوعات خطبه :

علىّ أبرز الخطباء فى عصره ، ويعدّه كثير من النقاد إمام الخطباء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله خطب عالجت شتى الشئون ، من تشجيع الجيوش وتوصيتهم وإثارة حميتهم ، والترغيب فى الجهاد ، ورسم طريقة معاملة العدو فى الحرب ، وبيان حق الحاكم على مجتمعه ، وحق مجتمعه عليه ، هذا إلى الخطب الدينية التى تدعو إلى التقوى والعمل الصالح وبذل الخير ، ومراقبة الله فى السرّ والعلانية .

ففى الخطب الحربية : كان يستنفر الناس لمحاربة الثائرين ، حتى إذا ما شام فى جماعته تقاعسا وقعوداً عن الحق أظهر التأفف منهم ، وحمل عليهم حملة شعواء « ياعجبا كل العجب ، عجبا يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، فقبحا لكم وترحا ، حين صرتم غرضاً يرمى ، يُغار عليكم ولاتُغيرون ، وتُغزَوْن ولا تغزون ، ويعصى الله وترضوْن »

وفى الخطب السياسية : كان يهدف إلى حلّ المعضلات من شرح خطة ، أو إعطاء أمان ، أو ردّ تهمة ، فمن خطبة له يبرىء ساحته من دم عثمان «...وإنهم ليطلبون حقا هم تركوه ، ودما هم سفكوه » ومن خطبة له يردّ على الخوارج :

« أبعد إيمانى بالله ، وجهادي مع رسول الله ، أشهد على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ، فأبوا شرَّ مآب ، وارجعوا على أثر الاعقاب ، أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملا ، وسيفا قاطعا » .

وفى الخطب الدينية : كان يتحدث عن خلق السموات والأرض ، والحث على التزود للآخرة ، وتصغير شأن الدنيا ، وكان يدعو للأخلاق الفاضلة . والسيرة الحميدة ، فمن خطبة له فى ذمّ الدنيا « ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، من استغنى عنها فتن ، ومن افتقر فيها حزن » .

وهكذا كانت تتجلى فصاحته وقوة بيانه فى كل ضروب الكلام ، أفلم يكن فى الحرب ذلك المقابل الباسل الذى خاض المعامع منتصرا منذ نعومة أظفاره؟ أفلم يكن فى السياسة ذلك الحاكم الذى صبت نفسه إلى العدل وإحقاق الحق ؟ أفلم يكن فى الدين ذلك الفقيه الضليع الذى يرجع إليه فى الفتوى ، حتى ضُرب به المثل، فقيل : « قضية ولا أبا حسن لها » .

خصائص خطبه :

توافرت لجميع خطبه ميزة التأثير والإقناع ومن ثمّ كانت تسلك طريقها إلى قلوب السامعين ، وكانت تتسم خطبه فى بالطابع الدينى والتأثر بالروح القرآنى ، كما تمتاز بدقة الوصف، وخطبته فى الطاووس مثال حىّ لذلك ، ثم هذا الإخلاص وهذه البلاغة التى كانت تتدفق من كل عبارة من عباراته واعتماده على النظريات الحكمية والحقائق الفلسفية ، والحجج القوية .

خطبة الجهاد :

حطب الإمام عليّ في الناس يوم أغار سفيان[1] بن عوف الأسدى ، وغزا مدينة الأنبار[2] بالعراق ، وتجرى الخطبة شوطا بعيداً فتلمس فيها النزعة الدينية ، حيث يفتتح الإمام على كلامه بالتحدث عن أهمية الجهاد فيقول : «إن الجهادباب من أبواب الجنة ..» لجنوده إذ يحاربون لايحاربون سفيان أو غيره من أجل عليّ ، بل يجاهدون قصد إحقاق عدل الله فى البريّة . وتلمس فيها حرارة العاطفةالتى تنبع من إخلاص عليّ ، فهو لايعرف الرياء والمداهنة ، ومن ثمّ خاطب أتباعه وقرّعهم حين تخلفوا عن نصرته ، وعتب على أعدائه ونقم حين بالغوا فى الغيّ . وهو فى إخلاصه صريح الفكرة والعبارة ، لا يتوانى عن أن يقول لجنوده : « يا أشباه الرجال ، ولا رجال : حلوم الأطفال ، وعقول ربات الحجال » .

ونلمس فيها أخذه أتباعه بالبرهان الجدلى أخذاً فيه إحكام ، وفيه غيرة ، فهو يتهم ويتوعد ، حيث يقول « ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم .. فتوا كلتم » . ثم يقابل — متعجباً — بين صواب قضيته ، وضلال قضية الآخرين، حتى إذا ما شام فى جماعته تقاعساً أظهر التأفف منهم . وحمل عليهم حملة لاتراعى لأحد منهم جانبا .

ونلمس فيها فضلاعن الأساليب البيانية الرائعة ، شيئا من التسجيع ، ولكنه تسجيع الطبع والفطرة ، لا تسجيع الصنعة والتكلف .

ونلمس فى هذه الخطبة برهانا على فصاحة الإمام عليّ و بلاغته ، وفيها من عناصر الخطبة : المقدمة والعرض والخاتمة .

---

(١) هو أحد بنى غامد ، وهى قبيلة باليمن ، وقد بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق .

(٢) بلدة على الشاطىء الشرقى للفرات .

وقد كان الإمام على بارعاً فى عرضه ، فانظر كيف تدرج فى إثارة شعور سامعه ، حتى وصل إلى القمة ، فقد أخبرهم ــ بعد المقدمة ــ « بغزو الأنبار » ثم بقتل عامله ، وأن ذلك لم يكف سفيان بن عوف فأغمد سيوفه فى نحور كثير من رجالهم .

ثم توجه فى الخطوة الثانية إلى مكان الحمية فيهم ، ومثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربى كريم . ألا وهو المرأة ، فإن العرب تبذل أرواحها رخيصة فى الذود عنها ، والدفاع عن خدرها .

وفى الخطوة الثالثة : أظهر الدهشة والحيرة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته ، وفشل قومه عن الحق .

وفى الخطوة الرابعة : بلغ الغيظ منه مبلغه ، فعيرهم بالجبن والخور ، وشبههم بالنساء فى ضعفهم ، والأطفال فى عقولهم .

المنتخبات

أولا ـ خطبة الجهاد

أمّا بعدُ ، فإن الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه ، وهو لباسُ التقوى ، وَدِرْعُ الله الحصينةُ ، وَجُنّتُه(١) الوثيقةُ ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوبَ الذل وشَمْلةَ(٢) البلاء ، ودُيِّثَ(٣) بالصغارِ والقماءة(٤) ، وَضُرِبَ على قلبه بالأسْدَاد(٥) ، وأُدِيلَ الحقُّ(٦) منه بتضييعِ الجهاد ، وسِيمَ الخسفَ(٧) ، وَمُنِعَ النَّصَفَ .

ألاَ وإني قد دعوتكم إلى قتالِ هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلتُ لكم : اغزُوهم قبلَ أنْ يَغزُوكم فوالله ما غُزِي قومٌ قطّ في عُقْرِ دارِهم إلاّ ذلّوا . فتوَاكلتم(٨) وتخاذلتم ، حتى شُنَّتْ الغاراتُ عليكم ، ومُلِكت عليكم الأوطانُ .

هذا أخو غامدٍ(٩) قد بلغتْ خيلُه الأنبارَ ، وقتل حسّان البكريّ ، وأزَال

---

(١) الجنة : الوقاية .

(٢) الشملة : كساء واسع .

(٣) ديث : ذلل .

(٤) الصغار والقماءة : الذل .

(٥) الأسداد : الحجب التي تحول دون البصيرة والرشاد .

(٦) أديل الحق منه : أي صارت الدولة للحق بدله .

(٧) سيم الخسف : أذل .

(٨) تواكلتم : وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه .

(٩) أخو غامد : هو عامل علي رضي الله عنه على الأنبار .

خيلكم عن مَسَالِحِها[1] ، وقتل منكم رجالاً صالحين . وقد بلغنى أن الرّجل منهم كان يَدْخل على المرأةِ المُسْلمة والأخرى المُعَاهدة[2] ، فينتزعُ حِجْلها[3] وَقُلْبها[4] وَرِعَاثها[5] ، ثم انصَرَفُوا وَافِرِين ، مانَال رجلاً منهم كَلْمٌ[6] ، ولا أُريقَ لهم دَمٌ ، فلو أنَّ رَجُلاً مُسْلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوما ، بل كان عندى جديراً .

فيا عجبا والله يُميتُ القلب ، ويجلبُ الهمّ : اجتماعُ هؤلاء القوم على باطلهم . وتفرقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وَترحا[7] ، حين صرتم غَرَضا[8] يُرْمَى ، يُغارُ عليكم ولا تُغيرون ، وتُغزَوْنَ وَلاَ تَغزُون ، وَيُعصَى الله وَتَرْضَوْن ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الصيف ، قلتم : هذه حَمَارّة القيظ[9] ، أمهلنا يُسبِّخ[10] عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلتم : هذه صَبَارّة القرِّ[11]

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهى الثغر حيث يخشى طروق العدو .

(٢) المعاهدة : الذمية .

(٣) الحجل : الخلخال .

(٤) القلب : السوار .

(٥) الرعاث : القرط .

(٦) الكلم : الجرح .

(٧) الترح : الحزن .

(٨) الغرض ما ينصب ليرمى بالسهام ، إشارة إلى أن أهل العراق أصبحوا هدفا لجنود معاوية يرمونهم فلا يدفعون عن أنفسهم الأذى .

(٩) حمارة القيظ : شدة الحر .

(١٠) يسبخ : يخف .

(١١) صبارة القر : شدة البرد .

أمهلنا يَنْسلِخْ عنا البرد ، كلُّ هذا فِرَاراً من الحر والقُرّ ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ، ولا رجال : حُلوم الأطفال(١) ، وعقول ربَّات الحجال(٢) ، لَوَدِدْتُ أنى لم أرَكُمْ ولم أعرفكم ! معرفة والله جرت ندما ، وأعقب سَدَماً(٣) .

قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدرى غيظا . وجرعتمونى نغب التهمام أنفاسا ، وأفسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : « إن ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بالحرب » . لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً ، وأقدم فيها مقاماً منى ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وهأنذا قد ذرفت على الستين ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

ثانيا — الطاووس

ابتدعهم خَلْقا عجيباً من حيوان ومَوات(٤) ، وساكنٍ وذى حركات ، فأقام من شواهد البيِّنَات على لطيف صَنْعَته ، وعظيم قُدرته ما انقادت له العقول معترفة به ، ومسلّمة له ، ونعقت فى أسماعنا دلائله على وحدانيته . . .

ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذى أقامه فى أحكم تعديل ، ونضّد ألوانه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبته ، وذنب أطال مسحبه ، تخال قصبه مدارى ، من فضة ، وما أنبت عليه من عجيب داراته وشموسه خالصَ العِقيان . وفلذَ الزَّبَرْجَد » . .

(١) الحلوم : العقول .
(٢) ربات الحجال : النساء .
(٣) السدم : الهم والأسف .
(٤) الموات : الجماد الذى لا حياة فيه .

المراسلات

كانت الرسائل فى عهد النبى عليه السلام ، والخلفاء الراشدين ، وأوائل عهد بنى أمية ، تكتب بلغة التفاهم ، قصيرة يسيرة ، ولم يكن هناك قراطيس ، وإنما كانت تكتب فى الرقاق ، مهمتها الأولى بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة وأوضحها ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة أو القواد من إنشائهم على الكتّاب ، لمكانهم من الفصاحة ، وقوة ملكة الارتجال .

وكما تأثر الشعر والخطابة بالإسلام والقرآن تأثر بهما فن الكتابة أيضاً ، وظهر فيه الطابع الإسلامى بجلاء ، فقد حرص الكتاب على استهلال كتبهم بذكر اسم الله ، وتمجيده ، والصلاة على نبيه . وعلى توشيح الرسائل بالآيات القرآنية ، ومحاكاة الأسلوب القرآنى ، والاستمداد من معانيه وصوره .

عمر بن الخطاب

(؟ – ٢٣ هـ)

حياته :

هو عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، وأول من لقب بأمير المؤمنين ، كان فى الجاهلية من أبطال قريش ، وساداتهم ، والمدافعين عنهم ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وكانت له تجارة بالشام . بويع بالخلافة يوم مات أبو بكر سنة ١١ هـ بعهد من أبى بكر ، وفى أيامه فتح الشام والعراق ، والقدس والمدائن ومصر والجزيرة ، وهو أول من دون الدواوين فى الإسلام ، ووضع التاريخ الهجرى ، وضرب الدراهم ، وأمر ببناء البصرة والكوفة . وكان يطوف بالأسواق منفرداً ، وله فى العدل ، وتشدده فى بعض الأمور ، وتواضعه — قصص كثيرة ، وله خطب ورسائل غاية فى البلاغة ، قتله أبو لؤلؤة المجوسى سنة ٢٣ هـ .

اشتهر عمر بالسهر على راحة رعيته وعلى أموالهم ، وكان من ذلك محاسبته للولاة ، فلقد كان يحصى أموالهم قبل الولاية ، ليحاسبهم على ما زادوه بعدها ، مما لا يدخل فى عداد الزيادة المعتدلة .

وكان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر ، وما خفى من أمرهم ، كما كان يأمر الولاة أن يدخلوا بلادهم نهاراً إذا رجعوا إليها من ولاياتهم ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم .

وكانت سنته إذا ظهرت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يأخذ منه المال الذى ظفر به أو يقاسمه فيما زاد عن كسبه المعقول .

كتاب عمر إلى سعد بن أبى وقاص :

المناسبة التاريخية :

ابتدأ غزو العراق فى عهد أبى بكر ، وكان أمير جند العراق فى عهده خالد ابن الوليد ، ثم وجهه إلى الشام لمعاونة قواده فيها ، فخلف على جند العراق المثنى ابن حارثة ، فلما توفى أبو بكر ثبت عمر المثنى فى منصبه وأمدّه بجنود كثيرين ، وكانت الحرب بينه وبين الفرس سجالاً ، ولكن الغلبة فى النهاية كانت لجنود المسلمين ، فعزّ ذلك على الفرس ، فجمعوا جموعاً عظيمة ، وعزموا على طرد المسلمين من ديارهم ، فلما علم عمر بذلك جهز جيشاً ضخما جمع فيه خير رجال العرب رأياً وشجاعة ، وأمّر عليهم سعد بن أبى وقاص القائد العظيم سنة ٢٤ هـ . وقد انتصر سعد على الفرس فى واقعة القادسية المشهورة ، وكانت نقطة التحول فى حرب العراق وفارس ، وهذا الكتاب وصية من عمر إلى سعد بعد أن سار إلى العراق ، وكان من عادة عمر أن يتتبع قواده ، وعماله ، وقضاته فى كل أعمالهم ويوجههم ، ويرسم لهم الخطة ، وفى هذه الرسالة نرى نظرا ثاقبا ، وعدلاً شاملاً ، وقيادة حكيمة .

الموضوع :

يحتوى الكتاب على ثلاثة عناصر رئيسية :

أولاً : تطهير لأرواح الجند ونفوسهم ، فأمرهم بتقوى الله ، وتجنب المعاصى ، مبيناً لهم أن المسلمين ينتصرون بمعصية عدوهم ، فإذا تساووا وإياه فى المعصية غلبهم لكثرته وقلتهم ، وعظم عدته ، ووهن عدتهم ، وحذرهم من سلوك سبيل المعصية اتكالاً على أن عدوّهم عاص ، وأنه شرٌّ منهم ، فربّ قوم

سلط عليهم شر منهم ، كما سلّط الله على بنى إسرائيل كفار المجوس[1] ، وطلب منهم أن يسألوا الله العون والنصر .

ثانياً . تبيان للطريقة التى يجب أن يتبعها القائد مع جنده .

(ا) يترفّق بهم فى مسيرهم ، وأن يقيم فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويصلحون سلاحهم .

(ب) أن يبعدهم عن قرى أهل الذّمة[2] ، حتى لا يعتدوا عليهم ، وألا يدخل هذه القرى إلا من وثق به ، وألا يأخذ من مال أهل الذّمة شيئاً ، لأن لهم حرمة وذمة يجب الوفاء بها .

ثالثاً : إرشادات عامة .

١ ـ اتخاذ العيون من الصادقين الناصحين حتى يحيط خبراً بأمر العدو .

٢ ـ حين يقرب من أرض العدو عليه أن يكثر من الطلائع ، و بث السرايا .

٣ ـ مهمة الطلائع أن تعرف نقطة الضعف عند العدو ، وعليه أن يختار الطلائع من أهل الرأى والبأس ، و يجهزهم بأسرع الخيل ، حتى اصطدموا بالعدو وجد فيهم قوة ، فيدخل الرعب قلبه من جيوش المسلمين .

٤ ـ ومهمة السرايا قطع أمداد العدو ، وعليه أن يختار لها أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا يحابى بها أحداً[3] .

٥ ـ لا يرسل الطلائع ولا السرايا فى وجه يتخوف فيه الغلبة أو الضيعة أو النكاية .

(١) إشارة إلى غزو بابل فى عهد بختنصر لليهود بفلسطين وأسره عددا كبيرا منهم .

(٢) أهل الذمة : اليهود والنصارى .

(٣) وجه المحاباة أن السرية ربما غنمت غنائم فمن يذهب فيها سيربح .

٦ ـ فإذا عاين جيش العدو فعليه أن يضم عيونه ، وطلائعه وسراياه إليه فإنهم قوة .

٧ ـ عليه ألا يبدأ بالقتال ، حتى يعرف عوارت عدوه ومقاتله ، ويعرف الأرض كلها .

٨ ـ يراقب الجند ليلاً ونهاراً .

٩ ـ لا يأمن لأسير من أهل الذمة ، فربما كان جاسوساً ، وعليه أن يضرب عنقه ليرهب به العدو ، ونلمس أخيراً فى الرسالة قوة روح الجيش وإيمانه ، واعتقاده فى أن النصر من عند الله يزيد فى حماسته كما أن حسن معاملة القائد لجنده ونظرته إليهم كإخوة وأبناء تجعلهم يتعاونون فى طاعته ، والإرشادات العامة التى رسمها عمر تدل على حصافة وفطنة ، وشدة حيطة ، وخبرة بفنون القتال .

المنتخبات

أولا — كتاب عمر إلى سعد بن أبى وقاص

وكتب عمرُ بن الخطاب إلى سعدَ بنِ أبى وَقّاص ، وقد أمَّرَه عَلَى حرب العراق : « أمَّا بعد فإنِّى آمُرُكَ وَمَنْ معك منَ الأَجْناد بِتقْوى الله عَلَى كلِّ حَالٍ ، فإنَّ تقْوى الله أفضَلُ العُدَّةِ على العَدُوِّ ، وأقوى المَكِيدة فى الحرب ، وآمُرُكَ ومن معك أنْ تكونوا أشَدَّ احتراسًا من المعاصى منكم مِنْ عدوِّكم ، فإن ذُنُوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدُوِّهم ، وإنَّما يُنْصَرُ المسلمون بمعصيةِ عَدُوِّهم لله ، وَلَوْلا ذلك لم تكنْ لَنَا بهم قوةٌ ، لأَنَّ عَدَدَنَا ليس كعَدَدِهِم ، ولا عُدَّتَنا كعُدَّتِهِم ، فإنِ اسْتَوَيْنَا فى المعصية كان لهم الفضلُ[1] علينا فى القُوة ، وإلاَّ نُنْصَر عليهم ، بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلَمُوا أنَّ عليكم فى سَيْرِكم حَفَظَةً مِنَ الله يعلمون مَا تفعلون ، فاسْتَحْيُوا منهم ، ولا تعملوا بمَعَاصِى الله ، وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدوَّنا شرٌّ مِنَّا ، فلنْ يُسلَّط علينا ، فرُبَّ قَوْمٍ سُلِّط عليهم شرٌّ منهم ، كما سُلِّطَ على بنى إسرائيل — لمَّا عَمِلو بمَسَاخِطِ الله — كُفَّارُ المَجُوس ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وكان وَعْدًا مَفْعُولا ، واسألُوا الله العَوْنَ على أنفُسِكم ، كما تسألُونه النَّصرَ على عَدُوِّكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وَتَرَفَّقْ بالمُسلِمِين فى مسيرهم ، ولا تُجَشِّمهم مَسِيراً يُتْعِبهم ، ولا تقصر بهم

---

(١) الفضل : الزيادة .

عن منزل يَرْفُق بهم ، حتى يبلغوا عدوّهم — والسَّفَرُ لم يَنْقُص قُوَّتَهُم — فإنهم سائرون إلى عَدوٍّ مُقيم ، حامى الأنفُسَ والـكُرَاع[1] ، وَأقِمْ بمن معك فى كل جُمُعَةٍ يومًا وليلةً حتى تـكون لهم رَاحَةٌ يُحْيُونَ فيهـا أنفسهم وَيَرُمُّونَ[2] أسلِحَتهم وَأَمْتِعَتهم ، ونحِّ منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذِّمَّة ، فلا يَدْخُلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يَرْزَأ[3] أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حُرْمَةً وذِمَّة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتُلُوا بالصَّبر عليها ، فما صَبَروا لـكم فتولَّوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهْل الحرب بِظُلم أهل الصلح .

وإذَا وَطِئْتَ أرْضَ العدوّ فَأَذْكِ[4] العُيونَ بينك وبينهم ، ولا يَخْفَ عليك أمرهم ، وَلْيـكن عندك من العرب ، أوْ مِنْ أهل الأرض من تطمئن إلى نُصْحه وصدقه ، فإن الـكذوب لا ينفعك خبره ، وإنْ صَدَقك فى بعضه ، والغاشُّ عينٌ عليك ، وليس عَيْنًا لك .

وليكن منك عند دنوّك من أرض العدوّ أنْ تُـكْثِر الطَّلائـع ، وتَبُثَّ السَّرايَا[5] بينك وبينهم ، فتقطع السَّرايَا أمدادَهم ، ومَرَافِقَهم ، وَتتَبَّع الطلائع عَوْراتهم ، وَتَنَقَّ[6] للطَّلائع أهْل الرأى والبأس من أصحابك ، وتَخَيَّر لهم سوابقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدوًّا كان أول ماتلقاهم القوّة من رأيك ، واجعل أمْرَ السَّرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجِلاد ، ولا تَخُصَّ بها أحداً بهوى فَتُضَيِّع

---

(١) الـكراع : من كل شىء طرفه .

(٢) رمه : كضرب ونصر ، أى أصلحه .

(٣) رزاه ماله : أصاب منه شيئا .

(٤) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الجواسيس .

(٥) السرايا : جمع سرية كغنية : وهى القطعة من الجيش .

(٦) تنقاه وانتقاه : اختاره .

من رَأيك وأمْرِكَ ، أكثرَ مما حابيتَ به أهلَ خاصّتك ، وَلاَ تبعثنَّ طَليعةً ولا سَرِيَّةً فى وجه تتخوّف فيه غَلبةً أو ضَيْعةً أوْ نِكاية ، فإذا عاينت العدوّ فاضمم إليك أقاصيَك ، وطلائعك وَسَرَاياك ، واجمع إليك مكيدتك ، وقوّتك ، ثم لا تعاجلْهم المُنَاجزَةَ ، مالم يستكرِهْك قِتَال ، حتى تُبْصر عَوْرةَ عدوّك وَمَقَاتِلَه ، وَتَعْرِف الأرض كُلّها كمعرفة أهلها ، فتصْنَعَ بعدوّك كصُنْعه بك .

ثم أذكِ أحراسَك على عسكرك ، وتيقّظ من البَيَات جهدَك ، ولا تؤتى بأسير ليس له عَقْد إلا ضربتَ عُنُقه ، لِتُرْهِبَ به عدوّ الله وعدوّك ، والله ولىّ أمرك ومن معك ، وَولىّ النصر لكم على عدوّكم ، والله المستعان » .

ثانيـــاً : من أين لك هذا ؟

كتب عمرُ بنُ الخطاب إلى عمرو بنِ العاصِ ، وهو يومئذٍ وَالِى مِصر :

« من عبد الله عُمَر أميرِ المؤمنين إلى عمرِو بنِ العاص ، سلامُ الله عليك أمّا بعدُ ، بَلغنى أنّه فَشَتْ لك فاشيةٌ [1] من خيلٍ وإبل وبقر وغنم ، وعبيد ، وَعَهْدِى [2] بك قبل ذلك أنْ لاَ مالَ لك . فأنّى [3] لك هذا ؟ .

ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين مَنْ هو خَيْرٌ منك ، ولكنى قَلّدْتُكَ رجاءَ غَنائك ، فاكتب إلىّ مِنْ أينَ لك هذا المالُ ؟ وعَجِّل » .

(ب)

فكتب إليه عمرو :

« . . . أمّا بعد ، فإنّهُ قد أتانى كتابُ أميرِ المؤمنين يذْكُر فيه فاشيةَ مالٍ فَشَا لِى ، وأنه يَعْرِفُنِي قبل ذلك ولا مالَ لى . وإنّى أُعْلِمُ أميرَ المؤمنين أنى

ببلدٍ السعرُ فيه رخيص ، وإنى أعالِج[٤] من الحِرْفَة والزِّراعة ما يعالج أهـله ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعةٌ ، ووالله لو رأيتُ خِيانَتَكَ حلالا ماخُنتك » .

فـكتب إليه عمر :

« . . . أمّا بعد ، فإنى لست من تَسْطِيرِك[٥] الـكتابَ ، وتَشْقيقِك الـكلامَ فى شىء[٦] ، ولـكنـكم — معشرَ الأمراء — قَعَدتم على عُيونِ المالِ[٧] ولن تَعْدَموا عُذراً[٨] ، وإنما تأكلون النار[٩] ، وتستعجلون العار ، وقد وجَّهتُ إليك محمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ ، فسلِّم إليه شَطْرَ مالِك »

من أين لك هذا :

— يشير عمر — رضى الله عنه — فى رسالته إلى مبدأ يهمُّ كلَّ مجتمع ، هو مبدأ « من أين لك هذا ؟ » وما أشار إليه ليس إلا صَدًى للتعاليم الإسلامية ، وله فى رسول الله أُسوة حسنة .

فقد استعمل صلى الله عليه وسلم رجلا على الصدقات يجمعها ، فلما رجع حاسبه ، فقال : « هَذَا لـكم ، وهذا أُهْدِىَ إلىّ » . فقال النبى : « ما بالُ الرَّجل نَسْتعمله على العمل بما وَلاَّنا الله ، فيقول : هذا لـكم ، وهذا أُهْدى إلىّ أفَلا قَعَدَ فى بيت أبيه وأمّه ، فنظر أَيُهْدَى إليه أم لا ؟ » .

وفيما دار بين عمر رضى الله عنه ، وعمرو بن العاص من مكاتبة نلحظ البعد عن ألفاظ التفخيم ، ونلاحظ الديموقراطية فى روح التخاطب .

وإذا اتخذنا كتابى عُمرَ وعمروٍ نموذجاً للرسائل فى هذا العصر لاحظنا أن الرسائل قد كتبت بلغة التفاهم التى لا يعمد فيها إلاّ إلى بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة على الـكُتّاب ، بوحى من فطرتهم ، ودون تعَمُّل أو تأنق فيما يكتبون .

موضوعات للبحث

١ — إذا اتخذنا كتابى عُمَرَ وَعَمْرو نموذجاً للرسائل فى هذا العصر ، فما الذى نلاحظه عليها ـ ناقش .

٢ — بين أهم الخصائص التى تميزت بها الخطابة فى صدر الإسلام ، وأوضح الأسباب التى دعت إلى ازدهارها .

٣ — ذكر على بن أبى طالب بين الخطباء ، وذكر بين الحكماء ، فإلى أى الفنين تجده أقرب فى آثاره ؟ ـ ناقش .

المراجع

١ ـ جمهرة خطب العرب : أحمد زكى صفوت .

٢ ـ جمهرة رسائل العرب : أحمد زكى صفوت .

٣ ـ تاريخ الأدب العربى : السباعى بيومى .

٤ ـ البيان والتبيين : الجاحظ .

٥ ـ الفن ومذاهبه فى النثر : الدكتور شوقى ضيف .

٦ ـ فن الخطابة : لايليا حادى .

٧ ـ على بن أبى طالب : فؤاد إفرام البستانى .

٨ ـ الخطابة : الدكتور أحمد الحوفى .

٩ ـ نهج البلاغة : شرح الإمام محمد عبده .

١٠ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه .

الفصل الثانى

النثر فى العهد الأموى

الخطـــــابة

فى عصر بنى أمية

كان عصر عهد النبوة والخلفاء الراشدين مع ما فتح الله على العرب من عظيم الممالك ، ومع انسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشبوب نيران الفتن بعـــد مقتل عثمان (رحمه الله) مؤذنا بأن الخطابة ستبقى آلة الإقناع وعدة الدفاع عند العرب ما احتفظت بصحة ألسنتها ، ولم تحتج إلى انتضاء السيوف من أغمادها .

وكان ذلك حتما مقضيا ، فإن الخطابة فى دولة بنى أمية ازدادت دواعيها بازدياد الفتن والثورات ، وتعدد النحل الدينية والأحزاب السياسية : من شيعة وناصبة ، وزبيرية ، وخوارج . ثم بازدياد الفتوح الإسلامية فى خراسان و بلاد الترك وسجستان والسند ، وفى إفريقيه والمغرب والأندلس وجزائر بحر الروم ، وكل ذلك يستدعى الخطابة من الخلفاء والأمراء والولاة وقواد الجيوش وزعماء الأحزاب ويستدعى أيضا رقيها وقوة تأثيرها ، لوحدة اللغة بين التابع والمتبوع أولاً ، ولازدياد المواطن التى يحمد فيها القول ثانيا ، ولا نخداع العرب بقوة الفصاحة ثالثا ، إذ كان الرؤساء منهم عربا ، وكان الأتباع إما عربا وإما مستعربين .

وكان الخلفاء يرحلون بأبنائهم إلى البادية لينشأوا فيها على فصاحة القول وخشونة العيش واحتمال الشدائد ، و التمرن على الفروسية ، وقل منهم من نشأ فى الحضر ، فأعدته عجمة الخدم : كالوليد بن عبد الملك فعدت عليه بعض لحنات .

ولم تبق بعد مناصب الولاية والقيادة قصرا على قريش ، بل شملت قبائل العرب عامة واليمانية فى أول الدولة خاصة ، لحطب المضرية فى حبل عبد الله ابن الزبير . ثم تعصبت خلفاء الأموية بآخرة للمرية على اليمانية بعد خروج أبناء المهلب عليهم ، فكان من الجميع خطباء مصاقع .

موضوعات الخطابة :

وقد زادت موضوعات الخطابة فى هذا العصر بأمور مستحدثة فى الدين والسياسة والاجتماع ، منها :

(١) استعمالها من فرق الشيعة والخوارج فى تأييد كل منهم نحلته ، ودعوة غيره إليها .

(٢) استعمالها فى الدعاية السياسية كما كان يفعل خطبــاء المروانيين والزبيريين ، والعلويين والثوار والخارجين على بنى أمية ، من أمثال عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب .

(٣) استعمالها فى المفاخرات والمناقضات التى كانت تدور رحاها بين أهل العصبية اليمانية والمضرية ، و بين العرب والشعوبية .

(٤) استعمالها عند خلفاء بنى أمية آلة للعقوبة بالتوبيخ والتقريع ، أو تعيير المخطوب فيهم بمساويهم ومخازيهم فى الجاهلية والإسلام ، والتهديد بالقتل وحرق الدور واستئصال النعمة وأخذ البرىء بذنب المسىء ونحو ذلك .

وفوق ذلك استعملت الخطابة فيما كانت تستعمل فيه فى الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال ، أو وصية بمعروف،أو توضيح حكم شرعى ، أو تهنئة بفتح ، وفى صلاة الجمعة والعيدين وموسم عرفة وغير ذلك .

أسلوبها:

وكانت الخطب فى هذا العهد تفتتح دائما بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه ، وعابوا على زياد بن أبيه تجريد خطبته التى خطبها أول دخوله البصرة والياً عليها من حمد الله والصلاة على نبيه ، وسموها « البتراء » لذلك .

ثم يفيض الخطيب فى موضوعه ، ثم يختمها بقوله : « أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »، وربما أعاد بعد ذلك الحمد لله والصلاة على النبى والدعاء للخليفة فى الجمع والمواسم .

زياد بن أبيـــه

(١ هـ — ٥٣ هـ)

حياته :

هو زيادة بن سمية ، وسمية كانت مولاة للطبيب العربى المشهور الحارث بن كلدة ولما لم يكن معروف النسب لأنه كان من أب غير شرعى دعاه الناس زياد بن أبيه ولـكن يرجح أن أباه هو أبو سفيان والد معاوية ، ويدعم هذا الترجيح أن معاوية استلحقه بنسبه واعترف به أخاً له من أبيه .

ولد زياد فى الطائف فى السنة الأولى للهجرة فنشأ نشأة إسلامية وظهرت عليه أمارات النجابة المبـكرة فامتاز بطلاقة اللسان و بلاغة القول وقوة الحجة ، وأعجب به عمرو بن العاص فقال : (لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه) .

وقد تمرس بالوظائف العامة منذ كان حدثا فى العراق إلى البصرة إلى فارس و بعد مقتل على تلطف له معاوية واستلحقه بنسب أبيه أبى سفيان ، وولاه ، العراق ، وفى هذا الدور من حياته ظهرت مواهبه وخصاله ناضجة قوية حتى أكد الملك لمعاوية وشمل حذقه جميع الناس ، فـكان يقول : (لو ضاع حبل بينى و بين خراسان لعرفت آخذه .) .

وفد زياد على البصرة سنة ٤٥ هـ وكانت كسائر العراق مركزاً من مراكز ، الفتنة الدائمة ضد الحـكم الأموى فسار إلى المسجد الجامع وخطب فى الناس هذه الخطبة الشهيرة البتراء ، وسميت بذلك لأنه لم يحمد الله فيها ، وقد وضح فيها معالم سياسته ، وتوفى بعد حياة حافلة سنة ٥٣ هـ .

تحليل الخطبة:

تناول زياد فى خطبته العناصر التالية :

(ا) استهل زياد خطبته بهجوم عنيف على أهل البصرة لضلالهم ومروقهم لايستثنى صغيراً أو كبيراً فـكأنهم لم يقرأوا القرآن ومافيه من الثواب ، للمطيعين والعقاب للعاصين ، ثم شبه حالهم بحال من ألقت الدنيا غشاوة على بصره فآثر الحياة الدنيا على الآخرة .

ثم تدرج إلى الناحية الإيجابية وبسط الخطة العامة التى اعتزم تطبيقها فى سياسة تلك المدينة محدداً معالمها وأنها ليست بغريبة عليهم ، فهى الخطة التى صلح بها أمر الإسلام من قبل ، « لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف » ثم أقسم ليأخذن البرىء بالمذنب حتى يستقيم ما اعوج من أمر أهل البصرة ، وأردف ذلك بقسم آخر ، إن له فيهم ضحايا كثيرة منتظرة ، محذرا كل فرد من البصريين أن يكون واحداً من هذه الضحايا .

(ب) أعلن عن قانون العقوبات : فإذا العقوبة من نوع الجريمة ، والجزاء من جنس العمل ، فللمغرق الاغراق ، وللمحرق الاحراق ، ولمن ينبش قبرا الموت فيه .

(حـ) صفحة جديدة : يعلن أنه سيفتتح صفحة جديدة ، وسجلا آخراً لـكل فرد يقوم على نسيان الماضى وأن المحاسبة ستكون من الآن فصاعدا ، فيجازى فى هذه الصفحة المحسن ولو كان عدوا قديما ، ويؤخذ المسىء ولو كان قريبا .

(ى) دستور الحاكم والمحكومين : مهمة الحاكم أن يسوس الناس بما أعطاه الله ويحميهم ، ومن حقه عليهم الطاعة ومن حقهم عليه أن يقيم العدل بينهم .

(هـ) صلاح الرعية فى صلاح الراعى : وذلك أن تعينوهم بدعواتكم وحبكم وإخلاصكم ففى صلاحهم صلاح أمركم .

(و) تهديد : لم يقف عند وعيده بل أتبعه بالانفاذ ، لا يخذل الراغبين فى الطاعة ولا يهادن مخالفى القوانين .

خصائص الخطابة :

١ — التأليف المحكم الواضح فى ذلك الترتيب المنطقى ، فهو ينطلق من معنى إلى معنى ، ومن جزء إلى جزء فى تسلسل مترابط الحلقات .

ففى الجزء الأول : وقف موقف المتهم لانتهاك حرم الإسلام وعنفهم بشدة تمهيدا لأخذهم بحد السيف .

وفى الجزء الثانى : وقف موقف القاضى المشرع فبين لهم أنهم أحدثوا أموراً منكرة ، فأوجد لهم عقوبات رادعة .

وفى الجزء الثالث : وقف موقف الحاكم النزيه المرتفع عن التعصب .

وفى الجزء الرابع : وقف موقف السياسى المحنك يبث الدعوة للأمويين .

وفى الجزء الخامس: وقف موقف الشرطى الذى ينتظر تنفيذ العقوبة فى المحكوم عليهم .

٢ — النزعة الدينية ، ولا غرو فالدين كان ذا سلطان على العقول والقلوب « كأنكم لم تقرأوا كتاب الله » .

٣ — القوة المنبثة فى ألفاظها ومعانيهـا ، وتنوع أساليبها بين الشدة واللين ، والإخبار والإنشاء . ويكفى أن تعلم أنها انقضت على رؤوس البصريين انقضاض الصواعق .

٤ — الاقتباس من مأثور الـكلام ومن القرآن الـكريم .

٥ — الشرح والتفصيل لأنه يرسم السياسة والمنهج الذى سيسير عليه .

٦ — العناية بالصناعة اللفظية ، ولـكن مع عدم إغراق فيها ، فى فقرات قصيرة مسجوعة أحياناً ، مرسلة أحياناً أخرى . كما اشتملت على بعض الصور الخيالية .

٧ — اتخاذ الخطبة أداة للعقوبة والتوبيخ .

المنتخبات

الخطبة البتراء

أما بعد : فإنّ الجَهالة الجهلاء ، والضَّلالة العمياء ، والغىّ[١] المُوفى[٢] بأهله على النار ، ما فيه سُفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العِظَام يَنْبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لَمْ تقرأوا كتابَ الله ولم تَسْمعوا ما أعدّ الله من الثواب[٣] الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السَّرمدى[٤] الذى لا يزول ، أتكونون كَمَن طرقت عينيه[٥] الدنيا ، وسدت مسامعه الشّهوات واختار الفانيَة على الباقية ، لا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من تركِكم ، الضعيف يُقهر ويؤخذ ماله ، هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم يكن منكم نهاة[٦] تمنع الغواة عن دَلَج الليل[٧] وغارة النهار ؟ قربتم القرابة وباعدتم

(١) الغى : الضلال .

(٢) الموفى : المشرف .

(٣) الثواب : الجزاء على أعمال الخير .

(٤) السرمدى : الأزلى الأبدى .

(٥) طرفت عينيه الدنيا ـ طمحت عيناه إلى الدنية وزخرفها فشغلتا بها عن الآخرة .

(٦) النهاة : الزاجرون المانعون .

(٧) دلج الليل ـ السير فيه .

الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم[١] يذب عن سيفه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو مَعَاداً[٢] أما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً[٣] فى مكانس الرِّيب ، حَرام علىَّ الطَّعامُ والشراب حتى أسوِّيها بالأرض هَدْماً واحراقاً .

إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يُصْلَح إلا بما صَلُح به أوله ، لِينٌ فى غير ضعف ، وشدّة فى غير عُنف ، ولأقسم بالله : لآخُذَنَّ الولىَّ بالمولى ، والمقيم بالظَّاعن[٤] ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصَّحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول (انجُ سعد فقد هَلَكَ سُعَيد[٥]) أو تستقيم لى قناتكم .

إن كذبة الأمير بلقاء[٦] مشهورةٌ ، فإذا تَعَلَّقتم على بكذبة فقد حلَّت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغْتَمِزوها[٧] فىَّ واعلموا أنَّ عندى أمْثَالَها .

---

(١) يذب : يدافع .

(٢) المعاد : الآخرة .

(٣) الكنوس : المختبئون . المكانس : الملاجىء وتكون للوحوش تختبىء فيها .

(٤) الظاعن : المسافر .

(٥) مثل يضرب فى تتابع الشر ، وأصله أن رجلا يقال له ضبة كان له ابنان سعد وسعيد فنفرت له إبل فخرجا فى طلبها فوجدها سعد فردها ، أما سعيد فقد ظفر به أعرابى فقتله ليستولى على حلته .

(٦) المعنى أنها واضحة كوضوح الفرس الأبلق بين الخيل .

(٧) عدوها من عيوبى ، والمراد لن يكون كاذبا فسوف يتبع القول بالفعل .

من نُقِب[١] منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فَإياى وَدَلج[٢] الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكتُ دمه ، وقد أجّلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة و يرجع إليكم ، و إياى ودعوى[٣] الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثاً[٤] لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذَنْب عقوبة فمن غَرَّق قوما أغرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نَقب بيتا نقبنا عليه قلبه ومن نَبَش قبرا دفناه فيه حيا ، فكفوا عَنى أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة[٥] بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إحَن[٦] فجعلت ذلك دَبْر[٧] أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم مُحسنا فليزدد إحساناً ، ومن كان مُسيئا فلينزع عن إساءته ، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له[٨] قناعا ولم أهتك له[٩] سترا حتى يبدى لى صفحته[١٠] فإذا فعل

(١) نقب عليه : سرقت داره .

(٢) دلج الليل : السير فيه ، والمراد التلصص .

(٣) دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق .

(٤) أحدثتم أحداثا : الأمور المنكرة .

(٥) الريبة : الأمر المخالف للدين .

(٦) الإحن : الأحقاد والضغائن .

(٧) دبر : خلف ، والمراد اهماله وتركه .

(٨) أكشف له قناعا : أى لم اقابله بمثل عدوانه .

(٩) اهتك : أشق .

(١٠) يبدى لى صفحته : يكاشفنى ويجهر بالعدواة .

ذلك لم أنظره[١] فاستأنفوا أموركم وأعينوا[٢] على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سَيُسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذودُ عنكم بِفَىء[٣] الله الذى خَوّلنا[٤] فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لستُ محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ، ولا رزقا عن إبانه[٥] ، ولا مجَمِّر الكم[٦] بعثا .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرالكم ، أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإن رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على اذلاله ، وأيمُ الله إنّ لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى .

---

(١) أنظره : لم امهله .

(٢) أعينوا على أنفسكم : أى بالاستماع والطاعة .

(٣) الفىء : مال الخراج والغنيمة .

(٤) خولنا : أعطانا .

(٥) إبانه : وقته .

(٦) بجمرا : حابسا فى أرض العدو

خطبته وقد قدم البصرة :

يتهدد أهل العراق ويتوعدهم :

أيها الناس : من أعياه داؤه ، فعندى دَواؤُه ، ومن استطال أجَلَه ، فعلىَّ أن أعجِّله ، ومن ثقُل عليه رأسُه ، وضعتُ عنه ثِقْله ، ومن استطال ماضِىَ عُمره ، قَصَرْتُ عليه باقيه ، إن للشيطان طيْفاً ، وللسلطان سيْفاً ، فمن سقُمتْ سريرتُه ، صحّتْ عُقُوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صَلْبُه ، ومن لم تَسَعْه العافيةُ ، لم تضِقْ عنه الهَلَكة ، ومن سبقته بادِرةُ فَمِه ، سبق بدنَه بسَفْك دمه ، إنى أُنذِرُ ثم لا أُنظِر[1] ، وأحذِّر ثم لا أعذِر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم تَرنيقُ[2] ولاَتكم ، ومن استرخى لَبَبُه[3] ساء أدبُه ، إن الحزم والعزم[4] سلبانى سوْطى ، وأبدلانى به سيفى ، فقائمُه فى يدى ، ونجادُه[5] فى عُنُقى ، وذُبابُه[6] قِلادةٌ لمن عصانى ، والله لا آمُرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

[نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، سرح العيون ٢٢]

---

(١) أنظره : أمهله .

(٢) الترنيق : الضعف فى الأمر .

(٣) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة ، والمراد أن الموادة واللين تفسد أدب الرعية .

(٤) أى أنه رأى من الحزم والعزم ، المبالغة فى استعمال الشدة ، والقوة فى التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد منه ، وهو السيف .

(٥) النجاد : علاقة السيف .

(٦) ذباب السيف : حده .

خطبته بفارس

المناسبة :

كان الإمام على عليه السلام ولّى زيادا فارس ، فضبطها ، وجبى خراجها ، فلما قتل الإمام على بقى زياد فى عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وأشفق من مُمَالأته الحسن بن علىّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده[١] ، فغضب زياد غضبا شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ثم قال :

العجبُ من ابن آكلَةِ الأكباد ، وقَاتلة أسَدِ الله ، ومُظْهِرِ الخلاف ، ومُسِرِّ النفاق ، ورئيسِ الأحزاب ، ومن أنفق ماله فى إطفاء نور الله ، كتب إلىّ يُرْعد ويُبْرِق[٣] ، عن سحابة جَفْلٍ[٤] لا ماء فيها ، وعما قليل تصيرّها الرياح قَزَعاً[٥] ، والذى يدلّنى على ضعفه تَهَدُّده قبل القدرة ، أفمن إشفاقٍ علَيّ تُنْذِر وتُعْذِر ؟ كلا : ولكن ذهب إلى غير مَذْهَب ، وقَعْقَعَ[٦] لمن رَوِىَ بين صواعق تِهامة ، كيف أرهبُه وبينى وبينه ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابنُ ابن عمه فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار ؟ والله لو أذِن لى فيه أو نَدَبنى إليه ،

---

(١) ومما ورد فى كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير !! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ، وإذا أتاك كتابى هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ... » .

(٢) هى هند أم معاوية .

(٣) أرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

(٤) الجفل : السحاب هراق ماءه ومض .

(٥) القزع : قطع من السحاب رقيقة .

(٦) القعقعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس .

لأُرِيَنَّهُ الكواكب نهاراً ، ولأُسْعِطَنَّه[1] ماء الخردل دُونه ، الكلامُ اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله » ثم نزل .

[شرح ابن أبى الحديد ٤ : ٦٨ ـ تاريخ الطبرى ٦ : ٩٧]

وصــــيته

وخطب فقال :

استوصُوا بثلاثة منكم خيرا : الشريف والعالم والشيخ ، فو الله لا يأتينى شيخ بشابٍ قد استخف به إلا أوجعتُه ، ولا يأتينى عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتينى شريف بوضيعٍ استخف به إلا انتقمت له منه .

[البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ـ العقد الفريد ٢ : ١٥١]

(١) سعطه الدواء : أدخله فى أنفه .

الحجاج بن يوسف
(٤١ هـ — ٩٥ هـ)

حياته :

هو الحجاج بن يوسف الثقفى رجل الحرب والخطابة ، والجبار الداهية ، ولد بالطائف سنة ٤١ هـ وكان أبوه معلماً ولما شب اتخذ صناعة أبيه فراح يعلم الصبيان القرآن .

وكان مولده فى أول ظهور الدولة الأموية ، وكانت الثورات والفتن تهز أركان الدولة وتشغل بال الحاكمين ، وكان الحجاج عندما اكتمل شبابه شرطياً فى شرطة روح بن زنباع قائد جيوش عبد الملك بن مروان فأشار القائد على عبد الملك أن يولى الحجاج رياسة جيشه الذى وجهه ليقضى على ثورة الجزيرة ، فأظهر شدة وعنفاً وأدرك الخليفة حاجته إلى ظهير كالحجاج فأطلق يده فيما ندبه له اختاره لقتال عبد الله بن الزبير بالحجاز ، وقد بلغ من قلة تحرج الحجاج أنه ضرب الكعبة بالمنجنيق ، وكان عبد الله قد تحصن بها ، وتم له النصر على ابن الزبير فقتله فما كان من عبد الملك إلا أن كافأه بتوليته على الحجاز ثم ولاه من بعد ذلك العراق ، فدخل الكوفة فى اثنى عشر راكباً وتوجه إلى المسجد ، وهنا صعد المنبر معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفه ، متنكباً قوسه ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فجلس لا يفوه بكلمة ، واستصغر الحاضرون شأنه فقال أحدهم :

قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن ضابىء البرجمى : ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر مايصنع ، وعند ذلك وقف

الحجاج وحسر اللثام عن فيه وألقى هذه الخطبة الشهيرة ، وبعد حياة حافلة بعشرات الألوف من الضحايا توفى الحجاج وله من العمر ٥٤ سنة وعلى الرغم مما يؤخذ عليه من إذلال الأمة العربية وسلب حريتها ، فإن للرجل مع ذلك يداً على اللغة العربية ، إذبدل لغة الدواوين من الفارسية إلى العربية ، ورأى الكتابة العربية غامضة لخلوها من النقط والشكل ، فأمر بوضع هذين ، كذلك نسخ عدة نسخ من مصحف سيدنا عثمان وبعث بها إلى المدن ، وله الفضل فى جمع أشتات المسلمين وتوحيد كلمتهم تحت راية واحدة .

آثار الحجاج :

نقلت إلينا بعض الكتب التى ألفت فى القرن الثالث وما بعده مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لأحمد بن عبد ربه خطباً قليلة للحجاج والظروف التاريخية التى اقتضتها . ونتبين من الاختلاف فى راوية هذه الخطب مدى ما انتابها من تغيير فى نصوصها لصعوبة حفظها . وينسب إلى الحجاج أنه أمر نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر أن يضعا نقطاً تميز الحروف العربية فى المصحف حتى لا يقع القارىء فى اللحن . ونسخ عدة مصاحف أرسلها إلى بقية الأمصار .

مكانته الخطابية :

يظهر لنا من الخطب القليلة التى رويت للحجاج ، أنه كان يميل إلى جزالة الألفاظ وقوة الجرس ، وقصر الجمل ، والتكرار ، والتهويل بالقسم ، والتوكيد ، والتصوير البارع المنفر أو المحبب وكثرة الحديث عن نفسه وتوالى الحجج الخطابية التى تقوم على المغالطات ، كما يظهر منها ميله إلى محاكاة أسلوب القرآن فى التهويل ، والتخويف ، والاقتباس منه ، والاستشهاد بكثير من أشعار العرب وأمثالهم وحكمهم ، وهو بهذا يعد فى طليعة خطباء العربية الأفذاذ .

قال الأصمعي :

أربعة لم يلحنوا فى جد ، ولاهزل : الشعبى وعبدالملك بن مروان والحجاج[1] ابن يوسف ، وابن القرية[2] والحجاج أفصحهم ، وقال مالك بن دينار : مارأيت أحداً أبين من الحجاج ، إنه كان ليرق المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه ، إنى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين .

تحليل الخطبة :

بدأ الحجاج بالفخر بنفسه والتعريف بشخصيته ، فكان ذلك مدخلا للموضوع مناسبا للمقام ، ثم سلك فى خطبته مسلك زياد بن أبيه فى التهديد حتى قالوا تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس ، ثم هدد العاصين

(١) زعم بعضهم أن الحجاج قد أخطأ ونسب إليه ما يأتى : قال الحجاج للشعبي : كم عطاءك فى السنة ؟ قال ألفان ، قال، وكيف لحنت أولا ؟ قال : لحن فلحنت فلما أعرب أعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أعربت ، ولم أمن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول . وروى أيضا أن الحجاج قال ليحى ابن يعمر أتسمعنى ألحن ؟ قال : فى حرف واحد . قال : فى أى ؟ قال فى القرآن ، قال . ذلك أشنع ، ثم قال له : ما هو ؟ قال : تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) فتقرأ أحب بالرفع ، قال الحجاج لا جرم أنك لا تسمع لحنا بعد هذا . ثم ألحقه بخراسان .

(٢) هو أيوب بن يزيد ، والقرية أمه .

وتوعد الثائرين فأورد صوراً مرعبة : (إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى) ثم انتقل إلى وصف أهل العراق وصفا قاسيا فرماهم بالشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، ثم عاد ليفخر بنفسه ، وفى مقام الفخر صور نفسه تصويراً بليغًا ثم انثنى ليتوعدهم وينذرهم فى قالب من القسم والتوكيد « وأيم الله لألحونكم لحو العصا ـ ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ولم يكتف بما ضمن الخطبة من تهديد مرعب بل أراد أن يستوثق من تأثير خطبته فى الناس فقال لغلامه : اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فما وصل إلى قوله : سلام عليكم حتى رد السلام كل من بالمسجد .

خصائص الخطابة :

١ — النزعة الدينية : ولم يكن الحجاج ليشذ عن القاعدة المتبعة فى خطب الإمام فقال : « اللهم أرنى الغى غيا فأجتنبه وأرنى الهدى هديا فأتبعه » وهذا يدلنا على أن الناس كان لهم من تعاليم الإسلام الوازع القوى .

٢ — الاستشهاد بآى القرآن وقصصه وتعاليمه وتضمين خطبته بعض الشعر والأمثال وما إلى ذلك من مأثور الكلام المقتبس .

٣ — قصر الجمل ، وقصر الجمل أوقع فى النفس وأشد تأثيراً .

٤ — اشتمالها على الألفاظ الضخمة ، والأساليب الرائعة ، والمعانى البليغة ، وقوة السبك (فرقرقة الدماء ، والعجم للعود ، واللحو للعصا ، والقرع للمروة) كل هذا يدلنا على مدى اختياره للألفاظ الضخمة .

٥ — تنوع الأساليب بين الأخبار والإنشاء والشدة والإنكار .

٦ — توشية الكلام بالصناعة . كتشبيه أهل العراق بأهل قرية كانت

آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله وتشبيههم بالإبل والعصى والمروة ، ثم استعمال الاستعارات ومراعاة النظير مثل : إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها .

٧ — كان موقفه موقف تهديد ، لذلك كرر عبارات التهديد ، وأكثر من المترادفات : (لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله) .

٨ ــ القوة : فهذه الخطبة وسابقتها من نوع الخطب (السياسية الإدارية) وهى التى يلقيها الحكام فى الحض على الطاعة والتحذير من مغبة المروق ، ومن ثم يكون طابعها القوة ، إذ تتكتل فيها شوامخ اللفظ والمعنى لتؤدى الدور الأكبر فى الإرهاب والتهويل ومظاهر القوة الإغراب الكامن فى تلك الأشعار التى ضمنها الخطبة ، هذا إلى غرابة بعض الألفاظ والمعانى .

المنتخبات

خطبة الولاية

فى أهل الكوفة

أنا ابنُ جَلا وطلاَّع الثنايا   متى أضع العمامةَ تعرفونى[١]
صليبُ العود من سَلفى نزار   كنصل السّيف وضّاح الجبين

أما والله إنى لأحمل الشرَّ بِحِمْله وأحذوه بنعله[٢] وأجْزيه بمثله[٣] وإنى لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعت وحان قطافُها، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدِّماء تترقرق بين العمائم واللّحى.

ثم قال: —

هذا أوان الشدِّ فاشتدى زِيم   قد لفَّها الليل بسواق حُطَم[٤]
ليس براعى إبل ولا غنم   ولا بجزارٍ على ظهر وَضَم[٥]

ثم قال: —

قد لفها الليل بعصلبى   أروع خرَّاجٍ من الدَّوى[٦]

---

(١) ابن جلا: الصبح أو الأمر الظاهر، الثنايا، الأراضى الخطرة.
(٢) حذا النعل: قطعه على مثال، والمعنى أنه يرد الشر بمثله.
(٣) وأجزيه بمثله: هذه جمل مترادفة معناها أنه يجزى الشر بالشر.
(٤) الشد: العدو. زيم: اسم فرس أو ناقة. الحطم: الراعى الذى يظلم الماشية.
(٥) الوضم: ما يقطع عليه اللحم.
(٦) العصلبى: القوى. الأروع: الذكى. الدوى: الفلاة.

مهاجر ليس بأعرابى[1] .

ثم قال : ـ

قد شَمَّرت عن ساقها فشدوا وَجَدَّتْ الحرب بكم فَجِدوا[2]
والقوسُ فيها وتر عُرُدُّ مثلُ ذِراع البكر أو أشَدّ[3]
لابدَّ ممّا ليس منه بدّ

إنى والله يا أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ما يقعقع[4] لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التّين[5] ولقد فُرِرْت[6] عن ذكاء وفُتشت عن تجربة وأُجْريت إلى الغاية القصوى ، وأن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته[7] ثم عجم[8] عيدانها فوجدنى أمرها عوداً ، وأشدها مكسرا فوجهنى إليكم ورماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم[9]

---

(١) مهاجر ليس بأعرابى : أى يخرج من البدو إلى المدن ، والأعرابى ساذج ليس فى تجربته كأهل المدن .

(٢) شمرت عن ساقها : اشتدت .

(٣) عرد : شديد ، البكر : الناقة الفتية .

(٤) القعقعة : تحريك الشىء الصلب مع الصوت . والشنان : القربة البالية . وهم يحركونها إذا ارادوا حث الإبل على السير : مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له . وقد تمثل به معاوية من قبل .

(٥) التين : معروف . والمعنى لست ضعيفا.

(٦) فررت : اختبرت .

(٧) الكنانة : جعبة السهام .

(٨) عجم : عجم العود عضه ليعرف صلابته أولينه .

(٩) أوضعتم : اسرعتم .

فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وَسننتم سنن الغى ، وأيم الله لألحونّكم لحو[١] العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة[٢] ولأعصبنكم عصب السلمة[٣] ولأضربنكم ضَرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكانٍ ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إنى والله لا أعد إلا وفيت . ولا أهم إلا أمضيت[٤] ولا أخلق[٥] إلا فريت[٦] وإياى وهذه الزرافات[٧] والجماعات وقالا وقيلا وما يقولون ، وفيم أنتم وذاك ، والله لتستقيمن على الحق أو لأَدَعنّ لكل رجل منكم شغلا فى جسده ، من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله .

---

(١) لحو : لحا العصا : قشرها .

(٢) المروة : الحجر .

(٣) السلمة : شجر كثير الشوك .

(٤) أمضيت : أنفذت .

(٥) أخلق : أقدر .

(٦) فريت : قطعت .

(٧) الزرافات : الجماعات .

خطبة دير الجماجم (*)

خطب أهل العراق بعد دير الجماجم(١) فقال :

يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استَبْطَنَكم(٢) فخالط اللحم والدّم والعَصَبَ والمسامع ، والأطراف والأعضاء ، والشَّغاف(٣) ثمّ أفضى إلى الأَمْخَاخ والأَصْماخ(٤) ثم ارتفع فعشّش ، ثم باضَ وفَرّخ ، فحشاكم نِفاقا ، وأشْعَركم خِلافا(٥) ، واتخذتموه دليلا تتّبعونه ، وقائدًا تطيعونه ، ومُؤامرًا تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، وتعظكم وقعة ؟ أوْ يَحْجزكم إسلام(٧) ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز ؟ ، حيث رُمْتم(٨) المكر ، وسعيتم بالغدر(٩) ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم أنّ الله يخذل(١٠) دينه وخلافته ،

(*) الجاحظ : البيان والتبيين ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٤٠ .

(١) دير الجماجم : معركة دارت بين الحجاج و بين عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، قرب الكوفة . هزم فيها ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ .

(٢) استبطنكم : داخلكم .

(٣) الشغاف : غشاء القلب .

(٤) الاصماخ : جمع صماخ الجزء الداخلي من الأذن .

(٥) أشعركم خلافا : جعل الخلاف شعاراً لكم .

(٦) مؤامرا : مستشارا .

(٧) يحجزكم إسلام : أى أن الإسلام لا يحول بينكم وبين ارتكاب المعاصى .

(٨) رمتم : اردتم وعزمتم .

(٩) سعيتم بالغدر : عملتم على نشر الفتن. (١٠) يخذل : يهزم .

وأنا أَرْميكم بِطَرْفى[١] ، وأنتم تسلّلون لِوَاذًا[٢] وَتَنْهزمون سِرَاعًا ، ثم يومُ الزّاوية[٣] وما يوم الزاوية ؟ به كان فَشَلُكُم . وتنازعكم وتخاذلكم[٤] ، وبراءةُ الله منكم ، ونُكوص[٥] وليّكم[٦] عنكم إذْ وليتم[٧] كالإبل الشّوَارِدِ[٨] إلى أوْطانها ، النّوازع[٩] إلى أعْطَانها[١٠] لا يسأل المرء عن أخيه ، ولاَ يلْوى[١١] الشيخُ على بنيه ، حتى عَضّكم السلاح[١٢] ووَقَصَتْكُم[١٣] الرّماح !! ثم يوم دير الجماجم ، ومايوم دَيْر الجماجم ؟ به كانت المعارك والملاحم ،

---

(١) أرميكم بطرفى : أتتبعكم ببصرى .

(٢) تسللوا لواذا : تتسربون مستخفين .

(٣) يوم الزاوية : معركة دارت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة ٨٢ ﻫ بقرب البصرة وقتل فيها خلق كثير من الفريقين .

(٤) فشلكم : جبنكم . تنازعكم : اختلافكم . تخاذلكم : قعودكم عن النصر ، وتقصيركم فى القتال .

(٥) النكوص : التخلى .

(٦) وليكم : نصيركم وصديقكم .

(٧) وليتم : فررتم .

(٨) الشوارد : النافرة .

(٩) النوازع : المشتاقة .

(١٠) أعطان : المبرك والمناخ : وهى الأماكن التى ترقد فيها الإبل .

(١١) لا يلوى : لا يقف ولا ينتظر .

(١٢) عضكم السلاح نالكم بالجراح .

(١٣) وقصتكم الرماح : قتلتكم : والوقص دق العنق .

بحرب يزيل الهام[١] من مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله .

يا أهل العراق ، الكفرات بعد الفجرات[٢] والغدرات بعد الخترات[٣] ، ونزوة بعد الغزوات — إن بعثتكم إلى ثغوركم[٤] غللتم[٥] وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم[٦] ، وإن خفتم نافقتم — لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ! ! هل استخفكم[٧] ناكث ، أو استغواكم[٨] غاو ، أو استفزكم[٩] عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم[١٠] خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورجبتموه[١١] ؟ .

---

(١) مقيل الهام : موضع الرءوس .

(٢) الكفرات بعد الفجرات : أتنفرون بعد الفجور ؟ .

(٣) الخترات : جمع خترة وهى أقبح أنواع الغدر .

(٤) ثغوركم : أماكن الحراسة على الحدود .

(٥) غللتم : سرقتم وخنتم .

(٦) أرجفتم : أشعتم الأخبار الكاذبة السيئة .

(٧) استخفكم ناكث : استنجد بكم غادر :

(٨) استغواكم غاو : أضلكم مضل .

(٩) استفزكم : أثاركم .

(١٠) استعضدكم خالع : استنصر بكم خارج على الخلافة .

(١١) رجبتموه : عظمتموه .

يا أهل العراق ، هل شَغَبَ[١] شاغب ، أو نعب[٢] ناعب أو زفر[٣] زافر إلا كُنتم أتباعه وأنصاره ؟ ، يا أهل العراق — ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم[٤] الوقائع ؟ .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام — إنما أنا لكم كالظليم[٥] الرامح[٦] عن فِرَاخِه ، ينفى عنها المَدَرَ[٧] ويُباعد عنها الحجَر ، ويُكنّها من المطر ، ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب . يا أهل الشام ، أنتم الجُنّة[٨] والرِّداء ، وأنتم العُدَّة والحِذاء .

---

(١) شغب : هيج الشر .

(٢) نعب ناعب : دعا داع إلى الفرقة والخلاف .

(٣) زفرزافر : المراد هنا كل من أبدى تذمرا وخروجا على الخلافة .

(٤) تزجركم : تردعكم .

(٥) الظليم : ذكر النعام .

(٦) الرامح : المدافع .

(٧) المدر : قطع الطين .

(٨) الجنة : الوقاية

معاوية بن أبى سفيان

حيـاته :

ولد معاوية بن أبى سفيان إبان ظهور الإسلام ، وورث عن أهله حصافة رأى وحسن حيلة ، كان يتطلع إلى الملك ، كأن يحقق فراسة أمه هند فيه حين قال لها أحد الناس وهو على كتفها ، وقد رأى فيه مخايل النجابة : إن هذا الفتى ليسود قومه ، فقالت : ثـكلته إن لم يسد العرب كلها ، فلما مات عثمان وكان معاوية حاكما على الشام نازع عليًّا الخلافة ، ووقعت بينهما أحداث وفتن استعان فيها معاوية بدهائه ، حتى إذا قتل علىّ ، وخلفه الحسن ، وتمرد عليه جنده فصالح معاوية عام ٤١ هـ فسمى عام الجماعة وبذلك قامت الدولة الأموية على يد معاوية ، وقد كان إلى بلاغته وتجربته عليما بنفوس الأفراد والجماعات والأمم وأخلاقهم وطبائعهم ، وكانت هذه المعرفة أكبر عون له على نجاح سياسته حتى قال فيه عمرو بن العاص : اتقوا آدم قريش وابن كريمها ، من يضحك فى الغضب ولا يكلم إلا على الرضا ويتناول من فوقه من تحته ، وفى هذا النص صورة ناطقة بهذه المعرفة التى أدت إلى تمهيد السبيل لسياسته ونجاحه فيها وطول مدة حكمه فقد قضى ٢٠ سنة عاملاً ومثلها خليفة توفى سنة ٦٠ هـ .

أما يزيد فهو ابنه وخليفته وكانت له فى قلبه منزلة عظيمة ، عمل معاوية على تربيته وتهيئته للملك فـكان معاوية على مجون يزيد ولهوه وسوء سيرته فى الناس وعدم رضاهم عنه ـ إذا أتته المشكلات بعث إلى يزيد يستعينه على استيضاح شباتها ، واستسهال معضلاتها ، وقد عانى معاوية من أجل ذلك جهوداً عظيمة فى أخذ البيعة ليزيد من المسلمين ، ولـكنه لم يفز بها عن طريق

الرضا والاختيار ، و إنما كان سبيله إلى غايته هذه القوة والقهر ، ولم يكتف معاوية بأخذ البيعة ليزيد حتى أراد أن يستوثق من نجاحه فى خلافته واستتباب الأمر له فكانت وصيته هذه آخر ما يصنع والد لولده فى هذا الموقف وسنرى فى هذه الوصية ما أشرنا إليه من دهاء معاوية ، وصدق نظره ، وسداد رأيه ومعرفته بدخائل النفوس ، فقد وقع كل ماتخوفه معاوية ، وكأنه كان ينظر بعين الغيب .

ومعنى الفقرة الأولى أن معاوية قد ترك لابنه ملكا عريضاً ، ورعية خاضعة وثروة طائلة ، وجاهاً واسعاً لم يظفر بمثله أحد غيره ، وخير ما يرث الأبناء عن آبائهم ملك هذه صفته ، وهذا تنبيه على أن يحسن يزيد سياسة هذا الملك ليحتفظ به .

ومعنى الفقرة الثانية أن معاوية ينصح يزيد بمعاملة أهل الحجاز معاملة كريمة ، لأنهم أصله وعشيرته ، وفيهم دوحة النبوة ومنبع الرسالة ، فلا يخص من قصده بالإكرام دون من قعد عنه وتخلف ، أما أهل العراق فهم أهل ثورات فتجنب ثورتهم ما استطعت واذهب فى سبيل رضاهم أبعد المذاهب حتى إذا طلبوا تغيير عاملهم كل يوم أجابهم فإن هذا أهون من ثورة قد تجرد فيها السيوف ولا تدرى عواقبها ، وأما أهل الشام فليجعلهم موضع ثقته وأهل مودته وسياج دولته يستعين بهم على عدوه ، وعليه ألا يطيل اغترابهم عن بلادهم حتى لا تتسرب إليهم أفكار وآراء تغير من حسن طاعتهم وصادق مودتهم فإن أهل الشام هم جند بنى أمية المخلصون .

وفى هذه الفقرة الثالثة يحذر معاوية ابنه يزيد أربعة رجال قد خبرهم أصدق الخبرة وعرف أنهم لم يبايعوا يزيد إلا بالقوة ، فهم لابد واثبون عليه ، ولا عجب فهم أبناء المهاجرين الأولين وذوو المكانة العالية فى نفوس المسلمين ومعاوية

يحذر ابنه هؤلاء لخبرته بهم ، من ناحية كما قلنا ، ولأن أحاديثهم معه فى أمر البيعة كانت صريحة لا مواربة فيها ولا خداع ، فقد عنف الحسين معه عنفاً شديداً وقال له عبد الله بن عمر فى هذا الصدد :

« إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ، ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء » وقال له عبد الله بن الزبير « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وترك الناس إلى كتاب الله فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، ومن المسلمين ابن عبد الله وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ماتركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم و إن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، و إن شئت أن تصنع مثل ماصنع عمر تختار رهطاً من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل » وكذلك قال ابن الزبير لما سأله معاوية : ماترى فى بيعة يزيد ؟ قال ياأمير المؤمنين : إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم ، فضحك معاوية وقال : ثعلب رواغ ، تعلمت الشجاعة عند الكبر ، وفى دون ما تشجعت به على ابن أخيك مايكفيك .

ولم يكن التخلف عن بيعة يزيد من أبناء المهاجرين المتطلعين للخلافة فحسب ، و إنما كان من غيرهم أيضاً حتى ممن يوالون معاوية ولهم به نسب وقرابة ، فروان بن الحكم يقول لمعاوية فى هذا « اهدأ من تأميرك الصبيان » والأحنف ابن قيس يقول : « نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا » .

وفى هذه الفقرة ترى مقدرة معاوية فى البلاغة فى وصف كل من هؤلاء النفر بصفته : وصف ابن عمر بأنه رجل قد غلبه الورع و إذا رأى الناس بايعوا

أحد اتبمهم ، ووصف الحسين بالخفة وعدم الحزم ورجا أن يسلط الله عليه من يريحه منه ، وتوقع أن يدعوه أهل العراق ليبايعوه وينصروه ، ونصحه إن خرج وظفر به يزيد أن يعفو عنه لقرابته وحقه العظيم ومنزلته عند رسول الله .

ووصف ابن أبى بكر بأنه لا رأى له ولا هم له إلا النساء واللهو .

ووصف ابن الزبير بالخداع والمراوغة وأنه العدو المخشى ، ونصح له إن ظفر به أن يقتله ، ثم اختتم وصيته بالحرص على أرواح قومه ما استطاع فلا يندفع إلى القتال إلا مضطراً .

والوصية وصية أملتها الحكمة والتجربة ، وقد دلت على ما قلنا من دهاء وخبرة بخفايا النفوس وأخلاق الأفراد والجماعات ، فوصفه للشعوب فى الفقرة الثانية ، والرجال الأربعة فى الفقرة الثالثة لا يحتاج إلى بيان بعد ما أوضحنا .

المنتخبات

وصية معاوية لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاوية مُسلم بن عقبةَ المرّى ، والضّحاك بن قيس الفِهْرى ، فقال : أبلغا عنى يزيد وقولا له :

يابنى إنى قد كفيتك الشدّ والترّحَال ، ووطأتُ لك الأمور ، وذلّلْتُ لك الأعداء ، وأخضعتُ لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعْه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك وعِتْرَتُك[1] ، فمن أتاك منهم فأكرِمْه ، ومن قعد عنك فتعهّدْه ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإنّ عَزْلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علامَ أنت عليه منهم ؛ ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشّعار[2] دون الدّثار ، فإن رَابَكَ من عدوّك رَيْبٌ فارمِهِمْ بِهِمْ[3] ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم . ولا يقيموا فى غير بلادهم . فيتأدبوا بغير أدبهم .

وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر .

---

(١) عترة الرجل عشيرته الأدنون .

(٢) الشعار : الثوب يلبس على مشعر الجسد ، والدثار : الذى يلبس فوق الشعار .

(٣) الضمير للعدد ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقذه[1] الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُه بايعك ، وأما الحسين بن على ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قَتَل أباه ، وخذل أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن خرج وظفِرت به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِماً ماسّة ، وحقًّا عظيماً ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ، وأما ابن أبى بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همةٌ إلا فى النساء واللهو ، وأما ابن الزبير : فإنه خِبٌّ ضَب ، فإن ظفرت به فقطِّعْه إرْباً إرْبا .

[البيان والتبيين ٢ : ٦٢ — العقد الفريد ٢ : ١٤١]

الكتابة

إنشاء الرسائل الفنية

كان أكثر القبائل فى الجاهلية أهل بدو أميين لا يكتبون ، فلما عنى أهل القرى منهم كمكة بالتجارة ونقلها بين اليمن والشام والعراق اضطروا إلى تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وأول من تعلمها منهم حرب بن أميةَ القرشى جد معاويةَ بن أبى سفيان ، وجاء الإسلام وقد تعلمها طائفة من أهل مكةَ أسلم بعضهم وهاجر ، فتعلمها الأنصار منهم ومن أسرى بدر ، وحض النبى (صلى الله عليه وسلم) على تعلمها . وكان له من المهاجرين والأنصار عدة كتّاب ، ومنهم من كتب رسائله إلى الملوك والأقيال والعهود التى يكتبها لمن أسلم من القبائل ولمن صالحوه فى حرب ، ومن هذا أطلقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين .

(١) وقذه : صرعه وغلبه .

وأول ماظهر الاضطرار إلى استخدام الكتابة فى أعمال الخلافة كان فى أيام عمر ، لكثرة الجيوش والفتوح والمغانم فى زمنه ، فاتخذ ديواناً للجيش ، يدوّن فيه أسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم ، فهو أول من دَوّن الدّواوين من الخلفاء ، ومن قوله فى ذلك لعمال الديوان وكتابه «إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدءون وأيها تؤخرون » . واتبع من بعده من الخلفاء سنته فى اتخاذ الدواوين إلى أن كانت دولة بنى أمية ، فزاد معاوية ديوان الخراج وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل . وكان يكتب له على الرسائل عبيد الله بن أوس ويكتب له على الخراج سرجون الرومى بالخط الرومى إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية ، على يد صالح بن عبد الرحمن فى أيام الحجاج ، ومن الرومية إلى العربية على يد سليمان بن سعد أيام عبد الملك ، ثم نقلت فى مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد ، فأصبحت لغة الدواوين كلها عربية .

وكانت الرسائل تكتب قبل بلغة التفاهم ، لا يعمد فيها إلا إلى بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة والقواد من إنشائهم على الكتاب لمكانهم من الفصاحة ، وقوة ملكة الارتجال فيهم . فلما عهدوا بكتابتها إلى كتابهم من أبناء عرب الشام والعراق ومصر ، ومن الموالى من الفرس والروم والقبط والمتعربين اتخذوها صناعة فتأنقوا فى صوغ عبارتها وتخير ألفاظها ، وأقبلوا على تعلم الأدب وحفظ القرآن وأشعار العرب واقتبسوا منه ، وحلوا نظمه ، وأدخلوا فى عبارة الكتابة كل ماستحسنوه من تشبيهات الشعر وضرب أمثاله وحكمه وترجموا إلى العربية كل ماأعجبهم من وجوه الأداء فى اللغة الفارسية والرومية ، وتميز ذلك فى عصر هشام على يد

أبى العلاء سالم مولاه ، وكان يجيد العربية والرومية وعليه تخرج ختنه وتلميذه عبد الحميد بن يحيى ، فصارت على يديه صناعة عتيدة ، وفنّاً من الفنون الأنيقة تدخل جودتهـا على النفس سروراً و بهجة ، فهو أستاذ الأستاذين لهذه الصناعة بلا مراء .

وفى عهد سالم وعبد الحميد قلل الـكتاب من استعمال الغريب والوحشى من الألفاظ فى كتابة الرسائل ، وتجنبوا التعقيد وتباعد الأفـكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وما يليها ، فقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزء الـكلام بأجنبى .

عبد الحميد الكاتب

(؟ — ١٣٢ هـ)

حياته :

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعيد طليعة الكتاب والمترسلين باللغة العربية ، وإن كان غير عربى الأصل . ولد ونشأ بالشام فى ولاء بنى عامر ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك الذى لقنه سالم صناعة الكتابة الديوانية ومراسم الملك .

وكان سالم يعرف اليونانية وينقل عنها ، فاستفاد عبد الحميد من صناعته وترجمته ، وفاق كتاب العرب والموالى بخواص اجتمعت فيه : من عقل وذكاء ، وحفظ قرآن ولغة ورواية خطب وعلم جم ، ووفاء عظيم لأولياء نعمته يعرف ذلك فى بعض رسائله المطولة التى أبقاها لنا الزمان من آثاره العظيمة .

وتعاطى مهنة التعليم فى أول أمره بالشام ، ثم اتصل بمروان بن محمد الأموى وهو وال على أرمينية ، فصحبه وعمل كاتباً له ، حتى إذا صارت إليه الخلافة ، وبايعه أهل الشام بها ، سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد . فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ قال : إذاً تطير معى ، قال : الآن طاب لى السجود وسجد .

فجعله كاتب دولته ، ورئيس ديوان الرسائل ، ولبث عبد الحميد وفياً لمروان ، ودولة بنى أمية حين ثار عليها العباسيون ، ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية كان يلازمه عبد الحميد فى كل هذه الشدة . فقال مروان ،

قد احتجت أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى و إلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى . فقال له : إن الذى أشرت به على أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك .

و بقى معه حتى قتل مروان بمصر سنة ١٣٢ هـ ففر واختبأ عند صديقه ابن المقفع ، ففاجأه الطلب وهو فى بيته . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبدالحميد؟ فأجاب كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلاً منّا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، و يمضى بعض آخر و يذكر تلك العلامات لمن وجهكم ، ففعلوا وأخذوا عبد الحميدا إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ .

آثاره :

عبد الحميد له رسائل مختلفة : ، أدبية ، وسياسية ، و إخوانية ، أهمها ثلاث رسائل : الأولى رسالة كتبها على لسان مروان بن محمد وأرسلها إلى ابنه عبد الله بن مروان حين أرسله على رأس جيش لمحاربة الضحاك بن قيس بالجزيرة سنة ١٢٧ هـ ، وفيها توجيه حكيم لقائد جيش إن نفذه يكتب له التوفيق . والثانية رسالة كتبها فى الشطرنج ، وحاول أن ينفر الناس منها ، ويدعوهم إلى الاقتصاد الكبير فى استعمالها لأنها ملهاة تشغل الناس عن كل عمل للشخص ، أو لأسرته أو لوطنه أو لدينه . والثالثة رسالة وجهها إلى الكتاب ، بين لهم فيها النظم والقواعد التى يتبعها الكتاب ، وآدابه ، وأخلاقه ، وما يجب على الكتاب من الاتحاد والتعاون .

ومما استحق به أن يسمى بشيخ الصناعة وأستاذ كل كاتب ، فوق استحقاقه ذلك ، ما أثر عنه من استكمال أداة الصناعة ، فقد كان يجيد الإيجاز كما يجيد الاطناب ، ويتخير من الألفاظ أنصعها وضوحاً ، وأجزلها معنى ، وأدقها كتابة ، وأقواها حجة ، وأنسقها ترتيباً .

وهو أول من أطال الرسائل السلطانية والإخوانية والفنية ، وابتكر فيها كثيراً من صور البدء والختام ، وتعديد التحميدات لله فى الرسائل السلطانية المطولة ، حتى كأنه فى الحقيقة كان يضع نظاما عاما للكتابة فى دواوين الدولة العباسية .

منزلته :

(... اتفقت كلمة أهل الأدب على أن عبد الحميد هو إمام صناعة كتابة الرسائل الأول ، لأنه مهد سبيلها ، وميز فصولها ، وأطال شئونها ، وجعل لها صوراً خاصة وختمها بل هو الذى ارتقى بهذه المهنة حتى صارت سلماً يعرج فيه الكتاب إلى مرتبة الوزارة » .

وكان لبلاغة عبد الحميد أثر يعجز عنه السحر فى خلب الأفئدة فيقال : إنه لما ظهر أبو مسلم الخراسانى بدعوة بنى العباس كتب إليه عبد الحميد كتاباً على لسان مروان يستجلبه ، وضمنه ما لو قرىء لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل ... فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أمر بإحراقه قبل أن يقرأه وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

إلى أهـله :

تتصـل هذه الرسالة بالأحداث الـكبرى التى نزلت بالدولة الأموية ، وقضت عليها نهائيا أمام قوة جديدة هى قوة بنى العباس .

وقد أحسن الـكاتب وصف الدنيا ، وعبر عن تقلباتها أحسن تعبير .

ويبدو فى الرسالة تأثر الـكاتب بالقرآن الـكريم فى قوله : الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء « فهو فيه متأثر بقوله تعالى « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء » .

وتبدو الحـكمة والمثل فى الرسالة : وذلك فى مثل قوله « الذل شر جار » وأسلوب الـكاتب سهل ، ويجمع بين الإرسال والسجع ، كما يجمع كثيراً من الصور البلاغية التى تنم عن خيال خصب ، ومقدرة فائقة فى التصوير والإبداع .

المنتخبات

١ – إلى أهله :

« أما بعد فإنّ الله تعالى جعل الدُّنيا محفوفةً[(١)] بالمكاره والشّرور ، فمن ساعدَه الحظُّ فيها سَكنَ إليها[(٢)] ومن عَضَّتْهُ بِنابِها[(٣)] ذَمّها ، ساخطاً عليها ، وَشَكاها مُسْتَزِيداً لها .

وقد كانت أذاقَتْنا أفاويق[(٤)] استَحْلَيناها ، ثم جَمَحت[(٥)] بنا نافرةً وَرمحتنا مُولّيةً فملُح عَذْبُها وخشُن لَيِّنُها ، فَأَبْعَدَتْنا عَنِ الأوْطانِ ، وفرّقتنا عن الإخوان فالدّارُ نازحةٌ ، والطير بارحة .

(ب)

وقد كتبتُ والأيام تَزِيدنا منكم بُعدا ، وإليكم وَجْدًا[(٦)] ، فإن تَتِمّ البليةُ إلى أقصى مدّتها ، يمكن آخرَ العهد بكم وبنا ، وإنْ يَلْحَقنا[(٧)] ظفر جارحٌ من أظفار منْ يليكم ، نرجع إليكم بذلّ الإسار[(٨)] ، والذل شرُّ جار .

---

(١) محفوفة : محوطة .

(٢) سكن إليها : اطمأن إليها ، وعاش فيها مسرورا .

(٣) عضته بنابها : أصابته بضرها وأذاها .

(٤) الأفاويق : جمع فيقة : اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين ، ويريد بهذا . أن الدنيا قد أذاقتهم شيئا من الهناءة والسرور .

(٥) جمحت بنا نافرة : أراد انقلبت علينا فصار سرورها شقاء وذلك مأخوذ من جمح الفرس أى غلب فارسه ولم يمكنه قيادة .

(٦) الوجد : الشوق .

(٧) إن لحقنا ظفر جارح : أى إن ظفر بنا عدو وأسرنا من بينكم : أراد بهم بنى العباس أعداءهم .

(٨) الإسار : الأسر .

نسأل الله الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين ، أرحم الراحمين .

رسالة عبد الحميد بن يحيى عن مروان
إلى ابنه عبد الله بن مروان
حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى

من ذلك أن تملِكَ أمورك بالقصد ، وتداري جندك بالإحسان ، وتصون سِرّك بالكتمان ، وتداويَ حقدك بالإنصاف ، وتذلل نفسك بالعدل ، وتحصن عيوبك بتقويم أوَدِك ، وتمنع عقلك من دُخولِ الآفات عليه بالعُجْب المُرْدِى ، وأناتَكَ فَوَقِّها الملاَلَ وفوتَ العملَ ، وحَضَارتَكَ فدرِّعها رؤية النظر ، واكنُفْها بأناة الحلم ، وخَلَوَاتك فاحرُسها من الغفلة ، واعتماد الراحة ، وصمتك فانفِ عنه عيّ اللفظ ، وخَفْ فيه سُوء القَالَة ، واستماعك فأرْعِه حُسْنَ التّفهُّم ، وقوِّه بإشهادِ الفِكر ، وعطاءك فامْهَد له بُيُوتات الشرف ، وذوى الحسَب ، وتحرّزْ فيه من السَّرف واستطالة البذخ ، وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل ، وبلادة الحصر ، وحلمك فزَعْه عن التهاون ، وأحْضِرْه قوة الشكيمة ، وعقوبتك فقصّر بها عن الإفراط ، وتعمّدْ بها أهل الاستحقاق ، وعفوَكَ فلا تدخِلهُ تعطيلَ الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقم به أوَدَ الدين .

العصر العباسي

الأول

تمهيد

لمحة عن الحياة السياسية :

انتهى العصر الأموى فى الشرق ـ بسقوط الدولة الأموية فى دمشق وذلك فى سنه ٧٥٠ م (١٣٢هـ) . وكان سقوط الأمويين بثورة عسكرية تجند لها الفرس خاصة وأقادها رجل فارسى اسمه أبو مسلم الخراسانى .

ومن وراء هذه الثورة كان العباسيون أبناء العباس ـ عم النبى والطالبيون الذين رأوا أن الخلافة حق للامام على بن أبى طالب دون غيره .

على أن العباسيين هم الذين انفردوا بالخلافة بعد سقوط الأمويين وقد أقصوا عنها الطالبيين وتحولوا بها إلى العراق وجعلوا عاصمتها بغداد : المدنية التى اختطها أبو جعفر المنصور ثانى الخلفاء من بنى العباس فأصبحت من أعظم حواضر الدنيا فى القرون الوسطى .

وهكذا ابتدأ فى تاريخ الأدب العربى عصر جديد اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسى ، واعتبروه العصر الذهبى للأدب العربى .

وهو عصر زاخر بالآداب واعتراك الأفكار واحتكاك الأذواق ـ فيه ازدهرت المدن ، ونمت الحضارة نموا كبيرا ـ واتسعت آفاق الاطلاع على ما أورثته المدنيات السالفة من معارف وفلسفات وعظمت حركة التأليف واشتد اختلاط العرب بالشعوب الأخرى وأتقن كثير من أبناء الشعوب الأخرى اللغة العربية على اختلاف أجناسهم ونبغ منهم فيها الشعراء والكتاب وبرز تراجمة نقلوا إليها المؤلفات الأجنبية .

فكان بعد هذا كله أن ترقت اللغة العربية وعظمت ثروتها وحفلت خزائنها بأدب عرف باسم الأدب المولد أو المحدث تمييزا له من الأدب القديم — وإنما سمى كذلك لأنه تولد من انتقال بدواة إلى حضارة ومن تمازج شعوب وأذواق وأفكار — بحيث اختلف عن الأدب القديم وظهرت عليه صفات جديدة .

عهود العصر العباسى :

عمد المؤرخون إلى تقسيم ذلك العصر أربعة أعصر :

العصر العباسى الأول : عصر القوة والزهو — يبتدئ بقيام الدولة العباسية ويمتد نحواً من قرن فينتهى بموت الخليفة المأمون بن الرشيد سنة (٨٣٤-٢١٨هـ) وكان النفوذ الغالب على الدولة فيه هو النفوذ الفارسى ، لأن الفرس بحسب ما أسلفنا القول جندوا للعباسيين ثورتهم على الأمويين فعظمت مكانتهم فى الدولة الجديدة .

العصر العباسى الثانى : يمتد كذلك نحواً من قرن — وفيه أخذت تبرز علائم الضعف والتصدع فى الدولة بعد ماغلب عليها نفوذ أتراك ماوراء النهرين ، وهم قوم استقدمهم الخليفة المأمون وشقيقه : المعتصم بن الرشيد من وراء نهر جيحون[1] ، واستخدمهم جنوداً مرتزقة ليدفع بهم نفوذ الجنود الفرس — لكنهم استبدوا بشئون الدولة حتى دخل البويهيون بغداد سنة ٩٤٥ م — (٣٣٤ هـ) .

العصر العباسى الثالث : أو العصر الذى سيطر فيه على الدولة نفوذ

---

(١) نهر عظيم فى أواسط آسيا يسمى اليوم ب (الأموداريا) وهو ينصب فى بحر إرال المعروف قديما ببحر خوارزم .

بنى بويه وكان هؤلاء أمراء لقبائل تسمى الديلم تسكن فى جنوبى بحر الخزر — (بحر قزوين اليوم) فأسسوا دولة لهم فى بلاد فارس عاصمتها شيراز ثم احتلوا بغداد — على ماذكرنا فبسطوا يدهم على الخليفة فيها وأحلوا سيادتهم فى موضع الأتراك .

وفى هذا العصر — الذى امتد كذلك نحواً من قرن — اشتد انحلال الدولة العباسية فأمست وليس لها من السلطة إلا الاسم فكثرت الدول التى انسلخت عنها واستقلت فى الأقاليم إلى شرق العراق وغربه حتى دعى هذا العصر عصر الدول المستقلة .

فمن هذه الدول التى قامت شرقى العراق :

الدولة البويهية : على نحو ما ذكرنا .

الدولة السامانية : وفى ظلها ازدهرت مدينتا بخارى وسمرقند ، وأصبحتا قاعدتين للعلوم والآداب .

الدولة الغزنوية : وكانت قاعدتها مدينة غزنه فى البلاد التى تسمى اليوم أفغانستان .

الدولة الحمدانية : التى أسسها فى الموصل بنوحمدان وهم عرب من قبيلة تغلب .

الدولة الأخشيدية : فى مصر ومن كبار حكامها كافور الأخشيدى الذى خلده المتنبى بأهاجيه .

الدولة الفاطمية : فى مصر أيضاً وهى أعظم الدول المستقلة التى سطع نجمها فى هذا العصر .

العصر العباسى الرابع : أو آخر الأعصر العباسية ، نيفت مدته على القرنين

وسيطر فيه على الدولة نفوذ السلجوقيين ــ وهم جنس من الأتراك أزالوا دولة بنى بويه واحتلوا بغداد سنة ١٠٥٥ م (٤٤٥ هـ) ولبثوا يصرفون شئون الحكم على نحو ما يشاؤون حتى كانت سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) فأطبق على بغداد جيش من المغول التتار زاحف من أعماق آسيا بقيادة هولاكو ــ فدمر العاصمة العباسية وقتل المستعصم آخر الخلفاء ومحق الخلافة العباسية .

الشعوبية :

حمل الفتح الإسلامى للعرب شعوباً كثيرة دانت لهم فبسطوا سلطانهم عليها ، على أن هذه الشعوب الموتورة لم تكن لتنام على الضيم طويلا ، وفيها أمم عريقة فى حضارتها ، وساءهم أن يروا من خلفاء بنى أمية إيثاراً للعرب ــ وتعصباً على العجم ــ فلا غرو أن يتولد فى نفسهم كره شديد للعرب وأن يتمنوا زوال ملكهم ، ويكيدوا للعرش الأموى تخلصاً من جوره واستبداده .

فمن هنا نشأ حزب الشعوبية يضم إليه أبناء الأمم المقهورة ــ متحدين على بغض العرب والتنقص منهم ــ وذكر مثالبهم ، وتفضيل العجم عليهم ، ولكنهم كانوا ضعافاً فى شباب الدولة الأموية فلم يرتفع لهم صوت حتى آنسوا الضعف فى جسمها ــ والانحلال فى أعضائها فعاضدوا العباسيين على أمل أن يكونوا لهم خيراً من الأمويين وأبقى .

تأثر الأدب بالحضارة الأجنبية

فى العصر العباسى الأول

(١٣٢ هـ — ٣٣٤ م)

لم يكن للحضارة الفارسية واليونانية سبيل التأثير البين فى الأدب العربى زمن الأمويين ، لأموز نذكر منها :

(١) تعصب الأمويين لكل ما هو عربى ، وحرصهم على سلامة طابعهم متميزاً .

(٢) ضيق المجال اللغوى ، إذ لم يكن يشمل سوى الشعر والخطابة وبعض الرسائل .

(٣) بعد رجال الأدب عن التيارات المؤثرة ، وعزلتهم إما فى الجزيرة وإما فى البصرة والكوفة وهما بيئتان عربيتان خالصتان .

(٤) قصر الزمن الذى قطعه المستعربون من العجم فى تعلم اللغة العربية ، فلم يكن قد اتسع عهد الأمويين لتجويد العجم هذه اللغة وتأثيرهم فيها ، فإن من همّ بالاستعراب من أبناء الفرس ، فأخذ نفسه بالثقافة الإسلامية وتعلم العربية لم ينضج استعداده بأن يمتزج بالعرب ويمتزجوا به ، ويتأثر بهم ويتأثروا به حتى آذنت الدولة الأموية بالأقوال . فلما قامت الدولة العباسية كانت الأسباب مهيأة لأن تتأثر اللغة العربية بكل من الحضارة الفارسية واليونانية .

لقد كان للعرب صلة قديمة بالفرس منذ الجاهلية ، ساعد عليها قرب الديار وتبادل المتاجر ، فلما جاء الإسلام مزج الأمتين وأنشأ منهما دولة جديدة لا هى

عربية صرف ولا فارسية صرف ، وقوى اندماج الأمتين بالمصاهرة ، والمعاشرة ، والاستعراب والترجمة بنقل الكثير من آدابهم وتاريخهم وقصصهم .

أما اتصالهم باليونان فقد كان محدوداً لبعد الشقة بينهما ، فلما جاء الإسلام وأخذ العرب فى أسباب النهوض ، تمثل الاتصال بين الأمتين فى حركة الترجمة ونقل الكثير من كتب الطب والرياضة والفلسفة والفلك والموسيقى إلى اللسان العربى ، كما تمثل أيضاً فى إرسال البعوث العلمية ممن يحذقون اليونانية إلى بلاد الروم لتخير الكتب النافعة وقيامهم بترجمتها .

أثر الحضارة الفارسية فى الأدب :

(١) نبغ من سلالتهم أئمة المسلمين فى التفسير والحديث والفقه وعلوم اللغة كالزمخشرى والبخارى وأبى حنيفة وسيبويه .

(٢) وكان من سلالتهم كبار الكتاب الذين وضعوا أسس الكتابة الفنية كابن المقفع .

(٣) ثم كان منهم شعراء ، تأثر بهم غيرهم من شعراء العرب واستطاعوا أن يتعاونوا جميعاً ، على أن يحدثوا أحداثاً جديدة فى الشعر ، فى أغراضه وألفاظه ومعانيه ، وأوزانه وقوافيه ، مثل مهيار وأبى نواس و بشار .

(٤) نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من آداب الفرس وحكمهم وأمثالهم وقصصهم وخرافاتهم المحكية على ألسنة الطيور والبهائم ، والشياطين والجن ، مثل كتاب كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، فمن حكمهم المروية عن أردشير : ماشىء أضر على النفس من معاشرة سخيف أو مخاطبة وضيع ، لأنه كما أن النفس تصلح على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الدنىء الخسيس ، حتى يقدح ذلك فيها ، ويزيلها عن فضيلتها ، وقول كسرى : (احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع) وقول بزر جمهر : إذا اشتبه عليك أمران ، ولم تدر أيهما الصواب فانظر إلى أقربهما إلى هواك فاجتنبه) .

(٥) ودخلت فى اللغة العربية كلمات كثيرة من الفارسية مثل : برنامج ، فرجار ، استبرق ، سجل ، ديباج ، بلور . الخ .

(٦) ولم يخلص هذا التأثير للخير ، فقد كانت منه جوانب للشر :

(ا) فلقد دس المنافقون من الفرس أحاديث مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلبلوا أفكار المسلمين .

(ب) ووضعوا كثيراً من الشعر ، ونحلوه لفحول الشعراء ، ودسوا فيه عقائد فارسية .

(حـ) وترجموا إلى العربية كثيراً من كتب الزنادقة وآرائهم فأفسدت عقول الضعفاء .

أثر الحضارة اليونانية فى الأدب :

(١) كان للثقافة اليونانية أثر عظيم فى المباحث الدينية ، كعلم الكلام والجدل والمناظرة .

(٢) صارت اللغة العربية لغة علم وتأليف ومصطلحات علمية ، بعد أن كانت لغة أدب فحسب .

(٣) تأثر الشعر والنثر بمسائل العلوم ومذاهب الفلسفة والمنطق ، فابتكرت المعانى العميقة ، وظهر أثر المنطق والفلسفة فى الشعر ، كما ترى فى شعر أبى تمام وابن الرومى وقد ساعد ذلك على تنظيم المعانى وترتيب الأفكار .

(٤) كثرة الحكم المنقولة عن سقراط وأفلاطون وأرسطو كما تجد فى شعر المتنبى .

(٥) دخلت فى اللغة ألفاظ يونانية مثل قانون ودرهم وأوقية وقيراط .

(٦) تأثر بعض ضعفاء العقيدة بالفلسفة فألحدوا .

الباب الأول

الشعر

الفصل الأول

حالة الشعر في هذا العصر

أبرز أغراض الشـعر

فى العصر العباسى

طرق الشعراء موضوعات عدة أهمها : ـ

١ — استعماله فى متنوع الوصف فقد تنوع وتشكل بأشكال شتى وتناول أشياء كثيرة من القصور والبساتين والسفن والطبيعة وأحوال النفس حين انقباضها أو انبساطها إلى غير ذلك .

٢ — إغراق شعراء المسلمين فى المجون والخلاعة والتهتك والفسوق والغزل الفاحش ومن شعراء هذا الغرض أبو نواس و بشار وأضرابهما .

٣ — الإكثار من الحكمة وضرب المثل ـ فقد كان ينظم القليل من الحكم فى الجاهلية وصدر الإسلام و بنى أمية ـ وفى خلال بعض القصائد فلما ترجمت حكمة اليونان والفرس والهند ـ أدخل الشعراء كثيراً منها فى شعرهم ـ وزادوا عليها كثيراً نتيجة تجاربهم وثقافتهم .

٤ — إغراق الشعراء فى وصف الخمر ـ وقد كان بعض شعراء الجاهلية يصفها كالأعشى وطرفة ثم نهى الإسلام عن ذلك فلم يصفها إلا بعض النصارى كالأخطل ـ وفى آخر عهد بنى أمية نظم بعض المجان مقطعات .

أما فى الدولة العباسية فقد شعر العجم بالحرية ، وجهر كثير من شعرائهم بالإكثار من وصفها ، ووصف كل ما يتعلق بها مما لم يكن له نظير فى الجاهلية والإسلام ـ وحاول الخلفاء والولاة ردعهم بالحبس والضرب فلم يجد ذلك شيئاً وذاع القول فى الخمر حتى ممن لم يشربها ، وعدوا ذلك تظرفاً .

التجديد فى الأغراض :

١ — التزهيد فى الدنيا ونعيمها : وذلك بالتذكير بالموت ، والنهى عن الاسترسال فى الشهوات واللذات ـ ولقد كان ظهور هذا النوع ضروريا على لسان الفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهل الزهد والورع ـ ليقاوموا الفساق من الشعراء والكتاب ومجان الموالى ومن جاراهم من العرب ـ وزعيم هذا النوع أبو العتاهية وربما كابده بعض الشعراء كأبى نواس ـ فنظموا فى الزهد قصائد جيدة و إن لم يكونوا مخلصين فى قولهم .

٢ — تأديب النفس وتهذيبها : وذلك بنظم القصص والحكايات على لسان الحيوان والإنسان ـ ليكون فى هذا ما يحفز إلى القراءة والاستمتاع وممن لهم باع فى ذلك أبان اللاحقى فقد نظم كليلة ودمنة .

٣ — نظم العلوم : وذلك لتسهيل حفظها والإلمام بها . وممن نظموا الشعر فى ذلك أبان اللاحقى أيضاً .

الفصل الثانى

الشـــــعراء

بشار بن برد

(٩٦ هـ — ١٦٧ هـ)

حياته :

هو بشار بن بُرْد بن جوخ العُقَيْلى بالولاء ، كنيته أبو معاذ ، ولقبه المرعَّث ، لأنه كان فى أذنيه رُعثة « أى قرط » أصل أبيه من فرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وهبه لامرأة من بنى عقيل فتزوجته ونسب إليها ، وقد ولد بشار بالبصرة سنة ٩٦ هـ ، ونشأ فى بنى عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة ، حتى شبّ فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ ، ولهذا كان آخر من يحتجّ النحاة بشعرهم من الشعراء ، وكان شاعراً محاوراً وخطيباً بليغاً ، وقد اختلف إلى مساجد البصرة ، وهى يومئذ محط رحال القوم فاستفاد كثيراً من جدل المتكلمين وطرق نقاشهم ، وسياستهم ، وتأثر إلى درجة اضطرابه بين المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، لأنه فُتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه فأجاد مدحه ، ثم ما لبث أن انقلب عليهم فتركهم وهجاهم ، و بعدت شقة الخلاف بينه و بينهم حتى فكروا فى دسّ السمّ له لولا تقية من الله ، وتحول بشار إلى الشكّ ثم إلى الزندقة[1] ، وصار

---

(١) الزندقة : الكفر ، وأصل الزندقة : القول بأن للكون إلهين اثنين : أحدهما إله النور والخير ، وهو النهار ، والآخر إله الظلام والشر ، وهو الليل .

فى الوقت نفسه إلى الشعوبية ، فكره العرب ، وأحبّ الفرس ، وفاخر بهم . وآثر مذهبهم الدينى ، يجهر بهذا إن سنحت له الفرصة ، ويخفيه إن خشى على نفسه من السلطان .

وكان بشار ضخم الجسم ، أعمى جاحظ العينين ، فهو من أصحاب العاهات ، وكان يفخر بعماه : وفى ذلك يقول :

عميت جنيناً والذكاء من العمى　　فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وَغَاضَ ضياء العين للعلم رافدا　　بقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا

وكان معروفاً فى المجتمع بحدة اللسان ، وسرعة الهجاء ، وحب اللذات والاستهتار بالأوضاع الخلقية ، وعدم التحرز فى آرائه ، كما كان لهجاً بالنساء مغرماً بالحديث عنهن ، وكان فى ذلك جريئاً يغرى الشباب بالفساد ، ويؤذى بذلك عواطف المتدينين فى البصرة ، فشكوه إلى الخليفة المهدى فنهاه عن ذكر النساء وتوعده إن فعل بأشد العقاب ، فكان يحتال على ذلك بأن يقول فى الغزل ما شاء ، ثم يتخلص بقوله : إن الخليفة نهاه فانتهى ، وهو له سامع مطيع ، ولما استشرى شره وتهتك ، ولم يزدجر بتهديد الخليفة له ، ولا زراية الناس عليه ، سُعى به ثانية إلى المهدى وقذف عنده بكل نقيصة ، وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدى فلم يجزه لغضبه عليه ، وتحول قلبه عنه ، فما كان من بشار إلا أن هجاه بأبيات من ثورة كامنة فى نفس الخليفة . منها :

بنى أميّة هُبّوا طال نومكُم　　إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا　　خليفة الله بين الزّق والعود

وعلم الخليفة بذلك ، وبهذا التحريض السافر ، فأشعل ما كان من ثورة كامنة فى نفسه ، ودعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط ، فضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ . وقد أوفى على السبعين .

آثاره :

كان شعر بشار كثيراً ، ويقال إنه بلغ اثنى عشر ألف قصيدة ، ولكن لم يبق لنا من هذا الشعر الكثير إلا مقطعات متفرقة فى كتب الأدب وقد جمع بعضها فى ديوان ، ومن أشهر من جمعوا شعر بشار التجيبى فى « المختار من شعر بشار » .

وقد قال بشار الشعر ، وهو ابن عشر سنين ، فما كاد يبلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت . وقد أدرك جريراً وهجاه ، وقال : « هجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عنى ، ولو ردّ علىّ لكنت أشعر الناس » وأول ما لفظه لسانه من أنواع الشعر الهجاء ،لأن سوقه كانت نافقة أيام ولادته ، وقدطرق كل أبواب الشعر التى عرفت من قبله ، ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين ، لأن امتلاء شعره بالمعانى الجديدة ، والعادات الحضرية من سبب رقيق وخمريات وزَهريات ناضرة ، وهجاء مقذع مع النزوع إلى بعض العناية بالمحسنات اللفظية ، والمعانى العلمية ، كل ذلك سُنَّة خالف بها طرائق الشعر العربى القديم ، وقد سنّها للمولدين ، فهم يقتفون آثاره ، ويلحقون غباره ، وأول من اقتفى طرائقه : سَلْمٌ الخاسر ، وأبو نُواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبوتمام ، كلٌّ فى ناحية من نواحى شعر بشار على تفاوتٍ فيهم من إكثار و إقلال .

ثم إن بشاراً قد رُزِق ذهناً وقّادا وفِطْرَةً سليمة ، ثم أعانه على نماء ذلك فقدُ بصره ، فقوى خياله ، وأيضاً إحاطة حفظه وعلمه .

غــزله :

كان بشار عربى النزعة فى شعره حريصاً على متانة اللغة وقوة رصفها ، سهل الألفاظ قلما يميل إلى الغريب ، ولكن مزاجه الفارسى وتعصبه قد ترك طابعاً

ظاهراً فى شعره ، فمنت له معان جديدة ، وأفكار مبتكرة لم تسنح لشعراء من العرب الخُلّص ، وبخاصة حين كان يتغزل ، وكان صريحاً فى غزله يتعهد أحيانًا ، وكان يزداد رقة فى هذا الفن ، حتى خاف الأشراف ، وأهل الصلاح شره على النساء والشبان فذمه الوعاظ والقصاص ، وشكاه سادة القوم إلى الخليفة فنهاه المهدى عن الغزل فانتهى على كره ونفاق .

ويعرض لبشار عارض من الجمال يكاد يفتنه ، ويخرجه عن طاعة الخليفة ، فيقول هذه الأبيات الرقيقة (يامنظراً حسنا) التى يذكر الرواة أن العالم اللغوى الخليل بن أحمد كان يستحسنها ويُعجب بها ، وهذه القطعة تكشف عن مشاعر بشار الحائرة ، ولهفته على الاستجابة لداعى الجمال لولا سطوة الخليفة ، وخوف عقابه ، فهو ينجذب إلى المنظر الحسن فى وجه فاتنته ، ويود لو يفديه بروحه ، ويميز فى نفسه أن شبابه قد ولّى ، وأن هذه الفاتنة قد استثارت عنده دواعى ذلك الشباب الغارب ، وهاجت كوامن الصِّبا الهارب ، فلا يملك إلا أن يمسك عنها إطاعته للخليفة ، ووفاء بوعده له ثم تراوده نفسه ، وتشتد به لواعجه فيميل إلى ذلك المحبوب المخضوب الكف ، الناعم الأصابع ، الذى يبكى على الشاعر والشاعر لا يرى من الحكمة أن يجزى ذلك البكاء ، ويزيد شوقه إلى بيت الحبيب ، ولكن أين منه ذلك البيت ؟ لقد حرم عليه الخليفة القرب منه ، وقد نهاه عن الحديث إلى النساء ، فلا حيلة له إلا أن يطيع ويفى بالعهد ، ويرتفع إلى مستوى عال يطيل فيه على الأعداء ، والشاعر حريص على أن يعامل صاحبه على قدم المساواة ، فإذا دنا الخليل أصفاه الشاعر مودته ، وإذا بعد لم يجد من الشاعر إلا النأى والبعد .

ونلمس من هذه القصيدة صدى للدولة الجديدة ، ولما ضمت حواضرها من ترف ومتعة ، وغناء وشراب ، وثقافات مختلفة ، وهو مظهر من مظاهر

التكييف الفنى بهذه الحياة الجديدة ، ونلمس فى القصيدة أيضاً أن البداوة والحضارة قائمتان معاً ، ففى الوقت الذى يتحدث فيه شاعر مجدد عن بعض تجارب حياته المتحضرة ، يتحدث هو نفسه فى أسلوب بدوى رصين عن جيش كجنح الليل يزحف بالحصى ، وأنهم غدوا إلى ملاقاته مبكرين ، والشمس لا تزال فى خدرها لم تبرز بعد ، ولا يزال الندى منعقداً على الأغصان .

شعوبية بشار :

جاء الإسلام ديناً كريماً يأمر بالمساواة بين الناس ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فلا نسب ولا عصبية ، إلا أن الأمويين بعد أن استتب لهم الحكم ، طفقوا يتعصبون بعصبية عربية على الموالى من روم وفرس ومن إليهم ، ولم يكن هؤلاء يرضون بهذا الغبن ، وهم أحفاد كسرى والقياصرة ، وأخذوا يتحينون الفرص ، ويتميزون بحقدهم فى صمت ، وجعلوا يتواطئون مع العلويين والعباسيين ، حتى أجهزوا على الأمويين ، واستولوا على الحكم ، باسم العباسيين ، ثم ما لبثوا أن أعلنوا عن حفيظتهم .

وما نسب إلى بشار من الشعوبية — وهى كراهية العرب وتحقيرهم — فالظاهر أن بشاراً كان ينزع إلى ذلك بعد أن أغاظ له أعداؤه ومنافسوه فى التحقير بالولاء ، فألجأه ذلك إلى الابتداء بالافتخار بنسبه الفارسى ، ثم بالتبرم من الولاء فلذلك كان يقابل محقرى نسبه العجمى بالافتخار بالعجم ، ويقابل محقريه من القحطانيين بالفخر والانتماء إلى ولاء مُضَر ، ولا سيما عند شبوب حمية اليمنيين والمضريين فى عهد انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، إذ كانت شيعة بنى أمية من مضر ، وشيعة بنى العبّاس من حمير واليمن ، ولكن لم يكن مع ذلك ينتقص العرب ، كيف وإنما قيمته من العربية ، ويُشبه بشار فى الشُّعوبيّة إسماعيل بن يسار من شعراء عصر الدولة الأموية خاصة فى قوله :

إنما سُمِّى الفوارسُ بالفُرْس مُضَـــاهاةَ رِفعة الأنساب
فاترُكى الفخار يا إمامُ علينا واترُكى الجوْرَ، وانطقى بالصواب
واسألى إن جَهِلْتِ عنّا وعنكم كيف كنّا فى سالف الأحقاب
إذ نُربِّى بناتنـــــــا وتدسُّو ن سفاهاً بَناتَكم فى التّراب

إلا أن شعوبية بشار لم تكن فى الواقع مذهباً أدبيا، بل حقداً وزراية على قوم يتشاوفون عليه، إنها شعوبية سياسية، ينقم فيها على أولئك الذين أضاعوا ملك أجداده، وأخذوا يحتقرونه ويحتقرون قومه.

« بائيته هل من رسول » و « رائيته : لا أنام على اقتسارٍ » لعلهما من أهم قصائده فى الشعوبية وسنحلل الأولى، ونذكر الأثنتين فى المنتخبات.

قائل هاتين القصيدتين — كما عرفنا — شاعر غير عربى الأرومة، آباؤه من الفرس، وأمه من الروم، وفخره بهذا الحسب والنسب فى بيئة عربية، خليفتها عربى، دليل على ما أصبح لغير العرب من مكانة فى المجتمع الإسلامى، منذ النصف الأخير من القرن الثانى للهجرة ومظهر من مظاهر التسامح الذى عُرف به العرب أيام سطوتهم، والشاعر هنا يتحدّى العرب جميعهم أحياءهم وأمواتهم، ويخبرهم بأنه ذو حسب يعلو على كل حسب، وذونسب مُعرق فى الشرف من جهتيه، فآباؤه ملوك ذوو تيجان، كان الناس يخضعون لهم فى حياتهم، وكان كل منهم يغدو إلى مجلسه فى حلية من الجوهر، وفى لباس بادى الغنى تُضرب من دونه الحجب، ويسعى الوصفاء له بمظاهر الثراء والحضارة من آنية الذهب، ومن الشراب الخالص، وأهله مختلفو الشأن عن العرب فى حلّهم وترحالهم ونظام

أكلهم ، وقد عدّد فى شعره الذى اجتزأناه هنا ما كان للعرب من مظاهر الخشونة والتقشف ، ثم قابل ذلك بقوله : إن الملك كان فى آبائه وإنهم جلبوا الخيل من بلخ وجيّشوا الجيوش من خراسان ، وساروا لنصرة الدعوة العباسية ، ثم يهنىء الشاعرُ العباسَ بن عبد المطلب جدّ العباسيين بلذّة الانتصار ، ويتهدد من يعاندون للهدى بأنهم سيغلبون ، ويفخر بأن الفرس غضبوا لله والإسلام غضبا شديداً .

ونلمس فى هذه القصيدة أنها تحمل طابع الحياة الفارسية بما عرفت به من تعظيم الملوك المتوجين والجثو أمامهم ، وهم فى مجالسهم فى أبهة الملك وزينته ، ومن توفر ألوان النعيم فى أطعمتهم وأشربتهم .

المنتخبات

أولا – يا منظراً حسنا

يا منــــظراً حسناً رأيتُه | في وجــــه جاريةٍ فديتُه
بعثت إليّ تسومــــني | ثوبَ الشبابِ وقد طويته[1]
والله ربِّ محمــــد | ما إن غَدَرت ولا نويته
أمسكت عنك وربمــــا | عرض البلاء وما ابتليته
إن الخليفة قــد أبى | وإذا أبى شيئا أبيتــه
ومخضب رخص البنــــا | ن بكى عليّ وما بكيته[2]
ويشوقني بيت الحبيب | إذا ذكرت، وأين بيتُه؟
قام الخليفــــة دونه | فصبرت عنه وما قليته[3]
ونهــــانيَ الملك الهُما | م عن النساء وما عصيته
لا، بل وفيت فلم أضِــع | عهدا، ولا وأياً وأيته[4]

(١) تسومني: تكلفني وتطلب مني.

(٢) المخضب: ذو الكف الملونة.

(٣) رخص البنان: ناعم الأصابع.

(٤) قليته: كرهته.

وأنا المطـــل على المدا وإذاً فــلا الحمد اشتريته
أصفى الخليــــــل إذا دنا وإذا نأى عـــنى نأيته

ثانيا ـ هل من رسول

هل من رسول مخبر عنِّى جميـــــع العرب
من كان حيًّـــــا منهمُ ومن ثَوَى فى التُّرب[1]
بأنـــنى ذُو حَسَبٍ عالٍ على ذى الحَسَب
جَدِّى الذى أسمو به «كسرى» و«ساسَانُ» أبى
و«قيصرٌ» خالى إذا عددتُ يوما نَسَبى[2]
كم لى، وكم لى من أبٍ بتاجـــــه مُعْتَصِب[3]
أشـــوسَ فى مجلسِهِ يُجـــثَى له بالرُّكَب[4]
يغـــدو إلى مجلسه فى الجوهر المُلْتَهِب
مُسْتَفْضِلٍ فى فَنَكٍ وقائم فى الحُجُب[6]

---

(١) الوأى : العهد .
(٢) ثوى : أقام .
(٣) يشير إلى أن أمه كانت رومية .
(٤) معتصب : متوج .
(٥) الأشوس : الشديد الجرىء فى القتال .
(٦) الفنك : اسم دويبة يتخذ من جلدها الفراء .

يسمى الهبانيقُ له بآنيات الذهب(١)
لم يُسْق أقطابَ سِقًا يشربُها فى العُلَب(٢)
ولا حَبدًا قطُّ أبى خلف بعير أجْرب
إنا ملوكٌ لم نَزَلْ فى سالفاتِ الحِقَب
نحن جَلَبْنا الخيلَ من بَلْخٍ بغير الكذب(٣)
حتى سقيناها وما نُبْدِه نَهْرَىْ حلب(٤)
حتى إذا ما دوَّخت بالشام أرضَى الصُّلُب
سرنا إلى مصر بها فى جحفلٍ ذى لَجَب
حتى استلَمنا مُلْكهاَ بِمُلْكِنا المُسْتَلَبِ
وجاءت الخيل بنا طنجةَ ذاتَ العجب
حتى رَدَدْنا الملك فى أهل النبى العربى
فاهنأ أبا الفضل بها أوْلى قريشٍ بالنبى

(١) الهبانيق : جمع هبنق أو هبنوق وهو الوصيف .
(٢) أقطاب : جمع قطيب ، وهو الشراب الممزوج . والعلب : جمع علبة ، وهو القدح من الجلد يشرب فيها أوساط العرب لأنها لا تتكسر . والسقا : مقصور سقاء ككتاب ، وهو إناء من جلد يشرب فيه أيضا .
(٣) إشارة إلى خروج جيش الدعوة العباسية من خراسان ، وكانت عاصمتها بلخ .
(٤) ما نبده : ما نفاجأ .

من ذَا الذى عادى الهدَى   والدين لم يُستَلَب ؟
ومن ومن عانده   أو جار لم يُنتَهَب ؟
نغضب لله وا   لإسلام أشرَى الغضب[1]
نحن ذوو التيجان والمـــلك الأشمّ الأغلب

ثالثا — خليلى

خَليلى ، لا أنامُ على اقتِسارِ   ولا آتى على مَوْلَى وجار
سَأُخْبِرُ فاخرَ الأعراب عنى   وعنه ، حين تأذَنُ بالفخار
أَحينَ كُسِيتَ بعد العُرى خزّاً   ونادمتَ الكرام على العقار
تُفاخِرُ ، يابنَ راعيةٍ وراعٍ   بنى الأحرار ، حَسْبُكَ من خسارا
وكنتَ إذا ظمئت إلى قَراحٍ   شَركْتَ الكلبَ فى وَلْغ الإطار
تُريغ بخُطبةٍ كسْرَ الموالى   ويُنسِيكَ المكارم صيدُ فار
وتغدُو للقنافِذِ تدَّريهــا   ولم تَعْقِلْ بدرّاجِ الديار

(١) أشرى : أى أعظمه .

موضوعات للبحث

١ ـ لقد قيل : بشار فى المولدين كامرىء القيس فى الجاهليين ناقش هذا القول موضحاً أثر كل .

٢ ـ قيل إن غزل بشار : يدل على الانحلال الخلقى ، ويدل على أن هناك من كان يقاوم هذا الانحلال ـ ناقش .

٣ ـ قال الجاحظ : بشار من المطبوعين أصحاب الإبداع فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه ـ ناقش هذا القول .

المراجع

١ — تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات .

٢ — بشـــــار : إبراهيم عبد القادر المازنى .

٣ — حديث الأربعاء : الدكتور طه حسين .

٤ — الرءوس : مارون عبود .

٥ — بشـــــار : حنـا نمر .

الخمـــريات

الخمريات : كلمة نطلقها على هذا الفن من فنون الشعر الغنائى الذى يتغنّى فيه الشاعر بوصف الخمرة ومجالسها ، ونشوتها وأثرها . ولقد عرف هذا اللون من الشعر الأدب العربىّ ، منذ نشأته ، فقلّ بين شعراء الجاهلية من لم يتغنّ بها . ولـكن الأعشى أحرز على أقرانه سبقاً فى وصفها ، حتى غدا شعره فيها ضعف ما انتهى إلينا من خمريات الجاهلية ، وليست قيمة خمرياته فى كثرتها فحسب ، بل فى طرافتها وشمولها ، وتبسّطه فى أوصافها ، وإضافته إلى التعابير التقليدية تعابير جديدة . ولـكنه لم ينح فى خمرياته نحواً مستقلاً فيفرد لها قصائد خاصة .

فلما كان الإسلام سكت الشعراء عن ذكرها بعد ما حرمها ، وظل الأمر كذلك حتى كان العصر الأموى ، فجاهر الأخطل بشربها ، وكان له من دينه وحظوته لدى الخليفة ما يسمح له بذلك ، والأعشى بدوره لم يفرد للخمرة قصائد بذاتها ، بل تفرّق أكثر شعره فيها فى مطالع أمداحه وأهاجيه ، فهو فى ذلك ربيب الجاهليين ، ولـكنّ للأخطل يد على هذا الفن ، وهو أنه قد بعثه من موته ، كما أنه أضاف إلى تراث أسلافه بعض التعابير الجديدة ، وإن كان ينزع فى اتجاهه العام إلى السير على منوال القدامى .

ثم جاء العصر العباسى وانصرف الناس إلى اللهو والمجون ، فـكثر عشاق الخمرة ، وكثر شعراؤها ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء أبو نواس الذى ارتقى الشعر الخمرى على يديه إلى الأوج ، وأصبح فناً مستقلا ، وقد نتساءل : أى فضل لأبى نواس على الخمريات حتى نعدّه زعيمها ؟ لم يخترع هذا الفن . ولم تـكن أحاديثه فيها جديدة كل الجدة ، « وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء فى الجاهلية والإسلام ، ونافسه فيها كثير من معاصريه » ، وأسباب هذا السبق وهذه الزعامة تنحصر فى : انصراف أبى نواس إلى الخمرة انصرافاً يكاد يكون كلياً ، وفى كونها خمريات عميقة الفلسفة ، وفى نهجه طريقة الحوار والقص ، فضلاً عن الوصف الدقيق والفـكاهة الحلوة .

أبو نواس

(٧٦٢ — ٨١٣ م)

حياته :

هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصبّاح ، ولد فى (الأهواز) من بلاد خوزستان بفارس سنة ١٤٥ — ٧٦٢ م ، وكان أبوه يعمل كاتباً فى دواوين الشام ، وقيل كان شرطياً فى جنود مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميّة ، قدم الأهواز مع الجيش ، وتزوّج فيها بامرأة تُدعى (جُلبّان) وأولدها عدة أولاد منهم الحسن وجلّبان[1] هذه فارسية الأصل وكانت تحوك الثياب ، ويقال إن الوالد كان يمنيًّا فانتسب الشاعر إلى اليمن و تعصّب لها ، وهجا عرب الشمال بقوله :

وقال : « أمن تميم ؟ » قلت : « كلا ولكنى من الحىّ اليمانى »

وقد انتقل الحسن إلى البصرة مع أمه التى انتقلت إليها بعد موت زوجها، ولم يتجاوز عمر ابنها السنتين ، وفيها شبّ ، والتحق لدى أحد العطارين يصنع أعواد البخور ، وقد نظم الشعر فى سنيه المبكرة ، وكان من أوائل نظمه قوله متغزلا:

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

وفى البصرة ـ التى كانت إحدى مراكز العلم والأدب ـ وجد من نفسه الميل الشديد إلى اللغة والأدب والشعر ، فتردد على حلقات العلم وعلى ندوات الأدب ، وعلى مسامرات المجّان ، وكثيراً ما كان يصحب الندمان فى خلواتهم وفى أوقات صيدهم بأجر زهيد ، حتى انزلق إلى هذه الميادين الصاخبة الماجنة

---

(١) معناها بالفارسية : وردة البستان .

التى تموج باللهو والفساد ، وفى البصرة شاءت له الأقدار أن يتصل بوالبة بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الخليع ، فأحاطه بعنايته ، وداف به إلى عالمه الحافل بالشعر والعبث ، وجال به متقلباً فى البلاد من بغداد إلى الكوفة ، وخلطه بنفسه وعرّفه على أصدقائه من الخلعاء ، فتتلمذ لهم ، وتشرّب مبادئهم ، وكرع كأس الغوية حتى النهاية ، فقد زينوا له أسباب الإباحية ، وكان فى نفسه نزوع إلى تلك الحياة العابثة .

وجرى أبو نواس[1] على سنة أهل عصره فى الذهاب إلى البادية ليتشبع من صحة اللغة وفصاحة الأعراب ، فاستأذن والبة فى ذلك فأخرجه مع قوم من بنى أسد ، فأقام فيها سنة واحدة ، ذاع بعدها صيته ، ودخل إلى حلبة السباق فكان من المجلّين . ولم تطل صحبته بعد ذلك لوالبة ، بل فارق الكوفة إلى البصرة ، وفى البصرة قرأ القرآن ، فلما حذقه رماه الفقيه بخاتمه قائلا : « إذهب فأنت أقرأ أهل البصرة » ، ثم ما لبث أن ترك البصرة إلى بغداد ، وفيها اتصل بالبرامكة ، ومدحهم ، ونال جوائزهم ، واتّصل بآل الربيع منقطعاً إليهم مكثراً من مدحهم ؛ ثم استطاع أن ينفذ إلى بلاط الرشيد ، وأن يمدحه ، وينال جوائزه ، فيشعر بفضله ، على أن الرشيد ، وهو الخليفة الشديد الحرص على وقار الخلافة وتقاليد الدين ، قرّب إليه هذا الشاعر الماجن ، ولطالما سجنه من جرّاء فجوره وتهتكه ثم تغاضى عنه . وأمدّ له فى حبل هواه ، ولم تكن هبات الرشيد وعطاياه لتعادل إسراف الشاعر ، فارتحل عنه طلباً للمال وقصد مصر واتصل بأميرها الخصيب ، وامتدحه بقوله :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا   فأىّ فتى بعد الخصيب تزور

(١) قيل إنه تكنى باسم ذى نواس اليمنى ، وهو ملك حميرى ، وقيل كانت له ذؤابتان تنوسان أى تتدليان على كتفه وهو صبى .

وتعدّ قصائده فى الخصيب من غرر أمداحه ؛ إذ وفق فيها الشاعر أيما توفيق ، وفى كنف الخصيب الذى أحلّه من نفسه محلا رفيعاً ، وجعله شريك هواه وشربه تحسنت أحواله ، فنسى أيام عسره ، ثم مالبث الخصيبُ أن سئمه ، فقفل راجعاً إلى بغداد وقد قويت فيها صولة الشعوبيين ، فتحركت فى نفس أبى نواس نوازع نائمة ، وجذور فارسية هامدة ، فإذا به يهجو القبائل النزارية وقريشا . فيلاقى الحبس والاضطهاد على يد الرشيد ، ويأتى الأمين فيصفح عنه ، فيمتدحه الشاعر بقوله :

كان الملك لم يك قبل شيئاً ‏ ‏ ‏ ‏ إلى أن قام بالملك الأمين

وظل الشاعر نديما للأمين طوال خلافته ، وفيها رأى الشاعر أقصى درجات النعيم التى مرت به فى حياته ، وعبثاً حاول المأمون إغراء الشاعر لانتزاعه من أخيه ، ولما قتل الأمين أصيب أبو نواس بصدمة قاسية هدّت أركان نفسه ، فجعلته ينزع إلى عالم التوبة ، والزهد :

وكنت عليه أحذر الموت وحده ‏ ‏ ‏ ‏ فلم يبق لى شىء عليــــه أحاذر

وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه أمامه ليلجه إلى حظيرة المأمون الذى قرظه بقوله : « إن أبا نواس أشعر من قال الشعر فى خلافة بنى هاشم » ولكنه تقاعس ، وفى بغداد انتهت حياة هذا الشاعر عام ٨١٣ م - ١٩٩ ه وقد ذرف على الرابعة والخمسين .

آثاره :

لأبى نواس ديوان شعر يتضمن كثيراً من الأغراض الشعرية التقليدية : كالمدح والهجاء والرثاء ، ولكن الغزل والخمريات أشهرها ، وأكثرها جدة وطلاوة ، ويعدّ أبو نواس زعيم المجددين هو وبشار فى عصره .

خمريات أبى نواس :

إن أبا نواس هو زعيم فن الشعر الخمرى غير مدافع فلم يترك من عالم الخمرة ناحية إلا التقطها وسجلها فى شعره ، وقد قامت معركة فى عصره بين القديم والجديد جملته يتخذ الخمر وسيلة لإثارة القضايا الجدية وهو يعبث ، ولقد أصبح (فن الخمريات) مستقلا مع أبى نواس ، وتعتبر خمرياته عالماً كاملاً - نرى فيها الخمرة بلونها وطعمها وتأثيرها ، ونرى فيه الشراب ومجالسه ونداماه وخماروه وحوانيته وغناؤه وقصصه ، وهو لا يقنع بتعشقها ، والتعبد فى محرابها ، بل يحاول أن يشرك الآخرين بنعمائه ، فيدعو إلى شربها واطراح سواها .

ويؤثر عن أبى نواس قوله : « إنه لا يصنع الشعر الجيِّد ، إلا إذا شرب ، وطابت نفسه » وهو فى إدمانه الخمرة يختلف عن سائر الشاربين ، فبينماهم يشربون على أنها ابنة العنب نراه هو يتعشقها على أنها حبيبة مطهرة ، ومعبودة مقدسة .

فقد وصف الخمرة : لونها ، وقد أورد من ألوانها عدداً وفيراً فهى : حمراء كالورد ، وهى صفراء ، وهى حمراء صفراء كالعصفر ، وهى قوس قزح أى أن جميع ألوان الطيف السبعة قد تمثلت فيها .

ورائحتها : فهى عبير عطر ، فيه من الورد أريجه ، ومن العنبر ريحه ، ومن المسك طيبه .

وطعمها : فهى مزّة حامضة تلذع فى اللسان وهى محرّقة .

ومجالسها : فهى ، فى وضح النهار حفياً ، وفى الليل خفياً ، وفى الصباح حنيا .

وساقيها : وقدمها ، ومفعولها ، وصاحب حانتها .

خمر تكريت :

يذهب الشاعر فى لفيف من أصحابه ، بيض الأحساب ، شمّ الأنوف ، أعزّة

على أنفسهم ، سادة فى مجتمعهم ، فيطرق باب الخمارة تحت جنح الظلام ، فتهب صاحبة الحانة العجوز الشمطاء من نومها ، وهى متدثرة فى ثيابها ، وتسأل : من القوم ؟ فيقولون : نحن السادة الذين أنست منهم دائماً كرم الأخلاق ، وسخاء المال ، فاهتبلى تلك الفرصة ، وافسحى لهم فى دارك ، وما إن تتعرف على وجوههم ، حتى تتجاهلهم حيناً من الوقت لتستمع إلى شهادتهم فى أنفسهم ، ولتستمع إلى شىء من الإغراء والرجاء ، ثم لاتلبث أن تهش لهم ، و يلجون حرم الخمرة و يتنازعون فى عمرها من الخمرة المعتقة ، صاحبة المهر الغالى ، والثمن المرتفع ، و ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى المقطع الأخير من القصيدة ، فيتحدث عن الساقى ، والغناء إلى أن تنتهى جلستهم من صياح الديك ، وانبثاق النهار .

دار الندامى :

يحكى أبو نواس قصة حال ماضية ، فالشاربون كانوا يجتمعون فى دار ناديهم ، فكانت هذه الدار حلية بها ، حيث كانوا فخراً ومجداً لها ، فلما رحلوا عنها خلت ، وأصبحت موحشة مقفرة ، واستطرد إلى تصوير ما كان يقع منهم فالخمر كثيرة والدنان كبيرة فكانوا يجرونها ولا يستطيعون حملها ، وهو يفخر بسكره غير متأثم ، وكانت كؤوس الشراب مذهبة مزخرفة بالنقوش والصور ، ولتطيب لهم الجلسة فإنهم كانوا يتهادون بالورود والرياحين ، وأراد أن يجدد عهد الدار فنزل بأصحابه فيها ومكثوا خمسة أيام يشربون ، والغلمان يملئون لهم الكئوس حتى تكاد تصل إلى القمة ، ثم يمزجونها بالماء حتى تحاذى رءوس الفرسان المنطبعة صورهم على جدران الكئوس .

الخمر ياقوتة :

يسخر هنا الشاعر من الطريقة التقليدية القديمة التى تحافظ على افتتاح

القصائد بالغزل ، والوقوف على الأطلال والدمن ، ويطلب التحرر من هذه التقاليد البدوية ، لأنهم يعيشون فى عصر غير العصر ، ويحيون حياة غير الحياة ، فلا بكاء على ليلى ، ولا تحسر على هند ودعد والرباب وغيرهن من المعشوقات الخياليات ، وعلى الشعراء أن ينصرفوا إلى الشرب بين البساتين الجميلة ، والورود الحمراء ، ثم يصور مفعول الخمر التي ماإن تنحدر فى جوف شاربها حتى يظهر مفعولها فتكسبه حمرة فى الخد والعين ، فإذا الخمر ياقوتة ، وإذا الكأس لؤلؤة فى كف ساقية ذات قد ممشوق ، وعينين ساحرتين تسقيك بهما الخمر ، فإذا أنت لا بد لك من سكرين بخمر اليد ، وخمر العينين ، ومن ثمّ فلأبى نواس دون الندمان سُكران فهو رجل يريد أن يمتع جميع حواسه ، ويتعمق الإحساس ، فإذا أحسّ غيره بلذة واحدة فهو يحسّ لذات متعددة .

دع عنك لومى :

أيها اللائم ، اترك اللوم ، لأن هذا الصنيع يدفعنى إلى العناد ، ويزيد من إغرائى فى الشراب ، وإذا كنت حكيما فعالجنى بالتى كانت هى الداء ، وإذا كنت لا تعرفها فأنا أزيدك بها معرفة ، فهى صفراء تذهب بالأحزان ، ومجالسها بعيدة عن الأسى ، فهى مجالس أنس وطرب ، وإن حاملةَ الخمرة ذات وجه صبوح يشيع البهجة فى النفس ، فبينما هى تبعث من فم الإبريق الخمر الصافية ، تبعث لك من طريق آخر سحراً يفد إليك من عينيها ، وما أجمل هذه الخمر ، لقد كانت لطيفة شفافة للغاية ، حتى لو مزجنا بها النور لمازجها ، وتولد عن ذلك جملة من الأضواء والأنوار .

المنتخبات

أولاً — خمر تكريت

وفِتْيـــة ، كَمَصَابيح الدُّجَى ، غُرر
شُمّ الأُنُوف ، من الصِّيد المَصَاليت(١)
نادَمْتُهم قرقف الإسـفنط صافيـة
مشـمولة سُبِيتْ مِنْ خَمْر تـكريت(٢)
من اللّواتى خَطبناها على عَجَلٍ   لمّا عججنا بربّات الحَوَانِيت(٣)
فى فَيْلق للدُّجى كاليَمّ مُلْتَطـم
طامٍ ، يُحـاربُه ، مِنْ هَوْله ، النُّوتى(٤)
إذَا بِـكَافِرةٍ شَمطاء قد بَرَزَتْ   فى زيّ مُخْتَشِعٍ لله زِمّيت(٥)
قالتْ : من القوم ؟ قلنـا من عرفتهـم
من كل سمح ، بفرطِ الجودِ مَنْعُوت

---

(١) الصيد المصاليت : سادة عظام .

(٢) قرقف : الخمر . الاسفنط : نوع من الأشربة . تكريت : مدينة على يمين شاطىء دجلة اشتهرت بالخمر .

(٣) عججنا : رجعنا .

(٤) الفيلق : الجيش العظيم . والمراد هنا الظلام .

(٥) شمطاء : عجوز .

حَلوا بِدَارِكِ مُجْتَازين ، فاغتَنِمى   بذل الكِرام وقُولى كيفما شِيتِ
فاحيِى بريحهـم فى ظلّ مَكرُمة
حتى إذا ارتَحَلُوا عن داركم ، مُـوتى
قالتْ : فعندى الذى تبغون ، فانتظروا
عند الصَّباح ؛ فقلنا : بل بهـا إيتى
هى الصباح ، تحلّ الليل صفوتها   إذا رمت بشرار كاليواقيت
رمىَ الملائكة الرَصـاد إذ رجمت
فى الليـل ، بالنجم ، مرّار العفاريت
فأقبلت ؛ كضـياء الشمس نازعـةً
فى الكأس من بين دامي الخصر منكوت
قلنا لها : كم لها فى الدّن ، إذ حجبت ؟
قالت : قد اتخذت من عهد طالوت
كانت مخبـأة فى الدّن ، قد عنست
فى الأرض مدفونة فى بطن تابوت
فقد أتيتم بهـا من كنه معدنهـا ،
فحاذروا أخذها فى الكأس بالقوت
تهدى إلى الشّرب طيباعند نكهتها   كنفح مسك فتيق الفارمفتوت
كأنها ، بزلال المزن إذ مزجت ،   شباك در على ديباج ياقوت . .

ثانيا — دار الندامى

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوها ، وأَدْلَجوا بها أَثَرٌ منهمْ : جديدٌ وَدَارِسُ(١)
مَسَاحِبُ من جَرِّ الزِّقَاق على الثَّرَى
وأَضْغَاثُ رَيحانٍ : جَنِىٌّ ويابِسُ(٢)
حَبَسْتُ بها صَحْبِي وجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ
وإنِّى على أَمْثَال تلكَ ، لحَابِسُ(٣)
أَقَمْنَا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ التَّرحُّل خامِسُ(٤)
تدورُ علينا الرَّاحُ فى عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بأَنْواعِ التَّصاوِير فارِسُ(٥)
قَرَارتُها كِسْرَى وفى جَنَبَاتِها مَهاً تدَّرِيها بالقِسِىِّ الفَوارِس(٦)
فللخمرِ ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُهُم وللماء ما دارتْ عليه القَلاَنِسُ(٧)

---

(١) ندامى : جمع ندمان ، المشاركون فى الشراب . أدلجوا : ساروا إلى آخر الليل . دارس : غير ظاهر .

(٢) الزقاق : أوعية من جلد لحفظ الخمر . أضغاث : حزم جمع ضغث ، وهو القبضة من الحشيش .

(٣) يريد أنه ألزم صحبة هذه الدار حيث توفروا على لهوهم وأعادوا العهد .

(٤) يشير إلى المدة التى أقاموها .

(٥) الراح : الخمر . العسجدية : كئوس مذهبة . حبتها : خصتها .

(٦) مها : بقر وحشى . تدريها : تخدعها . القسى : جمع قوس .

(٧) الجيوب : فتحة الجلباب عند الصدر . القلانس : جمع قلنسوة ، وهى غطاء الرأس عند الفرس .

ثالثا — الخمر ياقوتة

لا تبْكِ لَيلى وَلاَ تَطْرَبْ إلى هندِ
واشربْ عَلَى الوَرْد ، مِنْ حَمْراء كالورد
كأساً إذا انْحَدَرَتْ فى حَلْق شارِبها
أَجْدَتْهُ حُمْرَتَها فى العين والخدِّ[1]
فالخمرُ ياقوتةٌ ، والكأسُ لؤلؤةٌ فى كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ
تسقيك من طَرْفها خمراً ، ومن يدها
خمراً ، فما لك من سُكْرَيْن من بُدِّ[2]
لى نشوتانِ ، وللنُّدْمان واحدةٌ
شىءٌ خُصِصْتُ به من دونِهم وحدى

رابعا — دع عنك لومى

دَعْ عنْكَ لَوْمى ، فإنّ اللومَ إغْرَاء وَدَاونِى بالّتى كانت هى الدّاء
صَفْراءُ لاَتنزلُ الأحزانُ ساحتَها لو مَسّها حجرٌ ، مسّته سرّاء[3]

(١) أجدته : أعطته .

(٢) الطرف : العين .

(٣) فى هذا المعنى مبالغة ، لانه زعم أن الحجر الاصم لو أصاب منها لدخل عليه السرور .

قَامتْ بِإبْرِيقِها ، والليـلُ مُعْتَـكِرٌ
فَلاَحَ من وَجْهِها ، فى البيتِ ، لألاءُ[١]
فأرسلت مِنْ فم الإبريق صافيةً كأنمـا أخذُها بالعين إغفاءُ
رقّت عن المـاءِ ، حتى ما يُلاَئِمُهـا
لطافةً ، وجفا عن شَـكْلِهـا المـاءُ[٢]
فلو مزجتَ بها نوراً ، لمَازَجها حتى تولّد أنوارٌ وأضـواءُ

---

(١) متعكر : مشوب ببياض الصباح .

(٢) يريد أن تلك الخمر بلغت من اللطف والرقة مالم يبلغ الماء .

موضوعات للبحث

١ — ماالجديد الذى أدخله أبو نواس فى الشعر الخمرى العربى ؟ أيّدما تقول بأمثلة من نتاج الشاعر ؟ .

٢ — بم يمتاز أبو نواس عن الأعشى والأخطل فى وصف مجالس الخمرة دعم رأيك بالشواهد .

٣ — أوضح الصلة بين حياة أبى نواس ونفسيته وشعره .

المراجع

١ ـ حديث الأربعاء : الدكتور طه حسين

٢ ـ ديوان أبى نواس : أبو نواس

٣ ـ تطور الخمريات فى الشعر العربى : الدكتور جميل سعيد

٤ ـ النواسى شاعر من عبقر : الدكتور زكى المحاسنى

٥ ـ أبو نواس : عبد الحليم عباس

٦ ـ أبو نواس : عبد المجيد الغزالى

٧ ـ أبو نواس : جورج غريب

٨ ـ نفسية أبى نواس : الدكتور محمد النويهى

أبو العتاهيـــــة

(٧٤٨ ـ ٨٢٦ م)

حيـاته :

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد ، ولد فى الكوفة سنة ١٣٠ هـ ٧٤٨ م من أسرة فقيرة ، وكان أجداده من (عين تمر) قرب الأنبار ، فلما فتح خالد بن الوليد المدينة ، أسر فيمن أسر جدّ أبى الشاعر مع جماعة من الشبان ، وأرسل بهم إلى أبى بكر ففرقهم فى أماكن عدّة ، ثم اعتنقوا الإسلام ، ومالبث مواليهم أن أعتقوهم ونشأ يبيع الجراء ، ولكنه ولع بالشعر فقاله وهو صغير ، وقيل كانت فيه موهبة شعرية ، حتى أنه إذا حدّث ببعض الحديث العادى كان يأتى موزونا مقفى ، وكان يقول عن نفسه : «لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت . ومما يؤيد أن قوله للشعر كان سليقة لا صناعة ، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاما ، وله أوزان لا تدخل تحت قواعده ، ولا تجرى فى مجاريه . ولما قوى عوده فى الشعر ، وذاعت شهرته سعى إلى بغداد ، وقد اتصل بثلاثة من الخلفاء العباسيين ، وهم المهدى والرشيد والمأمون ونال لديهم حظوة ، ثم أقبل على دراسة الفلسفة والحكمة فمال إلى الزهد وانصرف بفنه إليه ، وبخاصة بعد أن تعرّف على (عُتبة) جارية الرشيد التى أغرم بها ، ولكنها صدته لحزن ، ولبس الصوف وتنسّك ، وعرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ، فأرغمه عليه الخليفة هارون الرشيد فأبى ، فضرب به ستين جلدة وسجنه ، ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر ، وكان بعد ذلك لا يفارقه فى حضر ولا سفر ، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير المنح التى كان يحصل عليها ما بين آونة وأخرى ، وسرى بشعره الركبان ، وتغنى به المغنون ، وتناجى به الزهاد وسائر الناس ، وعنى العلماء والرواة بجمعه ، وتوفى فى بغداد سنة ٢١٠ هـ ـ ٨٢٦ م .

آثاره :

له شعر كثير يمثل طورى حياته ، الطور الأول : شعر الغزل والمدح وما إليهما ، والطور الثانى : شعر الزهد ، وقد جمع شعره غير واحد ، منهم أحد الآباء اليسوعيين بعنوان (الأنوار الزاهية فى ديوان أبىَ العتاهية) ، وتفوقه وشهرته ترجع فى الواقع إلى زهدياته و إلى حكمه وأمثاله ، وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل ، أما غزله فخيره ما قاله فى عتبة ، وأحسن مدائحه ماقالها فى المهدى والرشيد ، ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ماوقع بينه و بين عبد الله بن معن : ومع هذا لم يكن طعانا ولا فحاشا .

الزهـد :

هو أن يتخلى الإنسان عن شواغل الدنيا المادية ، و يعكف على الروح يتعهـدها محطماً قيود الجسد سواء بالصلاة أو بالصوم أو بالتأمل الفـكرى أو بالرياضة الروحية أو بها جميعا .

وقد لايقنع الزاهد من الصلاح بخلاص روحه فحسب ، فيحاول أن يدلّ الناس على طريقة علهم يهتدون ، وتـكون دعوته الزهدية مواعظ أو قصائد ، وقد حفلت آدب الأمم — ومنها الأدب العربى — بفن الزهد .

و إذا بحثنا عن منشأ فن الزهد وجدنا أن الإسلام يحض فى كثير من نصوصه على الإقبال على الله ، وعدم الاهتمام بزخارف الدنيا وقد ظهرت بوادر زهدية منذ عصر الرسول تجسمت فى (أهل الصفة) وفى (أبى ذر الغفارى) ، فلما كان القرن الثانى للهجرة وجدنا أن المجتمع الإسلامى قد جدّت عليه أفانين من اللهو والغناء والغزل والشراب ، وكثر الإقبال على اللذات، فاقتضت سنّة الاجتماع أن يكون هناك رد فعلٍ لهذه الأحوال ، وأن يقوم بجانب أدب اللهو أدب آخر يدعو إلى الجد والنسك ، و يذكّر بالموت ، و يكثر من النصيحة ، أضف إلى هذا ما نقل

إلى الفكر الإسلامي من أدب الزهد والنسك والحكمة عند الهنود والفرس واليونان .

ومن ثمّ تطورت النزعة الزهدية ، وعملت فيها هذه المؤثرات الكثيرة ، فلم يكتف بعض الناس بالتقشّف ، بل راح يدعو إلى الرّهبنة وإن كان الإسلام قد نهى عنها « لا رهبانيّة في الإسلام » وانتهى بعض آخر إلى تأملات غايتها معرفة الله ، ثم تطورت هذه المعرفة ، فأصبحت فناء في ذات الله وحباله . ومن الغريب أن بعض هؤلاء المتنسكين قد عرفوا قبل تطليقهم للدنيا وعكوفهم على الزهد ، بالتهتك والفجور ، وقضاء حياتهم بين الغواني والكئوس يعبون منها فإذا ما أفاقوا من نشوتهم الزائلة ، وجدوا أنها لذة عارضة تخلف في نفوسهم الألم والحسرة ، وتأكل في أرواحهم وأجسادهم ، فكانوا يشعرون بعذاب الضمير ، وثورة الروح فيتجهون إلى حظيرة ربهم تائبين منيبين .

٦ زهديات أبي العتاهية :

طلق أبو العتاهية حياته الأولى حانثاً على ترك الدنيا ، ولكن الدارسين لم يجمعوا على أنه كان مخلصا في زهده . ولا خلاف في أن زهدياته أجود شعره لأنه اختص بها كاختصاص بعضهم بالغزل والخمر ، ومع أن أبا العتاهية لم يزد الكثير على ما أتى به الوعاظ والمفكرون ، فإنه يعتبر زعيم هذا الفن في الأدب العربي . لأنه صرف جهده إليه .

الدنيا وغرورها :

يقول أبو العتاهية في هذه القطعة إنه قد قطع أمله من الدنيا ، ووجد راحته في اليأس منها وذلك بعد أن صدته عتبة ، ونصح بألا يريق الإنسان ماء وجهه بالسؤال ، وأن يضنّ بكرامته ، كما يضن صاحب المال البخيل بماله ، إذ أن المحامد ترجح في الوزن ما يبذل من مال وعطاء ، وإذا اضطر الإنسان فليسأل كريماً ، ونصح لمن يشعر بضيق في مكان ما أن يرحل إلى غيره ، وأن يصبر على نوائب الدنيا فهي لا تدوم على حال .

الدار الفانية :

يقول ليس فى طبع هذا الدهر الخئون القلب أن يبقى شمل الأصحاب مجتمعين بل يفرقهم بالموت ، لأننا فى دار من طبيعتها الفناء ، ولم نشاهد فيها من لم يهلكه الموت ، وأعجب لقوم جدّوا فى طلب الدنيا والعمارة بها ، ولكنهم تركوا كل هذا ولم يخرجوا منها إلا بالكفن ، ثم يحض على بذل المال لأن الإنسان لن يبقى له إلا الذكر الحسن ، ونحن فى هذه الحياة محكوم علينا بالموت ، وكل منا ينتظر الساعة التى ينفذ فيها قضاء الله فيه .

القبور وأهلها :

يقول أيها الأصدقاء : زوروا القبور ونادوا من سكنها من عظيم أو حقير ، وسلوهم : هل فيهم من يجير أو يجار ؟ وأين منزلتهم فى هذه الدار الآخرة بعد ما كانوا فى هذه الحياة الدنيا فى نعيم وسؤدد ، ومناصب رفيعة ، ومتع وملذات ؟ لقد أصبحوا الآن تحت طبقات الثرى ، وهذا مآل كل حى .

هذه القطع الثلاث تمثل لونًا من الأدب جدّ على المجتمع الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة ، وهو (فن الزهد) وقد كان أبو العتاهية زعيم هذا الفن ، ونلاحظ :

أن هذه القصائد قد قلّت فيها الصور الشعرية ، والأخيلة الجميلة ، فجاءت جافة أشبه بوعظ الواعظين منها بروائع الشعراء المحلقين ، وذلك لأن هذا النوع من الأدب يتطلب السهولة والوضوح والقرب من أفهام الناس ، وتخير الأوزان الشعرية السهلة .

كما نلاحظ أن عماد زهديات أبى العتاهية ، الترغيب فى الآخرة ، والتحذير من الدنيا ، والدعوة إلى القناعة ، واجتناب الشرّ ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة والتذكير بالموت ، وضجمة القبر .

المنتخبات

أولا — الدنيا وغرورها

قطّعتُ منكِ حبـــائلَ الآمال
وَحَطَطْتُ عن ظهرِ المَطِيِّ رِحالى[١]
ويئستُ أنْ أَبْقَى لشىء نلتُ مِمَّـــا فيكِ يادُنْيا وأنْ يبقى لى
فوجدتُ بردَ اليأس بين جَـــوَانحى
وأرحتُ من حَلِّى ومن تَرْحالى[٢]
ولئن يئستُ لرُبَّ برْقــةِ خُلَّبٍ
بَرَقت لذى طمعٍ ، وبَرْقَةِ آل[٣]
فالآن أبصرتُ السبيلَ إلى الهُدَى
وتفرّغتْ هِمَمِى عن الأشغال
ولقد أقام لِىَ المشيبُ نُعاتَه يُفْضِى إلىّ بفرقٍ وقَذَال[٤]
ولقد رأيتُ الموت يَبْرُقُ سيفُه بيد المنية ، حيثُ كنت حِيالى

(١) المطى : جمع مطية ، وهى الدابة التى تركب .
(٢) برد اليأس : راحته ولذته . جوانحى : جمع جانحة ، وهى عظام الصدر .
(٣) البرق الخلب : الذى لا مطر فيه . الآل : السراب .
(٤) القذال : مؤخر الرأس .

ولقد رأيت على الفَنَاء أدلَّةً فيما تنكَّر من تصرُّفِ حالى

وإذا اعتبرتَ رأيت خَطبَ حوادثٍ
يجرين بالأرزاق والآجـــال

وإذا تناسبتِ الرِّجالُ فما أرى نَسَبًا يُقاس بصالح الأعمال[1]

وإذا بحثتُ عن التقىِّ وجدتُه رجلاً يصدِّق قولَه بفِعال

وإذا اتّقى اللهَ امرؤٌ وأطاعه فيداه بين مــكارمٍ ومعالى

وعلى التَّقِىِّ إذا ترسَّخَ فى التُّقَى تاجان : تاج سكينةٍ ، وجلال

والليل يذهب والنهار تعاوُراً بالخلق فى الإدبار والإقبال[2]

وبحسبِ من تُنْعى إليه نفسُه منه بأيام خَلَتْ وليـــال

اضرب بطَرْفِك حيث شئت فأنت فى
عِــبَرٍ لهــنَّ تدارُكٌ وتوالى

يبْلى الحديد وأنت فى تَجْدِيده وجميعُ ما جدّدت منه فبَالى

مالى أراكَ لحِرٍّ وجهك مُخْلقا أخْلقت يادنيا وُجُوهَ رجال[3]

قستُ السؤالَ فكان أعظم قيمةً من كلِّ عارِفَةٍ جرَتْ بسؤال[4]

---

(١) تناسبت الرجال : تفاخروا بأنسابهم .

(٢) التعاور : التداول .

(٣) الثوب الخلق : البالى .

(٤) العارفة : المعروف .

كنْ بالسؤال أشدَّ عَقْدَ ضَنَانةٍ ممن يضنُّ عليك بالأموال[١]
وصُن المحامدَ ما استطعتَ فإنها في الوزن ترجح بذلَ كلِّ نوال[٢]
ولقد عجبتُ من المُثمِّرِ مالَه نسيَ المُثمِّرُ زينةَ الإقلال
وإذا ابتُليتَ ببذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرِّم المِفْضال
وإذا خشيتَ تعذُّراً في بلدةٍ فاشْدُد يدَيْكَ بعاجل التَّرحَال[٣]
واصبر على غِيَرِ الزَّمان فإنَّما فرجُ الشدائد مِثْلُ حلِّ عِقَال[٤]

ثانياً — الدار الفانية

مَسكَنٌ يَبْقى له سَكَنُ مَا بِهذا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ[٥]
نحن في دارٍ يُخَبِّرُنَا عن بِلاَها ناطقٌ لَسِنُ
دارُ سوءٍ لم يَدُمْ فَرَحٌ لامرىءٍ فيها ولا حَزَنُ[٦]

---

(١) الضنانة : البخل .

(٢) النوال : العطاء .

(٣) التعذر : الضيق .

(٤) غير الزمان : شدائده . العقال : القيد الذى تربط به رجلا الجمل لئلا يقوم .

(٥) السكن : الأليف والصاحب : يؤذن : يسمح .

(٦) دار : يعنى بها الدنيا . عن بلاها : فنائها .

ما نرى من أهلها أحداً   لم تَغُلْ فيها به الفِتَن[١]
عجباً ، مِنْ معْشرٍ سَلفُوا   أىّ غَبْنٍ بيِّنٍ غُبِنُوا[٢]
وفرَّوا الدُّنيا لغيرهمْ   وابْتَنَوا فيها وما سَكَنُوا
تَرَكُوها بعد ما اشْتَبَكتْ   بينهم فى حُبِّها الإِحَنُ[٣]
كلُّ حَىٍّ عِنْدَ ميْتَتِه   حظُّه من مالِهِ الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرءِ ليس له   منه إلاَّ ذِكْرُهُ الحَسَنُ
فى سبيل الله أنْفُسُنَا   كُلُّنَا بالموْتِ مُرْتَهَنُ

ثالثاً — القبور وأهلها

أَخَوَىَّ مُرَّا بالقُبُو   رِ، وسَلِّمَا قَبلِ المَسِير
ثُمَّ ادْعُوَا مَنْ عادَها   مِنْ ماجِدٍ قَدِمٍ نَخُور[٤]
وَمُسَوَّدٍ رَحْبِ الفِنَا   ءِ أغرَّ كالقمر المُنِير[٥]
يا مَنْ تضمَّنَه المَقَا   بِرُ ، من كبيرٍ أو صَغِير

(١) لم تغل : لم تهلك .
(٢) الغبن : الظلم .
(٣) الإحن : الأحقاد .
(٤) القدم : السيد العظيم .
(٥) المسود : السيد .

هل فيكُمُ أَوْ مِنــكُمُ مَنْ مُسْتَجارٍ أَوْ مُجِـير ؟
أَوْ ناطقٍ أو سَـامِـعٍ يوماً بِعُرْفٍ أو نَـكِـير ؟
أَهْـلَ القبـورِ أَحِبّتِى بَعْدَ الجـذَالَةِ والسُّرور
بعـد النَضَـارة والنَّضَا رَةِ ، والتَّنَعُّم والحُبُـور
بعـد المشـاهد والمجـا لِسِ ، والمسـاكر والقُصُور
بعـد الحِسَـانِ المُسْمِعَا تِ ، وبعد رَبّاتِ الخُدُور
أَصْبَحْتُمُ تحتَ الثَّرَى بين الصَّـفَائح والصُّـخُور[1]
أهـلَ القبـور إليكُمُ لا بُدَّ عاقِبَـةُ الأمـور

(١) الصفائح : الحجارة العريضة .

موضوعات للبحث

١ — يقرر الرواة أن أبا العتاهية كان شحيحاً يكدس فى بيته بِدَر الأموال ، وهم لهذا يقولون إن (زهدياته) ليست صدى لنفسه الزاهدة ، ولكنها أثر لفشله فى حبه لعبدة ، ورغبته فى الظهور على الناس بفن جديد . ناقش .

٢ — إن أبا العتاهية بحديثه فى الزهد قد رسم جانباً مهمًّا من الحياة العباسية عند قوم لم تغمرهم زخارفها — وضح .

٣ — ماعماد زهديات أبى العتاهية التى يمكن أن تستنبطها من خلال هذه النماذج ؟ .

المراجع

١ — أبو العتاهية : محمد أحمد برانق

٢ — أبو العتاهية : عبد المتعال الصعيدى

٣ — التصوف عند العرب : جبور عبد النور

٤ — ديوان أبى العتاهية . : أبو العتاهية

أبو تمام

(٧٨٨ م — ٨٤٥ م)

حياته :

هو حبيب بن أوس الطائى . ويقال إن أباه كان نصرانياً يدعى (تدوس) ، ولكن أبا تمام أنف من كونه نصرانياً ، فحرفه إلى (أوس) كى يستطيع الانتساب إلى قبيلة طيىء .

ولد أبو تمام بقرية جاسم[1] ، ونرجح أن ذلك كان سنة ١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م ، ونشأ فى دمشق ، حيث بدأ حياته بحياكة الملابس ، وكان يختلف بين آونة وأخرى إلى حلقات العلم ، فلم تلبث مواهبه أن استيقظت ، فأخذ يقرض الشعر ، ويمتدح الأمراء لينال جوائزهم وعطاياهم ، وهو فى سبيل ذلك ينتقل من بلد إلى آخر ، فذهب إلى حمص ومدح بنى عبد الكريم . ورحل إلى مصر ومدح عامل الخراج بها ، كما أنه كان يتردد على جامع عمرو بن العاص ، ويعيش من السقاية بمسجده ، والمسجد يومئذ مدرسة من مدارس العلم ، فارتوى أبو تمام من ذلك الرّفد ، وأخذ يساجل الشعراء ، ثم آب إلى دمشق ، ومدح غير واحد من قادتها ، وحاول المثول بين يدى الخليفة المأمون ، ولكن الأبواب أوصدت فى وجهه ، فاتجه شطر بغداد وفيها أقبلت الدنيا عليه ، ولا سيما فى عهد الخليفة المعتصم ، حتى أصبح أكبر شعرائه يتغنّى بأعماله ، ويسجّل أحداثه من مثل (فتح عمّورية[2])

(١) على الطريق بين دمشق وطبرية .

(٢) انظر الجزء الرابع من الأدب والنصوص لنا .

والقضاء على (ثورة بابك) و يتهاداه وجوه القوم ، ووزراء الدولة كابن عبد الملك الزيات ، وابن أبى دؤاد ، ولعظم مكانته عندهم رغبوا به عن التكسب بالشعر ، وولوه بريد الموصل ، كما نال حظوة فى بلاط الواثق من بعد المعتصم ، ثم يترك بغداد إلى حران و يمدح عبد الله بن طاهر ، ثم قفل راجعاً إلى بغداد ، ولكن نزول الثلج حبسه فى همذان ، فعكف على خزانة كتب الوفاء بن سلمة هناك ، مما حدا به إلى إخراج جملة كتب من أهمها (ديوان الحماسة) .

وكان أبو تمام يجمع إلى هذه الثقافة الوسيعة التى تزوّد بها فى دمشق ومصر و بغداد ذكاء نادراً ، و يقص العلماء فى ذلك بعض أخباره ، قال يمدح أحمد بن المعتصم من قصيدة سينية فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمرو[١] ، فى سماحة حاتم[٢]
فى حلم أحنف[٣] ، فى ذكاء إياس[٤]

قال بعض حسّاده[٥] أمام ممدوحه : « مازدت على أن شبهت الأمير بمن هم دونه » فقال أبو تمام بعد أن أطرق قليلا :

لا تنكروا ضرْبى له من دُونَه ... مثلاً شروداً فى النّدى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره ... مثلاً من المِشْكاة والنّبراس

---

(١) هو عمر بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن ، وصاحب الغارات المشهورة.

(٢) هو أحد أجواد العرب المشهورين .

(٣) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين ، كان شهما حليما عزيزاً فى قومه.

(٤) هو قاضى البصرة ، وأحد أعاجيب الدهر فى الفطنة والذكاء ، يضرب المثل بذكائه ، وصدق حرسه .

(٥) هو الكندى الفيلسوف .

وقد توفى أبو تمام فى بغداد ، وكما اختلف فى سنة ولادته ، اختلف فى سنة وفاته ويرجح أنها سنة ٨٤٥ م – ٢٣٦ هـ .

آثاره :

لأبى تمام بضعة مؤلفات منها : (ديوان شعر) جمعه الصولى على حروف الهجاء ، ثم ابو حمزة الأصبهانى على الأنواع ، ثم طبع طبعات حديثة فى القاهرة وبيروت .

ومنها (الحماسة) وهى مختارات من الشعر القوى تدل على فضل أبى تمام وسعة اطلاعه ، وقوة عقله ، وحسن اختياره ، وعلى منوالها نسج تلميذه البحترى فى القديم ، والبارودى فى الحديث . ومنها (فحول الشعراء) جمع فيه طائفة كبيرة من الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وله كتاب (الاختيارات من شعر الشعراء) .

ويعتبر أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من الشعراء المحدثين (يعنى طبقتى : بشار ، وأبى نواس) بطريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال ، والاستدلال بالأدلة العقلية . والإكثار من استخدام الفنون البيانية كالاستعارة والجناس وما إليهما ، فأصبح شعره من ذلك النوع الذى يكد القارىء والسامع فى استخراج المخبوء من معانيه ، كان أبو تمام يستخدم فى صناعة هذا النسيج وشىَ التصنيع ، ونعنى تلك الألوان من المحسنات التى تسمى بالطباق والجناس والمشاكلة والتصوير ، والتى يقوم فى نفوس كثير من أهل الأدب أنها كل مايعتمد عليه الشاعر العباسى ، ولكن أبا تمام يضيف إليها الكثير من الثقافة والفلسفة – كما سنرى ، وكما مر بك فى الجزء الرابع – .

وصف الربيع :

شملت نظرة أبى تمام الكون : أرضه وسماءه ، والعناصر التى ألمت بها تلك

القصيدة هى : مكانة الربيع من فصول السنة ، وجو الربيع ، وجمال الرياض .

فالشاعر يستهل حديثه عن رقة الحواشى ، وتمرمرها أى تمايلها ، وهذا التشخيص الذى يبدو به أبو تمام ، هو فى الواقع وليد العصر ، فى أسلوبه ، فضلا عن صورته ، ولعل الشاعر نقل هذه الصورة مما كان يشاهده فى عصره من الثياب المزركشة .

ثم يتخلص إلى الحديث عن الربيع ، فهو أول الصيف ، حيث لم تكن الدنيا قد خلصت بعد من آثار الشتاء ، وهى لذلك متأرجحة بين مطر ينمحى ، وصحو يخيل إليك أنه على وشك أن يمطر ، لما حجب وجه الأرض من خضرة يانعة ، فالشاعر فى قوله : « نزلت مقدمة المصيف » يعارض بين الربيع والشتاء ، ويقرن فضل هذا بذاك ، فهو لم يُمْنَ بالظاهرة ، بل بمعناها ، وهو لا يشخص بعينيه ، بل يستنتج أفكاراً ، يعللها ويقابلها . ثم تشتد النزعة التعليلية الفلسفية فى قوله :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحوٌ يكاد من الغضارة يمطر
غيثان : فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه ، والصحو غيث مضمر

فهذا الوصف وصف تعليلى فلسفى يسير من الظواهر إلى العلل ، ويُعنى بالتأمل والاستنتاج ، وهذا البيتان يمثلان واقع الثقافة والتجربة الشعرية فى عصر الشاعر ، ولا شك أن للبديع تأثيراً كبيراً فى هذين البيتين ثم يقرر الشاعر فى قوله : « دنيا معاش للورى » مصيرالإنسانية الذى استقر فى ذهنه بعد تأمل الحياة ، وتقرير نواميسها ، فقد نظر إلى حالة البشر ، فرآهم يدأبون ويكدون ليكسبوا عيشهم ، وخلص من ذلك ، إلى أن نعيم الحياة بالنسبة للإنسان هو المعيشة التى يحياها ، وتدرج الشاعر إلى إظهار السعادة التى تعترى الإنسان فى الربيع ، فجعل السعادة تقتصر على تملى مظاهر الطبيعة ومشاهدها .

وإن هذا الظل الوارف ، وما امتلأت به الرّبا من الأزهار والنور ليخفف من ضياء النهار ، حتى كأنما الدنيا برغم شروق الشمس مضاءة بالقمر ، وإن الدنيا فى غير الربيع خلقت ليسعى الناس فى مناكبها ، أما فى الربيع فقد خلقت ليمتع الناس عيونهم بالنظر إليها ولم لا ؟ وهاهو ذا النور الناضر قد كسا ظهر الأرض جمالاً تتفتح له القلوب مبتهجة بهذه الزهرات تنحدر عليها قطرات الندى ، ويداعبها النسيم ، فتبدو ثم تختفى بين صويحباتها ، كعذراء خضرة تظهر ثم لا تلبث أن تحتجب . وليس من شك فى أن هذا تشخيص جميل ، وقد انطلق أبو تمام يعمم هذا التشخيص فى جميع صوره وأفكاره ، ولم يقف به عند هذا الجانب من شعر الطبيعة ، بل نشره فى مختلف فنون شعره ، وقد قوبل منه هذا الصنيع بحملة شديدة من النقاد المحافظين من أمثال الآمدى ، الذى خصص فى كتابه (الموازنة) باباً ناقش فيه طائفة من الأبيات التى حفلت بهذا اللون ، من الصنيع ووصفها بالقبح ، غير أن القبح عند الآمدى لايعنى قبح الصورة ، إنما يعنى : خروج أبى تمام على تقاليد العرب فى استخدام الاستعارة .

رثاء ابنه :

أبو تمام متلهف كثير التفجع ، جياش العاطفة ، صادق اللهجة ، ولاسيما فى رثاء ذوى قرباه ، وليس له رثاء تظهر فيه نفسه متألمة حزينة ، إلا ما قاله فى ابنه وأخيه ، ولكن مع هذا لم تبلغ مراثيه إلى منزلة أمداحه ، التى تعتبر ذروة فنه ، ومع اتصاله بالخلفاء لم يحسن رثاء واحد منهم ، فكان رثاؤه رثاء مدح وفخر ، فحين مات المعتصم مثلا لم يخصه بمرثية ، وإنما أنشد ابنه الواثق قصيدة جمع فيها بين التعزية والتهنئة . فغلبت عليها صفة المدح ، وأكثر ما يردّد فى مراثيه هو نعى

الميت إلى أحياء العرب ، وشكوى الدهر ، ودعوة الناس إلى البكاء ، وإذا جاشت عاطفته انتقلت من مرثية الوعظ إلى التفجع وإظهار اللوعة .

وهو حين رثى ابنه لم يأت بجديد ، فهو يقول : إن ابنه أوشك أن يحقق الآمال المعقودة عليه ، وإذا بيد المنون تسطو عليه ، ولقد وقع الشاعر فى صراع بين الرضا والتسليم بالقدر ، وبين أن يثور على هذه المصيبة التى حلت بساحته ، وظل يجاهد ولكنه سلّم الأمر إلى الله ، فإليه المرجع ، ثم يقرر أن ابنه شكا ألما وأخذ يئن ، ويقلب بصره فى والديه ، ثم ما لبث أن قضى نحبه ، فوسّده التراب بعد أن كان ينام فى الفراش الوثير الدفىء ، ثم هو يتأسى شأن السابقين فإذا كان قد أصيب بفقد ابنه فهناك من أصيبوا بمثل ما أصيب به، ولقد رماه الدهر فأصاب منه مقتلا ، ومزق لحما ، وهكذا الحياة مرة شدة ، ومرة لينا .

المنتخبات

أولا – وصف الربيع

رقت حـــــواشى الدّهر فهى تَمَرْمَرُ
وغدَا الثّرى ، فى حلْيه ، يتكسَّر (١)

نزلت مُقدِّمةُ المصيفِ حميدةً ويدُ الشِّتاء جديدةٌ لا تُكفَرَ (٢)

لولا الذى غرَسَ الشتاء بكفِّه قاسى المصيفُ هشائمًا لا تُثمِر (٣)

مطرٌ يذوبُ الصَّحْوُ منه ، وبعـــده
صحوٌ يكاد ، من الغضَارة يُمْطِر (٤)

غيثانِ : فالأنْواء غيثٌ ظـــاهرٌ
لك وجهُهُ ، والصَّحوُ غيثٌ مُضمَر (٥)

---

(١) الحواشى : واحدتها حاشية ، وهى طرف كل شىء . ودقت حواشى الدهر : أى صار هينا . تمرمر : تهتز وتتمايل . الحلى : الزينة . يتكسر : يتثنى .

(٢) مقدمة المصيف : أوله . تكفر : تستر . يريد أن العهد بالشتاء لازال قريبا .

(٣) هشائم : جمع هشيمة ، الأرض الذى يبس شجرها .

(٤) الغضارة : النعمة والخصب .

(٥) الأنواء : جمع نوء ، وهو المطر .

وَنَدىً ، إذا ادَّهنَت به لَمَمُ الـــثَّرى
خِلتَ السحابَ أتاه ، وهو مُعَذَّر[١]
أربيعَنا ، فى تِسعَ عَشْرةَ حِجَّةً حقاً لهنَّكَ للرَّبيعُ الأزهر[٢]
ماكانت الأيام تُسْلَبُ بهجـــةً
لو أنَّ حُسْنَ الروضِ كان يُعَمَّر[٣]
أوَ ما ترى الأشياء إن هِيَ غُيِّرتْ
سَمُجَت ، وحُسْن الأرض حين تَغَيَّر ؟[٤]
يا صاحــــــبىَّ ! تقَصَّيا نَظَريكما
تريا وجُوهَ الأرضِ كيفَ تُصَوَّر[٥]
تَرِيَاَ نهاراً مُشْمِساً قـــد شابه زَهرُ الرُّبا ، فـكأنما هو مُقْمِر[٦]
دُنيا معاشٍ للورى ، حتى إذا حلَّ الرَّبيعُ ، فإنما هِيَ مَنْظَر[٧]

(١) المعذر : الذى نبت عذاره ، وتروى مغدر : أى الغدائر .
(٢) لهنك : لغة فى لأنك .
(٣) يعمر : يعيش طويلا .
(٤) سمجت : قبحت .
(٥) تقصيا تتبعا آخره .
(٦) شابه : خالطه . الربا : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض .
(٧) الورى : الخلق .

أضحت تصوغ بُطُونُها لظهورها نَوْراً ، تكاد له القلوب تُنَوِّر [(١)]

من كلِّ زاهرةٍ تَرَقْرَق بالنّدى فكأنّها عينٌ إليك تُحَدِّر [(٢)]

تبدو ، وَيَحْجُبُها الجَمِيمُ ، كأنها عَذْراء ، تبدو ، تارةً ، وتخفَّر [(٣)]

حتى غَدَتْ وهداتُها ونِجادُها

فِئَتَين ، فى حلل الربيع ، تَبَخْتَر [(٤)]

مُصفرَّةٌ ، مُحمَرَّة ، فكأنها

عُصَبٌ تيمَّنُ ، فى الوغى ، وتَمضَّر [(٥)]

من فاقعٍ ، غَضِّ النَّباتِ ، كأنه دُررٌ ، يُشَقَّق ، ثم يُزَعْفَر [(٦)]

أو ساطعٍ فى حُمْرةٍ فكأنما

يدنو إليه ، من الهواء ، مُعَصْفَر [(٧)]

صَبْغُ الذى ، لولا بدائع لطفه ما عاد أصفرَ ، بعد إذ هو أخضرُ

---

(١) النور : الزهر .

(٢) زاهرة : متلألئة : تحدر . تسيل بالدمع .

(٣) الجميم : الكثير من كل شىء ، ويعنى هنا النبات الذى غطى الأرض .

(٤) الوهدات : جمع وهدة ، وهى الأرض المنخفضة . النجاد : جمع نجد وهو ما أشرف من الأرض .

(٥) العصب : ضرب من البرود . تيمن : انتسب لليمن . تمضر : نتسب لمضر .

(٦) فاقع : شديد الصفرة .

(٧) المعصفر : المصبوغ بالأصفرة .

ثانياً — رثاء ابنه

كانَ الذّى خِفتُ أنْ يَكُونَا إنّا إلى الله رَاجِعُونا
أمسَى المُرَجّى أبُو عَلىّ مُوَسّداً فى الثّرَى رَهِينا
حِينَ انتَهى وَاستَوَى شَبَاباً وَحَقّقَ الرّأىَ وَالظنُونا
أصبت فيه وكان عندى على المصيبات أن يعينا
كُنْتُ عَزِيزاً به كَثيرا وَكُنْتُ صَبّا به ضَنِيناَ
دَافَعْتُ ، إلا المَنُونَ ، عنه وَالمرْءُ لَا يَدْفَعُ المَنُونا
آخِرُ عَهْدِى به صَرِيعا لِلْمَوْتِ بالدّاء مُسْتَكِينا
إذَا شَكَا غصّةً وَكَرْبا لَاحَظ ، أوْ رَاجع الأنِينا
يدير فى رَجْعِه ، لِسَانا يمنعه الموت أنْ يُبِينَا
يشخص طوراً بناظريه وَتَارَةً يُطْبِقُ الجُفُونا
ثُمَّ قَضَى نَحْبَه ، فَأمْسَى فى جدث للثّرَى دَفِينا
بعيد دار ، قريب جار قَدْ فَارَقَ الإلْفَ والقرينا
باشر برد الثرى بوجه قد كان ، من قبله ، مصونا
بنى ، يا واحد البنينا غادرتنى مفرداً حزينا
هون رزئى بك الرزايا علىّ ، فى الناس أجمعينا

آليت أنساك ما تجلى صبح نهار لمصبحينا
وما دعا طائر هديلا ورجعت واله حنينا
تصرف الدهر بى صروفا وعاد لى شأنه شئونا
وحزّ فى اللحم ، بل براه واجتث من طلحتى فنونا
أصاب منى صميم قلبى وخفت أن يقطع الوتينا
فالمرء رهن بحالتيه : فشدةً مرةً ، ولينا

موضوعات للبحث

١ — كان أبو تمام فى طليعة الذين أرجعوا للشعر نزعته الارستقراطية ناقش هذا القول ، وأظهر بعض آثار القديم والجديد فى شعره .

٢ — علام يقوم التصوير عند أبى تمام ـ ادعم كلامك بالشاهد ، ومارأيك فى أسلوبه ، وما الفكرة الأساسية التى عرض لها ؟ .

٣ — ما رأيك فى عاطفة الشاعر فى رثائه ؟ ـ وضح موازنا بينه وبين ابن الرومى فى رثائه لابنه .

المراجع

١ — الوصف : الدكتور سامى الدهان

٢ — الرءوس : مارون عبود

٣ — ديوان أبى تمام : أبو تمام

٤ — شعر الطبيعة فى الأدب العربى : سيد نوفل

٥ — أبو تمام : الدكتور نجيب البهبيتى

٦ — وصف الطبيعة : عمر الدسوقى

٧ — الفن ومذاهبه فى الشعر : الدكتور شوقى ضيف

٨ — من حديث الشعر والنثر : الدكتور طه حسين

خصائص الشعر الفكرية والفنية
فى العصر العباسى الأول

سارت أساليب الشاعر فى طريق جديد رسمتها تلك الحضارة الجديدة وتلك الحياة العباسية التى اتخذت لها نهجاً جديداً فتميزت بما يأتى : —

أساليبه :

١ — الدقة فى انتقاء الألفاظ وروعة الأساليب ـ وجزالتها فى موضوع الجزالة ورقتها فى موضع الرقة ـ وذلك لأن الارتجال قل فى هذا العصر أو اختفى ومال الشعراء إلى تنقيح قصائدهم وتهذيبها ـ لاسيما المداحون وطلاب الجوائز ـ .

٢ — استعمال ألفاظ معربة مثل (آذريون) معرب (آذركون) أى لون النار ـ نوع من الزهر أحمر اللون .

قال ابن المعتز :

كأن آذريونها والشمس فيها كاليه[1]
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية[2]

فما كان من هذه الألفاظ قد استعمل فى أول الدولة قبل أن تفسد ملكة اللغة سمى معرباً وصح استعماله فى الفصيح ـ وإلا فلا ، وأكثر من ذلك أبو نواس لشعوبيته وعصبيته للفرس .

٣ — استعمال ألفاظ أعجمية على حالها من غير تعريب تظرفاً وتملحاً كألفاظ

(١) كالية ناظرة أصله كالئة فسهلت الهمزة .
(٢) مداهن : حقاق الغالية أخلاط من الطيب .

نيروز ومهرجان ـ ومن ذلك قول البحترى : —

وقد نبه النيروز فى غسق الدّجى أوائل ورد كنّ بالأمس نوما

والكلمات التى استعملها ابن الرومى فى وصف لاعب الشطرنج :

٤ — استخدام كثير من المصطلحات العلمية والأساليب الكلامية ـ من ذلك قول أبى نواس فى الهجاء :

وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

٥ — البراعة فى استعمال التشبيه والمجاز والكناية والمحسنات ـ وأول من أكثر من ذلك بشار ثم مسلم ثم أبو تمام .

معانى الشعر وأخيلته :

١ — ترتيب الأفكار والإكثار من ضرب المثل وحسن التعليل ـ قال ابن الرومى :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لولم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

٢ — استخدام المعانى الفلسفية والعلمية كما مر فى بيت أبى نواس .

٣ — الغوص على المعانى الدقيقة مثل قول بشار فى المدح .

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

٤ — المبالغة والتهويل أحيانا محاكاة للفرس ـ ورغبة فى الجائزة ـ بأن يكون الشاعر أبرع أنداده فى تصوير الممدوح ـ وقد تكون المبالغة ناشئة عن انطلاق الخيال كما رأيت فى وصف ابن الرومى للاعب الشطرنج .

الباب الثانى

النثر

كلمة مجملة عن النثر الفنى فى العصر العباسى
تبين أسباب نهوضه وأبرز خصائصه

كاد النثر الفنى يكون صناعة متينة فى أواخر العصر الأموى ـ بما وضع له أبو العلاء سالم ـ مولى هشام بن عبد الملك ـ وعبد الحميد بن يحيى من قواعد وأصول فعبد الحميد أول من نوع فى بدأة الكتابة الفنية وخواتيمها وأطال التحميدات فى صدر الكتب وجود عباراتها — وبالغ فى انتقاء ألفاظها .

فلما جاء العصر العباسى ـ تلقى النثر الفنى موالى آخرون ـ حملوا رايته وأتموا ما نقصه — بنقل كل حسن فى لغتهم إليه — حتى بلغت منزلته درجة لم تسعده الأيام أن تزيد عليها — وسنعرض عليك نصوصاً لأفذاذ الكتاب ونوابغ النثار والمترسلين من أمثال ابن المقفع ـ والجاحظ فى موضوعات مختلفة .

أسباب نهضة النثر الفنى

ومن دراسة هذه النصوص وغيرها تتبين أن النثر الفنى ازدهر فى العصر العباسى الأول أى مدة القرنين الأولين منه (من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ) .

وأسباب ذلك :

١ - الجهود التى بذلها عبد الحميد فى تأثيل الكتابة الفنية ، ودعم أصولها وطرائقها قد أثمرت فى هذا العصر العباسى ، وحسبك شاهدا على ذلك أن تعرف أن ابن المقفع وهو صاحب أول طريقة للكتابة فى العصر العباسى قد تتلمذ على عبد الحميد وتلقى عنه أصول النثر الفنى .

٢ — استعراب كثير من أبناء الأعاجم ـ ودراستهم للقرآن الكريم والحديث الشريف دراسة عميقة أعانتهم على الانتفاع بألفاظهما ومعانيهما فيما يكتبون ، والاقتباس منهما فيما ينشئون ـ وهما المنبعان الصافيان للبلاغة العربية .

٣ — الاطلاع على ما كتب الرسول والخلفاء من بعده من عهود ـ وخطط قتال وصلح وخطب ـ ورسائل دارت بين على ومعاوية .

٤ — انتفاع الموالى حينما يكتبون مما يحذقون من أصول النثر الفنى وقواعده . ورسومه فى لغتهم .

٥ — اتساع الثقافة العربية فى العصر العباسى ـ وهى ثقافة ممزوجة بثقافات أجنبية متعددة . ففيها من الفرس والهند والروم والكلدان ، فتفتحت بها أذهان الكاتبين وجالت بها أقلامهم فى كل ناحية .

٦ — ازدهار المدنية والحضارة هذب من أساليب الكتاب ـ ووسع من خيالهم ـ وكان كلما تقدم الزمن ازدادوا افتناناً فى التعبير ـ وجمالا فى الأسلوب وعناية بالتصوير وموسيقا الألفاظ .

٧ — علو منزلة الكاتب فى الدولة ـ إذ كان يصل إلى أن يكون وزيراً فى هذه الدولة العريضة ـ والتى كان خلفاؤها يعرفون أقدار الرجال ويستقلون فى اصطناعهم كل بر ومكرمة ويعتمدون على عقولهم فى تدبير ملكهم ، وكثيراً ما كانوا يقطعون رجال دولتهم الولايات الواسعة وهذا ماجعل الكتاب يتنافسون فى الإجادة ليصلوا إلى هذه المنزلة ـ وناهيك مثلا جعفر بن يحيى وسهل ابن هارون وابن الزيات وعمرو بن مسعدة .

أبرز خصائص النثر الفنى

أما أبرز خصائصه فهى : —

١ — تنوع موضوعاته ـ فمن نثر ديوانى يتناول شئون الدولة وتأييد سياستها . ومن إخوانيات يتبادلها الأصدقاء فى تهنئة أو شفاعة أو شوق أو عتاب . ومن أدبيات كالحث على التمسك بالأخلاق الفاضلة والنصح ـ وكما ينشئه الأديب تعبيراً عما به كرسالة الجاحظ فى وصف (الكتاب) .

ومن قصص وأسمار وحكايات على ألسنة الحيوانات كما فى كليلة ودمنة لابن المقفع والحيوان للجاحظ والنمر والثعلب لسهل بن هارون .

ومن حوار أومناظرة كالذى كان بين الرشيد وأم جعفر — وإن لم نعرض عليك مثلا منه — وهذا النوع ماهو إلا احتذاء لما كان للعرب فى الجاهلية من مفاخرات ومنافرات .

٢ — تنوع بدء الرسائل — فبعد أن كانت تبدأ فى العهود السابقة (من فلان إلى فلان) بدئت أحياناً بـ (أما بعد) مع الحمد ، وزيدت الصلاة على النبى ثم بدئت (أما بعد) أو بلفظ (كتابى إليك) وغير ذلك .

٣ — المبالغة فى الإيجاز والإطناب — فما كان خطاباً للعامة كتب بإسهاب وإيضاح — وما كان للخاصة جاء موجزاً — وقد برعوا فى الإيجاز براعة لم يلحقوا فيها ومن أمثلته : توقيعات الرشيد لما سئل عن البرامكة بعد نكبتهم « أنبتتهم الطاعة — وحصدتهم المعصية » .

٤ — دقة المعانى — واستقصاؤها وترتيب الأفكار .

٥ — استخدام العلم والفلسفة فى استخراج الحجج عند الجدال .

٦ — سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها ، وجودة وصفها .

٧ — الاحتفاء بالتصوير والخيال حتى أشبه النثر الشعر أحيانا .

الخطابة :

ومن النثر الفنى فى هذا العصر نثر الخطب — وقد كان أشبه بالنثر الكتابى فى قوة لفظه — وجودة رصفه — وشرف معناه — وكان ذا منزلة رفيعة وضرورة من ضرورات العباسيين فى إنشاء دولتهم ونشر دعوتهم والدفاع عن حقهم فى الخلافة وتسكين الفتن فى مبدأ ملكهم فلما استقر لهم ، وثبتت دولتهم هدأت ريح الخطابة واستغنى عنها بالكتابة والمنشورات التى كانت تقرأ فى المساجد — ومن

خطبائهم فى مطلع دولتهم أبو جعفر المنصور - وداود بن على - وعبد الملك ابن صالح .

خطبة داود بن على بمكة

خطب داود بن على بمكة فى أول موسم ملكه بنو العباس[1] ، فقال : شكراً شكراً ، إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا ، ولا لنبنى فيكم قصرا ، أظن عدوُّ الله أن لن نقدر[2] عليه أنْ رُوحِيَ له فى خِطامه حتى عثَر فى فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْل إلى النَّزَعَه ، ورجع الملك فى نصابه من أهل بيت النبُوَّة والرحمة ، والله لقد كنا نتوجّع لكم ونحن فى فُرُشنا - أمنَ الأسود والأحمر ، لكم ذمّةُ الله ، لكم ذمّةُ رسول الله ، لكم ذمّةُ العباس ، لاورب هذه البنيّة - وأومأ بيده إلى الكعبة - لا نَهيج منكم أحداً .

[الكامل ١ : ١٨ ، العقد الفريد ٢ : ١٤٦]

١ — وصية عبد الله بن الحسن لابنه

أى بنى ، إنى مؤد حق الله فى تأديبك ، فأد حق الله فى الاستماع منى . أى بنى ، كف الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه

---

(١) ولاه أبو العباس الكوفة وسوادها ثم ولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة سنة ١٣٢ وولاه إمارة الحج فى هذه السنة ومات بالمدينة فى ربيع الأول سنة ١٣٣ .

(٢) ظن أن لن نقدر عليه .

(٣) العجم .

حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجنى عليك .

(١) تعريف به .

هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب (رضى الله عنهم وهو من نسل الرسول الكريم عليه السلام) ، وهذه وصيته لابنه ، وقد ألحقت بباب الخطب تجوزا .

(٢) المفردات :

كف : امنع . البذا : السفه والافحاش فى المنطق أصله البذاء . الجاهل : السفيه الطائش . يرديك : يهلكك ـ تستبد : : تنفرد .

(٣) موضوعها :

(ا) بدأ بمقدمة لفت بها ابنه وفتح أذنيه لما سيقول :

فبين أن تأديب الأب ابنه واجب حتمه الله ، كما أن استماع الابن لأبيه واجب حتمه الله أيضا .

(ب) انتقل إلى الوصية وهى الموضوع المقصود .

١ — كف أذاك عن الناس وابتعد عن السفاهة والإفحاش فى الكلام .

٢ — أطل التفكير ، وإجالة المعنى فى الذهن ، ولا تتسرع لأن كثرة الكلام إما مؤدية إلى خطأ ضار أو إلى صواب غير نافع .

٣ — يحذره أن يستشير الجاهل وإن كان مخلصا ، كما يحذره أن يستشير العاقل إن كان غاشا لأنها استشارة مهلكة .

٤ — تغلب العاطفة غالبا على التفكير ، وينساق المرء بلا روية وراء رغبته وميوله ، فالعاطفة قوية والعقل ضعيف ، فوجب ألا ينفرد المرء برأيه بل يضيف إليه من الآراء ما يقويه ، وإن لم يفعل ذلك تغلب عليه هواه .

٥ — لا تقدم على عمل إلا بعد التفكير فى عاقبته ، حتى لا يكون وبالا وشرا .

(٤) بلاغتها :

الوصية على قصرها ـ تجمع كثيراً من الصفات الفاضلة ، فهى تحدد علاقة الفرد بالمجموع على خير حال والمجتمع صالح إذا أمن بعض الناس شر بعض .

والأعمال صالحة مجزية إن سبقها تفكير وتريث ، والكلام مدعاة إلى السقوط والهلاك . والاستشارة دعامة المجتمع الصالح ، واختيار المستشارين علامة العقل ودليل النضج ، ومن تغلب على هواه أعلى رجولته وأنصف إنسانيته ووكد نفعه لنفسه ولغيره .

ومن نظر إلى عاقبة الأمور قبل الشروع فيها فهو الحكيم الحازم الذى ينجو من شر كثير .

أما ألفاظ الوصية فرصينه قوية بها سجع طبيعى غير متكلف وبها مقابلة جملة ، وقد استهلها بمقدمة لطيفة تجذب انتباه ابنه واستماعه .

مجالس المناظرات

شغف الخلفاء العباسيون بالجلوس إلى العلماء وكان أبو جعفر المنصور مولعاً بسير الملوك من الفرس ، وبمعرفة أنظمتهم .

وتدرج بنو العباس على عقد المناظرات بين الشعراء أو المناقشات بين الفقهاء والمساجلات بين الأدباء .

وكان فى مجلس الرشيد من الشعراء أبو نواس وأبو العتاهية ودعبل ومسلم ابن الوليد والعباس بن الأحنف .

ومن اللغويين أبو عبيدة والأصمعى والكسائى وغيرهم .

وكان ليحيى بن خالد البرمكى مجلس يجتمع فيه علماء الكلام من المسلمين وغيرهم .

وكان الخليفة المأمون كثيراً ما يترأس مجلس المناظرة و يشترك فيه .

وقد ناقش فى أحد مجالسه الشيعة فى دعواهم أنهم أحق بالخلافة من العباسيين .

أما فى مصر فقد اشتهرت مجالس الفاطميين فى بيت الحكمة ، حيث يجتمع أساتذة المنطق والجدل فى مكان والفقهاء والمحدثون فى مكان ، وعلماء الرياضة فى مكان ، والأطباء فى مكان ، وتتنافس كل جماعة فى علومها.

أما فى الأندلس فقد عمرت مجالس الخلفاء بالعلماء والأدباء ، وكان لهم مجالس خاصة للبحث والمناظرة .

أمثلة موجزة من هذه المناظرات

مناظرة بين الأصمعى والكسائى فى مجلس الرشيد :

اجتمع فى مجلس الرشيد جماعة من العلماء ، فيهم الأصمعى والكسائى ، فسأل الرشيد عن معنى قول الراعى :

قَتَلوا ابن عفَّان الخليفة مُحْرِما ودعا فلم أر مثله مخذولا[1] فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج .

(١) محرم : اسم فاعل من أحرم : دخل فى الشهر الحرام أو فى البلد الحرام أو فى حرمة لا تهتك .

فضحك الأصمعى من قوله :

فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال الأصمعى : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد الشاعر أنه دخل فى شهر حرام ؟ كا يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر وفى عام

فقال الكسائى : ما هو إلا هذا و إلا فما معنى الإحرام ؟

قال الأصمعى : فخبرنى عن قول عدى بن زيد :

قتل كسرى بليل محــــــرما فتــــــولّى لم يُمَتَّع بِكَفَن

أىّ إحرام لكسرى ؟

فقال الرشيد : فما المعنى ؟

قال الأصمعى : إن عثمان لم يأت شيئاً يحل دمه .

قال الرشيد : يا أصمعى ما تطاق فى الشعر .

(٢) اختلف فى مجلس الخليفة الواثق مخارق المغنى وحسين بن الضحاك فى أيهما أشعر : أبو العتاهية أم أبو النواس ، وكان الخلاف على مال . فاتفقا على اختيار شعر من شعرهما . فأحسن ابن الضحاك الاختيار من شعر أبى نواس ، ولم يحسن مخارق الاختيار من شعر أبى العتاهية . واختار الواثق أبا محلم ليحكم بينهما فحكم لحسين بن الضحاك. فقال مخارق : لم أحسن اختيار الشعر ، ولأبى العتاهية خير مما اخترته وقد اختار حسين أجود ما قدر عليه لأبى نواس لأنه أعلم منى بالشعر ، ولكننا نتناظر فى الشاعرين ، ففيهما وقع الجدل ، فحكم أبو محلم لأبى نواس ، وقال هو أشعر وأذهب فى فنون الشعر ، وأكثر إحساناً فى جميع فنونه ، فأمر الواثق بدفع المال لحسين بن الضحاك .

الفصل الثاني

النثر الكتـــابى

ابن المقفع

(١٠٦ — ١٤٥ هـ)

حياته وثقافته :

مجوسى الأصل - فقد كان أبوه (داذويه) الملقب بالمبارك من مجوس مدينة جور الفارسية - تولى بعض أعمال الخراج للحجاج بن يوسف الثقفى أو لخالد القسرى فمد يده - فيما قيل - إلى أموال السلطات فضرب حتى تقفعت يده (أى تشنجت) فسمى بالمقفع وولد ابنه عبدالله فى جور - وكان يسمى أولا (روزبه) ويكنى أبا عمرو - وقيل إنه ولد حوالى ١٠٦ هـ وقد نشأ فى بيت يسار ونعمة - ورأى فى صباه بيت النار العظيم يدخله أهله وجيرانه للعبادة - فنشأ كأبيه - يدين بمذهب زرادشت - وتفتحت عينه على اضطهاد العرب للموالى أيام الأمويين - فشاركهم فى محنتهم و بؤسهم - وشهد دعوة بنى العباس وقيام دولتهم على أكتاف الفرس - وتمنى كما تمنى غيره من الموالى أن يُرفع عنهم نيرا لأمويين .

وفى هذه البيئة الفارسية عرف ابن المقفع دين المجوس - وتلقى الثقافة الفارسية من ينابيعها الثرة ، وفى يفاعته انتقل به أبوه إلى البصرة وعاش فى ولاء آل الأهتم - وهم قوم يعرفون بالفصاحة واللسن - وهناك تلقى ابن المقفع ثقافته العربية فقد كانت البصرة إذ ذاك عش الأدب ، ومثابة علماء اللغة وموطن

رجال الحديث والفقه والكلام وفيها المربد يأوى إليه الخطباء والشعراء يتفاخرون ويتساجلون – وأخذ عن الأعراب الذين كانوا يفدون البصرة – وعرف الإسلام معرفته دين المجوس الذى انتقل إليه بالإلف والعادة – فقد خالط علماء أجلاء من المسلمين ، وحفظ القرآن ودرس إعجازه – وقرأ ما شاء من دواوين شعراء الجاهلية فلما نمت آلته فى العربية تطلع إلى التخرج فى صناعة الكتابة وكان عبد الحميد كاتبا لمروان بن محمد – آخر خلفاء بنى أمية – فتقرب إليه ابن المقفع ولازمه – وأخذ عنه طريقته فى الكتابة ، حتى صار يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة الفرس .

ومنذ ذلك الوقت اشتهر ابن المقفع وذاع صيته – فاستكتبه يزيد بن عمر ابن هبيرة – وكان والياً على العراق أيام مروان بن محمد – ثم كتب لأخيه داود .

وفى أيام العباسيين اتصل بعيسى بن على وهو والى على كرمان – فكتب له وعلى يديه أسلم وسمى عبد الله ، وكنى أبا محمد – ثم عهد إليه اسماعيل بن على بتعليم بعض بنيه – والتحق بخدمة أخيه سليمان بن على – أيام ولايته على البصرة – واتصل بعد ذلك بأبى جعفر المنصور اتصال معرفة وترجم كثيراً من الكتب وظل ابن المقفع فى خدمة عمى المنصور سليمان واسماعيل ابنى على حتى قتل بالبصرة .

فأنت ترى من هذا أن ابن المقفع – وهو الفارسى الأصل – الزراد شتى النشأة قد جمع إلى ثقافته الفارسية تفوقه فى العربية – فإذا قيل لك بعد ذلك إنه صاحب مدرسة فى الكتابة العربية فقد عرفت الأسباب التى أهلته لذلك .

١ – فقد نشأ بالبصرة ، واتصل بأدبائها وعلمائها .

٢ – قرأ أشعار الجاهليين وخطب على بن أبى طالب .

٣ – وكان ولاؤه فى آل الأهتم وهم أرباب فصاحة وخطابة .

٤ — وأخذ عن الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة .

٥ — اتصل فى شبيبته بعبد الحميد إمام الكتابة أيام الأمويين ولازمه حتى قتله العباسيون .

مقتله :

كان ابن المقفع على جانب كبير من الأخلاق النبيلة ـ يقصها علينا المؤرخون ونقرؤها فى كتبه التى بين أيدينا .

ومهما يكن من أمره فقد تناقل الناس أمر زندقته — حتى قيل إنها كانت من أسباب قتله — ولكن المشهور أن قتله كان بسبب كتابة صيغة الأمان التى وضعها ليوقع عليها المنصور أماناً لعبد الله بن علىّ الذى كان خارجاً عليه فقد تشدد ابن المقفع وأفرط فى الاحتياط فيها — حتى لا يجد المنصور منفذاً فيها للإخلال بعهده فاشتد ذلك على المنصور فأوعز إلى سفيان والى البصرة بقتله فقتله ومثل به وكان ذلك حوالى سنة ١٤٥ هـ .

آثاره :

وصلنا من آثار ابن المقفع الأدب الكبير والأدب الصغير ، وهما يتناولان أموراً أخلاقية يعتمد المؤلف فى علاجها على العقل أكثر من اعتماده على الدين وابن المقفع فى الأدب الصغير ينقل لنا أقوال السابقين من مختلف الأمم — بينما نجده فى الأدب الكبير مؤلفا هدفه واضح هو إتمام مافات السابقين من أشياء أغفلوا بحثها — كما وصلنا من مؤلفاته رسالة الصحابة وجهها إلى جعفر المنصور مبينا فيها حقوق وواجبات كل من الحاكم والرعية . كما نقل إلى الثقافة العربية كثيراً من آثار الفرس ولكن لم يصلنا سوى « كليلة ودمنة » يضم قصصا تجرى على ألسنة الحيوان وقد طبعت هذه الكتب طبعات مختلفة .

على أن كتب التراجم تذكر لنا كثيراً من الكتب التى ألفها أو ترجمها ابن المقفع مثل كتاب « تنسر ، وخداى نامه ، وابين نامه ، والتاج ، ومزدك .... وغيرها » .

اتجاه انتاجه :

كان لظروف الحياة التى عاشها ابن المقفع أثر كبير فى توجيهه وجهة خاصة فى الإنتاج الأدبى والفكرى .

١ — فقد كان لديه ذخيرة ضخمة من الثقافة الفارسية — وهى مزيج من الفكر الفارسى والفكر اليونانى إلى جانب ما تزود به من الثقافة العربية .

٢ — وشهد اضطهاد الأمويين للفرس وغيرهم من الموالى ثم أفول شمسهم وبزوغ فجر العباسيين وما استتبع ذلك من انتقاض نظم وأسس وقيام سياسة أخرى ، ونظم مختلفة عن سابقتها فعاش فى هذه الحوادث بقلبه وعقله ووقف على مواطن الضعف وعرف وسائل العلاج .

٣ — وكان له فى الدولتين صلات بأولى الأمر فيهما — فقد كتب للولاة واتصل بهم وصادقهم وعاداهم — وكان ركناً من أركان الخلاف بين المنصور وأعمامه وقرأ مثل هذه الأحداث فى سير الفرس :

لذلك — ظهر — فى إنتاجه — تعمقه فى دراسة نظام الحكم — ونزعته إلى الإصلاح وعلاج ما يرى حوله من عيوب — تتصل أحياناً بسياسة الخلفاء والولاة — وأحياناً بالتشريعات المالية والقضائية ونظام الجند ، وأحيانا بالأخلاق .

وقد بدأ إنتاجه بالترجمة — وتوخى — فيما ترجم — أن يأتى ببضاعة جديدة أمام العقل العربى فلم يشأ أن يترجم آداب الأمم الأخرى — لأنه عاش فى أمة

عربية تمتز ببلاغتها وإنما نقل شيئا فى الفلسفة والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك وغير ذلك مما يتفق هدفه فى الإصلاح .

مكانته الأدبية :

مارس ابن المقفع الكتابة فى هذه الموضوعات بأسلوب الترسل الذى كان لأستاذه عبد الحميد وطريقته فى التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة دون نظر إلى مزاوجة أو سجع إلا ما جاء عفواً — وهو فى ذلك لم يسلك سبيل — الفرس — مع أنه فارسى الجنس واللغة — فى العناية بزخرفة الألفاظ وصنعة الأساليب لأنه كان يرى أن البلاغة فى شرف المعانى ووضوح التعبير مع رصانة القول وقوة الأسلوب ولأنه اتجه فى تغذيته العربية بالفارسية إلى ناحية المعانى لا الألفاظ — واللغة الفارسية غنية بالمعانى والأفكار وللفرس حكمة أصلية غذيت منذ القديم بفلسفة الهند ثم بفلسفة اليونان .

وقد تأثر بابن المقفع فى العناية بالمعنى والترسل جميع الكتاب الذين جاءوا بعده حتى نهاية العصر العباسى الأول ولذلك يمكن القول بأن استفادة العربية من الفارسية فى هذا العصر من ناحية المعانى كانت أوضح منها من ناحية الألفاظ وكان لدى ابن المقفع استعداد للقصة فى كتابه كليلة ودمنة الذى سنقدم لك منه قصة الحمامة المطوقة ولم تكن صلته بالقصص صلة نقل وترجمة فحسب بل حاكى قصص بيدبا التى ترجمها بقصص من عنده أودعها كتابه السابق أيضا .

مدرسة ابن المقفع تتجلى فى :

(١) من تقسيم للفكرة فهو إذا ذكر الفكرة العامة أخذ يقسمها إلى فكر جزئية وتناول فى كل جزئية ناحية من نواحى الفكرة العامة .

(ب) وزن لأجزاء الكلام ومقابلة لبعضها ببعض – فهو يرتب عباراته ترتيبا متشابها .

(ح) تنمية للفكرة وتفريع لها .

(ء) واستخدام للنهج المنطقى – فجاءت كتابته خطابا للعقل خالية من الإقناع النفسى فى أغلبها .

(هـ) العناية بالمعنى فالأسلوب كله وفاء به دون نظر إلى حلية بديعية .

(و) الميل إلى الإيجاز فالألفاظ بقدر المعانى .

(ز) ووضوح الأسلوب .

(ح) السهولة التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها – فإذا حاولها امتنعت عليه – وطبيعى أن يكون ابن المقفع فى القصص سهلا – فهذه طبيعة القصة – أما مانسب إليه من تصعيب فإنما كان فى الحكم والأخلاق المنقولة .

الحمامة المطوقة :

تدور القطعة على بيان معنى الأخوة والتعاون وأثرها فى جلب الخير ودفع الشر .

١ — القصة جزء من باب الحمامة المطوقة وهو أحد أبواب كتاب « كليلة ودمنة » الذى ألف فى الأصل باللغة الهندية ، ثم تُرجم إلى الفارسية فى عهد كسرى أنو شروان ـ ثم نقله ابن المقفع إلى اللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى ـ فهو من أقدم ما بين أيدينا من كتب النثر العربى وأسلوبه مثال من أقدم أساليب الكتابة الفنية فى لغتنا ـ والكتاب يتألف من قصص وأمثال على هذا النحو مضروبة على ألسن الحيوان .

٢ — ومباحث الكتاب كلها جديدة على اللغة العربية ـ فى مزيج من الثقافتين ـ الهندية والفارسية اللتين التقتا بالثقافة العربية منذ بدء الفتوح الإسلامية وكان للأجانب والموالى النصيب الأوفر فى نقل هذه الثقافات بما فيها من فكر وخصائص بيانيه دفعت بالنثر العربى إلى النهوض والاتساع .

٣ — وليس للكتاب وحدة فنية يقوم عليها ـ فهو يستطرد من باب إلى آخر ومن قصة إلى أخرى ـ ولكنك بعد أن تقرأ هذه القصة ستدرك من غير شك أن الكاتب قد توفر لقصته بعض مقومات القصة الفنية ـ ففيها التشويق وشىء من الحبكة القصصية ـ وحسبه ذلك فهو أول رائد للنثر الفنى فى الأدب العربى .

٤ — وفى القصة دعوى إلى الاتحاد وتجميع القوى لتحقيق الغرض المشترك ـ وبيان لواجب الرئيس ما ينبغى أن يعمله إذا حزب جماعته أمر أو أصابهم

مكروه وظاهر أن هذا الكتاب بقصصه وأمثاله وحكمته كان جديدا على اللغة العربية فى العصر الذى ترجم فيه إليها ـ وأنه يمثل مزيجا من الثقافتين الهندية والفارسية اللتين أخذت تحتك بهما الثقافة العربية منذ بدء ـ الفتوح الإسلامية ـ فهو إذن يمثل ناحية من نواحى امتزاج الثقافات فى ذلك العصر وظهورها فى أسلوب عربى ، ولم يكن مترجمه إلا واحدا من كثيرين من الأجانب والموالى الذين أسلموا وتعلموا العربية وأدخلوا فيها ما ورثوه عن قومهم من فكر وخصائص بيانيه ـ وكان ذلك عاملا من عوامل ازدهار النثر العربى وتطوره واتساع ميادينه فى العصر العباسى .

فضل الأقدمين :

هذه القطعة تعطى صورة من الأسلوب العربى الذى عرف به ابن المقفع فى كتابه من تقسيم للفكرة ووزن لأجزاء الكلام ـ ومقابلة لبعضها ببعض ـ ومن تنمية للفكرة وتفريع لها ـ فهو إذا ذكر عظم الأجسام فرع عليها وفرة الأحلام ، وإذا ذكر شدة القوة نمى المعنى بإضافة الإتقان للأمور ـ منتفعا فى ذلك بصيغ العربية المختلفة من حال أو تمييز ـ وهو يسير مع الفكرة موفيا جوانبها مؤكدا لها بضروب التعبير المتقاربة فى معانيها فيقول مثلا فى شأن تقليد الخلف للسلف ، كأنه إياهم يحاور ـ ومنهم يستمع وآثارهم يتبع وعلى أفعالهم يحتذى ـ وبهم يقتدى .

وابن المقفع واضح هنا فى أسلوبه ـ ولم يكن هذا شأنه دائما ـ فهو فى بعض كتاباته الأخرى يغمض ـ وتتعقد عبارته ـ وذلك أثر من آثار الترجمة ومن صعوبة نقل المعانى من قالب إلى آخر ـ غير أن الذى لا شك فيه أن الكاتب قد جمع إلى ثقافته الأصلية ثقافات أخرى متنوعة ـ ومن أثر قراءاته فى كتب

الأقدمين ـ وضم إلى ذلك تمكنا من اللغة العربية التى استقاها من مصادرها ، وعاش فى بيئاتها حتى أصبح التعبير بها طبيعة له وحتى صار فيها علما من الأعلام .

٢ — وهذه القطعة التى أوردناها من ابن المقفع هى من مقدمة كتابه « الأدب الكبير » وهو كتاب يتناول أصول الأمور فى الدين والسلوك والمعيشة فيرسم نظاما لمن يتولى أمر السلطان أو من يبتلى بصحبة السلاطين والملوك ـ يضمن له إن اتبعه النجاح وحسن العاقبة ثم ينتقل إلى باب الصداقة فيفصل أحوالها ويبين المزالق التى تؤتى من قبلها ـ وهكذا يجول فى أدب السياسة والاجتماع ـ مفصلا الأحوال والطبائع وما يترتب على كل نوع من السلوك أو الخلق من منفعة أو مضره .

وواضح من كلامه فى المقدمة أنه اعتمد فيما استنبطه من أبواب هذا الأدب على كتب الأقدمين من فرس وهند ويونان وعلى ما حصله من الثقافة العربية الإسلامية فى أدبها وفى تعاليم دينها ـ فى المرحلة التى بدأت فيها تلك الثقافة تتجه إلى التدوين والتأليف ، ومن الراجح أن تكون معظم مادته فى أدبه هذا من الكتابات غير العربية ـ فقد كان للأمم الأخرى تجارب فى السياسة والاجتماع ونظم الحكم ونظريات فى الأخلاق سابقة على تطور الفكر العربى وقد أفاد العرب والمسلمون من هذه الكتابات عن طريق ترجمتها على يد ابن المقفع وأضرابه من الموالى والكتاب ـ فغنيت بذلك الثقافة العربية واتسعت مناهج الفكر فيها وخصب أدبها وتطورت دراساتها وارتقت كتابتها الفنية .

المنتخبات

١ — الحمـــامة المطوقة

قال الملك للفيلسوف : قد فهمت مثل المتحابين يقطع بينهما الـكذوب والخائن النمام[١] وما يصير إليه أمره ـ فأخبرنى عن إخوان الصفاء ، كيف يبدأ تواصلهم و يستمتع بعضهم ببعض ؟ .

قال الفيلسوف : إن العاقل لا يعدل بصالح الأعوان شـيئاً من العقد[٢] والمكاسب لأن الإخوان هم الأعوان على الخير كله ـ والمواسون[٣] عند ما ينوب[٤] من مكروه ـ ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والظبى والغراب والجرذ[٥] والسلحفاة .

قال الملك وكيف كان ذلك ؟ قال الفيلسوف :

زعموا أنه كان بأرض دستاوند ـ عند مدينة يقال لها « ماروات » مكان للصيد يتصيد فيه الصيادون ـ وكان فى ذلك المـكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون ملتفة الأوراق وكان فيها وكر غراب يقال له « حائر » فبينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة إذ بصر برجل من الصيادين قبيح المنظر سيء الحال ـ وعلى عنقه شبكة ، وفى يده شرك وعصا وهو مقبل نحو الشجرة ـ فذعر

(١) النم : نقل الحديث واشاعته بغية الإفساد بين الناس والفعل نم ينم بكسر النون وضمها والشخص الذى يقوم به نموم ونمام .

(٢) العقد : جمع عقده وهى الضيعة أو العقار .

(٣) المواسون : الذين يعزون الإنسان فيما يصيبه من مكروه ويدخلون على نفسه الصبر والرضا .

(٤) ينوب : ينزل أو يحدث .

(٥) الجرذ : الفار .

الغراب منه وقال : لقد ساق هذا الصياد إلى هنا أمر ـ فما أدرى ما هو؟ ألِحَيْنى[١] أم لحين غيرى ولكنه ثابت على كل حال ـ وناظر ما يصنع ـ فنصب الصياد شبكته ونثر فيها حبه وكمن قريباً ـ فلم يلبث إلا قليلاً ـ حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة وكانت سيدة الحمام ـ ومعها حمام كثير ـ فرأت الحب ولم تر الشبكة فانقضت[٢] وانقض الحمام معها فوقعن فى الشبكة جميعاً ـ وجعلت كل حمامة منهن تضطرب على ناحيتها ـ وتعالج[٣] الخلاص لنفسها ـ فقالت المطوقة لا تخاذلن[٤] فى المعالجة ـ ولا تكن نفس كل واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون فلعلنا نقلع الشبكة فينجى بعضنا بعضا ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاونّ عليها وطرن بها فى علو السماء ورأى الصياد صنيعهن فاتبعهن يطلبهن ـ ولم يقطع رجاءه منهن ، وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريباً حتى يقعن . وقال الغراب : لأتبعهن حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهن وأمره ـ والتفتت المطوقة فلما رأت الصياد يقفوهن[٥] قالت للحمام . ها هوذا جاء يطلبكن ـ فإن نحن أخذنا فى الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا ، وإن نحن أخذنا فى الشجر والعمران ـ لم نلبث أن يخفى عليه أمرنا وييأس منا ـ فينصرف ـ ومع ذلك إن قريباً من الطريق جحر جرذ وهو صديق لى . فلو انتهينا إليه لقطع عنا هذه الشبكة ـ وخلصنا منها ففعل الحمام ما أمرتهن به المطوقة وخفين على الصياد ـ فأيس منهن وانصرف .

---

(١) الحين : الهلاك والمحنة .

(٢) انقض الطائر : هوى ليقع .

(٣) تعالج : تحاول .

(٤) أصله لا تتخاذلن أى لا تخذل كل واحدة منكن الأخرى ـ ثم حذفت منه إحدى التاءين .

(٥) يقفوهن : يتبعهن .

٢ — فضل الأقدمين

قال عبد الله بن المقفع فى (فضل الأقدمين) فى مقدمة كتابه « الأدب الكبير) » .

وإنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً ـ وأوفر مع أجسامهم أحلاما[١] وأشد قوة ـ وأحسن بقوتهم للأمور إتقانا ـ وأطول أعماراً وأفضل بأعمارهم للأشياء اختياراً .

فكان صاحب الدين منهم أبلغ فى أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ـ وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك فى البلاغة والفضل . ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذى قسم لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة ـ فكتبوا به الكتب الباقية ـ وضربوا الأمثال الشافية ، وكفونا به مئونة التجارب .

وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم أو الكلمة من الصواب ـ وهو فى البلد غير المأهول ـ فيكتبه على الصخور مبادرة للأجل[٢] وكراهية منه أن يسقط ذلك عمن بعده .

فكان صنيعهم فى ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده الرحيم البر بهم الذى يجمع لهم الأموال والعقد إرادة ألا تكون مئونة فى الطلب وخشية عجزهم إن هم طلبوا .

---

(١) الأحلام : جمع حلم بالكسر هو الأناة والعقل قال تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » .

(٢) مبادرة : اسراعا .

فمنتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم — وأحسب ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع ، وآثارهم يتبع ، وعلى أفعالهم يحتذى[١] وبهم يقتدى .

غير أن الذى نجد فى كتبهم هو المنتخل[٢] من آرائهم — والمنتقى من أحاديثهم — ولم نجدهم غادروا شيئاً يجدُ واصفٌ بليغٌ فى صفةٍ له غاية لم يسبقوه إليها — لا فى تعظيم لله عز وجل ، وترغيب فيما عنده — ولا فى تصغير للدنيا وتزهيد فيها — ولافى تحرير صنوف العلم — وتقسيم أقسامها — وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها — ولافى وجه من وجوه الأدب — وضروب الأخلاق فلم يبق جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال .

وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم — فمن ذلك بعض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى قد يحتاج إليها الناس .

٣ — القصـــة

انه كان رجلا تاجرا وكان له شريك فاستأجرا حانوتاً ، وجعلا متاعهما فيه وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت — فأضمر فى نفسه أن يسرق عدلا من أعدال[٣] رفيقه ، ومكر الحيلة فى ذلك وقال : إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رزمة[٤] من رزمى ولا أعرفها فيذهب عنائى وتعبى باطلا —

(١) يحتذى : يسير على مثال غيره ويفعل فعله .
(٢) المنتخل : المختار .
(٣) الاعدال : الأمتعة .
(٤) الرزمة : هى التى فيها الثياب .

فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذى أضمر أخذه ، ثم انصرف إلى منزله وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله ـ فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال : والله هذا رداء صاحبي ولا أحسبه إلا قد نسيه وما الرأى أن أدعه هنا ، ولكن أجعله على رزمه ـ فلعله يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحب ـ ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله .

فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه [(١)] على ما عزم عليه وضمن له جعلا [(٢)] على حمله ، فصار إلى الحانوت يلتمس الأزار فى الظلمة فوجده على العدل وأخرجه هو والرجل ـ وجعلا يتراوحان [(٣)] على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً ـ فلما أصبح افتقده [(٤)] فإذا هو بعض أعداله ، فندم أشد الندم ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ـ ففتح الحانوت ووجد العدل مفقوداً ـ فاغتم لذلك غماً شديداً واسوأتاه [(٥)] من رفيق صالح قد ائتمنى على ماله وخلفنى فيه ؟ ماذا يكون حالى عنده ؟ ـ ولست أشك فى تهمته إياى ، ولكن قد وطنت نفسى على غرامته ـ ثم أتى صاحبه فوجده مغتما ـ فسأله عن حاله فقال ـ إنى قد افتقدت الأعدال ـ وفقدت عدلا من أعدالك ، ولا أعلم بسببه ـ وإنى لا أشك فى تهمتك إياى ـ وإنى قد وطنت نفسى على غرامته ـ فقال ياأخى لا تغتم : فإن الخيانة شر ماعمله الإنسان ، والمكر

---

(١) واطأه : وافقه .

(٢) الجعل : ماجعل للانسان من شىء على فعل .

(٣) يتراوحان : يتناوبان

(٤) افتقده : فتشه

(٥) واسوأتاه من رفيق صالح تعبير عما يشعر به من خجل وفضيحة .

والخديعة لا يؤديان إلى خير — وصاحبهما مغرور أبداً — وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه ، وأنا أحد من نكر وخدع واحتال — فقال له صاحبه : وكيف كان ذلك ؟ فأخبره بخبره . وقص عليه قصته — فقال له رفيقه — ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر فقال له — وكيف كان ذلك ؟ — قال : زعموا أن تاجراً كان له في منزله خابيتان [1] إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً — فترقبه بعض اللصوص زمانا ، حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل — فتغفله [2] اللص — ودخل وكمن في بعض نواحيه — فلما همّ بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب . ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله — فلما فتحها وعلم ما فيها ندم — وقال له الخائن ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس — وقد اعترفت بذنبي وخطئي وعزيز عليّ أن يكون هذا كذا — غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء — فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به — وندم عند ما عاين سوء فعله — وتقديم جهله .

---

(١) الخابية : الجرة الضخمة

(٢) تغفله : اغتنم غفلته

٤ — ومن كتابه فى الأدب الصغير

لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ، ولا جوار ــ ولا إلف [١] فإن أخْوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها [٢] وكذلك الجاهل إن جَاوَرَكَ أنصبك [٣] وإن ناسبك جَنى عليك ــ وإن ألفك حَمَل عليك مالا تطيق ــ وإن ــ عاشرك أذاك وأخافك ــ مع أنه عند الجوع سبع ضار [٤] وعند الشِّبع ملك فظ وعند الموافقة فى الدين قائد إلى جهنم ــ فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساود [٥] والحريق المخوف والدين الفادح [٦] والداء العياء [٧] .

(١) الإلف والإلفة : الصداقة

(٢) أى يشتد خوف الإنسان من النار حين يشتد قربه منها فكذلك الجاهل تخافه إذا كان ذا صلة وثيقة به وهذا تمثيل ــ ومعنى الجاهل : الأحمق السفيه .

(٣) أنصبك : أتعبك

(٤) الضارى من الحيوانات كالأسد والنمر ــ ماتعود الافتراس .

(٥) الأساود : مفرده الأسود وهو الحية العظيمة السوداء .

(٦) الفادح : الصعب المثقل .

(٧) داء عياء : لا يبرأ منه المريض .

موضوعات للبحث

١ — ابن المقفع صاحب مدرسة فى الأدب العربى ، أثر فى الشعراء والكتاب والقصاص ، وكان حكيما أكثر منه كاتبا أو عالما ـ ناقش .

٢ — لا تخرج أفكار كليلة ودمنة على ماورد فى كتب ابن المقفع الأخرى ، فهى أفكار سياسية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية ، ولكنها جاءت فى أسلوب أوقع فى النفس ، فهو جديد فى الأدب العربى ـ وضح .

٣ — هل ترى أن قصة (الحمامة المطوقة) قد تكاملت فيها عناصر تركيب القصة الفنية ، من حيث التوطئة للقصة ، وعرض المشكلة ثم تطور المشكلة إلى العقدة ، ثم الحل ـ ناقش .

المراجع

١ — ابن المقفع : الدكتور عبد اللطيف حمزة .

٢ — دراسات أدبية : عبد القادر الخلادى وآخرون .

٣ — كليلة ودمنة : ابن المقفع

٤ — الأدب الكبير : ابن المقفع

٥ — عبد الله بن المقفع : محمد سليم الجندى

٦ — عبد الله بن المقفع : خليل مردم

٧ — ضحى الإسلام : أحمد أمين

٨ — أمراء البيان : محمد كرد على

٩ — الفن ومذاهبه فى النثر : الدكتور شوقى ضيف

١٠ — تطور الأساليب النثرية : أنيس المقدسى

الجـــــاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الـكنانى ، نسبه إلى بنى كنانة العرب الفصحاء .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ من أبوين فقيرين ، ولقب بالجاحظ . لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين ، وتوفى أبوه وهو طفل ، فأحس بؤس الفقراء ، وكان يبيع الخبز والسمك فى صباه ، وقيل إن أمه كانت تحدثه فى حداثته ، فلما شب وترعرع تعلم القراءة والـكتابة فى كتاب بلده ، مع أولاد القصابين ، ولم يأل جهداً فى طلب العلم والأدب من علماء البصرة ، حتى إذا اجتمع له منهما قدر صالح قصد بغداد ، واتصل بمن فيها من رجال الدين وعلماء اللغة ، وأخذ يزاول فنون اللغة والأدب والحـكمة والـكلام ، ويؤلف الـكتب ، وينسبها إلى ابن المقفع وسهل ابن هارون ليقبل الناس على قراءتها .

واشتهر أمر الجاحظ بين كتاب عصره ، وأخذ ضيق العيش الذى عاناه فى فجر حياته يتسع أمام شهرته التى بلغت أسماع المأمون ، وقد قرأ له « كتاب الإمامة » وأعجب به ، فطلب إليه أن يكتب له رسالة فى « العباسية » والاحتجاج لها ، ثم أسند إليه ديوان الرسائل ، غير أن الجاحظ استعفى بعد ثلاثة أيام من تصدره الديوان فأعفى ، لأنه كان لا يرى التقيد بخدمة الخلفاء ولا يستطيع الصبر على نظم الدواوين ، وما تجره عليه من منافسة الحساد وكيدهم ، وكان سهل بن هارون يقول : « إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الـكتاب » .

فلما تحرر الجاحظ من ديوان الخليفة أخذ يشبع رغبته فى البحث والاطلاع ، فـكان يرتحل إلى بعض المدائن الإسلامية المعروفة بلقاء العلماء ، ومباحثة الرواة والأدباء ، ثم يعود إلى البصرة ، وقد ملأ وطابه بما أراد من علم وأدب ، وكان

أكثر ارتحاله إلى بغداد ، فقد كان يقيم بها ، ويتصدر للدرس ، والمناظرة ، فيلتف حوله العلماء والأدباء ، ويؤمه الطلاب على اختلاف مللهم ، وتباين مذاهبهم ، فيرتوون من مناهله العذبة ، ويغترفون من بحاره التي لا تنفد .

وقد اتصل الجاحظ بعظماء الدولة فى بغداد وسر من رأى فقد كانوا يعشقون قربه ، ويفاخرون بصداقته . ومن أصدقائه محمد بن عبد الملك الزيات ، والفتح ابن خاقان ، والحسن بن وهب وغيرهم ممن ألف لهم كتبه ، ونال عطاياهم ، ولكنه انقطع إلى ابن الزيات مدة وزاراته الثلاث ، فلما قبض عليه فى خلافة المتوكل ، هرب الجاحظ لأنه كان فى ناحية ابن الزيات منحرفاً عن ابن أبى دؤاد وزير المتوكل بعد ابن الزيات ، فقيل له ، لم هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ، يريد بذلك مافعلوا بابن الزيات من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة ، ولكن فراره هذا لم يحمه أن يحمل من البصرة مقيداً ، وفى عنقه سلسلة غير أن ابن أبى دؤاد عفا عنه وصدره فى مجلسه .

وعاد الجاحظ من هذه الأحداث إلى البصرة موطنه الأول ، فأقام بها كما كان عالماً مصنفاً وأديباً وكاتباً إلى أن فلج ، واستمر مدة مفلوجاً ، ومع ذلك لم ينقطع عما نصب نفسه له ، وكثيراً ما كان يحمل إلى بغداد ليتمتع به ، وفى إحدى هذه الرحلات توفى سنة ٢٥٥ هـ .

ثقافته ومصادرها :

عمّر الجاحظ حوالى قرن من الزمان هو زهرة الدولة العباسية فقد كانت الحركة العلمية على أشدها فى ذلك الحين ، والناس بين مترجم ومنتج ودارس ، وذخرت الحياة الفكرية بتيارات من الثقافات المختلفة انحدرت إلى مجرى الثقافة العربية عن طريق الترجمة التى شجعها الخلفاء بما كانوا يغدقونه على المترجمين ،

فهناك الثقافة الآرامية ، والثقافة الهندية التى جاءت فى الغالب عن طريق الفرس ، ثم الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية و إلى جانب هذه الألوان من الثقافة الطارئة نجد الثقافة العربية ممثلة فى الدين واللغة والأدب والنحو والصرف والرواية ، ومشافهة سكان البادية ، فمن أى هذه الموارد المتعددة نهل الجاحظ ثقافته ؟ الحق أن الجاحظ لم تقف به همته وشغفه بالعلم عند لون من هذه الثقافات و إنما أخذ يعب منها جميعاً ، تدفعه رغبة عارمة فى البحث والاستطلاع ومواهب نادرة لا يزيدها الكد والدرس إلا قوة ونماء ، فقد أخذ مذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة شفاها عن العرب فى المربد واتصل بعظماء فى الدين والآداب فأخذ عن الأصمعى وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى زيد الأنصارى ، وكان هؤلاء الثلاثة فى عصرهم شيوخ اللغة وأعلام الأدب ، وأخذ الحكمة عن صالح بن جناح التابعى ، ثم لازم أستاذه أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ المعتزلة الذى تخرج عليه فى الكلام ومذاهب الاعتزال ، وقد قال عنه الجاحظ : « إن الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحاً فهذا هو أبو إسحاق النظام .

و إلى جانب هذه الثقافة العربية نجده يتلقف الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن إسحاق وسلمويه وأمثالهما و يأخذ ثقافة الفرس من كتب ابن المقفع وعن أبى عبيدة ، وقد خالط كثيراً من مترجمى الفرس والسريان ، فقرأ جميع ما ترجموا إلى العربية ، وأحاط بجميع الثقافات المختلفة من عربية وفارسية وهندية و يونانية . وقد ساعده على الإحاطة بهذه الثقافة المتعددة ذهن وقاد ، وشغف بالعلم لا مزيد عليه ، فقد كان مغرماً بالاطلاع ، حتى أنه لم يكن يقع فى يده كتاب إلا استوعبه قراءة أو استظهاراً ، فقد بلغ من شغفه بالعلم أن كان يستأجر دكاكين الوراقين ، يبيت بها ليطالع ما فيها من الكتب .

وهناك نوع من الثقافة لا يؤخذ من الكتب والدفاتر اكتسبه الجاحظ من تنقله فى البلاد ، فقد نشأ فى البصرة وعاش فى بغداد زمنا ، وارتحل إلى دمشق وانطاكية . واتصل بجهود الناس فى كل ذلك ، اتصالا دقيقا ، فهو جليس الخلفاء والوزراء والكتاب وهو أيضا يجالس إلى الباعة والكناسين والحواة والمجانين ، وكان يتعرف إلى بداة الأعراب ، كما كان مصادقا للترك والروم والسنديين ، وكان يجالس الشيوخ ، كما يجالس الصبيان . كل هذا أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وطرق معايشهم وفضائلهم ورذائلهم ، مما كتبه أغزر مصدر لدارسى الحياة الاجتماعية فى عصره ، على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية .

خصائص إنتاجه:

بهذه الكفاية الممتازة من الثقافة الراقية والخبرة الواسعة والملاحظة الدقيقة والذكاء المفرط والفكر الحر الطليق أخذ الجاحظ يسجل آراءه فى الدين والأدب والتربية والفلسفة والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

١ — وأول ما يطالعنا من هذا النتاج وفرته ، وأبوابه الكثيرة المتنوعة فأنت حين تقرأ للجاحظ تجده قد كتب فى كل ما يجـــول فى نفس الإنسان أو يمر بذهنه : كتب فى الأجناس البشرية وفى النبات والحيوان ، وتحدث عن البخلاء ، وعن الحاسد والمحسود ، وألف فى حيل اللصوص ، وغش الصناعات ، وتكلم عن الطوائف الدينية وموضوعات المتكلمين ، ورد على الشعوبيين وألف فى الكيمياء والمعادن والطب فكأنه لم يترك شيئا يخطر ببال الإنسان إلا وضع فيه مؤلفـــا أو رسالة ، فهو دائرة معارف حية .

٢ — اختيار الموضوعات الشهية التى لم يكتب فيها أحد من قبله ، ولم يخطر على البال التأليف فيها ، فمن ذا الذى يخطر على باله أن يكتب فى حيل اللصوص وغش الصناعات ؟ .

٣ — ويبدو فى مؤلفات الجاحظ فوضى التأليف والاستطراد الذى لاحد له ، فقد كان الجاحظ لا يحده موضوع ، ولا يضبط له خاطر ، ولا يعرف إلا المعانى تنساب عليه من شعاب الفكر . فبينما يتحدث عن المجوس ونارهم إذا به ينتقل إلى الأدب والشعر ثم يعرج على الفلسفة والحكمة ، ولا يفوته أن يقدم لك خلال هذه الرحلة الفكرية الشاقة نادرة تضحكك ، وتنسيك الجهد والعناء ، وقد يعود إلى ما بدأ من جديد ، وربما أنساه الاستطراد ، ما بدأ ، وهكذا الجاحظ فى تأليفه يخلط الجد بالهزل ، ويمزج الأدب بالفلسفة ، وقد أقدره على ذلك ثقافته الواسعة المنوعة .

٤ — وتمتاز كتب الجاحظ بأنها تعرض على قارئها صورة الحياة فى العصر العباسى فيعرف من خلالها الثقافة الفكرية التى كانت تموج بها مكتبات بغداد والبصرة والكوفة ومصر ، وترسم لنا الحياة السياسية التى كان يحياها القوم من عرب وفرس وترك وتأخذ بيدك فى تصوير الحياة المدنية ، حتى كأنك تعايش العباسيين وتشركهم فى نظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية وغير ذلك من دقائق الحياة التى انتبه الجاحظ إليها انتباها دقيقا ، ولذلك كان الجاحظ فى كتبه ممثلا للحياة العباسية فى عصره أدق تمثيل ، أهله لذلك اهتمامه بتسجيل الحياة اليومية ، وذكر أخبار معاصريه ، ونوادرهم : عظماء أو سوقة ، شيوخا أو شبانا ، عقلاء أو مجانين ، فلن نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنه رسام ذلك العصر .

آثاره :

خلف الجاحظ مؤلفات عديدة ، مختلفة الضخامة ، متنوعة الموضوع منها ما هو مطبوع ، ومنها ما لم يطبع بعد . وتنقسم إلى كتب مصنفة و إلى رسائل تختلف طولا وقصرا . فأما الكتب فمنها : —

١ — البيان والتبيين ، فى البيان والبلاغة والخطابة والشعر والاسجاع ونماذج من الوصايا والرسائل ، وضروب من النوادر والمختارات البلاغية ، طبع هذا الكتاب طبعات مختلفة آخر طبعة للجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة من سنة ١٩٤٨ـ ١٩٤٩ فى أربعة أجزاء .

٢ — كتاب البخلاء : وهو يتناول البخل والبخلاء ، مستمدة صوره وقصصه من مجتمعه . طبع مرات كثيرة آخرها طبعة دار الكاتب المصرى ، بالقاهرة سنة ١٩٤٨ .

٣ — كتاب الحيوان : حرر هذا الكتاب موسوعة للثقافة العربية فى العصر العباسى ، إذ ليس مقصورا على الحيوان فحسب ، كما يوهم اسمه ، ولكنه يحوى طائفة كبيرة من المسائل الفلسفية ، والمعارف الطبيعية وتأثير البيئة فى الإنسان والحيوان والنبات ، ويعرض لبعض قضايا التاريخ ويتحدث عن الطب والأمراض ، وعن العرب والأعراب وأحوالهم وعاداتهم ومزاعمهم وعلومهم ،وفيه صفوة مختارة من الشعر العربى وطائفة صالحة من الأمثال والنوادر والفكاهات . طبع بمكتبة مصطفى البابى ، الحلبى بالقاهرة فى سبعة أجزاء من سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥ .

وللجاحظ ، عدا ما تقدم ، رسائل لا تصل إلى درجة المؤلفات السابقة فى الأهمية : —

مثل رسالة فى « مناقب الترك » طبعت فى مصر سنة ١٨٩٨ ثم فى ليدن بعد ذلك ومنها « الحاسد والحسود » و « فخر السودان على البيضان » ورسالة « التربيع والتدوير » وغيرها من الرسائل التى تتناول شئونا مختلفة فى الاجتماع والسياسة والفنون والنقد وغير ذلك .

أما ما لم يطبع من مؤلفات الجاحظ فعدد كبير ذكره فى مقدمة كتاب الحيوان كما أشار إليه بعض مؤلفى كتب التراجم ، منها : كتاب النبى والمتنبى ، كتاب المعرفة ، كتاب الرد على أصحاب الإلهام ، كتاب نظم القرآن وغيرها .

ولعلو شأن الجاحظ ، وسمو مكانته العلمية والأدبية ، نسبت له كتب ليست من تأليفه ثم طبعت تحمل اسمه نذكر منها : كتاب المحاسن والأضداد ، طبع فى ليدن سنة ١٨٩٨ ثم فى مصر سنة ١٩٠٦ ، وكتاب التاج فى أخلاق الملوك ، طبعة سنة ١٩١٤ .

مدرسة الجاحظ :

يعتبر الجاحظ بحق إمام المدرسة النثرية الثانية فى الأدب العربى ، تلك المدرسة التى أعقبت مدرسة ابن المقفع ، وسعدت بما فاض على العربية من ألوان الثقافات المختلفة ، وما طرأ على العرب من حضارة وتقدم ، فكان لابد لها أن تكيف أساليبها لتلائم تقدم الحضارة ، وتنوع الثقافة فقام الجاحظ بسن هذا الأسلوب الجديد الذى يوائم عصره ، ويقوم على الإطناب والمزاوجه والترادف ، وإتباع الشيء بمثله ، والقرين بقرنه فى فقرات يغلب أن تكون قصيرات .

وصف الكتاب :

١ — فى هذه الرسالة يعرض علينا الجاحظ صورة لثقافة القرن الثالث الهجرى بعد أن أمدتها روافد الثقافات الأجنبية عن طرق الترجمة ، وجهود الموالى الذين

نبغوا فى الكتابة العربية ، وبعد إملاء المكتبات بكتب الأوائل وتجاربها ، وتأثر الكتابة العربية بتصورات الأمم الأخرى فى البيان والبلاغة .

٢ — وهو إذ يصف الكتاب إنما يدل بذلك على مبلغ اهتمام القوم بالقراءة والكتب ، حتى صار ذلك ظاهرة كبيرة الشأن فى حياتهم ، جديرة بأن يعقد لهـا الجاحظ رسالة خاصة ، يصدر فيها عن خبرة مباشرة وميل صادق إلى القراءة والكتب .

٣ — وقد برع الجاحظ فى وصف الكتاب براعة لا يلحق فيها واستطاع أن يشيع الحياة والحركة فى وصفه بما تخلله من صور بيانية ، فالكتاب بستان وروضة ، وهو وعاء علم ، وإناء ظرف ومزاح ، وقد ارتقى فى وصفه وتخيله فخلع عليه الكثير من صفات الأحياء ، فجعله صديقا وسميرا وجارا وصاحبا ونفى عنه كل ما يشوب علاقة الإنسان بهؤلاء .

٤ — وهذه القطعة تصور طريقة الجاحظ فى الكتابة ، فهو ينتقى الألفاظ الفصيحة الجيدة ، ويبعد عن الغريب منها ، ويحسن وضع الكلام فى مواضعه فلكل معنى شريف أو وضيع ضرب من اللفظ هو حقه ونصيبه ، وهو بارع فى التصرف فى المعانى والألفاظ معا ، وهو يلح فى إبراز الفكرة بكثير من الجمل المترادفة ، ويدعمها من كل طريق ممكن ، مستعينا على كل ذلك بثقافاته الواسعة ، وخبراته المحيطة بالناس والأشياء ، والجاحظ ولوع باستقصاء المعانى واعتصارها اعتصارا لا يترك فيها لمن بعده شيئا ، وهو ينوع فى أسلوبه ، فينتقل بالقارىء من الإخبار إلى الإنشاء .

وفى القطعة موسيقى ، منشؤها اتزان العبارات ، وتساوى الجمل والازدواج والسجع . وقد برع فيما أتى من مفارقات فى وصف الكتاب أساسها الطباق ، فالكتاب واعظ مله ، وناسك فاتك ، وناطق أخرس .

المنتخبات

من رسالته فى الكتاب :

« الكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشى ظرفا ، و إناء شحن مزاحا ، إن شئت كان أعيا من باقل[١] و إن شئت كان أبلغ من سحبان[٢] وائل ، و إن شئت سرتك نوادره وشجتك[٣] مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ، و بناسك[٤] فاتك ، وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى ، وروى هندى ، وفارسى يونانى ، وقديم مولد ، وحبيب ممتع ، ومن لك بشىء يجمع الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

و بعد فما رأيت بستانا يحمل فى ردن[٥] وروضة تنقل فى حجر ينطق عن الموتى و يترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى ، وآمن من فى الأرض وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ، ولا أعلم صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالا

(١) باقل : رجل اشتهر بالعى وأصبح مضرب المثل فيه .
(٢) سحبان : أحد خطباء العرب وبلغائها وهو من قبيلة وائل .
(٣) شجاه الأمر وأشجاه : أحزنه وأطربه .
(٤) الناسك : العابد .الفاتك : الجرىء .
(٥) ردن : أصل الكم .

وإبراما ولا أبعد من مراء[١] ولا أترك لشغب[٢] ولا أزهد فى جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب .

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا[٣] ووروده خمسا[٤] ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ، والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يقليك[٥] ، والرفيق الذى لا يملك ، والمستمع الذى لا يستزيدك ، والجار الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق .

---

(١) المراء : كثرة الجدل .

(٢) الشغب : تهييج الشر .

(٣) الغب فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، وأغب القوم جاءهم يوما وترك يوما .

(٤) الورد : قصد الماء والاشراف عليه . والخمس : أن ترعى الابل ثلاثة أيام وترد الما لتشرب فى الرابع .

(٥) يقليك : يهجرك .

موضوعات للبحث

١ — كانت غاية الجاحظ إصلاح تلك الفئة من الناس التى اتخذت البخل مذهبا تؤيده عن عقيدة أو عن تمويه ، وهو وإن ذم البخل وأوضح مفاسده ، لا يغفل عن تحسين الاقتصاد . ناقش .

٢ — حيوانات الجاحظ حيوانات طبيعية ، وحيوانات ابن المقفع حيوانات رمزية ، وازن بين الاثنين من حيث الفن الأدبى ، وأثره .

٣ — قيل إن كتاب الحيوان أقرب إلى الأدب منه إلى العلم من ناحية موضوعه ، وأقرب إلى العلم منه إلى الأدب من ناحية أسلوبه ـ ناقش .

المراجع

١ — دراسات أدبية : عبد القادر الخلادى وآخرون

٢ — البخلاء : الجاحظ

٣ — كتاب الحيوان : الجاحظ

٤ — الفن ومذاهبه فى النثر : الدكتور شوقى ضيف

٥ — الجاحظ معلم العقل والأدب : شفيق جبرى

٦ — أدب الجاحظ : حسن السندوبى

٧ — الجاحظ : خليل مردم

٨ — فن القصص فى كتاب البخلاء : محمد المبارك

٩ — أمراء البيان : محمد كرد على

١٠ — تطور الأساليب النثرية : أنيس المقدسى

٢ – من صور البخلاء (*)

قال أصحابنا المسجديون :

اجتمع ناس فى المسجد ، ممن ينتحل[1] الاقتصاد[2] فى النفقة والتثمير[3] للمال ، من أصحاب الجمع[4] والمنع[5] ، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب[6] الذى يجمع على التحاب[7] ، وكالحلف[8] الذى يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا فى حلقهم ، تذكروا هذا الباب ، وتطارحوه[9] وتدارسوه التماساً[10] للفائدة واستمتاعاً بذكره .

فأقبل عليهم شيخ فقال :

هل شعرتم[11] بموت مريم الصناع[12] فإنها كانت من ذوات الاقتصاد .

(*) كتاب البخلاء للجاحظ : تحقيق الحاجرى . طبع دار الكاتب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٤٨ ص ٢٤ ، ٢٥

المسجديون : قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال ترددهم عليه فعرفوا به ونسبوا إليه . وكانوا خليطا من الناس فيهم الشاعر والراوى ومصطنع الحكمة ، يأخذون من الثقافات ، التى كان يزخر بها مسجد البصرة ما يوائم أمزجتهم : وقد أسهموا فى الحياة الأدبية بنصيب وافر ، وممن اتصل بهم أبو نواس والجاحظ .

(١) ينتحل : يدعى لنفسه (٢) الاقتصاد : الاعتدال فلا إسراف ولا بخل ، ولكن المراد هنا البخل (٣) التثمير للمال : استغلاله للحصول منه على ربح (٤) الجمع : جمع المال (٥) المنع : حبس المال عن الانفاق (٦) النسب : القرابة من ناحية الأبوة (٧) التحاب : النخبة المتبادلة

(٨) الحلف : التعاهد . (٩) التناصر أن ينصر بعضهم بعضا . حلقهم : بكسر الحاء وفتحها جمع حلقة وقد كانوا يجلسون معاً فى شكل حلقة . تطارحوه : طرح بعضهم لبعض الكلام فيه وأصل الطرح الرى . (١٠) التماسا : طلبا

(١١) شعرتم : علمتم (١٢) الصناع : الماهرة .

وصاحبة إصلاح[١] . قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادرها كثيرة وحديثها طويل ولكنى أخبركم عن واحدة فيها كفاية . قالوا : وما هى ؟ قال :

زوجت ابنتها وهى بنت اثنتى عشرة سنة ، فحلتها[٢] الذهب والفضة ، وكستها المروى[٣] والوشى[٤] والقز[٥] والخز[٦] ، وعلقت المعصفر[٧] ودقت[٨] الطيب وعظمت أمرها فى عين الختن[٩] ورفعت من قدرها عند الأحماء[١٠] فقال لها زوجها : أنى لك هذا يامريم ؟ قالت : هو من عند الله . قال : دعى عنك الجملة[١١] ، وهاتى التفسير ، والله ما كنت ذات مال قديما ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك[١٢] إلا أن تكونى قد وقعت على كنز[١٣] .

---

(١) صاحبة إصلاح : يريدون مدبرة للمال ، مصلحة للمعاش .

(٢) فحلتها : زينتها .

(٣) المروى : النسيج المروى نسبة إلى مرو من بلاد فارس .

(٤) الوشى : المنقوش المزركش فى الثياب .

(٥) القز : الحرير .

(٦) الخز : وبر ولد الأرنب وكانت تصنع منه ثياب غالية ناعمة .

(٧) علقت المعصفر : العصفر نبات أصفر تصبغ به الثياب فالمعصفر ما صبغ بالعصفر والمعنى أنها اتخذت الستائر من المنسوجات المعصفرة .

(٨) دقت الطيب : كانوا يدقون المسك والعنبر والزعفران إعداداً لعمل الطيب (الروائح الذكية) . (٩) الختن : أقارب المرأة .

(١٠) الأحماء : جمع حم وهو قريب الزوج .

(١١) الجملة : عدم التفصيل .

(١٢) بعلك : زوجك .

(١٣) وقعت على كنز : وجدته .

وكيف[١] دار الأمر فقد أسقطت[٢] عنى مؤنة[٣] ، وكفيتنى[٤] .

هذه النائبة ، قالت : اعلم أنى منذ أن ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة[٥] ، وكلنا ـ كما قد علمت ـ نخبز فى كل يوم مرة ، فإذا اجتمع من ذلك مكوك[٦] بعته . قال زوجها : ثبت الله رأيك وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كنت له سكنا[٧] ، وبارك لمن جمعت له إلفا[٨] ولهذا وشبيهه[٩] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذود[١٠] إلى الذود إبل » . وإنى لأرجو أن يخرج ولدك على عرفك[١١] الصالح ، وعلى مذهبك[١٢] المحمود وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله فى عقبى[١٣] من هذه الطريقة[١٤] المرضية .

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها ، وصلوا عليها ، ثم انكفئوا[١٥] إلى زوجها فعزوه على مصيبته وشاركوه فى حزنه .

---

(١) وكيف دار الأمر : وعلى أى حال .

(٢) أسقطت عنى : حملت عنى وخففت . (٣) مؤنة . حملا على .

(٤) كفيتنى هذه النائبة : قمت عنى بالتدبير لهذه الحالة الشديدة

(٥) حفنة : ملء الكفين . (٦) مكوك : مكيال قديم .

(٧) سكنا : راحة واطمئنانا ، والمرأة سكن زوجها لأنه يجد راحته معها .

(٨) الإلف : من تألفه (تحبه وتصاحبه) .

(٩) وشبيهه : أى من أعمال الاقتصاد .

(١٠) الذود إلى الذود إبل: الذود العدد من الإبل من الثلاث إلى العشر . الإبل : الجمال . والمعنى القليل إلى القليل كثير .

(١١) عرفك : أصلك ، ومعنى الجملة كلها :يرجو أن يرث أولادها منها حسن التدبير والقصد فى المعيشة . (١٢) مذهبك : طريقتك .

(١٣) عقبى : أولادى . (١٤) هذه الطريقة : طريقة تدبير المال .

(١٥) انكفئوا : رجعوا .

٣ — ومن رسالته فى الحاسد والحسود

« ولقد كان إخوة يوسف علماء حلماء ، ولدهم الأنبياء فخانوا العهود ، وألقوه فى غيابة الجب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، فَبِظُلمهم يوسف ظلموا أباهم ، طمعاً أن يخلو لهم وجه أبيهم ، فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسست ــ رحمك الله ــ من صديقك بالحسد ، فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء له على مسالمته ، وحصن سرك منه تسلم من شذا[١] شره و بوائق[٢] ضره ، و إياك والرغبة فى مشاورته ، ولا يغرنك خدع ملقه .

فما هذا العفاء ، وما هذا الداء العياء[٣] ؟ كأنك لم تقرأ المعوذة[٤] أتطلب ــ ويحك ــ أثراً بعد عين ، أو عطراً بعد عروس ، أو تريد أن تجتنى عنبا من شوك ، أو تلتمس حليب لبن من جمل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحمق من الضبع ، إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتعوج بعد ما قومناك ، وتبلد بعد ما ثقفناك ، فنعوذ بالله من الخذلان ، أحسن ما تكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ماتكون عيالا ، وأعظم ما تكون ضلالا ، وأفرج ما يكون بل أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ماتكون من الناس حمداً فإذا كان الأمر على هذا ، فمجاورة الأموات ومخالطة الزمنى[٥] والاكتنان مالجدران ، أهون من معاشرته ، والاتصال بحبله .

(١) شذا : رائحة .
(٢) بوائق : جمع بائقة وهى الهلاك
(٣) العياء : الذى لا شفاء منه .
(٤) سورة : قل أعوذ برب الفلق ويقوها الإنسان منعا من الحسد .
(٥) جمع زمن بفتح الزاى وكسر الميم وهو المريض الذى طال مرضه .

٤ — وقد كان للجاحظ ـ استعداد للقصص يسوقه حلواً عذبا مستملحاً شهياً و إليك مثلا منه « من كتابه الحيوان »

وفاء الكلب :

« خرج رجل إلى الجبّان[١] ينتظر ركابه ، فأتبعه كلب كان له فضرب الكلب وطرده ، وكره أن يتبعه ورماه بحجر ، فأبى الكلب إلا أن يتبعه فلما صار إلى الموضع الذى يريد فيه الانتظار ربض[٢] الكلب قريباً ، فبينما هو كذلك إذ أتاه أعداء له يطلبونه بطائلة[٣] لهم عنده ، وكان معه جار له وأخوه دانيا[٤] فأسلماه وهربا عنه ، فجرح جرحات ، ورمى به فى بئر غير بعيدة القعر[٥] ، ثم حثى عليه التراب ، ثم غطى رأسه ، ثم كم[٦] فوق رأسه منه والكلب فى ذلك يرخم ويهر[٧] فلما انصرفوا أتى رأس البئر ، فما زال يعوى وينبش عنه ، ويحثو التراب بيده ، ويكشفه عن رأسه حتى أشهر رأسه ، فتنفس وردت إليه الروح وقد كاد يموت ولم يبق منه إلا حشاشة[٨] ، فبينما هو كذلك إذ مر ناس فأنكروا مكان الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبر ، فنظروا فإذا هم بالرجل على تلك الحال ، فاستشالوه[٩] ، فأخرجوه حياً ، وحملوه حتى أدوه إلى أهله .

وهذا العمل يدل على وفاء طبيعى ، و إلف غريزى[١٠] ومحاماة[١١] شديدة وعلى معرفة وصبر ، وعلى كرم وشكر ، وعلى غناء[١٢] عجيب ، ومنفعة تفوق المنافع ، لأن ذلك كله كان من غير تكلف ولا تصنع .

---

(١) الجبان : المقبرة (٢) ربض : رقد على بطنه (٣) طائلة : ثأر (٤) دانيا : بتنوين أو بغير تنوين أى دانى القرابة كابن العم والعمة وابن الخال والخالة وابن الأخ والأخت . (٥) القعر : القرار . (٦) كم فوق رأسه : غطى .

(٧) يرخم : يصوت . يهر : يعوى ويصوت (٨) حشاشة : بقيه .

(٩) استشالوه : رفعوه . (١٠) حب طبيعى

(١١) حماية . (١٢) نفع .

الفصل الثالث

حركة الترجمة

وتدوين العلوم فى العصر العباسى

(١) انقضى العصر الأموى بغير أن يدون فيه علم من العلوم ، إلا وريقات فى النحو ، وتفسير للقرآن الكريم رواه ابن عباس عن مجاهد ، وكتيب فى الحديث النبوى وكتيب فى الكيمياء . وسبب ذلك أن المسلمين كانوا يكتفون بالرواية ، ولم تكن الحضارة قد اتسعت اتساعا يتيح الترجمة والتأليف .

(٢) فلما جاء العصر العباسى قوّى اتصال العرب بالأمم الأخرى وتعلم اللغة العربية وأجادها كثير من العجم ولا سيما الفرس وخطت الدولة العربية خطوات واسعة فى مجال الحضارة ، وأراد خلفاء بنى العباس أن يؤسسوا ملكهم على العلم ، وقربوا إليهم العلماء من العرب ومن العجم .

فكان ذلك كله باعثا على العناية بالعلوم ، وعلى التأليف . لذلك كان العصر العباسى العصر الذهبى للعلم والثقافة . وهذه لمحة عن تطور التأليف فى كل علم .

العلوم الشرعية :

العلوم الشرعية هى : الفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام .

التفسير :

(١) فى أول العصر ظهرت كتب فى التفسير ألفها جماعة من التابعين الذين أدركوا

الصحابة وأخذوا عنهم . فألفوا فى غريب القرآن ومتشابهه ، وأسباب نزول آياته وتأويلها ، وقراءته ورسمه .

(٢) ثم جاء محمد بن جرير بن الطبرى المتوفى ٣١٠ هـ فألف كتابه (جامع البيان فى تفسير القرآن) وجمع فيه كل ما صحت روايته عن رسول الله وأصحابه والتابعين وعنه أخذ غيره من المفسرين .

(٣) ثم جاء بعض المفسرين وحرروا الروايات من أسانيدها مثل النقاش الموصلى صاحب (شفاء الصدور) و إبراهيم الثعالبى صاحب (الكشف والبيان).

(٤) ثم اتجه المفسرون وجهات مختلفة ، فاهتم بعضهم بالبلاغة وتأييد مذهب المعتزلة مثل الزمخشرى صاحب (الكشاف) واهتم بعضهم بعلم الكلام والأصول مثل الرازى صاحب (مفاتيح العلوم) .

* * *

الحديث :

اهتم المسلمون بأحاديث الرسول ، لأنها الينبوع الثانى للتشريع .

(١) لم تدون فى أول الأمر ، حتى لا تلتبس بالقرآن الكريم ، واعتمدوا فى حفظها على الرواية .

(٢) انتشرت الأحاديث المكذوبة على النبى ، فأمر عمر بن عبد العزيز بجمع ماصح من أحاديث الرسول .

(٣) فى العصر العباسى كثر الوضاعون للأحاديث ، فكلف أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس سنة ١٤٣ هـ . أن يجمع الأحاديث التى يثبت من صحتها ، فألف كتابه (الموطأ) . وهو باق إلى الآن . لذلك يعتبر أقدم كتاب فى الحديث .

(٤) ثم اتجه بعض المؤلفين وجهة أخرى ، فميزوا الصحيح من الموضوع وجردوا الأحاديث من الأحكام الفقهية ومناسبات التفسير . وأشهر من فعل هذا بعد الإمام مالك إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ . وجاء بعده أحمد بن حنبل فألف كتابه المشهور (المسند) .

ثم ظهر إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ . وهو تلميذ إسحاق ، فطاف البلاد لمعرفة الأحاديث الصحيحة ، وجمع نحو تسعة آلاف حديث بعضها مكرر بتكرر الرواية ، وجمعها فى كتابه : الجامع الصحيح وجاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، فجمع فى صحيحه ما ثبتت صحته من الأحاديث .

ثم ظهر من بعدهم أربعة هم الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة .

(٥) وانصرف المؤلفون بعد هؤلاء الأئمة إلى العناية بكتبهم شرحا وتعليقا ، إلى العناية بالرواة وتوثيقهم أو تجريحهم ، وإلى العناية بالأحاديث من حيث قوتها . ونشأ من ذلك علم مصطلح الحديث .

الفقه وأصوله :

الفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث والإجماع والقياس .

١ — أول الأئمة أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ . وكان يأخذ بالقرآن والحديث وبالقياس . ولم يخلف كتابا فى الفقه ، وإنما دون تلاميذه مذهبه وكان أبو حنيفة بالعراق .

٢ — وبعده بقليل ظهر الإمام مالك فى الحجاز . وقد ألف أول كتاب

فى الفقه ممزوجا بالحديث هو (الموطأ) . وكان لا يأخذ بالقياس ، و إنما يعتمد على القرآن والحديث توفى سنة ١٧٩ .

٣ — ثم ظهر الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، تلميذ مالك . وتنقل من الحجاز إلى العراق إلى مصر . ومذهبه قائم على الأخذ بالقرآن والحديث والقياس ومن مؤلفاته كتاب (الأم) . وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

٤ — ثم ظهر الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ، تلميذ الشافعى . وهو من أكبر المحدثين ، وقد عرفت أنه مؤلف (المسند) .

ومذهبه مبنى على القرآن والحديث وقليل من القياس وتوفى ببغداد سنة ٢٤١ هـ .

٥ — لم يظهر بعد هؤلاء الأئمة من يماثلهم ، لذلك اقتصر المؤلفون بعدهم على الشرح والتلخيص .

٦ — أما أصول الفقه فهو القواعد العامة التى يرجع إليها فى التشريع . وأول من ألف فيه الشافعى ، ثم انتشر فى العراق .

علم الكلام :

علم يبحث فى إثبات العقائد بالأدلة المنطقية والعقلية . كإثبات وجود الخالق والحاجة إلى الرسل ، والجنة والنار .

وكان السبب فى ظهوره أنه بعد الفتح الإسلامى دخل فى الإسلام كثير من المنافقين ، وهاجم هؤلاء العقائد الإسلامية بمشكلات لم يتعرض لها المسلمون من قبل ، واعتمدوا على الفلسفة والعقل ، فرد عليهم المسلمون بالفلسفة والعقل ، لأن هؤلاء المنافقين لا يصدقون بالقرآن والحديث ، لذلك سمى هذا العلم بعلم الكلام ، لأنه يعتمد على كلام الناس .

ومن مباحثه القضاء والقدر . قال بعض العلماء إن الإنسان حر فى تصرفاته وسموا بالقدرية .

وقال آخرون إنه خاضع لقضاء الله وقدره ، وسمى هؤلاء بالجبرية وقد حاول أهل السنة أن يوفقوا بين المذهبين .

والمؤلفات فى علم الكلام كثيرة ، وهى كلها متأثرة بالمنطق والفلسفة اليونانية .

العلوم اللسانية

النحو والصرف :

١ — اختلط العرب بالأعاجم ، وأقبل الأعاجم على تعلم اللغة العربية فابتدأ اللحن يتسرب إلى الألسنة ، فدعت الحاجة إلى وضع قواعد ، وأول ماوضع الوريقات التى وضعها أبو الأسود الدؤلى فى العصر الأموى . وتتلمذ له جماعة من البصرة ، لكنهم لم يتركوا مؤلفات فى النحو .

٢ — ثم ظهرت الطبقة الثانية فى العصر العباسى ، كأبى عمرو بن العلاء الذى اشتهر بالنحو والصرف واللغة والأدب ، وكعيسى بن عمرو الذى ألف كتابين كبيرين فى النحو هما (الجامع و الاكمال) .

٣ — ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٤ هـ ، وهو أستاذ النحاة جميعا ، وعليه تلقى سيبويه علم النحو .

كان الخليل عبقريا بمعنى هذه الكلمة ، فهو الذى بسط النحو ، وهو المصدر الذى استقى منه سيبويه مادونه فى كتابه المشهور (الكتاب) . وهو الذى ابتكر الشكل الحالى ، وألف أول معجم سماه كتاب العين . وألف فى الموسيقى ، وابتكر أوزان الشعر العربى .

ومن تتلمذ للخليل سيبويه والأصمعى :

٤ — ثم ظهر المذهب البصرى والمذهب الكوفى ، فالبصريون اعتمدوا على السماع والرواية لقربهم من البادية ، والكوفيون آثروا القياس لبعدهم عن فصحاء الأعراب ، لكثرة اختلاطهم بالأعاجم .

ثم ازدهر المذهب البغدادى ، وهو وسط بين المذهبين .

ومؤلفات النحو كثيرة جدا .

اللغـــــة :

١ — اهتم العرب بجمع اللغة كما اهتم المستعربون ، ليعرفوا وليفهموا القرآن الكريم .

ومن أسبق العلماء إلى ذلك أبو عمرو بن العلاء والأصمعى وابن الأعرابى والكسائى . وكان بعضهم يتلقى من الأعراب الوافدين على المدن ، و بعضهم يرحل إليهم و يعاشرهم ، وكانوا يقيدون فى أول الأمر من غير ترتيب خاص .

٢ — ثم جاءت مرحلة جمعت فيها الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، فمثلا ألف ابن الأعرابى كتابا عن البئر وصفاتها . وآخر فى الخيل وأنسابها ، وثالثا : فى الأنواء . وألف الأصمعى كتابا فى الميسر والأقداح ، وكتابا فى الإبل والشاة .

٣ — ثم جاءت الخطوة الثالثة فكان تأليف المعاجم . وأول معجم ظهر هو كتاب (العين : المنسوب إلى الخليل بن أحمد . ظهر بعد وفاته بأربعين سنة ، وقد رتب على حسب مخارج الحروف من الفم ، مبتدئا بحروف الحلق ، وأولها العين ، ومنتهيا بحروف الشفتين . و يظهر أن الكتاب من إملاء ـ الخليل على تلاميذه ، ولم يكن قد أتمه ، فأتمه تلميذه ، ونسبه إلى الخليل .

ثم ظهر كتاب ابن دريد المسمى (الجمهرة) وكتاب الأزهرى (التهذيب) . ثم توالت المعجمات كالمحيط للصاحب بن عباد ، والصحاح للجوهرى والقاموس للفيروزبادى ، وأساس البلاغة للزمخشرى .

العروض والقافية :

ابتدع الخليل بن أحمد علم العروض ، فحصر الأوزان فى خمسة عشر بحراً ثم زاد الأخفش بحراً .

أما القافية فقد فصل الخليل القول فيها ، وكان بحثه فى الأوزان والقوافى خاتمة البحث إلى اليوم .

البلاغة والنقد :

(١) ألف ابن سلام (طبقات الشعراء) فقسم شعراء الجاهلية والإسلام إلى طبقات ثم ألف ابن المعتز كتاب (البديع) .

(٢) ثم ازدهرت الثقافة فى القرن الرابع : فألف قدامة بن جعفر كتابه (نقد الشعر) وألف ابن وهب (نقد النثر) .

(٣) ثم ظهر كتاب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) لعبد العزيز الجرجانى وكتاب (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى .

واتجه عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ . إلى التفرقة بين علم المعانى وعلم البيان ، فأخرج فى الأول كتابه (دلائل الإعجاز) وفى الثانى كتابه (أسرار البلاغة) . ثم تتابعت كتب أقل قيمة من هذه .

* * *

الأدب :

(١) ابتدىء تدوينه برسائل فى موضوعات خاصة كنقائض جرير والفرزدق ، وكانت هناك جماعة من الرواة أشهرهم حماد جامع (المعلقات) والمفضل الضبى صاحب (المفضليات) .

(٢) فى أواخر القرن الثانى ظهرت طائفة من العلماء توزن وتنقد ، مثل ابن سلام صاحب طبقات الشعراء .

(٣) لما ازدهرت الحضارة العباسية ، ونال الكتاب شأناً عظيما فى الدولة ألفت كتب لهدايتهم مثل (أدب الكاتب) لابن قتيبة .

وبعض هذه الكتب كان حافلا بحكم الفرس والهند واليونان .

(٤) ثم ألف الجاحظ المتوفى فى ٢٥٥ هـ كتاب (البيان والتبيين) وكتاب البخلاء وغيرهما .

وألف أبو فرج الأصفهانى كتابه العظيم (الأغانى) .

وألف ابن قتيبة (عيون الأخبار والشعر والشعراء) وغيرها .

***

التاريخ

(١) عنى المسلمون بالتاريخ ، وكان أول مادونوا منه سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وقد بدأ ذلك فى العصر الأموى ، لكنه لم ينضج إلا فى العباسى .

ومن الكتب التاريخية كتاب (المغازى) للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . وسيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ . وكتاب (الطبقات الكبير) لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

(٢) ومن المؤرخين من أرخ لقطر أو عصر ، كما فعل الأزرقى فى (تاريخ مكة) وابن طيفور فى (تاريخ بغداد) .

(٣) ومنهم من أرخ لحادث معين كما فعل لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٧٠ هـ . فى كتبه عن حروب الردة وموقعة الجمل .

(٤) ثم ظهر التاريخ العام . ومن أشهر علمائه الطبرى مؤلف (أخبار الرسل والملوك) . وابن مسكويه مؤلف (تجارب الأمم) . وهما معاً يسلكان فى تاريخهما مسلك السنين ، فيؤرخان فى كل سنة حوادثها العامة ، وإن لم يكن بينها رابط وإن لم تكمل الحوادث .

العلوم الكونية

الطب :

أول مؤلف فى الطب رسالة كتبها يوحنا بن ماسويه الطبيب النصرانى فى القرن الثانى للهجرة ، وسماها (دغل العين) .

ثم بعد ذلك ظهرت مؤلفات لابن سينا والرازى المتوفى سنة ٣٦٤ هـ . ولهما صورتان تزينان القاعة الكبرى فى مدرسة الطب بجامعة باريس .

وقد نسب إلى الرازى نحو مائة كتاب وثلاثة عشر . وترجم كتابه (الحاوى) إلى اللغة اللاتينية وطبعت ترجمته مراراً ، وكان له أثر عظيم فى أوربا .

أما ابن سينا فقد لقب بالشيخ الرئيس ، وكان فيلسوفاً وطبيباً وله فى الطب كتاب (القانون) وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها ، وأفادت منه أوروبا أيما فائدة .

الفلك :

(١) ترجم العرب أولا كتاب (السند هند) فى عهد المنصور ثم ترجموا

بعض التقاويم الفارسية . ثم ترجموا كتاب (المجسطى) لبطليموس ، وصححوا كثيراً من أخطائه وحسابه وقياسه لمحيط الأرض . وقد أنشأ المأمون مرصداً فلكياً ثم بنى المنصور مرصداً ثانياً .

(٢) من أشهر علماء الفلك أبناء موسى بن شاكر ، والخوارزمى ، وأبوالعباس الفرغانى الذى عمل مقياس النيل عند الفسطاط ، ومن كتبه (المدخل إلى علم الهيئة والأفلاك) وقد نقل إلى اللاتينية والعبرية .

ومنهم البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وقد اشتهر بتعمقه وابتكاره ، وحسبك أن تعلم أنه بحث بحثا علميا دقيقا فى دوران الأرض حول محورها ، وضبط خطوط الطول والعرض وقال عنه العالم المستشرق سخاو : إنه أعظم عقلية فلكية .

* * *

الرياضة :

نقل العرب الأرقام الهندية . ومن أشهر علمائهم محمد بن موسى الخوارزمى واضع أقدم كتاب فى الحساب وفى الجبر ، وقد نقل إلى اللاتينية واعتمدت عليه أوروبا حتى القرن السادس عشر . وبواسطته عرفت أوروبا مبادىء علم الجبر .

* * *

الكيمياء :

العرب أول من أدخل التجربة العلمية على الكيمياء .

اشتهر منهم جابر بن حيان فى القرن الثانى . ويعترف الأوروبيون بأنه كشف عن عدة مركبات . وأبو بكر محمد زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٦٤ هـ . فقد ترك اثنى عشر مؤلفاً فى الكيمياء .

الجغرافية :

(١) اهتم العرب بها لرحلاتهم فى أقطار العالم الإسلامى ، ولامتداد ملكهم شرقا وغربا .

وقد تأثروا بما نقلوه عن الاغريق ولا سيما بطليموس فى كتابه المجسطى كما عرفت ، ومن أشهر علماء الجغرافيا الخوارزمى مؤلف كتاب (صورة الأرض) ، ألحق به خريطة للأرض رسمها بإشارة من المأمون .

وابن خرداذبه مؤلف كتاب (المسالك والممالك) واليعقوبى مؤلف (كتاب البلدان) .

(٢) ثم ظهر كبار الجغرافيين كالاصطخرى وابن حوقل ، والمقدسى ، ولهم مؤلفات عظيمة القيمة ما زالت متداولة .

الترجمة وأثرها

(١) لم يترجم العرب فى العصر الأموى الا كناش أهرون فى الطب ، ترجمها ما سرجويه طبيب مروان بن الحكم ، ونشرها فى عهد عمر بن عبد العزيز فى الناس .

(٢) أما فى العصر العباسى فقد تضافرت الأسباب على العناية بالترجمة ، للمعرفة والثقافة ، وللانتفاع بما خلفت الأمم ، ولبناء صرح الدولة على دعائم من الحضارة ، ولأن كثيرين من الأعاجم حذقوا اللغة العربية فنقلوا إليها من لغتهم ومنهم بختيشوع الكبير رئيس أطباء جنديسابور وابنه ، ونوبحت وابنه ، والبطريق فترجموا له كثيراً من كتب الطب والحكمة والفلك والسياسة . ومن ذلك أن المأمون شجع الترجمة ، حتى لقد ترجم فى عصره أكثر كتب اليونان وما حصل عليه المسلمون من كتب الهند والفرس والنبط ، وصححوا ما كان قد ترجم من قبل ، وأرسل إلى القسطنطينية بعثا ممن يجيدون اليونانية ـ فترجموا ما اختاروه من كتب اليونان .

(٣) أما المترجمون فأشهرهم ابن المقفع ، وهو الذى ترجم للمنصور كثيرا من كتب الفرس فى السياسة وتدبير الملك وسير الملوك والأخلاق ، وترجم من الفارسية أيضاً كتبا يونانية كانت قد نقلت إلى الفارسية فى المنطق والفلسفة .

ثم جاء من بعده الحجاج بن مطر ، ومسلم صاحب بين الحكمة وابن البطريق وحنين بن إسحاق ، فحملوا من القسطنطينية إلى بغداد كتبا يونانية كثيرة وترجموها ، وتعلمها الناس منهم .

(٤) ولاشك أن الترجمة كانت النواة الأولى للتأليف فى العلوم الكونية ، وكانت ذات أثر عظيم فى طريقة التأليف فى كل علم .

لذلك نجد طائفة من العلماء المسلمين انتفعوا بالكتب المترجمة ، وألفوا تأليفا مستقلا ، وظهرت لبعضهم شخصية متميزة ، وأفكار خاصة ، بل نبغ بعضهم نبوغا مازال مثار الاعجاب .

ومن هؤلاء بنو موسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن أشهر رياضى فى هذا العصر) والخوارزمى واضع علم الجبر ومذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب ، والكندى الفيلسوف والرازى والفارابى .

وكما نقل المسلمون عن الفرس واليونان نقلوا عن الهنود ، فقد عرف العرب الهند منذ الجاهلية ، وجلبوا منها المسك والكافور والزنجبيل والسيوف الهندية ثم غزاها المسلمون ، وسبوا من أهلها سبيا عظيما انتشر فى المملكة الإسلامية .

وقد اشتهر من أبناء الهنود فى العصر العباسى جماعة بالعلم منهم ابن الأعرابى وناهيك به علما من أعلام جمع اللغة فى عصر تدوينها ، وقد ترك كتبا فى أسماء الخيل وأنسابها .

وقد عرف العرب أن لدى الهنود علما وفلسفة وحكمة وخبرة بالطب والرياضيات ،

و بخاصة الفلك ، وترجموا من ذلك كتابا زمن أبى جعفر سمى « السند هند » وكان أصلا لمعرفة العرب بالفلك والحساب الهندى والأرقام الهندية وهذه الأرقام التى نقلتها أوروبا عن العرب وسمتها الأرقام العربية .

* * *

أثر النقل من الفارسية فى الأدب :

(١) تأثر النثر العربى بما فى الأسلوب الفارسى من الإسراف فى التأنق والمجاز والبديع وكان الأسلوب العربى القديم يمتاز بالرشاقة والإيجاز .

(٢) أغنى اللغة العربية بمئات الكلمات المتعلقة بالحضارة ، ونظم الحكم ، وحياة الترف وألوان الأطعمة والأشربة ، ومجالس الأنس والطرب وأصناف الورود والرياحين كما اغترف العرب من أمثالهم وأدخلوها فى كتاباتهم من مثل :

« عفو الملك أبقى للملك » و « خاطر من استغنى برأيه » و « الفرار فى وقته ظفر » و « من أوقد نار الفتنة احترق بها » .

(٣) جارى العرب الفرس بالتأليف على مثالهم ، فكتاب : «الصادح والباغم» لابن الهبارية و « سلوان المطاع فى عدوان الاتباع » و « فاكهة الخلفاء » لابن عربشاه كلها على مثال « كليلة ودمنة » الذى ترجمه ابن المقفع .

(٤) وكذلك العهود التى كتبها المسلمون كعهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله فان فيه ملامح كثيرة من عهد أردشير .

أثر النقل من اليونانية :

وجد العرب بعد أن اطلعوا على كتب اليونان أنفسهم أمام كنوز ثمينة زاخرة من العلم ولعل أول أثر لذلك وأوضحه :

(١) أن صارت اللغة العربية لغة العلم ، واستطاعت بما فيها من مرونة أن تعبر عن تلك العلوم التى خلفها اليونان فى الرياضة والفلك والفلسفة والطب والجغرافية أدق تعبير .

(٢) وأن تغنى بمئات من الكلمات الفنية الجديدة ، وأن ترحب بالكلمات الاغريقية التى لم يكن لها نظير فيها كالجغرافية ، والموسيقى والفلسفة والأثير والأكسير والمغناطيس والأرغن — والقيراط ، والأوقية ، وأسماء بعض الأمراض كالبلغم والقولنج إلى غير ذلك من الكلمات الاصطلاحية .

(٣) وما أخذ به علماء الكلام من طرق الجدل اليونانية واستخدامهم المنطق فى الدفاع عن الإسلام بشكل واضح وخوضهم من مسائل ليست من صميم الدين كالبحث فى الجوهر والعرض .

(٤) ووضوح أثر المنطق فى تطور العلوم العربية كما فى النحو حيث أكثر من استخدام آلة القياس والتوسع بوساطتها فى وضع قواعده وعلله وبعض مصطلحاته .

(٥) ومن العلوم التى أثرت فيها الفلسفة اليونانية البلاغة ومن أوائل من خصص بحوثاً فى ذلك علاّمة العرب وكاتبهم أبو عثمان الجاحظ . فقد أدخل أشكال القياس المنطقية فى أساليب البلاغة .

(٦) وفلاسفة المسلمين كالغزالى والكندى وابن رشد إنما قرءوا فلسفة اليونان .

* * *

أثر الهند :

(١) أفاد العرب من الهند بعض آراء فى البلاغة ذكرها الجاحظ فى « البيان والتبيين » ومنها ماسموه : « مقتضى الحال » .

(٢) كما أعجبوا بالقصص الهندى وقد مر بك أن كتاب (كليلة ودمنة) هندى نقل إلى الفارسية ثم نقل إلى العربية كما علمت .

وقصة السندباد كما يدلُّ عليها اسمها هندية الأصل نقلت إلى العربية ، وقد عد ابن النديم فى كتابه « الفهرست » كتباً كثيرة للهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث وقد دل البحث على أن فى كتاب ألف ليلة وليلة قصصاً أصلها هندى .

(٣) ويقال إن التصوف الإسلامى متأثر ببعض نظريات الهنود .

(٤) وعلى العموم نرى المسلمين قد أحاطوا من علم الهند بما وافقهم وأشبع نزعاتهم إلى المعرفة ، ولا سيما الرياضيات والفلك والحكمة والقصص .

موضوعات للبحث

١ — إن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلوم المختلفة عند سائر الأمم المتمدينة فى ذلك العهد ـ ماعدا الناحية الأدبية ـ ناقش .

٢ — اشتدت عناية المسلمين بالجغرافية بنوعيها : الوصفية ، والرياضية الفلكية ، فما البواعث على ذلك ؟ .

٣ — أيهما كان أقوى أثراً فى الأدب العربى ، الآداب الفارسية أم اليونانية ، وما أسباب ذلك ؟ .

المراجع

١ — معالم الفكر العربى : الدكتور كمال اليازجى

٢ — تاريخ الترجمة والحركة الثقافية : الدكتور جمال الدين الشيال

٣ — فجر الإسلام : الدكتور أحمد أمين

٤ — ضحى الإسلام : « « «

٥ — تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان

٦ — تاريخ التمدن الإسلامى : « «

٧ — تاريخ الإسلام السياسى : الدكتور حسن إبراهيم

مقرر النصوص

ثلاثة دروس أسبوعية]

١ — المقرر من الشعر ثلثمائة بيت (٣٠٠) على أن يحفظ منها الطالب مائتى بيت (٢٠٠) والباقى للدراسة .

النمرة	الموضوع	القائل	من	إلى	الصفحة	عددها
١	رثاء	المهلهل	اهاج قذاء	اثار	٩٣	١٥
٢	وصف الفرس	امرؤ القيس	وقد اغتدى	تسفل	١١٢	١٧
	والصيد					
٣	نظرات فى		ندامای	المعمد	١٢٧	١١
	الحياة والموت	طرفة	ارى الموت		١٢٩	٨
٤	حكمة	زهير	سئمت	يحلم	١٤٥	١٦
٥	حكمة وفلسفة	لبيد	بلينا	صانع	١٦٣	١٦
٦	فروسية	عنترة	هلا سألت	اقدم	٢٠٧	٢٩
٧	اعتذار	النابغة	فلا لعمر	بالرفد	٢٢٧	٨
٨	خمريات	الأعشى	وقد غدوت	الغزل	٢٤٣	٧
٩	أسى ولوعة	الخنساء	قذى بعينك	ضرار	٢٩٧	٥
١٠			وان صخرا	اخبار	٢٩٩	٧
	استعطاف	الحطيئة	ماذا تقول	الخبر	٣٢٤	٦
١١	اعتذار ومدح	كعب	نبئت	تهليل	٣٣٩	١٨
١٢	غزل	جميل	ابثين	باخل	٣٦٢	١٥
١٣	غزل	ابن أبى ربيعة	امن آل نعم	تنظر	٣٧٣	٥٤
١٤	مدح وسياسة	الكميت	طربت	مذهب	٣٩٢	١٤
١٥	سياسة	ابن قيس	اقفرت	الاتقاء	٤٠٣	٣٢
		الرقيات				

الرقم	الموضوع	القائل	من	إلى	الصفحة	البيت
١٦	خمريات	الأخطل	كأنى غداة	يتهيّل	٤١٧	١٥
١٧	مدح	الفرزدق	هذا الذى	—	٤٢٧	١٤
١٨	مدح	جرير	أتصحو	مستباح	٤٢٢	١٣
١٩	خمريات	أبو نواس	ودار ندامى	القلانس	٥٧٧	٧
٢٠	زهديات	أبو العتاهية	قطعت ـ مالى أراك	الاشغال ـ عقال	٥٦٥ ٥٦٦	٥ ٨
٢١	رثاء	أبو تمام	كان الذى	مصوتا	٥٨٠	١٣

٢ — المقرر من النثر خمسون ومائة بيت (١٥٠) على أن يحفظ منها الطالب مائة بيت (١٠٠) والباقى للدراسة .

الرقم	الموضوع	القائل		الصفحة	السطر
١	خطبة	قس	الخطبة كلها	٢٥٤	١٥
٢	خطبة	ابن عفان	الخطبة كلها (خطبته التولية)	٤٦٣	١٥
٣	خطبة	ابن أبى طالب	إن الجهاد باب (الخطبة كلها)	٤٦٩	٢٦
٤	»	زياد	الخطبة البتراء كلها	٤٩١	٢٦
٥	دير الجماجم	الحجاج	الخطبة كلها	٥٠٦	٢٦
٦	وصية	معاوية	الوصية كلها	٥١٤	١٧
٧	رسالة	عبد الحميد	رسالته إلى أهله كلها	٥٢٢	١٠
٨	قطعة	ابن المقفع	من الحمامة المطوقة	٦٠٠	١٩
٩	قطعة	الجاحظ	فى وصف الكتاب	٦١٩	١٦

الفهرس

طبع في لبنان